

الدكتورمحمّد جمال طحّان

الأعمال الكاملة للكواكبي



الدكتورمحمّد جمال طحّان

الأعمال الكاملة للكواكبي

حياة المفكّر الثائر وأعماله

دراسة وتحقيق

الكتـــاب : الأعمال الكاملة للكواكبي
دراسة وتحقيق: د. محمـد جمال طحان

الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية

الطبعة الأولى ١٩٩٥

الطبعة السابعة ٢٠٠٦

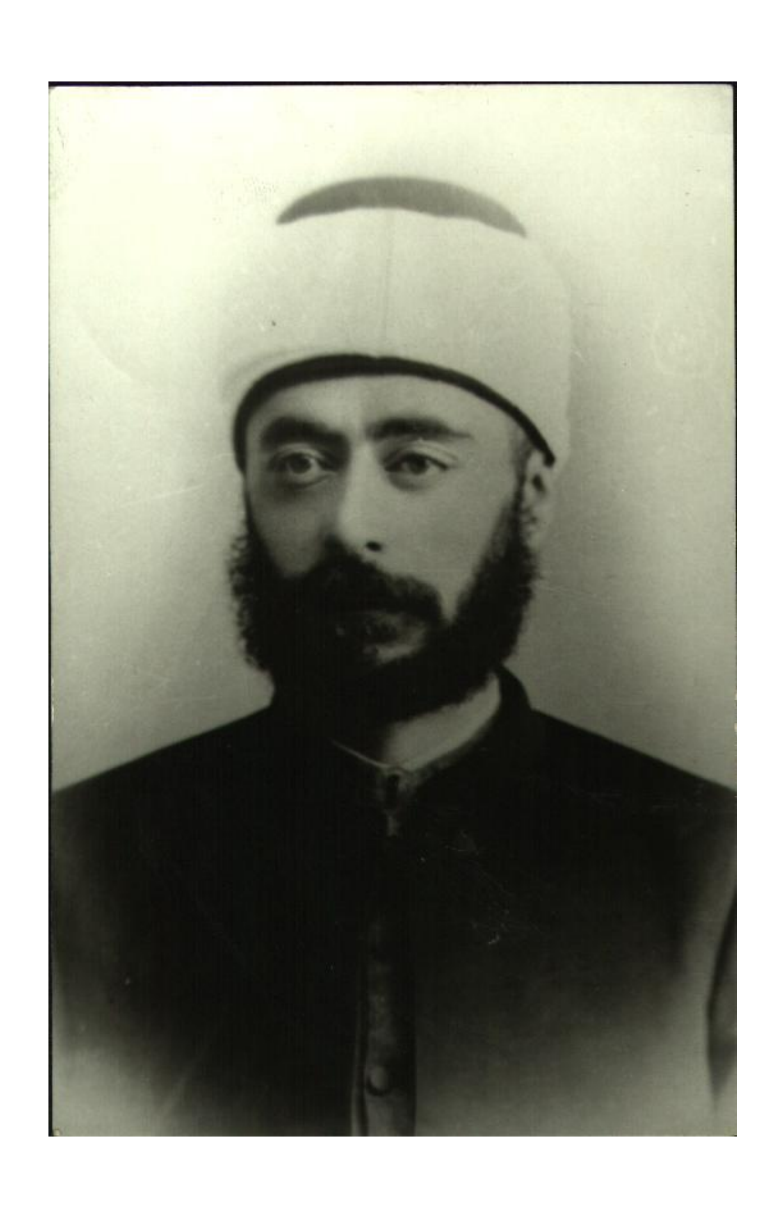
أعيدت طباعته تحت عنوان : أعمال الكواكبي غير الكاملة
دار كلمات – الكويت ٢٠١٥

عنوان المؤلف : سورية – حلب ص.ب ٨٩٩٧ هاتف ٢٢٧٦٠٨٥

٠٩٤٤٩٠٤٧٣٨
الرياض ٠٥٥٣٣٦٨٤٦٨

تركيا ٠٥٣١٩٦٣٣٧٩٩

البريد الإلكتروني : jamaltahhan@gmail.com



المفكر النهضوي الشيخ عبد الرحمن الكواكبي

١٢٧١-١٣٢٠هـ/١٨٥٥-١٩٠٢م



صورة الكواكبي باللباس البدوي

الفهرس

- **الباب الرابع: طبائع الاستبداد**

ومصارع الاستعباد (٣٥١-٥١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى صاحب الفكر المتنوّر ..والأيادي البيضاء التي تحتضن هموم الشهباء ...

إلى أمّنا الرؤوم حلب الشهباء .. التي يظلمها بعض أبنائها بتحميلها أوزار أبنائها العاقّين ، لكنّها – أبداً – تبقى شامخةً مستعصية على الغاصبين.

حلب مضمّخة بنا هي أنثى نرتاح إليها، ومنها نتعلّم .. كانت قبلنا أمّاً ، رضعنا منها حليب عشق رائحة التراب ومن ساروا عليه .. من أزقّتها بزغت طفولتنا يانعة مفعمة بالحياة .. إنه وجه ، والآخر حكاية الحجر المرصوف على شوارعها ، على هديه نمشي ، وبه تتعثّر خطواتنا الأولى .. ثم نعتذر من دمائنا المسكوبة عليه ، لأننا أرقناه بطيش ، ونحنّ إلى بذله من أجل الحرية . لكننا– أبداً– نجبن من أوّل تلويحة لسوط السلطة .

في قلوبنا إيمان عميق .. وفيها أيضا دم يجفّ في رؤية شرطي يمثل الإرهاب الذي تشرّبناه من طول المدة التي استغرقتها رؤوسنا تحت التراب ، إلى الله ندعو أن يمحق النظم الجائرة وأهلها المتسلطين .. حلب حضّرتنا كي نستكين .. وشمخت بقلعتها ساخرة من جبننا ، مرّ بها الكثيرون وغادروا .. سادة ... وأسياداً .. وعبيدا ، ولكنّ السؤال الذي يحفر في وجداننا : ما فائدة أن نصمد تحت السياط إذا كنّا سنبقى تحتها حتّى نموت .. وما فائدة أن نحمل السوط ما دمنا سنخلّف ما جنيناه ونمضي ؟!

وحده الذي يتعلّم من حلب شموخها .. يحفظ تاريخهما معاً .. ويبني ، أو يساهم في بناء حضارتها ، لا لمديح .. إنّما لنشوة العمل الذي يتوّجه الإخلاص . ثم يمضي هانئاً بعد ان " يمضي " بإبهام عريض .

مقدّمة

التراث ليس مشكلة الماضي ، وإنّما هو مشكلة الحاضر الذي ننطلق منه نحو المستقبل . والعودة إلى التراث ، في زماننا العربي هذا ، ذات شجون . وبصرف النظر عن موقفنا تجاه ما نراه مظلماً أو مضيئاً فيه ، تبقى العودة متعِبة ومحزِنة حين نقف أمام من سبقونا بوجودهم ، وبإبداعاتهم أيضاً .

فإذا كان التراث من صنع الإنسان ونتاجاً للنشاط الإنساني في مراحل تاريخية متعاقبة ، فإنّ تفعيله هو أيضاً من صنع الإنسان ومن اختياره . وإذا كان الانتماء إلى التراث لا اختيار لنا فيه ، فإنّ تفعيله فينا وبنا هو من اختيارنا .

والمشكلة التي تؤرّق قارىء التراث أرقاً مزدوجاً ، أنّه سيجد فيه كثيراً من الإجابات عن تساؤلاته ، أو أنّه سيهتدي . من خلاله . إلى كثير من الحلول لمشكلات عصره . وذلك لأنّ المجتمع العربي لم يتغيّر تغيّراً جذريّاً عمّا تركه روّاد النهضة العربيّة ، فما زالت أكثر سلبيّاته قائمة ولم نلحظ فيه من تغيّر سوى استعماله لتقنيات لم ينتجها هو ، ولم يتمكّن من استيعابها بعد .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، وبعد مضيّ قرنين من المحاولات، نتساءل:هل وصلنا إلى أفق مسدود فيما يتعلّق بمسألة الديمقراطيّة ، أم أنّ في جعبة التراث أفكاراً يمكن أن تعبر بنا إلى شواطئ الوحدة والديمقراطيّة والتقدّم ؟ وما الخطوات الآيلة إلى ذلك ؟

سؤال تتجدّد مشروعيّته في ظلّ ما يسمّى بالنظام العالمي الجديد ، والتحوّلات الكونية المتسارعة ، وواقع التجزئة القطري ، حيث لا يعترف أيّ قطر إلاّ بسيادته، ويتغنى بحسن سياسته ، ويعبّر . بشكل أو بآخر . عن فقدان الثقة المتبادَل بين حكّام الأقطار العربية .

وسؤال مهم في عتمة الخطا الحثيثة نحو انهيار الصمود العربي وتقديم سلسلة من التنازلات ، والتهافت المخجِل على المفاوضات مع إسرائيل ، تمهيداً للاعتراف

الرسمي بالكيان الصهيوني في فلسطين ، وتطبيع العلاقات مع من استنزفوا ثروات الأمة العربية وشربوا دماء أجدادنا وأبنائنا ، وكانوا حجّة الاستبداد في كلّ آن .

وسؤال مربك في زمن الشعار الذي ترفعه معظم النظم العربيّة القائمة :

((إنقاذ ما يمكن إنقاذه)) لتمرير التمسّح (بالجوخ) الأمريكي ومصافحة من كان وما يزال أهمّ أسباب عقَدنا النفسيّة .

هذا في حين يجري إغفال دور الديمقراطيّة ودور الجماهير العربيّة في التحرّك السياسي التكتيكي والاستراتيجي ، تحت إبط تراتبية هرميّة قوامها قبول الجماهير بوصاية الحكّام ، وقبول الحكّام بوصاية أمريكا ونظامها العالمي الجديد تحت ستار ((ليس بالإمكان أبدع ممّا كان)).

وتتردّى حال الأمّة من سيّء إلى أسوأ ، مع عدم الاعتراف بأنّ القطريّة قد أثبتت فشلها الذريع بجدارة لا تُحسد عليها ، ومع استمرار الصراع القومي . الديني بين فصائل يجمع بينها الكبت والحرمان ، ويكمن خلاصها في تفجير التعامل مع الواقع باستكانة واستسلام ، وفي شجب التعصّب على أيّ شكل جاء .

من هذه المقدّمة نعبر إلى مغامرة استشفاف المستقبل التي حاولها مفكّرونا ، بناءً على فهم الواقع وفهم التاريخ ، وتأسيساً على فهم الذات وفهم الآخرين . لعلّ التراكم المعرفي يفتح لنا كوّة على مستقبل أفضل . ومن هنا تأتي أهميّة العودة إلى التراث .

فلماذا إذن لا نركب هذا المركب الخشن لنستوعب بعض قراءاتنا ، ونوظّفها بما يخدم الإنسان . إنساننا المطحون حتّى العظام ، خاصّة حين ندرس عصراً أسهم بالتأثير المباشر في عصرنا ، وأنتج بعض أفكارنا ؟!

وحتّى نقرّب الفكرة لأنفسنا ، سنأخذ مثالاً ليس ببعيد : في القرن قبل الماضي، وفي ظروف القهر والجهل والجوع ، وتحت سياط الدولة العثمانية المريضة ، ومع غياب وسائل الاتّصال السريع ، أبدع الكواكبي صحيفتيه ((الشهباء)) و ((اعتدال)) بتمويل ذاتيّ وجهد فرديّ ، حيث كان الكاتب والطابع والموزّع . كما ألّف

((أم القرى)) بشكل روائي جعل كثيراً من الباحثين يظنوّن أنّه سجلّ لوقائع حقيقية . ووضع ((طبائع الاستبداد)) مبيّناً علاقاته المختلفة .

فكم واحداً منّا . نحن العرب المعاصرين . يستطيع أن يحرّك الفكر من حوله بمقدار ما حرّكه الكواكبي ؟

وهل نحن عاجزون ، في ظل الاستقلال والتقنيّة الحديثة ، عن إنجاز ما فعله أجدادنا ؟ ولماذا ؟ أتراها الهجمة المستعِرة على الاستهلاك ، أم هو الاستبداد الذي يطبق على أفكارنا بحيث نعجز عمّا استطاعه مفكّرو القرن الماضي ، بالرغم من ظروف القهر والتخلّف ؟

والكواكبي واحد من أجدادنا الأفذاذ . رواد النهضة الذين حاولوا النهوض بالواقع إيماناً منهم بمسؤوليّة العلماء في توعية الناس ليقدروا على المطالبة بحقوقهم بعد أن يدركوا أنّهم بشر أحرار في صنع مصائرهم .

وبالرغم من أنه واحد من القلائل الذين تُذكر أسماؤهم في الكتب المدرسيّة ، نكاد لا نعثر إلاّ على عدد ضئيل ممن يعرفون إسهاماته في محاولة النهضة العربية تحت لواء علم عربي واحد ، لا يتعارض وجوده مع رابطة تضمّ الشعوب الإسلاميّة ،ولا يتنافى ودخول العرب في تحالفات مختلفة مع الآخرين . وكثير منهم لا يعرفون صيحاته التي تندد بالاستبداد ، وتدعو إلى تحرير العقول من الجمود ، وتطالب بضرورة الاجتهاد في الإسلام الذي وُجد من أجل سعادة الإنسان.

ذلك كلّه يمنح هذه الدراسة ، مشروعيتها ، عسى أن ينتفع بها الباحثون ، ويتعرّف القرّاء عموماً . من خلالها . إلى واحد من أهم مفكّرينا القوميّين المتنوّرين الإسلاميين في القرن قبل الماضي .

صحيح أنّها ليست المرة الأولى التي نتعرّض فيها للكواكبي ، فقد أنجزنا أطروحة عنه في جامعة القديس يوسف ، كما أنّ اتّحاد الكتاب العرب نشر لنا

دراسة مطوّلة عنه [1]،ولنا دراسةمطولةفي كتاب رصد أعمال الندوة الدولية التي أقيمت بمناسبة اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠٠٦ وصدر من تحريرنا تحت عنوان "رؤى المفكر النهضوي عبد الرحمن الكواكبي"–الكتاب الأول في سلسة كتب الاحتفالية.

فضلاً عن دراسات كثيرة متفرقة نُشرت لنا في كثير من الدوريّات العربيّة ؛ لكنَّ العمل هنا مختلف ، ويغطي جوانب لا يمكن أن يغطيها أيّ عمل آخر ، وهو كتاب ***يصدر بمناسبة تسمية حلب عاصمة للثقافة الإسلاميّة*** *إنّنا نقدّم . هنا . نبذة مختصرة عن حياة الكواكبي ، وأعماله ، وعصره ؛ مبيّنين تأثيره . بعد ذلك نقدم وصفاً لأعماله ، ونقدّم ، أخيراً ، دراسة تحليلية لأعماله الكاملة ، عسى أن يوفّر ذلك للباحثين كثيراً من الجهد والوقت .*

وقد اكتنفت عملي هذا صعوبات كثيرة ، أهمّها الصبر على واقع المثقّف العربي الذي لديه الخيار في أن يموت ((شهيداً)) ، أو أن يعيش ((شهيداً)).

وإنّني مدين بالشكر لمن ساعدوني على تجاوز كثير من الصعوبات لإنجاز هذا العمل .

جمال

(١) محمد جمال طحّان ، الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي ، دمشق ، اتّحاد الكتّاب العرب ، ط١ ، ١٩٩٢ ، ٥٧٤ ص .

الباب الأوّل :

حياته وأعماله

الفصل الأول

عصره وحياته

العصر والمؤثّرات

عندما تتاح لشخص فرصة معاشرة الكواكبي من خلال كتاباته، يستطيع أن يشعر بآلامه وطموحاته وهو يكابد ويكافح لإنشاء صحيفته، ثم يتفانى في العمل من أجل إخراج كلّ من أعدادها، من خلال عمله محرّراً ومشرفاً على الطباعة والإخراج والتوزيع، ثم يواجه زبانية السّلطة الذين يحرّمون التفكير لأنّهم محرومون من العقول .

قد تختلف مع الكواكبي وقد تثني عليه، ولكنّك، في الأحوال كلّها، لن تتمكّن إلاّ أن تحبه .

رجل يخلص لذاته، أوّلاً، فيقوده ذلك إلى الإخلاص لأمّته ... يختار العمل الصعب ويتمتّع به، لأنّه اختار أن يدافع عن المظلومين، وأراد أن يرفع الوعي لدى أناس هدّهم الاستبداد من خلال تعزيزه الجهل والتخلّف والفقر ..

لقد قدّم لنفسه وللآخرين أقصى ما يستطيع، وحسبه فخراً أنّه حاول . ولم تكن محاولته فاشلة بدليل أنّنا نعيد إحياء أفكاره من جديد .

نشأ عبد الرحمن الكواكبي في حلب عندما كانت ولايةً في السلطنة العثمانيّة المريضة التي دخلت في طور الانحلال، بعد أن تراكمت ديونها واستفحل الفساد فيها .

وقد عانت حلب ما عانته أجزاء السلطنة الأخرى من الظلم والفساد، في ظل استبداد (عبد الحميد الثاني) الذي تمسّك بمركزيّة الإدارة، وحوّل الجيش عن وظيفته الأساسية، من الدفاع عن السلطنة إلى الدفاع عن أمنه الشخصي، مستعيناً على ذلك بشبكة من الجاسوسية الأخطبوطية، وبفرض رقابة مشدّدة على المطبوعات .

لقد جسّد الحكم الحميدي الاستبداد، إذ عدّ كلّ ما في السلطنة، ومن فيها، ملكاً للسلطان .

ومع بداية القرن التاسع عشر الميلادي اشتد الركود الاقتصادي والتخلّف الفكري والفساد الاجتماعي، وأدّى ذلك إلى قيام بعض الحركات المناوئة للسلطة المركزية . في حين تفاقمت الأطماع الأوروبية التي خطّطت لاقتسام جثة (الرجل المريض) . ومع التدخل الأوروبي تصاعد احتكاك العرب بأفكار التنوير الأوروبية وبدؤوا يجرون مقارنة بين السياستين : العثمانية والأوروبية .

وساعدت مدارس البعثات التبشيرية، كما ساعد الموفدون الذين أرسلهم (محمد علي) إلى أوروبا، على تفتّح أذهان العرب على الحضارة الجديدة .

وكان لانتشار الصحافة، وتشكيل الجمعيّات، الأثر الكبير في توسيع رقعة الوعي وإيقاظ الرغبة في الحرية . فشعر مفكّرو النهضة بضرورة المحاربة على ثلاث جبهات : طغيان الحكم العثماني من جهة، وفكروية العصور الوسطى المظلمة من جهة ثانية، وخطر الحضارة الغربيّة الغازية من ناحية ثالثة . ولمجابهة تلك التحديات ظهرت في الفكر العربي النهضوي ثلاثة اتجاهات رئيسة : العقلية الدينية السلفية التي رفضت الغرب كلّياً، وانكفأت إلى التراث العربي . الإسلامي، بقصد حماية الإسلام ومجابهة الغرب .

ثم التغريبيون الذين رأوا الحلّ متمثّلاً في استيراد منجزات الغرب وإهمال التراث . والاتجاه الثالث نادى أصحابه بالتوفيق بين التراث والغرب[١] .

بعد مجيء رواد النهضة الأوائل (الطهطاوي والتونسي والأفغاني...) ظهر الكواكبي ليدفع قُدُماً مشاريع من سبقه، في محاولة التأثير على السلطات السياسيّة، وتطوير المجتمع . ثقافيّاً . ليعي دوره في النهضة والتقدّم ؛ فكان الكواكبي محصّلة إطلاع المفكّرين العرب على الفكر الغربي ومزجه بالتراث العربي . الإسلامي .

لقد ظهر الكواكبي في عصر تفاعلت فيه عدة حركات معاً : حركة اليقظة العربية الناشئة وانتشار الوعي، ومقارنة الماضي المشرق مع الحاضر المرّ، وظهور إرهاصات الفكر القومي، والمناداة بالحكم الذاتي للعرب بالاستقلال عن الدولة العثمانيّة .وحركة الرأسمالية الأوروبية الصاعدة التي نقلت تجربتها التحرريّة إلى العرب . ومحاولة أوروبة الاستعمارية تجاه المنطقة العربية . واستماتة الدولة العثمانية في محاولة الحفاظ على بقايا هيمنتها ونفخ الروح في الرجل المُحتضر . وكانت هناك أحداث لبنان، وتجرّؤ (محمد علي) على العثمانيين . إن الكواكبي يمثّل جيلاً متأخراً من المصلحين المجددين في القرن التاسع عشر الميلادي، ممّا أتاح له أن يشهد تلك الأحداث والصراعات السياسية والفكريّة كلّها، كما أنّه عاش في ظلّ الاستبداد العثماني والاحتلال البريطاني، فأثّر ذلك في وجدانه، كما أثّر في معاصريه .

وفضلاً عمّا سبق، نجد عوامل شخصيّة تكوّن بعضها من خلال معاناة الكواكبي في أثناء صدامه مع الحكّام المستبدين وأعوانهم من المنافقين، ذلك الصراع الذي بدأ بتعطيل صحيفتيه ((الشهباء)) و ((اعتدال)) حيث قابل

---

[١] يُنظر : ساطع الحصري، البلاد العربة والدولة العثمانية، ص ٤٧ . ١٢٠ .
جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٦٧ . ٦٨ و ١٠١ . ١٧٥ .
محمد عمارة، العرب والتحدي الحضاري، ص ١٦١ . ١٧٥ .

الاستبداد مواجهة في وقت مبكّر من حياته العملية على الصعيد الفكري، كما أنّه تعرّض إلى توجيه الوالي أكثر من تهمة ملفقة ضدّه، مما أدّى إلى سجنه ومحاكمته غير مرّة .

لقد كان لتلك الحوادث أثر كبير في توجّهات الكواكبي الفكريّة، ولا سيما أنّه لم يكن ينقصه ذلك الشعور المفعم والدراية الواعية لما يحيط به، وقد انعكس ذلك على نشاطه منذ كتاباته الأولى، حيث سيطرت على فكره الشؤون السياسية وما يعتورها من فساد إداري وتنظيمي كبيرين . فتضافرت على بناء وعيه الظروف السياسيّة، والواقع القاسي المتخلّف، المتفاعل بتجارب ذاتية لإنسان مرهف الإحساس، تصادم والمستبد من جهة، وتشرّب بالعقيدة الإسلاميّة من منابعها الأصلية (القرآن والحديث)، واطلع على المؤلفات السياسيّة القديمة لمؤسّسي الجمهوريّات، وكتب التراث، بما في ذلك أعمال رائد علم الاجتماع (ابن خلدون)، فضلاً عن إطلاعه على أفكار الثورة الفرنسية وخاصة ما كتبه (مونتسكيو وروسو)، وتفاعل مع ما طرحه معاصروه من روّاد النهضة الأوائل .

حياته

وُلد عبد الرحمن بن أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي بحلب في ٢٣ شوال سنة / ١٢٧١ هـ = ١٨٥٥ م / لأسرة عربية قديمة في حلب، قيل إنّ جذورها تمتدّ من جهة الأب إلى عليّ بن أبي طالب . وتمتدّ من جهة أمّه عفيفة بنت مسعود آل نقيب إلى محمد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين الشهيد .

توفّيت والدته سنة / ١٢٧٦ هـ = ١٨٥٩ م / وهو في الخامسة من عمره، فكفلته خالته صفيّة آل نقيب واصطحبته إلى إنطاكية، وهناك تعلم القراءة والكتابة والتركيّة وحفظ شيئاً من القرآن الكريم . ثم عاد إلى حلب وأكمل تعليمه مع شيء من الفارسية، مدّة عام تقريباً، ذهب بعده إلى إنطاكية ثانيةً لدراسة العلوم، ثم استقر في حلب سنة / ١٢٨٢ = هـ ١٨٦٥م / فدخل المدرسة الكواكبية التي كانت تتبع مناهج الأزهر في الدراسة، وكان أبوه مديراً لها . وهناك تابع دروسه في الشريعة والأدب والفارسيّة، كما درس بعض علوم الطبيعة والرياضة . لكنّه لم يكتفِ بذلك، بل راح يعبّ من علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة . وأوّل ما دخل الحياة العمليّة عُيّن سنة /١٢٨٩ هـ = ١٨٧٢ م / محرّراً في صحيفة " فرات " الرسميّة الناطقة بلسان الحكومة العثمانيّة، وكانت تصدر باللغتين : العربيّة والتركيّة . واستمر بالعمل فيها حتى سنة / ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦م/ . ولأنّه رأى أنّها لا تحقّق طموحاته في إعلان الحقيقة على الجماهير، هجرها ليُصدر صحيفة ((الشهباء)) الخاصّة بالاشتراك الصوري مع هاشم العطار سنة / ١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧ م / وكانت أوّل صحيفة عربية تصدر في حلب . ولم يصدر منها غير (١٦) ستة عشر عدداً فقط، إذ أغلقها والي حلب (كامل باشا) القبرصي، لمّا وجد أنّها تنتقد سياسة

السلطنة العثمانيّة . وربمّا أرادت السلطة أن تشغله عن توعية الناس فعيّنته سنة / ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م / عضواً فخرياً في لجنتي المعارف والماليّة . لكنّه لم يُغَـر بالمنصـب ولـم ييـأس مـن الإصـلاح فسـعى سـنة /١٢٩٦ هـ = ١٨٧٩ م / إلى إنشاء صحيفة " اعتدال " باللغتين العربيّة والتركيّة، لكنها، هي الأخرى لم تستمر إذ صدر منها عشرة أعداد ثمّ أوقفتها الحكومة لجرأة صاحبها في انتقاد سياستها .

وحاولت الحكومة اسكاته بالمناصب فعينته في لجنة المقاولات والأشغال العامّة، وقلّدته قلم المحضِرين في الولاية، ثم عضويّة لجنة امتحان المحامين . كما عُيِّن سنة / ١٢٩٩ هـ = ١٨٨١ م / مديراً فخرياً للمطبعة الرسمية، ثمّ ثامن رئيس لبلدية حلب .

وفي سنة / ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م/ توفّي والده ممّا أثّر في نفسه كثيراً، لكنّـه لـم ينـزوِ واسـتمرّ فـي نُصـرة المظلـومين، وانتقـاد السـلطنة ، واسـتمرت الحكومـة فـي إغرائـه بالمناصـب ففـي سـنة / ١٣٠٤ هـ= ١٨٨٦ م / عينّتـه عضواً في محكمة التجارة، ثم رئيساً لغرفة التجارة بحلب / ١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ م /، ورئيساً للمصرف الزراعي، ثمّ رئيساً لكتّاب المحكمة الشرعيّة لغرفة التجارة بحلب، ورئيساً للجنة بيع الأراضي الأميرية .

لكّن أيّاً من تلك المناصب لم يَثْنِهِ عن عزمه في نقد السلطة القائمة والتصدّي للخدمة العامّة إذ فتح مكتباً لنصرة المظلومين حتى لُقّب بأبي الضعفاء ممّا أغضب الولاة فسعوا للإيقاع به، فقد استغلت السلطة محاولة اغتيال والي حلب (جميل باشا) وألقت القبض على الكواكبي بتهمة التحريض على قتله، ولكنّ ساحته بُرئِّت وعُزل الوالي . ثمّ اتّهمته الحكومة بالاتصال بدولة أجنبية، على لسان والي حلب (عارف باشا)، الذي اتّهمه بالاتفاق مع دولة أجنبيّة على تسليم حلب، وبإقامة منظمة سريّة تناوئ نظام الحكم وحُكم عليه بالإعدام أمام محكمة حلب المتآمرة مع الوالي، لكن الكواكبي قدّم تظلّماً

ورفض المحاكمة في حلب، كما قامت مظاهرة في حلب تطالب بالإفراج عنه، فاضطرّت السلطنة إلى إعادة محاكمته في بيروت، حيث قدّم دفاعاً شخصياً عن نفسه، فبُرّئت ساحته وتبيّن تزوير الوالي الأوراق التي اتّهمه بوساطتها، وعُزل .

وفي أثناء تلك الأعوام، الصاخبة من حياة الكواكبي، التي تعرّض فيها للظلم والسجن وصودرت ممتلكاته، كان يضع فصول كتابه " أم القرى" الذي قال (كامل الغزّي) أنّه اطلع عليه في حلب، وقال ابنه (الدكتور أسعد الكواكبي) أنه بيّضه له وهو في حلب . كما كان يضع بعض أفكار كتابه الثاني ((طبائع الاستبداد)) . ولكي يتخلص من إلحاح السلطة العثمانية عليه بالتعامل معها، إذ سلّمته قراراً بتعيينه نائباً شرعيّاً في قضاء ((راشيّا)) في ولاية ((سورية))، فتظاهر بالموافقة، وقرّر الهجرة إلى مصر سرّاً، بحجّة أنّه سيقوم بزيارة إلى استنبول .

وصل إلى القاهرة في منتصف شهر تشرين الثاني سنة /١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م / حيث التقى بالمفكّرين والأدباء في الحركة الفكرية في ((مصر))، وهناك ذاع صيته إبّان نشر مقالات ((طبائع الاستبداد)) في صحيفة ((المؤيد)) لـ (علي يوسف)، وبعد إصداره كتاب ((أم القرى)) باسم مستعار هو (السيّد الفراتي)، ثم أصدر ((طبائع الاستبداد)) تحت اسم (الرحالة ك)، وكتب فصولاً من ((أم القرى)) في صحيفة ((المنار))، سنة / ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م / بعد حذف اقترحه محمد رشيد رضا تحسّباً من السلطة .

وفي سنة / ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م / قام برحلة إطلاعيّة إلى البلاد العربيّة والإسلاميّة، ليدرس أحوالها، وهناك دوّن خواطره ليُصدرها في كتاب، ولكنّ وفاته المفاجِئة حالت دون ذلك . فقد توفي مساء الخميس في / ٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ الموافق ١٤ حزيران عام ١٩٠٢ م /، على أثر احتسائه فنجان القهوة في مقهى (يلدز) قرب حديقة (الأزبكيّة) بالقاهرة . وقيل إنّه مات

مسموماً على أيدي أعوان السلطان (عبد الحميد الثاني)،الملقّب بالسلطان الأحمر، الذي أرسل من دسّ له السم في فنجانه . فبعد أن احتسى القهوة، بنصف ساعة، أحسّ بألم في أمعائه، فانتقل إلى داره، وكان معه ابنه كاظم، ثم، في منتصف الليل، ذهب ابنه لإحضار الطبيب ولمّا عاد ومعه الطبيب وجداه ميتاً، وفي اليوم التالي أمر السلطان (عبد الحميد الثاني) أحد أعوانه (عبد القادر القباني) صاحب ((ثمرات الفنون)) التي كانت تصدر في بيروت، أن يقصد محل إقامة الكواكبي، ويحرز جميع أوراقه، ويرسلها إليه .. وقد فعل ذلك في اليوم التالي لوفاته .

وحدّثني حفيده (الدكتور عبد الرحمن الكواكبي) أنّ مخطوط ((طبائع الاستبداد)) المعدّل رماه عمّه (كاظم) في صندوق القمامة فلم يُعثر عليه، وأحضره معه بعد انتهاء التفتيش ومصادرتهم كلّ ما في البيت من أوراق، من بينها مسوّدات كتابيه ((العظمة لله)) و ((صحائف قريش)) .

حزن الأدباء والمفكرون لفقده ورثاه كثيرون . ومما قاله فيه مصطفى صادق الرافعي :

سَلُوا حَامِليهِ هل رأوا حَولَ نعشِهِ ... ملائكةً مِنْ حاربٍ حلْفَ حَاربِ

وهَل حملوا التّقوى إلى حُفرةِ الثّرى ... وساروا بذاكَ الطَّودِ فوقَ المناكبِ

وهَل أغمدوا في صدرِهِ صارماً إذا ... تجرَّد راعَ الشرقُ أهلَ المغارِبِ

فكم هزّهُ الإسلامُ في وجهِ حادثٍ ... فَهَزَّ صَقيلَ الحَدِّ عضْبَ المضّاربِ

أرى حَسَراتٍ في النُّفوسِ تهافَتَتْ ... لها قِطَعُ الأحشاءِ مِنْ كُلِّ جَانبِ

ودفن في قرافة باب الوزير على سفح جبل المقطّم، وبعد أربعين عاماً نُقلت رفاتُه في احتفال ديني إلى مقبرة المشاهير في شارع العفيفي بمنطقة باب الوزير، وكُتب اسمه وتاريخ نقله، على صفحة من المرمر، كُتب عليها بيتان لحافظ إبراهيم :

هُنـا رَجـلُ الـدّنيا هنـا مهـبِطُ التُّقـىَ   هنـا خيـرُ مظلـومٍ هنـا خيـرُ كاتـبِ
قفـوا وأقـرؤوا أمّ الكتـابِ وسـلّموا   عليـه فهـذا القبـرُ قبـرُ الكـواكبي(١)

(١) للوقوف على مصادر الترجمة ومراجعها، يُنظر :

. صحيفة القاهرة (نصف شهرية)، عدد (١)، ١٩٠٣ . ، عدد (٥)، ١٩٠٣ . للاطلاع على تلفيق تهمة التعامل مع الإنكليز، وعلى الحادثة كاملة ودفاع الكواكبي عن نفسه، ص٣٧ . ٣٩ .

. راغب الطباخ، إعلام النبلاء، مج ٧، ١٩٢٦ .

. مجلة الحديث، العددان (٦ . ٧)، ١٩٢٩ .

العددان (٤ . ٩)، ١٩٣٧ .

العددان (٣ . ٥)، ١٩٤٠ .

العددان (٢ . ٣)، ١٩٤٧ .

الأعداد (١ . ٢ . ٣)، ١٩٥١ .

الأعداد (١ . ٢ . ٣ . ٤ . ٩ . ١٠)، ١٩٥٢ .

. الزركلي، الأعلام، ط ١٩٢٧، ج٢، ص٤٨٥ . مادة (كواكبي) .

. يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، ط ١٩٥٥، ج٢، ص٦٧٢.٦٧٥ . مادة (كواكبي).

. محمد شاهين حمزة، عبد الرحمن الكواكبي . العبقرية الثائرة، ١٩٥٨ .

. مجموعة، مهرجان عبد الرحمن الكواكبي، القاهرة، ١٩٦٠ .

. عائشة الدباغ، الحركة الفكرية في حلب، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١، ص ١٩٩ . عن خبر حادثة موته .

. مقابلات مع عبد الرحمن الكواكبي (الحفيد) من ١٩٨٧ وحتى شباط ١٩٩١ .

الفصل الثانـي

مؤلّفات الكواكبي

تتركـز أعمـال الكـواكبي الفكـري فـي أربعـة أمـور هـي: صـحافته، وأم القرى، وطبائع الاستبداد، وبعض الرسائل العائلية، فضلاً عن أعمال مفقودة لم يتم العثور عليها بعد.

١- صحافته

لقد كتب الكواكبي مقالاتٍ وأبحاثاً في كثير من الصحف العربية التي عاصرها، ولأنـه كان يكتب بأسماء مستعارة مختلفة، فقد نسبت إليه مقالات لم نتأكد من صحة نسبتها، وسنثبت – هنا – الصحف التي كتب فيها، ثم نبين رأينا فيما ورد في صحيفة المقطّم خصوصاً.

أ-في فرات

وهـي صـحيفة ولايـة حلـب الرسـمية، كانـت تصـدر أسـبوعياً وتطبـع باللغتين العربية والتركية. صدرت سنة ١٢٨٤ هـ – ١٨٦٩م. وعمل فيها من سنة ١٢٨٩ هـ – ١٨٧٢م إلى سنة ١٢٩٣ هـ – ١٨٧٦م محرراً متعاوناً (غير رسمي) أولاً، ثم محرراً رسمياً. وعلى الرغم من بحثنا الدؤوب عن الأعداد التي كتب فيها الكواكبي، لم نجد أيّاً منها.

ب–في الشهباء

وهي أول صحيفة حلبية غير رسمية تنطق باللغة العربية، أصدرها الكواكبي مرخصة باسم أحد معارفه هاشم العطار، وكان يحررها كلها وحده، ما عدا بضع مقالات قليلة، شارك فيها آخرون. وهي أسبوعية تصدر كل خميس، وتتألف من أربع صفحات، وتضم كل صفحة ثلاثة أعمدة. صدر منها ستة عشر عدداً ثم عطّلتها السلطة.

وقد صدر العدد الأول من الشهباء في ٢٧ ربيع الثاني ١٢٩٤ هـ – ٢٨ نيسان/ ابريل ١٨٧٧م، ثم عطّلها الوالي بعد العدد الثاني في ٥ جمادى الأولى ١٢٩٤ هـ – ٧ أيار/ مايو ١٨٧٧م، ثم استأنفت الصدور بعد ستة أشهر، ولم تلبث طويلاً حتى عملت السلطة على إيقافها نهائياً، نظراً إلى سياستها الانتقادية المعارضة للسلطة العثمانية. ولكن الكواكبي أعاد إصدارها، ثانية، تحت اسم اعتدال.

ج – في اعتدال

بعد تعطيل الشهباء عمد الكواكبي إلى إصدار اعتدال التي حصل على امتيازها باسم شريف زاده سعيد، وكانت تصدر كل يوم أربعاء. صدر العدد الأول منها في ٥ شعبان ١٢٩٦ هـ، ٢٥ تموز/يوليو ١٨٧٩ م باللغتين العربية والتركية، وكانت تتألف من صفحتين لكل لغة. صدر منها عشرة أعداد واستمرت شهرين ونصف الشهر فقط، ثم عطلت كسابقتها.

وكانت أعداد الشهباء واعتدال مفقودة إلى أن عثر جان داية على بعضها وقدمه مع بحث تحت عنوان صحافة الكواكبي، تناول فيه جانبه الصحفي لأوّل مرّة مع ملحق مصوّر لتسعة أعداد متفرّقة من الشهباء وعدد واحد من اعتدال.

د – في المؤيد

المؤيد صحيفة مصرية صاحبها علي يوسف، وقد نشر فيها الكواكبي

أول مقال لـه فـي ١٧ آذار/مارس ١٨٩٩ م تحت عنوان ((ما هو الداء وكيف يُرجـى الشفاء))، بتوقيـع ((حلـب ع)). والمقـال هـو صـورة أوليّـة لمـا نُشر، بعد ذلك، فـي أم القرى(١). ثم كتب مقالات كثيرة فـي المؤيد(٢)بعد هجرتـه إلـى مصرن وهـي أفكـار أوليـة لمـا جـاء فـي طبـائع الاستبداد، ونُشرت كلّها علـى الصفحتين الأولى والثانية من الصحيفة، وهي على الشكل الآتي:

- المقال الأوّل ((اقتراح علـى المحررين السياسيين)) بتـاريخ ١٩٠٠/١٠/١٥، لكاتب عربي مبين بتوقيع ((مجيب)).
- المقـال الثـاني: ((جـواب الاقتـراح فـي: مـا هـو الاسـتبداد)) بتاريخ ١٩٠٠/١٠/٢٠، بقلم أحد أفاضل الكتاب المجيدين.
- المقال الثالث: جواب ثـان للاقتراح: ((الاستبداد والـدين)) بتاريخ ١٩٠٠/١٠/٢٧، بتوقيع ((مستبد)).
- المقـال الرابـع: جـواب ثالـث للاقتـراح: ((الاسـتبداد والعلـم)) بتاريخ ١٩٠٠/١١/٦، من دون توقيع.
- المقــال الخــامس: الجــواب الرابــع للاقتــراح: ((الاســتبداد والمال)) بتاريخ ١٩٠٠/١١/٢٠، بتوقيع ((مجيب)).
- المقـال السـادس: الجـواب الخـامس للاقتـراح: ((الاسـتبداد والمال)) بتاريخ ١٩٠٠/١٢/٢، بتوقيع ((مجيب)).
- المقــال الســابع: الجــواب الســادس للاقتــراح: ((الاســتبداد والأخلاق)) بتاريخ ١٩٠٠/١٢/١٥، من دون توقيع.
- المقــال الثــامن: الجــواب لاســابع للاقتــراح: ((الاســتبداد

(١) انظر: عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، الاجتماع الأول، على لسان الأستاذ الرئيس والاجتماع الثالث، على لساني الرياضي الكردي والكامل الاسكندري.

(٢) اكتشفتها نور ليلى عدنان وتحدثت عنها في رسالتها: نور ليلى عدنان، ((الكواكبي مصلحاً وأديباً)) (رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٠).

والترقي)) بتاريخ ١٩٠٠/١٢/٢٩، من دون توقيع.

- المقال التاسع: الجواب الثامن للاقتراح: ((الاستبداد والتربية)) بتاريخ ١٩٠١/١/١٠، من دون توقيع.

إن قراءة عناوين المقالات توضّح تطابقها مع بعض فصول طبائع الاستبداد في شكله لأوّل، وهذا لا يمنع من أن يكون الكواكبي قد عدّلها مراراً، ويتبيّن ذلك من خلال المقارنة، حيث يقدّم الكتاب، في شكله الأخير، توضيحات وأمثلة وإضافات مهمّة.

هـ - في المنار

وهي صحيفة يصدرها في مصر محمد رشيد رضا، وقد نشر فيها الكواكبي فصول أم القرى سنة ١٣٢٠ هـ، ١٩٠٢ م بعد تعديلات اقترحها صاحب الصحيفة، تتعلّق بحذف عبارات نقد السلطنة العثمانية.

وبعد وفاته نشرت المنار(١) مقالاً بينت فيه أنه من آثار الكواكبي، كتبه بعد سياحته الأخير إلى بعض البلدان العربية والإسلامية، وهو بعنوان ((تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام)) بتاريخ ١٦ ذي العقدة ١٣٢٣ هـ، ١٩٠٥/١/١١ م.

و - في العمران

وهي صحيفة مصرية أسبوعية كانت تصدر كلّ سبت، وقد كتب فيها الكواكبي سلسلة مقالات، كان أوّلها بعنوان ((العلم)) في العدد الثاني بتاريخ ١٩٠٢/٤/٥، من دون توقيع(٢). وهو مقال مشابه لما نشره في المؤيد، المقال الرابع الاستبداد والعلم)) بتاريخ ١٩٠٠/١١/١٦، ومشابه لفصل بالعنوان نفسه في طبائع الاستبداد، وكل ما هنالك أنه استبدل بكلمة ((المستبد)) كلمة ((الجاهل))، وبكلمة ((الاستبداد)) كلمة ((الجهل)).

---

(١) المنار، مج٨، ج٢٢ (١١ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٥)، ص ٨٥٤ – ٨٦٠.

(٢) انظر: عدنان، المصدر نفسه، ص ٨.

ثم كتب مقالة بعنوان ((المجد والتمجّد)) في العدد الثالث من العمران، بتاريخ ١٩٠٢/٤/١٢، وهنا استبدل بكلمتَي ((المستبد)) و ((المستبدين))، كلمة ((الصغار)). وخلت مقالته من آثار الاستبداد على المتمجّدين، ومن الأمثلة التاريخية التي أوردها في المؤيد المقال الخامس العنوان ذاته.

ومن المرجّح أن الصحيفة العمران تريّثت في نشر مقالات كان قد أودعها الكواكبي لديها منذ مدة طويلة، ولم تأخذ دورها إلى النشر إلاّ بعد أن اشتهر صاحبها. لكنّ العمران لم تتمكّن من تعديلها على الشكل الذي جاءت فيه في المؤيد وفي كتاب طبائع الاستبداد.

ز – في القاهرة

وهي صحيفة نصف شهرية، كانت تصدر في مصر، صدر عددها الأوّل في ١ نيسان/أبريل ١٩٠٣، وفيه يكشف بشير يوسف عن عثوره على بعض مؤلفات الكواكبي غير المنشورة، ويؤكد عزمه على نشرها في الأعداد التالية، ولكنه لم يف بوعده، ولم ينشر إلا ترجمة لحياة الكواكبي، وآرائه، ودفاعه عن نفسه أما محكمة بيروت، وأقواله في لقاءه مع قنصل إيطاليا(١).

وهناك مقالات أخرى تنسب إليه، لكنّنا لم نستطع التأكد من صحة نسبتها(٢):

ح – في النجاح

صحيفة بيروتية نقلت مقالاً عن صحيفة حلب الرسمية فرات في العدد ٣٣ تاريخ ٢٧ آذار / مارس ١٨٧٢، ونسبه جان داية إلى الكواكبي، قائلاً: ((المقال يجب أن يكون بقلم الكواكبي الذي حرر هذه الجريدة لمدة خمس

---

(١) صحيفة القاهرة، العدد ١ (١ نيسان/ ابريل ١٩٠٣).

(٢) لهذا نثبتها بحرف صغير.

سنوات)) (١).

ط – في النحلة

وهي صحيفة كانت تصدر في بريطانيا، نشر فيها الكواكبي مقالين تحت عنوان ((حلب)) بتوقيع وصفته النحلة بأنه ((مكاتبنا غير الاعتيادي)) وذلك بتاريخ ١ نيسان/ أبريل ١٨٧٩، وعلّقت على المقالين بقولها إنها أهملت جانباً من تلك الرسالة لأنه يتهم رجال الدولة والقناصلة من دون تقديم الدليل.

وقد لاحظ جان داية – بحق – أن هذين المقالين يشبهان افتتاحية الكواكبي في الشهباء، العدد الخامس، الصادر في كانون الأول / ديسمبر ١٨٧٧(٢).

ي – في الأهرام

مقالة عنوانها ((حلب الشهباء)) بتاريخ ١٢ حزيران/يونيو ١٨٧٩، من دون توقيع. ويرى داية أنها تلتقي، في مضمونها، مع كتابات الكواكبي، من حيث نقدها جهاز الحكم في حلب، ومن حيث روح السخرية التي ميزت مقالة الكواكبي في اعتدال حول ((آثار جغرافية في حلب)) (٣).

ك – في المصباح

كانت تصدر في جبل لبنان. فيها مقالة أدرجت تحت عبارة ((مراسلات حلب ١٩ آذار)) في العدد ٣٢٦ تاريخ ٢٤ آذار/ مارس ١٨٨٣، بتوقيع ((الإمضاء محفوظ)) وقد نشرها الكواكبي بعد تعطيل صحيفته، واختار المصباح لأنها ((تستطيع نشر الانتقادات السياسية بفعل الامتيازات التي أعطيت لجبل لبنان إثر فتنة الستين)) (٤).

---

(١) جان داية، صحافة الكواكبي، سلسلة فجر النهضة: ٢ (بيروت: مؤسسة فكر، ١٩٨٤)، ص ١٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٨.

ل – في لسان العرب

مقالة تحت عنوان ((أحب شيء إلى الإنسان ما مُناعا)) (١) في العدد ٣٢٣ من لسان العرب تاريخ ٢٨ آب/أغسطس ١٨٩٥، بتوقيع ((أحد الأفاضل الحلبيين)).

ومقالة أخرى تحت عنوان ((أحمد مختار باشا – معتمد الحكومة التركية في مصر)) في العدد ٣٢٨ تاريخ ٤ أيلول/سبتمبر ١٨٩٥، بالتوقيع نفسه.

م – في المقطّم

نشرت في صحيفة المقطم مقالتان: ((الجامعة الإسلامية – الفصل الأول)) في العدد ٣١٤٨ تاريخ ٥ آب/أغسطس ١٨٩٩، بالتوقيع ذاته.

وحين ردَّ محمد رشيد رضا على المقالتين، ردّ صاحبهما على الرد بتاريخ ٢٦ آب/أغسطس ١٨٩٩، وبالتوقيع نفسه، وجان داية يرجّح أن هذه المقالات هي للكواكبي، لكننا نستبعد أن تكون لأنها لا تنسجم وسياق فكره العام، فضلاً عن أنه كان ضمها إلى أحد كتابيه في طبائعهما اللاحقة، لو كانت له. وقد بينا موقفنا منها في مناسبات مختلفة، وسنذكر ذلك لاحقاً تحت عنوان ((أهم الدراسات السابقة عن الكواكبي))، وخصوصاً في أثناء حديثنا عن كتاب جان داية: الإمام الكواكبي – فصل الدين عن الدولة.

٢ – كتبه

أ – أم القرى

(١) ورد في الأصل: فامنعا، وربما الخطأ مطبعي. والعنوان شطر من بيت شعر للأحوص:

وزادني كلفاً بالحب أن مُنعت ... وحبُ شيء إلى الإنسان ما مُنعا

انظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، الدرر اللوامع، ج٢، ط٢ (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٣)، ج٢، ص ٢٢٤.

عنوانه الكامل: أم القرى: وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ، محررها هو السيد الفراتي. ألّفه في حلب، وظهرت أولى مقالاته في صحيفة المؤيد سنة ١٣١٧ ه، ١٨٩٩/ ثم طبعه ونقحه غير مرّة إلى أن نشره محمد رشيد رضا في المنار بعد أن حذف منه عبارات نقد الدولة العثمانية، وقال عنه إن الكواكبي قد نقّحه ستّ مرّات قبل طبعه في مصر(١) ثم طبع غير مرة وقد بلغت طبعاته أكثر من أربعين طبعة حتى يومنا هذا، وسنفصل في الحديث عن طبعات الكتاب في بدء إيراد الكتاب محققاً.

ب – طبائع الاستبداد

عنوانه الكامل طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، محررها هو الرحالة (كاف).

نشر لأوّل مرة في المؤيد المصرية لصاحبها علي يوسف، وذلك بين سنتي ١٣١٨ و ١٣٢٠ هـ، ١٩٠٠ و ١٩٠٢ م، ثم وسَع الكواكبي تلك الأبحاث ونشرها في كتاب. وللكتاب طبعات كثيرة سيجري الحديث عنها في بداية إيراد الكتاب محققاً.

ج – رسائله

(١) رسالة بعث بها من استانبول إلى ولده أسعد في شوال سنة ١٣١٢ هـ – ١٨٩٥ م.

(٢) رسالة بعث بها إلى ابنه أسعد في استانبول بتاريخ ٢٦ ذي الحجة ١٣١٤ هـ – ١٨٩٧ م.

(٣) رسالة بعث بها على ولديه أسعد ورشيد في ١٢ شعبان سنة ١٣١٩ هـ – ١٩٠١ م.

---

(١) المنار، مج ٥ (١٣٢٠ هـ، ١٩٠٢ م).

د – أعماله المفقودة

هناك مقالات وكتب ورسائل ومذكرات مفقودة لم يتم العثور عليها بعد، وأهم أعماهل المفقودة التي وصلتنا أخبار عنها هي:

(١)صحائف قريش

وقد أشار إليه الكواكبي نفسه في بداية كتابه أم القرى تحت عنوان ((إخطار)) قائلاً: (((من يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على أشاعته بين الموحّدين، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه سيتلوه نم نشريات الجمعية باسم ((صحائف قريش))، التي سيكون لها شأن، إن شاء الله، في النهضة الإسلامية، العلمية والأخلاقية)).

ويتحدث ابن الكواكبي، د. محمد أسعد في مجلة الحديث عن هذا الكتاب فيقول إنّه كان معدّاً للطبع ((ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة المذكورة في غير هذا المكان، ثم وقوع الوفاة الفجائية، فصودر مع الأوراق المصادرة وأرسل هدية إلى السلطان فلم أعثر له على أثر)) (١).

(٢) العظمة لله

كتاب يتحدث عنه أيضاً أسعد الكواكبي في سياق الحديث عن سابقه، وفي المقال ذاته. وكذلك تحدّث عنه محمد كرد علي في الجزء الثاني من المذكرات فقال: ((أما كتاب العظمة لله فهو كتاب سياسي ((كسائر ما خطّته يمينه))، ويتابع محمد كرد علي القول: ((الغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبي وأراد القضاء على أفكاره المضرّة فأرسل مدير معارف بيروت – عبد القادر القباني – بأخذ أوراقه ويرضي أسرته بمبلغ من المال، فما حمل إلاّ عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة، أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التي بدأ وضعها،

---

(١) أسعد الكواكبي، ((عبد الرحمن الكواكبي)) الحديث (حلب)، السنة ٢٦، العددان ٩ – ١٠ (أيلول/سبتمبر ١٩٥٢)، ص ٥٤٨ – ٥٤٩.

ومنها ما قرأ لي مقدمته واسمه ((العظمة لله))...)) (١). ويبدو من هذا النص أن الكواكبي إما أنه لم ينجز هذا الكتاب، أو أنه أنجزه في وقت متأخّر جداً، حيث لم يتسنَّ لمحمد كرد علي الاطلاع عليه، بل اطلع على مقدمته وحسب.

ومن خلال العنوان، يظهر أن الكتاب هو امتداد لـ طبائع الاستبداد، حيث يبين أن سطوة المستبد ما هي إلا أمر وقتي لا يلبث أن ينحسر لأن ((العظمة لله)) وحده، وما تلك المظاهر اتي يتجمّل بها المستبد إلا فقاعات زائلة.

(٣) أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها

كتاب يذكره حفيده د. عبد الرحمن الكواكبي في إحدى الندوات عن جده(٢)، ويخيّل غليّ أنه عنوان لمقالة سبق أن نُشرت في المؤيد يوم ١٧ أيار/مايو ١٨٩٩ بعنوان ((ما هو الداء وكيف يرجى الشفاء؟)) للكاتب ((حلب ع))، وهي مقالة وسّعت، في ما بعد، ونُشرت في أم القرى، كما ذكرنا قبل قليل في أثناء حديثنا عن كتاباته في المؤيد. وكذلك الأمر بالنسبة إلى مقالته الآتية:

(٤) ((أحسن ما كان في أسباب العمران))

ويبدو أنّها مقالة لم يتسن لصاحبها أن ينشرها وضاعت مع ما ضاع من أوراقه.

(٥) ((ماذا أصابنا وكيف السلامة؟))

وهذا العنوان متشابه إلى حد كبير مع ((ما هو الداء وكيف يُرجى الشفاء؟))، ومع ذلك فإن محمد رشيد رضا يذكره في المجلد الثامن من مجلة المنار(٣).

---

(١) محمد كرد علي، المذكرات، ٣ج (جمشق: مطبعة الترقي، ١٩٤٨ – ١٩٤٩)، ج٢، ص ٦١١.

(٢) عامر الدبك، ((تقرير عن ندوة: الكواكبي رائد النهضة العربية)) المستقبل العربي، السنة ١٦، العدد ١٧٧ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣)، ص ١٥٣.

(٣) محمد رشيد رضا في: المنار، مج٨، ج٢٢ (١١ كانون الثاني.يناير ١٩٠٥)، ص ٨٦١..

(٦) الأنساب

كتاب يذكره أسعد الكواكبي في رسالة بعث بها إلى أخيه رشيد يحثّه فيها على مطالبة محمد رشيد رضا بكاب أبيهما الأنساب.

وقد كتب بشير يوسف في صحيفة القاهرة أنه عثر على مؤلفات للكواكبي، غير كتابية، وأنه سينشرها تباعاً(١). لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، فلم ينشر أي شيء من الأعمال المفقودة للكواكبي.

وفي نهاية مقدمة طبائع الاستبداد الذي نُشر ذيلاً لكتاب دليل مصر والسودان يشير شخص وقَّع باسم نديم الكواكبي(٢) إلى أنه سيبدأ بنشر الأعمال المجهولة للكواكبي، يقول: ((ولدينا نحن بعض ما ترك من نفثات أقلامه مما لم يطبع بعد. وربما نشرنا قسماً منها في دليل السنة القادمة إن شاء الله تعالى)). ويرجّح د.عبد الرحمن أن نديم الكواكبي هو عبد المسيح الأنطاكي الذي وقع بعض مقالات في صحيفة القاهرة بهذا الاسم، يقول: ((في مكتبة (نيويورك) عثرت على نسخة من طبائع الاستبداد منشورة كذيل لكتاب دليل مصر والسودان لصاحبيه ثابت وأنطاكي لسنة ١٩٠٥ افرنكية. وفيه أبحاث تاريخية وجغرافية عن البلدين، وأسماء الموظفين والأعيان، وتراجم لهم، ومن جملة من تحدث عنه الكتاب عبد المسيح الأنطاكي مع صورة له. فعلمت حينئذ أن صاحب الكتاب هو (عبد المسيح) (٣) ذاته (...) فانصرف ذهني إلى [أنه هو نفسه] نديم الكواكبي)). وفي ما بعد أضاف الكواكبي الحفيد أن الأنطاكي كان ملازماً لجدّه في القاهرة أيضاً(٤).

---

(١) صحيفة القاهرة، العدد١ (١ نيسان/أبريل ١٩٠٣).

(٢) أي صاحبه وسامره.

(٣) عبد المسيح الأنطاكي أديب حلبي هاجر إلى مصر وأصدر فيها عدة كتب، كما أصدر صحيفة العمران ثم سماها الشهباء.

(٤) في مقابلة شخصية مع د.عبد الرحمن الكواكبي، يوم السبت الواقع في ١٩٨٨/٨/٢٧ الساعة ٦,٣٠ – ٨,٣٠ في منزله في حلب. انظر أيضاً: عبد الرحمن الكواكبي، ((جدي عبد الرحمن الكواكبي بين التأليف والصحافة والجهاد)) دراسات عربية، السنة٣٠، العددان ٣ – ٤ (كانون الثاني/يناير – شباط/فبراير ١٩٩٤)، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٧) الرسائل

وجّهها الكواكبي إلى السلطان عبد الحميد الثاني، يشكو فيها من طغيان والي حلب (جميل باشا)، وقد حدّثني جان داية(١) أن لديه نسخاً منها، وسيعمل على ترجمتها من الفرنسيّة ونشرها قريباً. وهي مرسلة كتقرير من القنصل الإنكليزي إلى بلاده. وهذه الأعمال المفقودة للكواكبي اعت مع ما ضاع من مذكّراته وملاحظاته في أسفاره.

(١) في مقابلة شخصية مع جان داية في بيروت، بتاريخ ١٩٩٣/٩/٩، الساعة ٥-٩ مساء.

الباب الثاني :

الكواكبي في أعماله

الفصل الأول

رسالته الصحفيّة

لقد بدأ الكواكبي حياته صحفيّاً منذ عام / ١٨٧٢ / م واستمر في الصحافة حتى وفاته عام / ١٩٠٢ / م . وكتب في صحف كثيرة ذكرناها آنفاً . أمّا الصحف التي أنشأها وحرّرها فهي ((الشهباء)) و ((اعتدال))، وعليهما سنتكلّم .

. الشهباء :

صحيفة أسبوعية تصدر كل يوم خميس، وتطبع في مطبعة العزيزية بحلب مالك امتيازها (هاشم العطار)، صدر العدد الأول منها الخميس في (٢٧ / ربيع الثاني ١٢٩٤ هجري) و (٢٨ نيسان ١٨٧٧ م) .

وهذه الصحيفة مؤلفة من أربع صفحات، وتضم كل صفحة ثلاثة أعمدة، كما ذكرناها آنفاً .

الصفحة الأولى تتصدّرها الافتتاحية، وتضم السلطنة الداخلية، والتعليقات السياسيّة عليها، وتمتدّ . غالباً . إلى الصفحة الثانية .

الصفحة الثالثة : تشمل على الأخبار والحوادث الخارجية .

الصفحة الرابعة والأخيرة فهي مخصصّة لأخبار ولاية حلب .

ولم يكتفِ الكواكبي بالأخبار والتعليقات فحسب، بل امتدّت رسالته لتشمل الأدب والاجتماع والأفكار السياسية النظرية .

و((الشهباء)) صحيفة غير رسمية، آلت على نفسها نقد سياسة السلطة العثمانية . وكان يحررها الكواكبي من أوّلها إلى آخرها، إذ لم يظهر في الأعداد التي بين أيدينا سوى أسماء ستة أشخاص، أولّهم (مكاتب الجريدة في الشام) ثم الخمسة الباقون الذين لم يكتب كلٌّ منهم سوى مرة واحدة فقط، وهم: الحاج مصطفى الأنطاكي، جبرائيل دلاّل، قسطنطين حمصي، أنطونيوس قندلفت، أحمد وهبي .

وهذا يدل على العبء الكبير الذي تكّبده الكواكبي، وهو موقن بأنّه لن يجبي من ورائه ربحاً ماليّاً، وإنّما كان همّه أن يساهم في ترقية معارف مواطنيه .

أمّا عن إنشاء ((الشهباء)) فيقول الكواكبي في افتتاحية العدد الأوّل منها :

((بادرنا متّكلين على عنايته تعالى لإيجاد هذه الجريدة العربية))[1]. أي أنّه لم يتلقَّ معونة أو دعماً من أحد، وما هي إلاّ مبادرة من مثقّف غيور على وطنه . ويتابع الافتتاحية ليبيّن ما يقصد إليه من إنشاء الصحيفة : ((إنّ الحامل لنا على نشر هذه الصحيفة هو محض الغيرة الوطنية والحميّة العربية على إيجاد أثر حميد في وطننا السعيد، الذي طالما رأيناه محتاجاً للسان حال، يترجم عنه وإليه ويخلص له النصح، فيما له وعليه))[2]، مما يدل على أنّه لم يكن راضياً عمّا ينشر في صحيفة (فرات) الرسمية التي لا يهمّها إلاّ أن تسبحّ بحمد السلطان، وتمتدح الولاة . هذا في حين أنّ وظيفة الصحافة هي تنوير العقول، وتبيّين مواطن الخلل في السياسة الحالية . وهذا أمر لا ترضى عنه

---

[1] . الشهباء، العدد الأوّل، الافتتاحية، ص١، عم ١ .

[2] . الملقّب بالخراط .

الحكومة بأي حال، لذلك نراه يسرّ إلى نديمه قائلاً : ((علمتُ أنّ الحكومة تخاف من القلم خوفها من النار، ولا تعطي امتيازاً بجريدة لمن تعتقد أنّه على بيّنة من أمره، ووتيرة من عمله . فاتّفقتُ مع (الحاج هاشم العطار)[1] لبساطته وسذاجته، على أن يطلب هو الامتياز، وأستلم أنا التحرير والتحبير، وما مضى زمن على طلب الرجل المشار إليه إلاّ وصدرت الإدارة السنيّة بالسماح له بإنشاء الجريدة، مما لا يمكن أن أحصل عليه أنا ولو أنفقت كلّ ما أملك)). [2]

وهكذا بدأ الكواكبي رحلته الشاقّة لتأدية رسالته الصحافية وتحقيق وظيفتها التي يراها تتمثّل في :

١ . نشر الحوادث السياسية والوقائع المحليّة .

٢ . توعية القرّاء، والمساهمة في النهضة الثقافية من خلال توسيع دائرة المعارف العموميّة، ونشر الآداب المدنيّة .

٣ . كشف أسرار الأمور، وتنبيه أفكار الجمهور إلى ما يجري في بلادهم .

٤ . مساعدة الدولة على انتظام السياسة وصيانة الحقوق .

٥ . الدعوة إلى العدالة والحريّة من خلال إيراد جمل تاريخية مفيدة، وتبيين أهمية توافرهما في الأمم .

٦ . ترويج الألفة والاتّحاد .

٧ . إبداء الآراء، وتوجيه الإنذارات، وبسط شكاوى المتظلّمين، وعرض حاجات الجمهور .[3]

وقد أدرك أن تلك الأهداف تلقى صعوبات كثيرة، لذلك نراه في افتتاحية العدد الثالث من صحيفته يقول : ((ولا يخفى أن إصلاح الفكر العام دونه

---

[1] . القاهرة، على لسان نديم الكواكبي، العدد الأول، ص٦ .

[2] . كان يضع التحليل السياسي الرئيس في كل عدد تحت عنوان (جملة سياسية) .

[3] . الشهباء، العدد الثالث، الافتتاحية، ص١، عم ١ .

صعوبات كثيرة، لأنّ العامّة تأبى قبول كل ما يخالف ما تقرر عندها))[1]، ولا يتوقف الإشكال عند إقناع الناس بما يخالف مشاربهم المألوفة، بل يتعدّاه إلى ما نصادفه ((من النكير، خصوصاً من أصحاب الغايات))[2] لأنّ ((بعض أصحاب الغايات، من تابع ومتبوع، لا يلائمهم انتشار المعارف))[3] لذلك فإنّهم لم يكونوا ((ممنوعين من هذا المشروع))[4]، هذا فضلاً عن عدم مبالاة كثير من الناس، وإعراضهم عن التفكير السياسي.[5]

ولكن الكواكبي أصرّ على استمرار العمل في تحقيق أهداف ((الشهباء)) على الرغم من أنّها عُطّلت وتعرّضت إلى التعطيل أكثر من مرة قبل إيقافها نهائياً . فقد حرصت ((الشهباء)) على تجنّب مدح الولاة والمأمورين، واقتصرت على إيراد أخبار منتقاة تبيّن . في أغلبها . سوء الإدارة العثمانية .

وكان صاحبها حين يورد خبراً صريحاً أو تعليقاً واضحاً عن سوء استخدم الولاة لصلاحيّاتهم، يعتمد أن يلفت الانتباه إلى سياسة الدولة الحسنة (منذ عهد قريب)، وإلى محاولتها مكافحة الفساد . ولكنّ رأيه كان واضحاً، ولم يتمكنّ ذلك التمويه من تغطية وضوح سياسة الصحيفة المعارضة، ممّا أدى إلى إغلاقها، بعد تعطيلها المؤقّت الذي دام ستة أشهر .

أمّا سبب توقيف ((الشهباء)) الأوّل، فقد كان إيراد الكواكبي خبراً في العدد الثاني وعلى الصفحة الرابعة تحت عنوان ((الأخبار الأخيرة))، يقول : ((بلغنا أنّ ستة أنفار من مسيحيي عنتاب من طائفة الأرمن القديم أتوا لمحل

---

١ . الشهباء، العدد الخامس، الافتتاحية، ص١، عم ١ . ٢ .

٢ المصدر نفسه، الافتتاحية، ص١ عم ١–٢.

٣ . الشهباء، العدد الثالث، م.ن .

٤ المصدر نفسه.

٥ الشهباء، العدد ٥ (٢١ ذي الحجة ١٢٩٤ هـ الموافق ٨ و ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر و ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٧ م).

استكتاب العساكر المتطوّعة بقصد أن يكتبوا أنفسهم في جملة المتطوّعين، فغب السؤال عن أسمائهم طلب منهم تغييرها بأسماء إسلامية، فأبوا ذلك قائلين : إنّ قصدنا المحاماة عن دولتنا ووطننا، فإنّ كان لا سبيل لذلك إلاّ بتغيير أسمائنا فلا نقبل)). [1]

ويعلّق الكواكبي على هذا الخبر قائلاً : ((كلّما ألزمتنا ظروف الأحوال بالتشبّث بأسباب علاقات الود والاتحاد بين سائر التبعة العثمانية، تظهر هكذا حركات تقضي بضد ذلك، لغايات بعض مآمير لا يكترثون بلوازم الأوقات . فاللازم على أولياء الأمور أن يصدّوا هكذا مأمورين عن غاياتهم)). نتيجة لهذا الخبر والتعليق عليه بهذا الشكل، أمر الوالي بإيقاف الصحيفة وإحالة صاحبها إلى المحاكمة [2]، ومطالبته بالبوح باسم ناقل الخبر إليه .

ويحكي الكواكبي قصّة توقيف الصحيفة في العدد الثالث منها، بعد إعادة الظهور، إذ يطالعنا العدد الثالث، بعد مرور ستة أشهر على تغييب الصحيفة، بافتتاحية عنوانها ((توقيف الشهباء)) وتمتد على الصحيفتين : الأولى والثانية، يقول فيها : ((وبعد المحاكمة في مجلس الإدارة، وامتناعنا عن الإباحة باسم مخبرنا، محافظة على ناموس الجرنال، كان مما كان من أمر تعطيله مما [جعل] أنظار والينا الأفخم وعنايته، المتجّهتين نحونا، توعز إلينا الآن بالسكوت عن تفصيله)). [3]

وسمح الوالي بإعادة الصحيفة بعد أن تيقّن أنّ التوقيف لم يكن سوى ((هفوة بدون قصد، وأن مدة هذا التعطيل كافية لتجعلنا على انتباه))[4] . ولكنّ ما حدث حدث وعادت الصحيفة إلى الظهور ((بعد أن تكبّدنا أضراراً باهظة

---

[1] . الشهباء، العدد الثاني، ص٤، عم ٢ . ٣ .

[2] . تنظر صورة قرار التعطيل : الشهباء، العدد الرابع، ص٤ .

[3] . م.ن، العدد العدد الثالث، ص١، عم ١ . ٢ .

[4] المصدر نفسه، ص ١، عم ١ – ٢.

في مدّة التعطيل)). [١]

بعد ذلك يتحدّث الكواكبي عن مشكلات واجهها أهل الطباعة والصحافة، ثم تغلّبوا عليها بعزيمتهم وقوّة إرادتهم، ثم يعرج على ما حدث معه قائلاً : ((ومن هذا الباب أيضاً ما صادفناه نحن من إدخالها إلى ديارنا الحلبيّة بصفة وطنية، على أن معظم صعوباتنا كانت في أمر نشر الجورنال))[٢] . ثم يطمئِن قرّاءه بأنّه سيبقى على النهج نفسه بالرغم من كل الصعوبات التي يواجهها، ويدعو أهل وطنه إلى التفاؤل : ((فنؤّمل أن همتَّهم وتوّجههم نحو قبول خدمتنا لم تفتر عمّا كانت، خصوصاً وقد علموا ما هي أفكارنا الأبيّة، ومقاصدنا الخيرية نحو الوطن . ونؤكد لهم ثبات عزمنا كما يرغبون ويوّدون، وأننا نحن على ما يعهدون))[٣] ثم يعيد بسط سياسة صحيفته، مؤكداً على ثبات أهدافها الواردة في العددين الأوّل والثاني .

ويصل نبأ التعطيل والعودة إلى صحيفته ((ثمرات الفنون)) البيروتية فتعلّق عليه قائلة : ((سررنا بعودة جريدة الشهباء إلى ظهورها بطيب النشر، وحظينا بعددها الثالث، فنتمنّى لها النجاح، ودوام التوفيق لحضرة منشئها)).[٤]

ولكن هذا الدعاء لم يكن مستجاباً لأنّ ((الشهباء)) تابعت نقدها لفساد الإدارة العثمانية، مما جعلها تواجه التعطيل نهائياً، بعد العدد السادس عشر في شباط / ١٨٧٨ / م، أي بعد ثلاثة أشهر من استئناف صدورها .

أمّا (جان دايّة) فيقول : ((وصدر العدد العاشر من الشهباء وهو يضج بالانتقادات اللاذعة بحق حكام السلطنة وبالطبع بادرت السلطة إلى تعطيله)). [٥]

---

[١] المصدر نفسه، ص ١، عم ١ – ٢.

[٢] . الشهباء، العدد الثالث، الافتتاحية، ص١، عم ٣ .

[٣]– المصدر نفسه، الافتتاحية، ص١، عم٣.

[٤] . ثمرات الفنون، كانون الثاني / ١٨٧٨ / م . نقلاً عن : جان داية، صحافة الكواكبي، ص٧٥/ ٧٦ .

[٥] . جان داية، م.س، ص٧٧ .

ويصدق الكلام الوارد في العبارات الأولى، في حين تنافي العبارة الثانية الواقع . ويظن (جان داية) أنّ ((الشهباء)) قد تعطلّت بعد العد العاشر، لمدة ثلاثة أشهر، بسبب ما ورد في الافتتاحية التي تبيّن فساد إدارة الحرب والبلاد معاً، حتى ((إن الجمهور أصبح ينادي بصوت عال متضجراً من اختلال الإدارة، مترقباً بفروع صبر، الإصلاحات الموعود بها، مؤمّلاً إدراك غاية قريبة للتخلص من ضيم استيلاء الفساد على سياسة المملكة))[١]. ويحاول الكواكبي أن يسوّغ هذا الطرح، وأن يلقي بتبعته على السلطان، كي يمنح مطالبيه جواز مرور أمام المكتوبجي، فيقول : ((والذي يجسرها ويجسرنا نحن أيضاً على عدم التحاشي في الطعن والتنديد بالأحوال الراهنة هو اعتراف حضرة مولانا المعظّم بذلك في سائر خطوطه وخطاباته الشريفة السلطانية))[٢] . وكما تقتضي الحكمة بأن يُسأل المواطنون عن أحوالهم وعن آرائهم في سياسة بلادهم، فإن سلطانا يفعل ذلك، ((وهذه المزية هي من خصائص حضرة سلطاننا الحالي دون أسلافه العظام، فإنهم كانوا، بحسب عوائد العائلات الملوكية الشرقية، يتجنبون مخالطة الناس كل التجنّب ((على أنَّ هذا الاحتجاب كان يتسبب لهم بالطبع، لصرف أكثر أوقاتهم، قبل الملك وبعده، في معاشرة السراري، فتغلب على طباعتهم خصائص النساء)) .[٣] ولم يكن السلطان . بطبيعة الحال . يُستثنى من انعدام الأهلية للحكم ومن الاحتجاب عن الناس، بدليل أنَّ وصف أوضاع البلاد ينطبق على الواقع الراهن، لذلك نرى الكواكبي يقول : ((إن ما ذُكر، مع ملاحظة حالة الاستبداد، هو أساس ما نشاهده من اختلال الإدارة)) .[٤] لأنَّ حواشي الملك يتخلّقون بأخلاقه التي تتصف بالتساهل في معاقبة

---

١ . الشهباء، العدد العاشر، ص١، عم ١ .

٢ . الشهباء، م. ن .

٣ –المصدر نفسه.

٤ –المصدر نفسه.

المجرمين، بل كثيراً ما يكافأ المجرم على جريمته بأنْ يوضع في منصب أعلى مما كان فيه . ولنلاحظ . هنا . أنّه قال : ما نشاهده، ولم يقل ما نسمع عنه، وما ذلك إلاّ لأنّ اتصاف الملك الحالي بفساد السريرة أمر واضح للعيان . وهذه هي الصفة الأولى التي تجعل الإدارة مختلّة ((والصفة الثانية هي الشغف والتفاخر بالتجمّلات الظاهرية))[١] **فيصرف الساسة مخصصاتهم ومخصصات غيرهم على المظاهر** ((فتنشأ عنها ارتكاب دناءة الرشوة))[٢] لأنّ رواتبهم من وظيفة المأمورية لا تكفيهم . مهما بلغت . لأنهم لا يفتؤون **يرغبون في المزيد** . **((وأما الصفة الثالثة وهي الاعتماد في التكريم على النسب أو الانتساب، لتولّي المناصب، مما يجعل أصحابها غير أكفاء))**[٣] وإنما أخذوها عنوة مما عزز الفساد ووسّع مداه ((أما التغلب فمن آثاره عدم وجود وزراء أوليين سوى من طائفة واحدة، ولا يمكن أن يقال أنّ منذ ثلاثمئة سنة إلى الآن لم يوجد في العرب من فيه كفاءة لمنصب عال من الوزارات))[٤] . فالكواكبي . هنا . ينبه إلى أمرين : الأوّل، عزل العرب عن المناصب المهمة في الدولة العثمانية، والثاني، جور الولاة وفساد أخلاقهم وسلوكم، لاتّصافهم بالصفات التي ورد ذكرها آنفاً ((ثم أن من مجموع آثار الصفات الثلاث المتقدم ذكرها يتولّد الاختلال المستولي على إدارتنا منذ القديم، وقدمه جعله يتمكن من الطباع، ويصير كعنصر طبيعي للمملكة))[٥]. وهنا لم يعد الكواكبي يتحدث عن الماضي فحسب، بل يتكلّم على استمرار الماضي في الحاضر . أنه يشير إلى تاريخ الفساد الذي لم يزل سارياً.

ومن الواضح أن محرر ((الشهباء)) في هذا العدد ينقد استبداد الحكّام ويطالب بالحرية، وبإشراك العرب في شؤون الحكم، مما جعل (جان داية) يظن

---

١ . م . ن، ص . ن، عم ٢ .

٢– المصدر نفسه، ص١، عم٢.

٣ –كذا في الأصل، والصواب : أكفياء .

٤– المصدر نفسه، ص١، عم٢.

٥– المصدر نفسه، ص١، عم٣.

بأن الصحيفة أغلقت بعد نشر هذا الكلام، ويستدل على ذلك من خبر ورد في ((ثمرات الفنون)) وهي تعلّق على تعطيل مظنون : "بلغنا ممن نثق به أن تعطيلها كان بسبب ما نشر في العدد العاشر" وتضيف الصحيفة :"**لكن مما هو موضوع للعجب العجاب أن الجريدة المذكورة لا تطبع إلاّ بعد أن تطلّع الحكومة على مسوّدات نسخها وتمضى بقلم المكتويجي بإذن الطبع. ومن جملة النسخ ذلك العدد الذي عُطلّت لأجله . فأنه أمضي بذلك القلم وأذن بطبعه . وحيث أقرّ عليه فليست الجريدة مؤاخذة بشيء، وما جرى عليها في غير محلّه**"[1] وهذا الكلام لا شيء فيه يدلّ على أن الصحيفة المقصودة هي ((الشهباء)) . وإذا توقفنا قليلاً عند (جان داية) واستعانته بما جاء في ((لسان الحال))، نجده يقول : "استمر التعطيل ثلاثة أشهر . ثم استأنف الشهباء الصدور . فرحّبت بها لسان الحال بقولها : (رجعت جريدة الشهباء وظهرت بعد أن توقفت ثانية مدة ثلاثة أشهر، وحكم عليها بجزاء نقدي . وصدّرت عددها بقطعة بيّنت فيها ما حمل مجلس إدارة الولاية أن يحكم عليها من الأسباب، حال كون الحكومة كانت تطلّع عليها قبل طبعها، وجمع المجلس بين الجزاءين وقيامه بصفة مدّع ومحام وحاكم معاً . وأن ذنب هذه الجريدة الوطنية الجسيم في توقيفها برهة عدم إضافتها لفظة ...) . وختم محرر اللسان دفاعه القوي بأنّ الشهباء سوف تظهر من الآن وصاعداً تحت اسم مديرها هاشم أفندي عطار، واسم جناب وكيل جريدتنا وخليلنا الأديب ميخائيل أفندي الصقّال . لا زالت الشهباء تضيء بنورها فلا تحجبها الغيوم السوداء .."[2] .

وهذا الكلام ينأى عن الصواب، بدليل أن ما ورد فيه من أسباب التعطيل، إنما يعود إلى العدد الثاني، الذي دفع عنه الكواكبي جزاء نقدياً . كما أن العدد المشار إليه بأنه يذكر أسباب التوقيف، هو العدد الثالث وليس العدد

١- ثمرات الفنون، العدد ١٥١، ص ٤.

٢- المصدر نفسه، ص١، عم٣.

الحادي عشر . والقول بالعلاقة بين (ميخائيل الصقّال) و ((الشهباء)) قول واقعي، إذ لم يرد اسمه طوال مسيرة ((الشهباء))، فيها .

هذا فضلاً عن أنّ ((الشهباء)) لم تتوقف بعد العدد العاشر، بل لقد صدر العدد الحادي عشر في موعده المعتاد ولم يرد ذكر (ميخائيل الصقال) به، كما أنه لم يشر إلى أي تعطيل، وجاء خالياً من النقد .

أما ما جاء في العدد العاشر فهو يدل على جرأة الكواكبي وإصراره على قول الحق بالرغم من كل العوائق التي صادفته وهو يحرر ((الشهباء)) التي صمدت حتى العدد السادس عشر، بدليل حديثه مع نديمه حيث يقول : ((ولكنا لم نتوقّف في إصدار الشهباء أكثر من ستة عشر عدداً في خلال ستة أشهر، لأننا ما كنّا نصدر بضعة أعداد إلاّ وتصدر الأوامر بإيقافنا وتغريمنا شيئاً من المال، فرأينا الهدى بالعدول عن العمل، فتركنا الشهباء آسفين، بعد أن تكبدّنا من الخسائر الشيء الكثير))[1] . ونحن . بدورنا . ندهش لأن الصحيفة لم تتوقف بعد هذا النقد اللاذع الذي ورد في العدد العاشر، كما نعجب لأنها استطاعت الاستمرار حتى العدد السادس عشر حيث توقّفت نهائياً، بعد أن كمن لها أخصامها، مما جعل الكواكبي يجاهد من أجل إصدارها بحلّة جديدة وبشكل جديد، تحت اسم ((اعتدال)) .

. اعتدال :

بعد توقّف ((الشهباء)) استطاع الكواكبي الحصول على ترخيص باسم (شريف زاده سعيد) لإنشاء صحيفة جديدة وأطلق عليها اسم (اعتدال) .

صدر العدد الأول منها بتاريخ (٥ شعبان ١٢٩٦ هـ) و (٢٥ تموز ١٨٧٩ م)، وفي افتتاحيّتها يعرّف بنهجها : ((الاعتدال هي هي الشهباء / من كل حيثية، وقد أخذت على نفسها، من قبلُ ومن، القيام بكامل وظائف الجرائد

١– صحيفة القاهرة، على لسان نديم الكواكبي، العدد ١، ص٦.

الأهليـة، مـن نشـر حسـنات الإجـراءات، وإعـلان سـيئات المـأمورين، وعـرض احتياجـات الـبلاد إلـى مسـامع أولـي الأمـر، ونشـر كـل مـا يقتضـيه تهـذيب الأخلاق، وتوسيع دائرة المعارف))[1] . هكذا يعاود الكواكبي في ((اعتدال)) . التي لم يكن لها من اسمها نصيب . نهجه السابق فيطالعنا في العدد الأول منها حرصه على ((إعلان سيئات المأمورين وعرض احتياجات البلاد)) غير عابئ بما قد يجرّ عليه هذا النهج من ويلات، وحسبه أنه يخط قناعاته من غير موالاة أو محاباة .

ويتحـدث محـرر ((ثمـرات الفنـون)) عـن الصـحيفة الجديـدة قـائلاً : ((حظينا بالعدد الأول من جريدة عربية وتركية، تطبع في مدينة حلب، باسم (اعتدال) ...

((ومحررها جناب الفاضل الأديب عبد الرحمن أفندي الكواكبي محرر جريدة (الشهباء) قبلاً، وصاحب امتيازها جناب الماجد الأديب شريف زاده سعيد أفنـدي زاده، وهـي بـدل عـن الشـهباء))[2]، ولا شـك أن هـذا الكـلام مبنـيّ علـى إطـلاع المحـرر علـى العدد الأول الـذي وردت فيـه هذه المعلومـات، وهـذا يـدل على أن الصحيفة وصلت إلى بيروت بعد أيام قليلة من صدورها .

كمـا أن ((لسـان الحـال)) تتحـدث عـن الصـحيفة، فـي اليـوم ذاتـه الـذي تتحـدث عنهـا فيـه ((ثمـرات الفنـون))، ممـا يـدل علـى أن مـا أوردتـه ((لسـان الحـال)) لـم يكـن بسـبب إطلاعهـا علـى مـا ورد فـي زميلتهـا، بـل بسـبب انتشـار ((اعتدال)) الواسع، وسرعته في الوصول إلى الولايات العثمانية الأخرى . تقول ((لسـان الحـال)) فـي معـرض ترحيبهـا بصـحيفة (اعتـدال) متوشّـحة بوشـاحين تركـي فعربـي . وكانـت هـذه الجريـدة ضـحت ذاتهـا خدمـة لوطنهـا، فـي سـلوكها سبيلاً مستقيماً، فنرجو لها الآن نجاحاً، وأن لا يصـادف هـذا الخلـف مـا صـادف

[1] اعتدال، العدد ١ (٥ شعبان ١٢٩٦ هـ الموافق ١٣ و ٢٥ تموز/يوليو ١٨٧٩ م)، ص١، عم٢.

[2] . ثمرات الفنون، عدد / ٢٤٠ /، ٤ آب ١٨٧٩ م .

ذاك السلف من الاضطهاد فنحرم فوائدها . فأننا نروم الانتفاع باعتدال أنفاسها))[١] . لقد استوعب إذاً محرر ((لسان الحال)) فحوى ((اعتدال)) بعودة محررها بها إلى ((مجراها السابق)) وكان يعلم بأن أمنيته ((باعتدال أنفاسها)) لا يمكن أن تتحقق ما دام الفساد مستشرياً، وما دام الكواكبي هو محرر هذا ((الخَلَف)) . وبالفعل فلم يصدر سوى بضعة أعداد حتى لاقت مصير ((سَلَفها))، وقد صدر منها عشرة أعداد، لم نتمكّن من الاطلاع إلاّ على أوّلها . وما دليلنا على أنها بلغت عشرة أعداد سوى اقتباسات (محمد راغب الطباخ) بعض فِقرات من عددها العاشر في كتابه ((إعلام النبلاء ...))، خلا بعض ما أوردته ((ثمرات الفنون)) نقلاً عن ((اعتدال)) في أعداد متفرقة[٢] .

أما ما تحتويه الأعداد العشرة، إنما يتبدى من خلال العدد الأوّل الذي تتصدّره افتتاحية بعنوان ((اعتدال))، وفيها يبيّن محررها حرصه على ((نشر ألوية المطبوعات)) خدمة لوطنه، بالرغم مما لا قاه من الظلم والاضطهاد بسبب جرأته في ((الشهباء)) ويعلن أن نهج ((اعتدال)) لا يختلف عن نهج سابقتها في ((إعلان سيئات المأمورين، وعرض احتياجات البلاد))، وفي نشر كل ما يقتضيه تهذيب الأخلاق، وتوسيع دائرة المعارف، من أبحاث علمية وسياسية وغيرها))[٣] . ثم يشرح أسباب إصدارها باللغتين : العربية والتركية ((بناء على كون أكثر من نصف أهالي ولايتنا من الأتراك اقتضى تنسيب اصدار الاعتدال باللغتين)) ولكن الأهم في خروج الصحيفة على هذا الشكل هو أمر ((اقتضته رغبة من لا يمكننا مخالفته)) وهذا يعني أن إضافة اللغة التركية واقتصار الصفحات العربية على اثنتين، كان شرطاً أساسياً في منح الرخصة إصدار ((اعتدال)) .

---

١ . لسان الحال، عدد / ١٨١ /، ٤ آب ١٨٧٩ م .

٢– ثمرات الفنون: العدد ٢٤٦، والعدد ٢٤٩ (١٨٧٩ م).

٣– اعتدال، العدد ١، ص ١، عم ١ – ٢.

تلي تلك الافتتاحية أخبار السلطنة والأخبار الخارجية تحت عنوان ((تلغرافات الأسبوع)) وهي أخبار واردة من (صوفية وفيينا، والقاهرة، وبطرسبرج وباريس، وغيرها . وعلا كل خبر تاريخ حدوثه أو وصوله . من تلك الأخبار : في / ١٧ / تموز : وصول مسيو برايلاس إلى الاستانة، واستسلام ملك الروس للانكليز . في / ١٨ / تموز إعفاء وزير حرب اليونان من منصبه ((بسبب عدم قبول حضوره مجلس المبعوثان)) . في / ١٩ / تموز : إنّ الخديوي توفيق باشا سيتوجّه إلى الآستانة ((لأجل شكره للحضرة السلطانية))، وإن ((أهل الفتنة الذين أخلّوا بالراحة العمومية في جبهة عثمان بازار غُلبوا وتفرقوا)) . وفي / ٢١ / تموز : ((الصدر الأعظم عوفي من مرضه وسيعود لممارسة أشغاله)) [١] ...

بعد تلك الأخبار تأتي مقالة ((لجنة الاصطلاحات العموميّة)) وفيها يتكلّم المحرّر على أهميّة الإصلاح، مبتدئاً بإصلاح معناه ((إن احتياجنا العام إلى الإصلاح بالغ فينا حتى إلى لزوم الإصلاح في تفهّم معنى لفظة الإصلاح))[٢] ثم ينتقل إلى الكلام على لجنة الإصلاح ومهامّها ((هي أوّلاً تشخيص إدارة الحكومة الحاضرة، والبحث في نواقصها، وأسباب اختلالها، ثم تحرّي وسائل إصلاحها وتنظيمها، وربط ذلك بقانون إداري تتّخذه الدولة دستوراً للعمل في الولاية))، ويبيّن وظائف أعضاء اللجنة وبحثّهم على التعاون ((فاتّحدوا وتعاضدوا)) ويحذّرهم قائلاً : ((وإياكم تفرق القلوب وتشاحنها)) بل لا بد من التعاون لخدمة من وثقوا بكم ومنحوكم شرف مناصبكم (وذلك بالبحث والتفكير في إصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم)) .

بعد ذلك يورد بعض الأخبار المحلية، من بينها خبر خاص بولاية حلب حول مذاكرة اللجنة العمومية في ((مسألة تحويل جباية الأعشاب من

١- اعتدال، العدد١ ، ص ١ ، عم ٢.

٢- المصدر نفسه.

صورة الالتزام إلى صورة تقي الزارعين من ظلم ملتزمي الأعشار))، كما يورد خبراً عن تعيين أحد الأشخاص عضواً مؤقتاً للمحكمة الابتدائية في حلب، واستحصال ((جرجي أفندي أحد كتبة الحقوق في المحكمة الابتدائية)) على ((رخصة رسمية في ترجمة شرح قانون التجارة إلى العربية)) ويبيّن فوائد ذلك على أهالي البلاد العربية . ويبشّر بعودة إحدى الصحف إلى الظهور ((عادت نظارة العدلية لنشر جريدة المحاكم التي كانت تصدرها قبلاً ثم وقفتها)) .

وأخيراً، يقدّم مقالة ساخرة بعنوان ((آثار جغرافية في حلب))، وفيها يتحدّث عن آثار ((صحراء سوق الجمعة)) التي هي عبارة عن مركز لتجمّع أوساخ المدينة ((وهي صحراء واسعة متوسطة في المدينة تشبه صحراء المغرب في توسطها أفريقيا، ومحيطها نحو أربعين كيلو مترا، وفيها سلسلة جبال أورال في ارتفاعها، وهي متكونة من أوساخ المدينة، ولم يمنع من تجسّمها وارتفاعها ما تحمله عواصف الأهواية منها وتمطرها على رؤوس سكّان المدينة، لأن كثرة ما هو متّصل الورود عليها من الأوساخ يعوض النقص، بل ويزيد)) . ويعرّج على آثار أخرى أيضاً هي ((بحيرة الكلاسة)) وهي عبارة عن مستنقع لتجمع مياه القاذورات، يشكّل منتزه رئيس دائرة البلدية أحد حدودها . ثم يتحّدث عن أثر ثالث هو ((مزابل الحمامين)) التي تشكّل جبلاً من ((الروث)) تؤذى الناس برائحتها ودخانها، يقول ((مزابل الحمامين التي هي، في جسامتها وارتفاعها وشكلها المربّع أو المستدير، تحاكي أهرمات مصر المشهورة)) .

ثم يبين مسؤولية ((دائرتي البلدية)) عن ذلك، بلهجة ساخرة : ((وهذا كله من بعض فضل دائرتّي البلدية)) اللتين يلخص نتاج أعمالها بكلمة ((لا شيء)) . ولم يطل الوقت بصحيفة ((اعتدال)) حتى لا وقت مصير ((الشهباء)) وتوقّفت عن الصدور بعد شهرين ونصف من إنشائها .

وتعود ((ثمرات الفنون)) إلى الحديث عن ((اعتدال)) فتقول : ((قد

هجرتنا جريدة الاعتدال مدة أسبوعين، فخشينا أن يكون سبب هذا الهجر ما تكرر على الشهباء من طالع حلب على المطبوعات))، وقد نشرت الصحيفة هذا الخبر في تشرين الأول، وهذا يعني أن ((اعتدال)) قد توقفت منذ ذلك التاريخ، أي بعد العدد العاشر الصادر في (١٤ أيلول ١٨٧٩ م)، ولم يصل نبأ توقفّنا إلى ((ثمرات الفنون)) إلاّ بعد شهر من حدوثه .

يقول (طرازى) عن ((اعتدال))، من خلال تأريخه للصحافة العربية : ((وانطفأ سراج حياة هذه الجريدة في مطلع حياتها، لأنّ صاحها المشهور بحرية الضمير وحب الوطن، كان ينبّه الحكومة على مواضع الخلل بكتاباته الشائعة، وارشاداته الصائبة . فلما ضايقته الحكومة اضطر إلى توقيف (اعتدال) .

وهكذا حُرمت الدولة من نشرّياته إلا صلاحّية))[١] . وهذا يدل على عمق الأثر الذي تركته صحيفتا الكواكبي ، على الرغم من قِصَر عمريهما، وما ذلك إلاّ لالتزام المحرر بنهج نقد السلطة التي تنحرف عن وظائفها الأساسية، وهذا ما حدا بجان داية إلى القول عن صحافة الكواكبي : إنّ ((أبرز ما في نتاج الكواكبي الصحافي، هو استمرار تلك المواجهة القوية والدؤوبة لأهل الحكم المطبوعين على الاستبداد))[٢] .

ولكن هل حدث ذلك عفواً، أم أنه كان نتيجة خطّ رسمه الكواكبي لنفسه ؟ إن كل المؤشرات تدل على تأكيد الشطر الثاني من التساؤل، إذ دأب صاحب ((الشهباء)) و((اعتدال)) على توعية الناس وانتقاد الحكام ((انطلاقاً من إيمانه بأن للصحافة رسالة))[٣] ، ولا بد لمن يعمل فيها أن يؤدي رسالتها مهما تعرّض لضغوط تحاول أن تحرفه عن تأديتها .

١- فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ٤ ج (بيروت: المطبعة الأدبية، ١٩١٣ – ١٩٣٣، ٢، ص ٢٠١ – ٢٠٢.

٢- داية، صحافة الكواكبي، ص ٨٦.

٣- المصدر نفسه، ص ٨٦. قارن أيضاً ص ١٥ و ٢٣.

وعّد داية صحيفتي الكواكبي أداة إعلام توخّي من خلالهما تنوير العقول[1] .

وأكّد في الفصل الخامس من كتابه أن الخط العام لكتابّي الكواكبي كان موجوداً في صحافته، وأن الكتابين قد أُنجز في حلب . ولا شك أن مامر معنا يؤكد صواب هذه الاستنتاجات، فضلاً عن أن الصحافات القادمة ستعزز البرهان على انسجام الكواكبي، قولاً وعملاً، في سياق فكري متطوّر باتجاه محاربة الاستبداد والإصرار على دكّ حصونه .

١- المصدر نفسه، ص ١٦.

أسلوب الكواكبي الصحفي

وإذا شئنا أن نعرّج على أسلوب الكواكبي الصحفي بإشارة سريعة، يمكننا القول إن الكواكبي الصحفي سهل العبارة، يميل إلى البساطة والوضوح، ويعمل على تبسيط فكرته وتعزيزها، لذلك نراه يستشهد بالأيات والأحاديث والأشعار، معرّجاً على تاريخ فكرته، كما في افتتاحيتي العددين : الثالث والخامس من " ((الشهباء)) . ففي العدد الثالث نراه، وهو يتحدث عن (توفيق الشهباء) يتكلّم على تاريخ الصحافة والصحفيين مبيّناً المشكلات التي واجهتها الصحافة العالمية أمام استبداد الساسة ليصل إلى نتيجة مفادها أن تنوير العقول دونه صعوبات كثيرة، لا بد أن يتصدى لها الصحفي، ويزلّل عقباتها، لأّن ذلك جزء من رسالته . والكواكبي . هنا . يبرهن على كلامه من خلال تقديم الأمثلة التاريخية المناسبة والمعزّزة بالأسماء والتواريخ .

وهو معتدل في استخدام السجع الذي كان شائعاً في عصره، ولا يسرف في المحسّنات حتى لا يغلب الشكل المضمون، غير متكلّف في إنشاء جمله، لذلك يسيل قلمه أكثر في((أم القرى)) من خلال تساهله اللغويّ من أجل تحقيق غاية توصيل الآراء إلى العامّة .

وهذا لا يمنع من ميله . أحياناً . إلى التكرار لترسيخ الفكرة في الأذهان . وهو فضلاً عن ذلك، يتمتّع بروح ساخرة تتوضّح أكثر ما تتوضّح من خلال الإطّلاع على ((آثار جغرافية في حلب)) التي وردت على الصفحة الثانية من (اعتدال)، والتي يصف فيها (صحراء سوق الجمعة) التي تحتوي على سلسلة جبال ((متكوّنة من أوساخ المدينة))، و (بحيرة الكلاسة) ((وهي مستنقعة تتكون من اجتماع مياه القاذورات))، و(مزابل الحّمامين) التي ((تحاكي أهرامات مصر المشهورة وهي تتكون من الروث الطري)) أمّا عن فوائدها فيقول : ((ولها فائدتان للمدينة : الأولى بخارها، والثانية دخانها)) ثم يعلّق على

ذلك ساخراً : ((وهذا كّله من بعض فضل دائرتي البلدية)) .

وهو، كذلك، قليل الاسطراد، يخطف الحدث المناسب ويعلّق عليه من غير اشتطاط .

وهو مع هذا وذاك، كان محللاً سياسياً بارعاً، دقيق التوقّعات نتيجة قراءته الصائبة للواقع، فقد صدقت قراءته للأحداث حين رأى أن مكاسب روسيا في المفاوضات كانت دون مكاسبها الحربية بكثير .

أما موضوعاته الصحفية، فقد كانت تتوزّع بين الترجمات والقوانين والأخبار المحليّة والخارجيّة، كما احتّلت الحرب الروسية . العثمانية جزءاً كبيراً في ((الشهباء)) من خلال إيراد الأخبار والتعليقات عليها . أما تركيزه الأساسي فقد كان على قضايا الإصلاح في ((اعتدال)) .

وقد كان الكواكبي، عموماً، يستمدّ موضوعاته من الواقع ومن الأحداث الساخنة التي تتعرضّ لها بلاده، من قريب أو بعيد .

ولا تخلو صحافته من هنات أشار إلى بعضها (جان داية) في كتابه[1]، ولا نرى ضرورة إلى الخوض فيها، لأنها سقطات تعاني منها الصحافة بحسب طبيعة العمل فيها، حتى يومنا هذا . فكيف إذا أردنا أن نرصد صحافته في إطارها التاريخي، بحيث، حيث كانت ((الشهباء)) الصحيفة الوحيدة غير الرسمة في ولاية حلب، وقد استطاعت . وبجهد فردي . تجاوز محلّيتها بما تطرحه من قضايا، وبما تتمتعّ به من أسلوب .

ولا بد من الاشارة إلى أن أسلوب الكواكبي قد تطوّر في ((أم القرى)) مرة، وفي ((طبائع الاستبداد)) مرة أخرى، وهذا أمر وارد يمكن أن يُعزى إلى التجربة والخبرة، وإلى ازدياد الوعي الثقافي باستمرار المطالعة والاجتهاد .

---

[1]- جان داية، صحافة الكواكبي، ص ١٨ – ١٩.

الفصل الثانـي

أم القرى

مؤتمر عربي إسلامي

كتب عبد الرحمن الكواكبي (أم القرى) في حلب . وعنوانه الكامل ((أم القرى : وهو ضبط مفاوضات ومقررات النهضة الإسلامية المنعقدة في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨)) وظهرت أولى مقالاته في (المؤيد) سنة (١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م) . ثم طبعه ونقحّه غير مرة إلى أن نشره محمد رشيد رضا في (المنار) بعد أن حذف منه عبارات نقد الدولة العثمانية . ووجدتُ طبعةً منه قام بها السيد محمد أفندي طاهر صاحب جريدة العرب، بدون تاريخ . وأخيراً ظهرت طبعة سنة (١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩) بإشراف حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبي، وعليها اعتمدنا .

تخيّل الكواكبي في (أم القرى) أنّ مؤتمراً عُقد في مكّة للتداول في أحوال المسلمين وأسباب تأخرّهم . وقد حضر هذا المؤتمر (٢٢) مندوباً عن الأقطار الإسلامية جميعها برئاسة الأستاذ المكي، وعُهدت أمانة السر إلى السيد الفراتي، أي الكواكبي نفسه . وقد عقَد المؤتمر اثني عشر (١٢) اجتماعاً غير اجتماع الوداع، وجرت في المؤتمر مباحثات، يمثّل (أم القرى) ضبطاً لها

.

يلاحظ الكواكبي في مقدمته الخلل أو الضعف الذي اعترى المسلمين، ثم يحاول أن يعثر على أسبابه، وأن يضع له حلولاً في هذا الكتاب .

الاجتماع الأوّل :

في الاجتماع الأول اتّخذ المؤتمر شعاراً له { لا نعبد إلاّ الله }، وخطب فيه الرئيس مبيّناً أن المسلمين في حالة تقهقر بينما يتمتع العالم الغربي بنهضة كبرى كنّا نحن حملة لوائها ثم زالت عنّا منذ أكثر من ألف عام، ولا بد لنا من أن ننصر ديننا، وأن نسعى لإقامة الحكم على أساس ديمقراطي ؛ لننهض من جديد . ثم دار نقاش ومباحثات في هذه الجلسة حول وصف الحالة الحاضرة، وتبيين أسباب الخلل لإنذار الأمّة بسوء العاقبة إن استمر أبناؤها على ما هم عليه من الجهل وكسل . ثم وجّه المتباحثون اللوم إلى الناس جميعاً وفي مقدّمتهم الأمراء والعلماء لأنهم لا يتعاونون من أجل من أجل النهضة وهم يعلمون أن يد الله مع الجماعة .

والجماعة لا تتفق إلاّ بنبذ اختلاف المذاهب وبالانضواء تحت لواء جمعية وظيفتها النهوض بالأمة من وهدة الجهل والغفلة . وعلينا ألاّ نيأس، بسبب الضعف المستشري بنا، إذا انتظمنا في هذه الجمعية، لأن الجمعية يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً يفي بما لا يفي به عمر الفرد الواحد . وهكذا فقد أدرك المؤتمرون أنّ النهضة لا تتم بين ليلة وضحاها، بل هي مشروع يحتاج إلى جهد ووقت وتوحيد .

الاجتماع الثاني :

يبحث في أسباب الفتور . حيث تناول الرئيس مسألة الضعف النازل بالمسلمين ولفت انتباه المؤتمرين إلى أنهم باحثون لا متناظرون، لذلك يجب ألاّ

يصرّ أحد على رأيه الذاتي، وألاّ في العدول عن خطئه، ومَن أعجبنا كلامه قلنا له : (مرحى) تعبيراً عن تأييدنا له .

ثم نقد الشامي العقيدة الجبرية فرأى أنّها من المخدرات المثبطات . ولكنّ القدسي قال : إنما سبب الفتور هو تحوّل السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى ملكية مقيدة ثم إلى ملكية مطلقة من في حين رأى التونسي أنّ سبب البلاء هو تأصّيل الجهل في غالب أمراء المسلمين المترفين . بينما قال المولى الرومي : إن البليّة هي فقدنا الحرية، حرية التعليم والخطابة والمطبوعات والمباحثات . فالحرية هي روح الدين، ومنذ فقدنا الحرية لجأنا إلى الخرفات والملهيات فضَعُفَ إحساسنا وألفنا الاستبداد والذل، فصار الانحطاط طبعاً في أكثرنا، ورفينا بإمارة الجهاّل علينا وكأنَّ مجرّد كون الأمير مسلماً يغني حتى عن العدل، وكأنّ طاعته واجبة ولو كان يخرّب البلاد ويظلم العباد . هذا في حين رأى التبريزي أن انحطاطنا من أنفسنا، إذ كنّا نعبد الله وحده ونأمر بالمعروف وننهي عن المنكر وأمرنا شورنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالفعل أو بالقول أو بالقلب أي بالإعراض عن الخائن الفاسق وتجنّب معاملته أو مجاملته . وهنا عقّب الفاسي بقوله : إنّ طاعة أولي الأمر واجبة، ولكن مع العدل فالحاكم العادل الكافر أفضل من المسلم الجائر وأولى بحكم المسلمين . ولا بد لنا من العودة إلى الجهاد، والجهاد هو ما نعزّ به كلمة الله ولا يكون بتأييد سلطة الأمراء والعاملين على البلاد والسبب الأعظم لمحنتنا هو انحلال الرابطة الدينية وتركنا أمورنا إلى الفوضى مما أفشى الفساد فينا وصرنا نتبع الأشخاص بدلاً من التمسّك بديننا الحنيف . أمّا المدني فقد وجد أن الطامة الكبرى هي من تشويش العلماء المدلّسين وغلاة الصوفية الذين تأوّلوا القرآن الكريم وفق أهوائهم، وقلّدوا الديانات الأخرى في مراسمهم، ووضعوا أحاديث مكذوبة . حينذاك انتفض المولى الرومي قائلاً : إن المنشأ لكل فساد هو انحلال السلطة القانونية وتسلّط فرد عليها، فضلاً عن دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين

أي الجهاّل المتعممين . وهنا انفض الاجتماع الثاني وتواعد المؤتمرون على اللقاء الثالث .

الاجتماع الثالث :

ويتمحور حول بحث الداء . ويتابع المولى الرومي كلامه الذي بدأه في الاجتماع السابق بقوله : إنه المشكلة هي في ولاية الجهاّل المتعممين، لأنّ ولايتهم تصدع الشرع، فهم يزينون للأمراء معاداة الشورى، ويحثّونهم على الاستقلال بالرأي من دون الناس جميعاً . وإن استئثار الجهلاء بمزايا العلماء قلّل الرغبات في تحصيل العلوم . وجاء دور الرياضي الكردي فقال : إن الاقتصار على العلوم الدينية يضعف المسلمين، ولا بد من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية أيضاً . وتقصير علمائنا عن العلوم النافعة جعلنا من أحط الأمم . فقال الكامل الاسكندري متنّهداً : إنما المشكلة تكمن باليأس، يأسنا من مجاراة الأمم المتقدّمة . وهذا اليأس هو سبب الفتور .

ورأى الفقيه الأفغاني أن الداء هو الفقر، وأن الحكومات صارت تجبي الأموال من الفقراء وتمنحه للأغنياء الذين يوالونها،فكثر الفقراء وفش الفقر الذي هو من سبب جهلنا وفساد أخلاقنا وتشتت آرائنا . فأجابه السعيد الانكليزي : إن المسلمين إذا اتبّعوا دينهم أمِنوا الفقر واستغنوا عن المبادئ المتبعة في الاشتراكية . فالتقارب والتساوي مقرران في الإسلامية ديناً بوسيلة الزكاة والكفارات، ولكنّنا أهملنا ذلك كلّه . أما سبب الفتور فهو فقد الاجتماعات والمفاوضات والوعظ في أمور الجماعة مما أفقد الإحساس بأهمية اجتماع الشمل للبحث في أحوال المسلمين، وفقدت حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج معناها، إذ ترك الخطباء التحدّث في الأمور العمومية وعدّوا ذلك لغواً . وهكذا تأصّل فينا فَقْدُ الإحساس .

فقال الإمام الصيني بعصبية مفتعلة : إنّ السبب الأكبر للفتور هو تكبّر

الأمراء وميلهم إلى العلماء المتعلّقين المنافقين الذين يزيّنون لهم الاستبداد . وسبب الفتور العام هو استحكام الاستبداد في الأمراء . وإن أفضل الجهاد هو الحط من قدر العلماء المنافقين عند العامة، وتحويلهم لاحترام العلماء العاملين حتى لا يلبث أن يحترمهم الأمراء أيضاً ويأخذون بآرائهم فقال العالم النجدي : أرى أنّ سبب الفتور الطارئ هو تحريف الدين حيث أصبح يعني الطاعة العمياء والاتّكاليّة وذلك يعني قبول الاستبداد والموافقة عليه، والواجب علينا أن ندعو إلى الرشد والإصلاح وإلى ترك الخرافات كشيوع عبادة القبور والتسليم لمدّعي علم الغيب .

فلا بد من إصلاح أنفسنا أولاً، وقد قال تعالى : ((إن لا يغيّر ما بقوم حتى يغيرّوا ما بأنفسهم))[1] .

الاجتماع الرابع :

دار حول ضرورة ترك الناس الشرك حيث يعظّم الناس الأمراء، وأهمية ترك التشدد في الدين .

الاجتماع الخامس :

ركزّ على وجوب الالتزام بالقرآن الكريم والسنّة، من غير تشدّد أو توسّع . ودعا إلى وضع كتب مختصرة متفّق عليها، فيها المنهيات والمعاملات والعبادات باختصار يبيّن الحد الأدنى الذي يجب أن يلتزم المسلم به .

الاجتماع السادس :

بدأه الشيخ السندي بالحديث عن نشوء الطرق ورأى فيها تضييقاً على

[1] القرآن الكريم، " سورة الرعد " الآية ١١ .

المسلمين مما جعلهم يلجؤون إلى صوفية هذا الزمان الذين يهوّنون أمر الدين على الناس .

هؤلاء الذين يتشبهّون بالصوفية وما يعرفون منها إلاّ قشورها لذلك يقولون للناس إن المرشد يمكنه أن يجعل الشقّي وليّاً، ويقرّون بأن الولاية لاينافيها ارتكاب الكبائر كلّها إلاّ الكذب . ويرون أن الاعتقاد أولى من الانتقاد، وأن تحسين الظنّ بالفسّاق والفجاّر أولى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك مما يهوّن أمر الدين أو يجعله لهواً يستأنس به الجاهلون .

(ولكن كان على الكواكبي . هنا . أن يبرهن على كلامه فيضرب لنا أمثلة ويسمّي أشخاصاً حرّفوا الصوفيّة، أنها وصلته عن طريق أحد المسلمين غير العرب) .

ويوافق القازاني والمجتهد التبريزي على أن التشديد في الدين وتشويشه قد سبّبا الانحطاط، وأن الفتنة التي أصابت الأمة كانت في التدقيق والجدل حول الخلافات بين الأئمة، فاتسعت دائرة الأحكام في الشرع وكثرت المناظرات وصراعات المذاهب، وتفرّق المسلمون شيعاً وأحزاباً حين تشاجروا في الخلافة والملك . فاستسهل الناس التقليد من غير تبصّر . فعلى علماء الهداية أن يقاوموا فكر التعصّب لمذهب من دون الآخر ليجمعوا كلمة الأمةّ من جديد .

الاجتماع السابع :

لخّص فيه السيد الفراتي ما عُرِض من أسباب انحطاط المسلمين، فرأى منها ما هو أصل ومنها ما هو فرع، وأرجعها كلّها إلى ثلاثة أنواع، هي :

أسباب دينية، وأسباب سياسية، وأسباب أخلاقية . وأنتهي إلى ضرورة إبطال التخالف وتشويش الأفكار، وإسكات المدلّسين، ونبذ التقليد والتعصّب للمذاهب، وإلى أهمية طلب الحرية ونزع الاستبداد، وإلى محو الجهل وتقوية التعليم، والابتعاد عن التملّق والمحاباة .

وأضـاف إلـى ذلـك أسـباباً أخـرى تكمـن فـي السياسـة والإدارة العثمـانيتين، هـي: توحيـد القـوانين مـع اخـتلاف الأهـالي، وتوليـة غيـر الأكفـاء، واسـتئثار العثمـانيين بالمناصـب دون العـرب، وتشـويش الـقضـاء، وتخيّـر الدولـة الأسـافل لإدارتهـا التـي علـى التزلّـف والرشـوة، وبغضـهـا للعـرب . وهـاجم السـيد الفراتـي الترك وما جلبوه من نقمة على العرب، إذ تمّسك الحكم العثماني بأصول الإدارة المركزيـة مـع بُعد الأطراف عن العاصمة . وعدم مساءلة رؤساء الإدارة والـولاة على إساءاتهم .

وعـدم الالتفـات لرعايـة المقتضـيات الدينيـة، وتضـييع حرمـة الشـرع وقـوة القـوانين بعـدم التزامهـا، والغفلـة عـن مقتضـيات الزمـان بسـبب عـدم الاهتمـام بالمستقبل .

والضغط على الأفكار المتنبهة بقصد منع نموّها وسموّها واطلاّعها على مجاري الإدارة، محاسنها ومعايبها . وإدارة بيت المال إدارة إطلاق بدون مراقبة أو موازنـة، وإتـلاف بغير حساب حتى صارت المملكة مديونـة للأجانب بديون ثقيلـة تُوفى بـلاداً ورقاباً ودمـاءً وحقوقاً . وقد اعتمدت الحكومـة العثمانيـة علـى إدارة المصالح المهمة السياسية والملكية بدون استشارة الرعية ولا قبول مناقشة فيها، وإن كانت إدارة مشهودة المضّرة في كل حركة وسكون . واعتمدت إدارة السياسة الخارجية بالتزلف والإرضاء والمحاباة . مما جعل العرب يقولون في الأتراك : (ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والترك والجراد) .

الاجتماع الثامن :

بسط فيه السيد الفراتي ركون الأمة إلى الكسل وتعلّقها بالتمجّد والتعالي وترك النساء جاهلات وهنّ أمّهات الأمراء، وبذلك تفسد الأمّ والأمةّ والناشئة[1]، ويقلّد الأمراء أخلاق الغرب وينظرون إلى الأعاجم كسيّد متفوّق يجب تقليده .

[1] إذا قارنا هذا الكلام بما جاء في افتتاحية العدد العاشر من الشهباء نجد بذور هذا الكتاب في صحافة الكواكبي .

ولا بد من قيام جرائد مخصوصة تلوم الشيوخ على تثبيط العزائم، وتهيب بالناشئة ليحرصوا على دينهم وحريتهم، وتدفعهم للجهاد من أجل أن ينالوا حياة راضية في ظل وطن يحبونه، وقوم يؤازرونهم بعيداً عن الانشقاق الديني أو المذهبي، وبعيداً عن الأحقاد .

الاجتماعات التاسع والعاشر والحادي عشر :

فيها قُرِيء قانون الجمعية وأُبديت عليه ملاحظات قبل إقراره .

الاجتماع الثاني عشر :

وفيه تم إقرار قانون " جمعية تعليم الموحدين "، وتأليف الجمعية وشروط عضويتها، ومركزها وشعَبها، ومبانيها وأموالها ونفقاتها ووظائفها وكتبها، ونُشر القانون .

وربطت آمالها بالعرب لأنهم أعرف الأمم في أصول الشورى (!)* ولأنهم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمتين الدينية، والشرقية عموماً . ((وهكذا تمّت الاجتماعات وختمت المذاكرات وانفضّ الجمع على وعد التلاقي)) .

<u>لاحقة :</u>

بعد تلك الاجتماعات بشهرين، التقى الصاحب الهندي بأمير ناقشه في شأن الجمعية، وأُرسلت نتيجة المباحثات إلى السيد الفراتي، فدوّنها . وقد انتهت إلى ضرورة وجود خليفة عربي يستلم زمام الرابطة الدينية ولا يكون حاكماً . وتُدار البلاد إدارة ذاتية بواساطة حاكم مدني عربي عليه ألاّ يتدخل في شؤون

* إشارة التعجب منّي .

الدين مطلقاً، وإنما هو خاضع لمجلس الشورى في بلاده حتى لا تتعارض الشورية العادلة، لأنّ السلطة بدون رقابة علماء الأمة عليها، تُفسد الأمة والسلطان معاً . ولا يجوز أن تجتمع الخلافة والمُلك في شخص واحد حتى لا يفسد السلطانُ الدين بتحريفه وفق مقتضيات المصلحة الطارئة للحكم، وحتى لايحكم باسم الدين ((لأنّ الدين شيء والمُلك شيء أخر))، وإنّما على الملك أن يراعي شؤون دولته بما لا يتعارض وأحكام دينه .

وإذا دققنا النظر في التاريخ نجد أن ((إدارة الدين وإدارة الملك لم تتحدا في الإسلام تماماً إلا في الخلفاء الراشدين)) . بناءً عليه لا يجوز الاتكاّل على الملوك العثمانيين في أمر الخلافة، علاوة على السلطنة .

هذا هو (أم القرى) بحث فيه الكواكبي عن الداء، وحاول تبيين وضع الشعوب الإسلامية بعامة، والعرب بخاصّة، وما هم عليه من ضعف وفساد . وحاول أن يجد فيه حلولاً مناسبة للخروج من الأزمة . لكنه، بعد البحث الطويل، أدرك أن الاختصاص في العلّة يؤدي إلى الاختصاص في الحلّ، مما قد يكون أكثر فائدة . وهكذا حاول التعرّف إلى العدو (=الاستبداد) ليتمكّن . بعد ذلك . من مقاومته وإقامة البديل. وربما أمكننا القول إن ((طبائع الاستبداد)) هو بمنزلة دراسة مكمّلة لما رأى من ثغرات أو تعديلات من الواجب إدخالها على ((أم القرى)) في موضوع الاستبداد وبدائله . وفي الأحوال كلّها، يصعب علينا أن نفرقّ بين كتابي الكواكبي إذا أردنا فهماً تصحيحاً، لأنّ تجزيء فكر المفكرّ يشكّل عقبة على طريق فهمه. وليس أدلّ على ذلك من العبارات المتشابهة التي يوردها الكواكبي في كلٍّ من كتابيه وصحيفيته . وهكذا نجد أن أم القرى واحد من الكتب المذهلة، إن حذفنا منه تاريخ تأليفه، فلن نشكّ لحظة واحدة، في أنّه قد أنجز توّاً، وخصوصاً أنّ صاحبه قد وقّعه باسم السيد الفراتي .

الفصل الثالث

طبائع الاستبداد
الماهيّة والبديل

كتب الكواكبي رؤوس مقالات ((طبائع الاستبداد)) في حلب، وكان يعدّلها باستمرار، ثم وسّع تلك الأبحاث ونشرها في كتاب سمّاه ((طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)) تتصدّره عبارة : ((وهي كلمات حقّ وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، لقد تذهب غداً بالأوتاد)) محررها هو الرحالة (ك) .

يتألّف الكتاب من تمهيد ومقدّمة وتسع مقالات تحت عناوين :

(ما هو الاستبداد، الاستبداد والدين، الاستبداد والعلم، الاستبداد والمجد، الاستبداد والمال، الاستبداد والأخلاق، الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقّي، الاستبداد والتخلّص منه) .

والكتاب، كما هو واضح، مجموعة مقالات يربط بينها الاستبداد الذي يشكّل محوراً يحاول المؤلف تبيين أسبابه وأعراضه وعلاقاته وآثاره وبدائله.

يبدأ الكواكبي تمهيده بالقول : ((أقول وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام))

وهذا يمكن أن يُعدَّ مجموعة جرائم خطيرة في نظر الحكم القائم، ((أقول)) جريمة تحدٍّ، ((وأنا مسلم عربي)) جريمتا انتماء، ((مضطر للاكتتام)) جريمة اشارة إلى القامع . ولكنّ المؤلّف اغتنم فرصة وجوده في مصر، وفسحة الحرية النسبية التي تنعم بها على عهد ((العباس الثاني، الناشر لواء الأمن على أكناف ملكه))، مما أتاح له إمكانية التصريح عمّا يجول بخاطره في مشكلات بلاده .

وهو، بعد أن يعرض آراء الباحثين في سبب الانحطاط، يتوصّل إلى النتيجة الآتية : ((تمحّص عندي أن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية)) . ويبسط بعض مباحث كتابه، والتغييرات التي طرأت عليها، والمشاق التي تكبّدها في سبيل إنجاز الكتاب، ثم يبيّن أغراضه منه : ((إنما أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه ... ولي هناك مقصد آخر وهو التنبيه لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم، أنهم المتسببون لما حلّ بهم، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار، إنما يعتبون على الجهل، وفقد الهمم، والتواكل ... وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات)) .

والكواكبي . هنا . إذ يهاجم الاستبداد، لا ينفي مسؤولية من يقع عليهم،بل يوضح أن المقهور كثيراً ما يكون دعماً لقاهره ((فالمستبدّون يتولاّهم مستبدّ، والأحرار يتولاّهم الأحرار، وهذا صريح معنى : (كما تكونوا يولّى عليكم) ...)) فلو لم تكن علاقات الناس الاجتماعية فاسدة، لما سادها الاستبداد الذي لا يتمكن من الناس إلاّ في ظل الجهل والتعادي ((إن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة)) . ولكّن هذه المسؤولية نسبيّة ، وذلك لأن الاستبداد يحفر في عقول العوام لاقناعهم بالباطل . وهنا

يأتي دور العلماء الراشدين المرشدين الذين يجهدون في توعية الناس، وفي حثّهم على طلب الحرية . ثم يبيّن الكواكبي منهجه في تأليف الكتاب : ((وقد تخيّرت في الإنشاء أسلوب الاقتضاب وهو الأسلوب السهل المفيد))، محاولاً الابتعاد عن الإلغاز، لأن هدفه أن تصل أفكاره إلى أكبر عدد ممكن من مواطنيه ليتشكل ائتلاف يتعاون على دكّ حصون الاستبداد وفضح مساوئه .

وفي مقدّمة الكتاب يذكر المؤلف بعض مصادره العربية والإسلامية والأوروبية التي تناولت هذه المسألة، ثم ينتقل إلى تعريف علم السياسة بأنه ((إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة))، أما الاستبداد فهو ((التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى)) . ومن البيّن أن الفرق شاسع بين العبارتين، ففي مقابل ((الإدارة))

هناك ((تصرّف))، وفي مقابل ((الحكمة)) هناك ((الهوى)) . الإدارة فعل يتم بموجب قوانين محدّدة، وبالشكل الذي يتوافق والعقل، لتسيير الأمور العمومية وفق مصلحة الأمّة . أما التصرّف فهو فعل مزاجي يتّم انطلاقاً من شهوات المستبد ورغباته، عن أي منطق أو تفكير يصبّ في مصلحة المجتمع . وبذلك يضع الكواكبي (التصرّف) و (الهوى خارج دائرة السياسة . فبحثه إذاً سياسي، وآفة السياسة : الاستبداد .

أما المقال الأوّل ((ما هو الاستبداد)) فيبدأ بتحديد معنى الاستبداد، لغةً واصطلاحاً، فالاستبداد لغةً ((هو غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النصيحة، أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة))، وهو اصطلاحاً . : ((تصّرفُ فرد أو جمع حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة))، ولم يكتف بذلك، بل نراه يعرف الاستبداد بالوصف فيقول : إنّه ((صفة للحكومة المطلقة العنان))، فحيث يغيب القانون، تتحوّل العلاقة إلى تابع ومتبوع، وقامع ومقموع، ومفقِر ومفقَر، بسبب انعدام العقاب الذي يردع الحكّام عن جورهم .

ثم يبين أشكال الحكومة المستبّدة فمنها حكومة الفرد المطلق الذي تولّى

بالغلبة أو بالوراثة، وحكومة الدستورية التي تفرّق بين السلطات : التشريعية والتنفيذية والمراقبة . فشكل السلطة لا ينفي عنها صفة فعلي قابل للتنفيذ، وذلك لا يتمّ إلاّ إذا كان المنفذّون مسؤولين أمام المشرّعين، والمشرّوعون مسؤولون أمام الأمة .

ويرى أن أشدّ مراتب الاستبداد هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية ((وكلما قلّ وصف من هذه الأوصاف، خفّ الاستبداد)) . فهو يقيس الاستبداد بمقياس التضمّن والشمول، ويحصره في أكبر عدد ممكن من الصفات، ليقلل عدد الذين ينطبق عليهم المفهوم، ولنزداد معرفة بصفات الاستبداد الجوهرية .

ثم يوضّح معنى الاستبداد لديه : ((ويراد بالاستبداد عند إطلاقه، استبداد مجازاً، أو مع الإضافة)) وذلك لأنّ الحكومة الاستبدادية تسيطر على شؤون الحياة جميعها، ولا تعتمد في حكمها على قاعدة دستورية، سواء في الوصول إلى الحكم، أو في الدستورية الشرعية الوحيدة للحكم . لذلك يطالب الكواكبي بوجود قانون تسير عليه الحكومة تحت أشراف الشعب .

وعموماً، فهو يرى أن الحكومة لا بّد أن تستبد ما دامت غير مراقبة، وما دامت قادرة على تأصيل استبدادها، من خلال جهل الأمة، وامتلاكها الجنود المنظّمة، لذلك فان أيّ حكومة مهما يكن ظاهرها العدل تنقلب إلى متى غفل الشعب عن مراقبتها .

بعد ذلك ينطلق الكواكبي إلى مناقشة علاقات الاستبداد، انطلاقاً من تعريفه إياه، ففي (الاستبداد والدين) يلاحظ أن بعض العلماء يرون أنّ الاستبداد السياسي متّولد من الاستبداد الديني، ولكنّه لا يوافقهم على ذلك، بل يعتقد أنّ البدع هي التي شوّهت الأديان، وما ذلك إلاّ بسبب الاستبداد .

إنّ الاستبداد يحرّف الدين عن طريق مدّعي العلم الّذين يحصون على مصلحة المستبد، مستغّلين هيبة الدين في قلوب الناس، ومتظاهرين بالتمسّك

بـه، فـي حـين أن الأديـان بـراء مـن كـل مـا ينسـب إليهـا مـن اسـتبداد . وخاصـة الإسـلام الـذي جـاء هادمـاً الشـرك ومحكمـاً لقواعـد الحريـة السياسـية، فأسّـس التوحيد، ونزع كلّ سلطة تغلّبيـة أو دينيّة تتحكّم فـي النفوس أو فـي الأجسام . بل إنّ الإسلام قد وضع شريعة حكمة إجمالية صالحة لكل زمان وقوم ومكان، و ((لا مجـال لرمـي الإسـلاميّة بتأييد الاستبداد)) لأنّـه لـيس فيهـا ((نفـوذ دينـي مطلقاً فـي غيـر مسـائل إقامـة شـعائر الـدّين، ومنهـا القواعد العامّـة التشـريعية)) التي تصلح إطاراً عاماً لكل أشكال الحكومات العادلة .

وفـي الواقـع، فـإنّ الـدين الـذي يسـتبد مـا هـو سـوى الـدين الـذي يُفـرّغ مـن محتواه، ليبقى مجرّد إطار لفكرة في يد المستبدّين، يتيح لهم إنشاء ما يريدونه من ترويج يصبّ في مصلحتهم، بعيداً عن حقيقة النص . الأصل . ويعززون التفسيرات الجديدة التي لا علاقة لها بروح الدين، وما ذلك إلاّ لكي يترك الناس الدين ويتعلّقون بالتفسيرات المبتدعة وحسب . وعلى مر الزمان لا يجد الناس أمامهم سوى مجموعة من أحكام وتسويفات لا تمت إلى النص الأصلي بِصِلة. ولا يسع الكواكبي إلاّ أن يقول : { اللهم إن المستبدّين وشركاءهم قد جعلوا دينك غيـر الـدين، حيـث يتسـنّى لـلأوّل تحقيـق مآربـه، فيسـمى تحريـف الـدين عمليـة استلاب فكرية تستعير قوّة نفوذ الدين على العوام لاسترهابهم باسمه . إنّ سلب الناس حرياتهم وحقوقهم لا يحدث إلاّ من خلال هيمنة الجهل على العلم، في حين أن الدين ((لا يكّلف الإنسان قط بالإذعان لشيء فوق العقل)) .

ويناقش الكواكبي مسألة الاستبداد والعلم في مقاله الثلث، فيرى أن أقبح أنواع الاستبداد هو استبداد الجهل على العلم ن ويبين فيه موقف المستبد من العلم والعلماء . فالمستبد لا يخشى علوم اللغة، ولا يخاف من علوم الدين القصيدية المتعلّقة بالآخر وبعلاقة الإنسان بربّه، وإنّما من علوم الحياة، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، ((ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس، وتوسّع العقول، وتعرّف الإنسان ما هي حقوقه، وكم هو مغبون فيها ن وكيف

الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ)) . لذلك يخاف المستبد من العلماء الراشدين المرشدين، ولا من العلماء الذين حشوا رؤوسهم محفوظات كثيرة كأنها مكتبات مقفلة، ولا من المنافقين الذين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطرداً مستمراً)) وليس من مصلحة المستبد أن تتنوّر الرعية ن لذلك يعمل الاستبداد على محاربة العلم الذي لا يُهدم الاستبداد إلاّ به . فيسعى العلماء إلى تنوير العقول، ويسعى المستبد إلى تجهيل الناس معتمداً على العوام، لأنّ ((العوام هم قوّة المستبد وقوته)) يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الجهل الذي يكتنفهم . وفي حين يبذل العلماء جهدهم في بث العلم، لا ينفكّ المستبد يطاردهم وينكّل بهم . أمّا التخلّص من الاستبداد فلا يكون بغير العودة إلى منابع ديننا الحنيف، ونحن نعلم أن الإسلام هو أوّل دين حضّ على العلم، وبيّن أهميته، من خلال أمره بالقراءة أمراً مكرراً . ((والحاصل أنّه ما انتشر نور العلم في أمة قط، إلاّ وتكسّرت فيها قيود الأسر، وساء مصير المستبدّين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين)) لذلك يحاول المستبد أن ينشر الجهل حتى ينقلب الناس إلى مستبدّين صغار في كنف المستبدّ الأكبر، يستعيضون عن المجد هو إحراز الحب والاحترام في قلوب الناس، ولا يُنال إلاّ ببذل المال أو العلم أو النفس، في سبيل الجماعة .

والاستبداد يغالب المجد ليقيم المتجّد الذي هو خاصّة من خصائص الإدارات المستبدّة، وهو التقرّب من المستبد بالنزلّف والمراءاة والنفاق . ويحاول المستبد الإكثار من المتجّدين وتوسيع دائرتهم، لأنّه فرد عاجز لا حول له ولا قوّة بغيرهم . وحاجته إلى عصابة تحميه، تدفعه كي يستوزر أسافل الناس الذين تغريهم مظاهر التمجّد والمفاخرة . ويستعين بالأصلاء الذين ينهمكون في إظهار العظمة واسترهاب الناس .

وكلّما اشتدّ ظلم المستبد، احتاج إلى عدد أكبر من الأعوان ليساعدوه على سياسة الطغيان والفساد . فهل تنتظر الأمة من هؤلاء المتجّدين أن يخلّصوها

من الاستبداد ؟ يجيب الكواكبي : إنّ الأمّة ((ليس لها من يحكّ جلدها غيرُ ظفرها، ولا يقودها إلاّ العقلاء بالتنوير والأهداء والثبات)) . ويؤكّد أن الاستبداد مرض، والمستبد إنسان مريض لا يستطيع الخروج بنفسه من أزمته، وإنّما الذي يخلّصه من مصابه هي الجماهير التي تدرك حدود الداء، وتعرف أعراضه، وتشعر بثقل وطأته وفساد تصرّفاته التي تمتد بأذيتها لتشمل القاهرة والمقهورين، وتنزع عنهم آدميتهم.

وفي فصل (الاستبداد والمال) يحاول الكواكبي أن يبحث في نَسب الاستبداد الذي لو كان رجلاً لقال : ((أنا الشرّ، وأبي الظلم، وأميّ الإساءة وأخي الغدر، وأختي المسكنة،وعميّ الضّر، وخالي الذلّ، وابني الفقر، وابنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أمّا ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال)) . ويعرّف المال بأنّه قيمة الأعمال، ولا يجتمع في أيدي الأغنياء إلاّ بالغلبة والخداع . ويبيح التموّل، لأجل قضاء الحاجات، ضمن ثلاثة شروط هي أن يُحصّل المال بوجهٍ مشروعٍ حلال، ولا يكون فيه تضييق على الآخرين، ولا يتجاوز قدر الحاجة بكثير . وذلك لأنّه يرى أن الاحتكار، والتموّل المفرط وسلب الأراضي المشاع، تساعد على إيجاد نوع من الاستبداد المالي الذي يمهّد الطريق للاستبداد السياسي . وهنا استفادة المؤلف من أفكار (روسو) و (مونتسكيو) و (الفييري)، فضلاً عن معتقداته الإسلامّية ((فالعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويُردّ على الفقراء، بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل)) لذلك فرضت الشريعة الإسلامية الزكاة على الأغنياء .

ويُرجع الكواكبي أعمال البشر في تحصيل المال إلى ثلاثة أصول :

١ . استحضار المواد الأصليّة .

٢ . تهيئة المواد للانتفاع بها .

٣ . توزيعها على الناس .

وهي أصول تسّمى : الزراعة والصناعة والتجارة، وكلّ ملا يتصل بهذه الأصول فهو وسيلة ظالمة لتحصيل المال بغير حقّ .

ثم يشير إلى أنّ الاحتكار يدعم الاستبداد، لذلك يعمل المخلِصون على محاربته، ويحرص المستبد على تعزيزه . إنّ إحدى وظائف الحكومة الأساسية هي ألاّ تسمح بالتفاوت الفاحش بين الناس في الدخول، بينما يجعل الاستبداد الإنسان غير أمين على ثمرات تعبه، لأنّه يقوي الجشع والاحتكار، ويدعم القيم القائمة على اللصوصية، ليحفظ لنفسه غفلة الناس عن ممارساته. وفضلاً عن خلق التفاوت الاقتصادي بين الناس، فإن الاستبداد يشجّع الاكتناز ليدعم الخلاف بين الناس ويجعلهم يتصارعون لينشغلوا عنه بإحراز المال وصرفه في إفساد أخلاق الناس بالفجور ومظاهر التعاظم، وتعويضاً عن السفالة الحقيقية . ويخلص المؤلف إلى نتيجة أنّ الذلّ يرسخ في الأمم التي يكثر أغنياؤها المتبطّلون .

أمّا عن علاقة الاستبداد بالأخلاق فيرى الكواكبي أن للأخلاق دوراً مهمّا في حياة الناس، وتأثيراً كبيراً في الميادين الأخرى . فبالأخلاق تتحدّد علاقة الإنسان بذاته، وبعائلته، وبقومه، وبالإنسانّية . ولا يغيب عن الأذهان مايُلمح في ثنايا أفكار الكواكبي من ربط الأخلاق بالعمل . فبحسب ما تكون أفعاله . من هنا يرى ارتباط الاستبداد بتدنّي الأخلاق، مّما يمكن معه استلاب الآخرين واستغلالهم . والاستبداد لا يكتفي بإهمال الخير، بل إنّه ((يتصرّف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فُيضعفها، أو يفسدها، أو يمحوها)) السياسة الاستبدادية تسود، فيشيع الكذب والنفاق، ويعين الاستبداد الأشرار على إجراء غيّ نفوسهم آمنين من كل مؤاخذة، مما يجعل فقدان الثقة، بالنفس وبالآخرين، ينشر في الأمّة فتتشتت الأسرة، وتكبر صراعاتها الداخلية، ويمسي الفرد معرّضاً لسلب ماله وعرضه وكرامته، ولا يلقي في حياته سوى الملذّات البهيمية، وهو يأمل بموت قريب .

ويحذّر الكواكبي من أن تنطلي على الناس حيلة تقديم الاستبداد نفسه على أنّه الأمل الوحيد في التقدّم، وأنّ فيه من الخيرات مالا تناله الإدارة الحرّة ((وقد يظنّ بعض الناس أنّ للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الحرة، فيقولون مثلاً : الاستبداد يليّن الطباع ويلطفّها)) ويعلّم الناس على حسن الطاعة والاعتدال، ويقلّل الفسق والجرائم . ولكنّ ذلك غير صحيح، لأنّ تلطيف الطباع يحصل عن فقدان الشهامة، وتعلّم الطاعة يكون عن خوف، ولأنّ التعلّق يسمّى . في زمن الاستبداد . اعتدالاً، والفسق قد يبدو قليلاً، ولكنّ ذلك يرجع إلى تستّر أصحابه . كما تنقلب تسمية الجريمة، من تعدٍّ على الحقوق، إلى حقّ الاكتساب والإثراء والحظوة . وما ذلك، بوجود حسنات للاستبداد ؟

وهنا نرى الكواكبي يتجاوز (محمد عبده) الذي يطالب بالمستبدّ العادل ((مستبدّ يُكره المتنكّرين على التعارف، ويلُجيء الأهل إلى التراحم)) . كما يرفض قول (الأفغاني) الذي يتيح المجال لاستبداد رجل قويّ عادل . والكواكبي لايرى في المستبدّ العادل المتوهَّم سوى استبدال مستبد بآخر، مما يطوّر الاستبداد ولا يمحوه، وذلك لأنّ الحاكم لا يمكن أن يقيم عدلاً مع الاستبداد، لأنّ عدالة السياسة هي في إشراك المحكومين بالحكم . ويفرّق بين الاستبدادين : الشرقي والغربي، هي في أسلوب ممارسة الاستبداد . فيلاحظ أنّ المستبدّين المغربيين لا يمنعون العلم كله، وإنما يحرصون على عدم انتشار أفكار الحرّية والحقوق، لكنّ الشرقيين يحاربون العلم مهما يكن موضوعه .

والسياسيون جميعاً يهمّهم جمع المال، لكنّ الفرق بين الغربيين والشرقيين، هو أنّ المستبدّين الغربيين يشاركون الأمّة في كسبها، بعد أن يعينوها عليه . أمّا الشرقيّون فهم)) لا يفتكرون في غير سلب الموجود)) . والاستبداد الغربي طويل الأمد، لكنّه يتّصف باللين . أمّا الشرقي فإنّه سريع الزوال، شديد الوطأة يخلّف مكانه لاستبداد أسوأ من سابقه .

وعموماً، فإنّ المجتمعات الغربيّة قد تحولّت من الاستبداد إلى الاستعمار،

أمّا الاستبداد الشرقي فإنه يتوجّه بممارسة العنف نحو مواطنيه .

وفي (الاستبداد والتربية) يرى الكواكبي أنّ الله خلق الإنسان وفيه استعداد للصلاح والفساد . والتربية هي التي تدفع الإنسان في إحدى الطريقين، وهي تنشأ بالتعليم والمران والقدوة الحسنة، فأهمّ أصولها وجود المربيّن، وأهمّ فروعها وجود الدين . والاستبداد يفسد الأصول والفروع، فيحرف التربية عن مرماها الصحيح، ويقوّي خصال الكذب والخداع والنفاق. إنّ الحكومة المنتظمة تتولى تسهيل التربية وتعميمها من خلال قوانين ترسمها لخدمتها، لذلك يعيش الإنسان، في ظلّ دولة الحريّة، سعيداً ونشيطاً على العمل، عدّته التربية الصالحة . أمّا أسير الاستبداد فيعيش شقياً خاملاً لا هدف له وراء تربية أبنائه، لأنّه يجد سطوة الاستبداد تفسد ما يبنيه. وهو لا يحرص إلاّ على إخفاء ((ذهبه وذهابه ومذهبه)) . وهذا يعيش الأسير ((يودّع سقماً، ويستقبل سقماً، إلى أن يفوز بنعمة الموت، مضيّعاً دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه)) يبغض المستبدّ ولا يقدر عليه فيصرف بأسه في معاداة أهله وجيرانه .

وكأنّنا بالكواكبي . هنا . يردد صدى الآية الكريمة : { * وَمَنْ كَاَنَ في هَذِهِ أعمىَ، فَهُوَ في الآخِرَةِ أعمَى، وأضلّ سبَيلاً * } .

والتربية، عند الكواكبي، ليست تلقيناً وتحفيظاً بحيث تغدو والنفوس مقبرة للكتب، بأسلوب الترغيب والترهيب، وإنّما هي عمليّة تقوم على الحوار والإقناع، وتتأثّر بالمحيط وبالوراثة . فأنّى للإنسان القدرة على تحقيقها في ظلّ الاستبداد الذي يحرّم التفكير والحوار ! .

لقد استطاع المؤلّف أن يصوّر التربية في مراحل علاقتها بالاستبداد : كيف تمهّد له حين تُهمَل، وكيف يألف الناس غيابها في ظلّه، وكيف ينتشر النفاق خشية أذى المستبدّ، ثم لا يلبث الاستبداد أن يهدم ما قد تبنيه التربية من جانب بعض العلماء الذي يصرّون على إحيائها، ويربّي الناس على التلقّي والطاعة من غير أن يستخدموا عقولهم .

إنّ حديث الكواكبي عن الدين والعلم والتربية حديث متكامل، ويتعلّق بتبيين علاقة الاستبداد بالفكر، وينتهي إلى رفض الاستلاب، وإلى الدعوة لإنشاء فكر متنوّر، مبيّناً أنّ التراخي وغياب النقد يؤدّيان إلى تسطيح الدين وإلى الجهل الشامل والتربية المفقودة . وحين يصل الكواكبي إلى (الاستبداد والترقّي) يقدّم لهذا المقال بتحديد الترقّي انطلاقاً من أنّ الحركة هي سنّة الخليقة، وأنّ الترقّي هو الحركة الحيوية التي تقابل حركة الهبوط أو الموت، وأنّ الأمم يمكن أن تتميّز من خلال ملاحظة الحركة الغالبة عليها، هل هي حركة شخوص أم هبوط . ثم يعرّف الأمّة بأنّها مجموعة أفراد يجمعها نَسب أو وطن أو لغة أو دين، وهي تترقّى مع ترقّي ويحوّله إلى الانحطاط . وقد يظن بعض الناس أنّ الدين يقف حائلاً بين الناس والترقّي . ولكنّ الحقيقة أنّ الأديان الصحيحة إنّما جاءت لترقية الإنسان وتهذيب أخلاقه .

ثم يوجّه الكواكبي العاقلَ الحريص على إيقاظ قومه، فيشرح له كيف يرشدهم إلى الترقّي، ويذكّرهم بعِبر التاريخ، وبأهداف الدين، حتّى يصل بهم إلى طلب حكومة منتظمة تواجه الاستبداد وتتمسّك بالشرع، حتى يصير التشريع في يد الأمّة، وتنتشر المحاكم التي تحاكم الناس على قدر المساواة، وتعمل الأمة على مراقبة عمل الحكومة حتى لا تتعدّى حدود وظائفها ولا تقصّر عنها.

هكذا يلاحظ الكواكبي أنّ أعظم الشرور التي يولدها الاستبداد، إنّما يتمثّل في عرقلة الترقّي وتحويل سير الأمّة إلى الانحطاط . ومن هنا أيّ تذرّع بالطغيان لأجل تحقيق التقدّم هو تذرّع مرفوض، لأنّ الاستبداد يقوم على التبعية التي لا يمكنها تحقيق التقدّم على أيّ صعيد . إنّ الاستبداد يعمل على قمع حريّة العلم والدين والفكر، فكيف يمكنه، بعد ذلك، ادعاء طلب التقدّم ؟

لقد شرح الكواكبي طبائع الاستبداد وعلاقاته، وألّم بأشكاله الرئيسة، لكنّه قصّر عن التفصيل في تأثيراتها، وهذا مشروع تاريخيّاً وواقعياً، لأنّ الوعي

بالاستبداد لم يكن ليبدو واضحاً . آنذاك . إلاّ في شكل حكومة متسلّطة . فلم يكن من الممكن أن يتم إدراك إمكانية تلاعب صاحب الثروة بالقيم الاجتماعية جميعها، بما في ذلك النظام السياسي نفسه . ولم تكن وسائل الإعلام قادرة على تحويل الرأي العام وتسطيحه، كما تفعل اليوم بما لديها من تقنّيات هائلة وإغراءات متنوّعة .

لكنّنا، من جهة أخرى، لا ننكر وجود إشارات غامضة عنده لمثل هذه التأثيرات . ولكنّ الحكومة، كما لا حظ الكواكبي . بحق، هي صاحبة الكلمة الأولى التي تتيح المجال لاستبداد المؤسسات الأخرى التي يسهل عليها أن تتأبّط . بما تملكه من قوّات . الفكر والثروة والسلاح .

وقبل دعوته إلى (التخلّص من الاستبداد) ينادي الكواكبي بحكومة عادلة، شارحاً للناس فضائلها، حيث يعيش الإنسان في ظلّها أميناً على حياته وملذاته وحرّيته، يتمتّع بالعدل والمساواة، لا يخاف على ماله من مغتصِب، ولا على كرامته من مستلِب، ((وأنفع ما بلغه الترقّي في البشر، هو إحكامهم أصول الحكومة المنتظمة ببنائهم سدّاً متيناً في وجه الاستبداد)) . وللوصول إلى ذلك يدعو المؤلّف إلى استقراء الأحداث، واستخلاص العِبر من التاريخ الطبيعي، حيث مرّ الإنسان بأدوار مختلفة في الحياة من ((دور الافتراس)) إلى ((دور الاقتناء)) إلى ((دور التحضّر))، فتجبّر وتسلّط، وصار قانونه إلى العلم، وتنوّعت أشكال الحكومات ولم يستقر الناس على شكلٍ مرضٍ عام .

ثمّ يعدّد خمسة وعشرين مبحثاً يراها رؤوس مسائل لابُدّ أن تُطرح للتدقيق من أجل التوصّل إلى شكل مقبول للحكم، وهي : ما هي الأمة أو الشعب، ما هي الحكومة، ما هي الحقوق الحاكمية، طاعة الأمة للحكومة، توزيع التكليفات، إعداد المنعة، مراقبة الحكومة حفظ الأمن، حفظ السلطات السياسية والدينية والتعليم، الترقّي في العلوم والمعارف، التوسيع في الزراعة والصناعة والتجارة، السعي في العمران، السعي في رفع الاستبداد .

ويبدأ بالحديث عن الموضوع الأخير مبيّناً أن رفع الاستبداد مشروط بثلاث قواعد :

١ . شعور الأمّة بآلام الاستبداد .

٢ . مقاومة الاستبداد باللين والتدرّج .

٣ . تهيئة البديل .

ويحمّل، أخيراً، مسؤوليّة الاستبداد الأمم التي تقبل الذلّ، وذلك لأنّ الأمّة مسؤولة عمّن تحكّمه عليها . ثم ينهي كتابه بخاتمه بشرى لأنّه يلاحظ أنّ الناس بدؤوا مجتمع يحكمه العدل، وتسوده المحبّة والإخاء .

*　　　　*　　　　*

من خلال سَبرِ ما جاء في ((طبائع الاستبداد)) نلاحظ أنّ الاستبداد فعل من أفعال من يملك نوعاً من القوّة الماليّة أو العدديّة أو الفكريّة أو الوراثيّة، ثم يحاول أن يحوز على باقي القوى ليتوّجها بالقوّة السياسيّة التي تجعل القوى الأخرى مجرّد توابع تتعاون معها للحفاظ على مكتسباتها من وجود واقع فاسد .

وأنّ الاستبداد يكوّن مجتمعاً استبدادياً تسيطر عليه معقّدة من الآسرين الذين يخضعون الناس فيجعلونهم أسرى يبغضون المستبدّ ولا يقوون على محاربته، لذلك يتعادون فيما بينهم، ويظلمون ضعفاءهم ونساءهم، فيصبح كلّ إنسان مظلوماً من جهة، وظالماً من جهة أخرى . ويبرز من بينهم شخص يستلم زمام السلطة السياسية فيتّحد به الآخرون متأثّرين بالدعاية . وهذا النفوذ لا يأتيه عن طريق مؤهلاته الشخصّية وإنمّا يستمدّه من سلسلة الأكاذيب التي يطلقها هو وأعوانه، فيكثر عدد الذين ينبغي للمواطنين الانصياع لأوامرهم .

كما اتّضح أنّ للاستبداد أثراً بكل ماله علاقة به، فيحّول الدين إلى وسيلة استلاب ن ويمنع تداول العلم، ويفسد الأخلاق والعلاقات الإنسانيّة، ويعزّز التفاوت بين الناس ليبقيهم في صراع دائم حول الامتلاك، ويجعلهم يتدافعون

لإحراز الثروات .

وتبيّن أنّ الاستبداد ضدّ التقدم، لهذا لا بدّ من هدم صرحه ودك حصونه واستبداله . وتركزّت بدائل الاستبداد في فكر الكواكبي بالمساواة والعدالة والحريّة والشورى الدستوريّة .

وقد ارتبطت المساواة عنده بالعدالة وشدّد على الجانب السياسي لهما . كما احتلّت الحريّة مكانة كبيرة لديه، وخاصة حريّة الاعتقاد والتفكير، وحتّى المشاركة السياسية . وقد ربط الحرية بالوعي إذ لا حرية من دون القدرة على امتلاكها معرفيّاً وشعورّياً وماديّاً .

وكان هدفه الأكبر تحقيقَ الشورى الدستورّية حيث يشارك المواطنون الحكومة في صنع مصائرهم، عن طريق أهل الحل والعقد في الأمة، ثم جمع تلك البدائل كلّها في الإسلاميّة التي وجد أنّها حلّ شامل لمشكلات أمتّه .

وقد كان منهج الكواكبي في رفع الاستبداد يعتمد الأسلوب التدريجي الذي ينهض بتكاتف العقول الواعية في الأمةّ، والتي تنظّم أساليب القيام بالإصلاح الديني تمهيداً للتغيير السياسي .

كما جاءت آراؤه في رفض الاستبداد متوافقة وسيرة حياته، بدءاً من منصب قضائي في ((راشيّا))، وانتهاء بموته الغامض كدليل حاسم على صلابة مواقفه، واستمرار تناسقها، إلى نهاية حياته .

وهو مفكّر ينطلق من الواقع، ويفكّر بطريقة واقعيّة، فهو لم يكتف بالناحية السلبية التي تصف الاستبداد، بل لقد در طرائف مواجهته بالعلم والتعاون وتجاوز الخلافات المذهبيّة العدالة يجب ألاّ تكون الحكومة مركزيّة، وأن يكون فيها قانون عادل وملائم لا يخالف أصول الإسلام .

الفصل الرابع

التطوّر الفكري للكواكبي

من أم القرى إلى طبائع الاستبداد

من الأهمّية بمكان تحديد مسار فكر الكواكبي، لأنّنا ـ من خلاله ـ نستطيع معرفة القول الفصل الذي رمى إليه، في حال ورود رأيين متخالفين حول مسألة اشترك كتاباه في علاجها .

فأيّ الكتابين أسبق، وأيّهما الذي يُعتبر أكثر حسماً في نهاية الأمر ؟

تقول (سهيلة الريماوي) في إحدى مقالاتها : ((أُرجّح كتابة كتاب طبائع الاستبداد، قبل كتاب أم القرى)) [١] . وهي ترجّح ذلك على أساس أنّ ((طبائع الاستبداد)) بحث نظري في حين أنّ الكتاب الآخر يستند إلى الأفكار النظريّة الواردة فيه، محللاً وضع العرب والمسلمين بالنسبة إليها[٢].

والنقطتان الأساسيتان اللتان نأخذهما على آراء (الريماوي) هما : أولاّ، إنّ الكواكبي بعد أن درس واقع الحال في ((أم القرى)) استخرج منه النظريّة التي

(١) سهيلة الريماوي "عبد الرحمن الكواكبي" في دراسة تاريخية، العددان ٢٣ – ٢٤، ص ١٣.

(٢) يُنظر: م.ن، ص ١٢.

ضمّنها كتابه الثاني، وليس من المعقول أن يكون قد صاغ بحثاً نظريّاً من التأمل الخالص من غير أن يستند إلى أرضيّة واقعيّة أو يستوحي منها .إنّها مسألة استقراء، ولا يمكن أن يتم الأمر على أنّه مصادفة . فهل يكون الكواكبي قد وضع نظريّة . أو تصوّراً . ثم لاحظ انطباق تصوّره على الواقع ؟ إنّ مثل هذا التحليل لا يعدو أن يكون ضرباً من الخيال . وهو، وإن حاز نشوة الاكتشاف، بعيد عن جادة الصواب بدليل ما سنأتي على ذكره من معطيات .

أمّا النقطة الثانية، وهي متعلّقة بالنقطة الأولى على نحو جلي، فهي ترجيحها لأسبقيّة ((طبائع الاستبداد))، والتي يشاركها في التأكيد عليها (جورج كتورة) الذي بنى نتائجه كلّها على هذا الأساس، وهذا ما جعله يفهم الكواكبي فهماً خاصّاً . لقد درسه من خلال ((طبائع الاستبداد)) فقط، كما أشار إلى ذلك في مقدّمة بحثه[١]، ثم فاجأنا بأنّ خلاصة ما توصّل إليه من آراء الكواكبي في الإصلاح والثورة، إنّما استقاها من ((أم القرى)) [٢] . لكنّنا إذا تأملنا الأمر ملياً، مستندين إلى ما لدينا من وثائق، من كتابَي الكواكبي وصحيفتيه، التي تُعتبر بمثابة مقدّمات تقودنا موضوعياً، فإنّنا نلاحظ أنّ الاستبداد كان في ((أم القرى)) أحد أسباب الفتور، ثم أصبح في ((طبائع الاستبداد)) هو الداء الذي يجب التخلّص منه . وكان هدفه في ((أم القرى)) بيان الحالة الحاضرة من الخلل الحاصل، الذي افترض . مبدئيّاً . أنّها من الجهل الشامل، وأنّه لا بُد من الإنذار الأمّة بسوء العاقبة و ((توجيه اللوم والتبعة على الأمراء والعلماء والكافّة لتقاعدهم عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة)) [٣] . وقرّرت جمعية أم القرى أنّ المسلمين في حالة فتور يجب تداركه بالعلم[٤] . بينما قفز الاستبداد

(١) جورج كتورة، طبائع الكواكبي في طبائع الاستبداد، المقدمة.

(٢) يُنظر: م.ن، أماكن متفرقة وبخاصة ص ١٤٥.

(٣) أم القرى، ص ١١.

(٤) يُنظر: م.ن، ص ١٩١ – ١٩٢.

إلى سطح أسباب الفتور في ((طبائع الاستبداد))، فكان هدفه منه تبيين طبائع الاستبداد وما يفعله وما يؤثّر به في المجتمع، وتبيين من أين يأتي الاستبداد، وما هي أسبابه ؟[١] وهذا ينسجم مع مطالب الكواكبي من ضرورة التخصّص وأهميتّه، ذلك لأنّ التخصّص يقود إلى معرفة الداء، ومن ثم إلى معرفة الدواء[٢] .

هذا فضلاً عن الكواكبي يقول في ((أم القرى)) إنّه ضبط مفاوضات لمؤتمر منعقد في (١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م) بينما جاء في مطلع ((طبائع الاستبداد)) أنّه في سنة (١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م)، بعد بحث دام ثلاثين سنة، استقر فكره على أنّ الاستبداد هو أصل الداء، وقد نقّح طبائع الاستبداد غير مرّة[٣] . ثم اكُتشف تعديل في مخطوطة طُبعت بعد وفاته، ممّا يدلّ على أنّ ما جاء في طبائع الاستبداد، المعدّل، هو آخر ما توصّل إليه الكواكبي من آراء . وليس كلام (كامل الغزي) [٤] في أنّه أطّلع على ((أم القرى)) في حلب مراراً، ولم يطّلع على الكتاب الثاني، إلاّ خير دليل على أنّ كتاب الطبائع لم يكتمل إلاّ في مرحلة متأخّرة نسبياً . ولا يمكن أن يكون عدم اطّلاع أصدقاء الكواكبي عليه خوفاً من جواسيس الحكومة العثمانّية لأنّ في ((أم القرى)) هجوماً على الحكومة أكبر من ذلك الذي نجده في ((طبائع الاستبداد)) .

ويؤكّد أسبقية أم القرى على طبائع الاستبداد كلّ من : (أسعدالكواكبي)[٥] و (سامي الدهان) [٦] و (قدري قلعجي) [٧] و (نوربير تابييرو) [١] و (محمود

---

(١) طبائع الاستبداد، ص ١٥.

(٢) أم القرى، ص ١٧٦. أيضاً: الكواكبي، الأعمال الكاملة، تح محمد عمارة، ط ١٩٧٥ م، القضايا /٢٧ – ٣٠/ وبخاصة البند الثالث من القضية ٢٧، ص ٣٣٤٥ – ٣٤٦.

(٣) طبائع الاستبداد، ص ١٣.

(٤) ينظر: سامي الدهان، عبد الرحمن الكواكبي، ص٤١.

(٥) ينظر: أسعد الكواكبي "عبد الرحمن الكواكبي" في الحديث، العددان /٩ – ١٠/، ١٩٥٢ م، السنة ٢٦، ص ٥٤٨.

(٦) يُنظر: سامي الدهان، م.س، ص.ن.

(٧) يُنظر: قدري قلعجي، عبد الرحمن الكواكبي، ص ٦٩.

السمرة) [٢] . كما يؤكد ذلك أيضاً كلّ من : (محمد عبد الرحمن برج) [٣] و (محمد عمارة) [٤] (فهمي جدعان)[٥] و (محمود مصطفى حلاّوي) [٦]، وغيرهم كثير . ولعلّ حلاّوي هو الأكثر تأكيداً على ذلك، وهو أحدث من كتبوا حول هذا الموضوع، إلاّ أنّه يذهب بعيداً في استنتاجاته بحيث لا يمكننا أن نوافقه إلاّ على بعض ما جاء فيها. فبالرغم من أسبقيّة ((أم القرى)) على ((طبائع الاستبداد))، فإنّ ظروف نشر الكواكبي مقالاته عن الاستبداد بُعيد وصوله إلى مصر تجعلنا نرجّح أنّ فكرة ((طبائع الاستبداد)) كانت موجودة في ذهنه قبل سفره، وربما، كتب أغلب آرائه في تلك الفترة . وما الخلاف الدائر حول هل كتب ((طبائع الاستبداد)) في حلب أم لا، مع التأكيد على كتابة ((أم القرى)) قبل مغادرة حلب، إلاّ دليل جديد على أنّ ((طبائع الاستبداد)) جاء بُعيد ((أم القرى))، من الناحية الفكريّة على الأقل . وهذا يتفّق مع ما أورده (حلاّوي) من أنّ ((أم القرى)) جاء قبل الكتاب الثاني، وإن كان (حلاّوي) يغالي كثيراً في رأيه من خلال اعتقاده بالفارق الكبير ، من حيث الأفكار، بين الكتابين .

شيء آخر، لو كان ((طبائع الاستبداد)) كُتب قبل ((أم القرى))، لكان أجاب عن بعض المباحث التي طرحها في نهايته، قبل أن يكتب ((أم القرى)) والكواكبي يبتدئ فعلاً بالإجابة عن السؤال الأخير الذي طرحه في ((طبائع الاستبداد)) ، والذي يعتبره الأهم، ألا وهو : السعي في رفع الاستبداد .

نستطيع أن نستشفّ ممّا سبق أنّ البحث عن الداء كان في كتابه الأولّ ((أم القرى)) الذي حاول فيه تبيين وضع الشعوب الإسلاميّة بعامّة، والعرب

---

(١) نوربير تابييرو، الكواكبي المفكر لاثائر، ص ٥٥.

(٢) يُنظر: **MAHMOUD, AL SAMRA, Christian mission.. PP. 145 - 150.**

(٣) يشنظر: مححمد عبد الرحمن برج، عبد الرحمن الكواكبي، ص ١٠٢ و ١١٨.

(٤) يُنظر: الكواكبي، الأعمال الكاملة، تح محمد عمارة، ط ١٩٧٠ /، ص ١١٨.

(٥) يُنظر: فهمي جدعان، أسس التقدم...، ص ٢٩٠.

(٦) يُنظر: محمود مصطفى حلاوي"عبد الرحمن الكواكبي " في دراسات عربية، عدد ٢، ١٩٨٧، ص ٥٣ وما بعدها.

بخاصـة، ومـا هـم عليـه مـن ضـعف وفسـاد، والـذي حـاول فيـه أيضـاً أن يضـع حلـولاً مناسـبة للخـروج مـن الأزمـة . لكنّـه، بعـد البحـث الطويـل، أدرك أنّ الاختصاص في العلّة يؤدي إلى الاختصاص بالحل، ممّا قد يكون أكثر فائدة من تمييع الأمور . وهكذا حاول التعرّف إلى هذا العدو (= الاستبداد) في كتابه الثاني، ليتمكّن . بعد ذلك . من مقاومته و إقامة البديل . وربما أمكننا القول إنّ الكتـاب الثـاني هـو بمنزلـة دراسـة مكّملـة لمـا رأى مـن ثغرات أو تعديلات مـن الواجب إدخالها على الكتاب الأوّل في موضوع الاستبداد . وليس أدلّ على ذلـك مـن العبـارات المتشـابهة التـي يوردهـا الكـواكبي فـي كـلّ مـن صـحيفتيه وكتابيـه. مـن هنـا تـأتي أهمّيـة إدراك أنّ ((طبـائع الاسـتبداد)) جـاء بعـد ((أم القرى)) . وبالرغم من أنّ البدء في كتابة الكتابين كان متساوقاً تاريخياً، فإنّ فكرة ((أم القرى)) هي التي أوحت بفكرة ((طبائع الاستبداد))، وليس العكس . يبقـى أمامنـا اسـتبعاد فكـرة (حـلاوي) القائلـة بوجـوب اعتبـار كتـابي الكـواكبي منفصـلين تمامـاً ويدرسـان شـيئين مختلفين[1]. لأنّ ذلـك بمنـزلة تجـزيء لفكـر المفكّر، يشكلّ عقبة على طريق فهمه . أمّا ما يدعو إليه (حلاّوي) من ضرورة ملاحظة المنحى التطورّي بين الكتابين، فهو ما نسعى إليه في أثناء بحثنا كلّه. ولأنّنا لم نلاحظ أيّ اختلاف بين الكتابين حول الاستبداد وطبائعه، لذلك فإنّ الكلام على الاستبداد جاء متساوقاً من الكتابين معاً. وهنا نجد أنفسنا متفّقين تماماً مـع مـا أوردتـه (الريمـاوي) [2] مـن وجـوب دراسـة الكتـابين معـاً . أمّـا فـي أثناء دراسة بدائله في كتابيه، فإنّنا، لما فيهما من اختلاف نسبي حول البدائل، نجد أنّ الملاحظة التي طرحها (حلاّوي) تُعتبر ركيزة أساسية على طريق فهمه الصحيح .

---

(١) يُنظر: محمود مصطفى حلاوي، م.س، ص.ن.

(٢) يُنظر سهيلة الريماوي "عبد الرحمن الكواكبي" في دراسات تاريخية، العددان /٢٣-٢٤/، ١٩٨٦، ص ١٢.

الفصل الخامس

علاقة الدين بالدولة
بين أدلجة الدين ونقائه

لخّص الكواكبي في الاجتماع السابع من مؤتمره الأسباب الدينية للفتور، والتي مهّدت لهذا الانحطاط الذي أحاط بالمسلمين من كل جانب، وجعلت العقيدة الدينية وقفاً على بعض المنظّرين يفسرونها كما يهوون. إن ذلك جاء من انتشار الجهل والكسل، إذ تراخى العلماء والكافة مما سمح لعقيدة الجبر بالتأثير على الناس، وأصبح الناس يتعلقون بالمزهدات التي روّج لها المدلّسون. والفتن التي أدخلت في متاهات الجدل في العقائد الدينية مما ولّد التفرق في الدين إلى شيع ومذاهب، وأفشى الذهول عن سماحته وسهولة التدين به[١] . كما سمح بدخول ممارسات وعادات لاعلاقة للإسلام بها. رافق ذلك تشدد ومغالاة في الدين، في حين راح بعض المتعممين يخلطون في تفسير الآيات بسبب جمود كثير من العلماء وتشددهم بالاكتفاء بتفسيرات السلف[٢] .

والكواكبي، بدوره، ينقد الشيوخ المهملين الواهنين، ويعتب على رؤساء

(١) ينظر: الواكبي، أم القرى، ص ١٥٨ – ١٦٠.

(٢) ينظر: الكواكبي، طبائع الاستبداد، ص ٤٠ – ٤١.

العلم والدين. وهو بذلك يشترك مع (محمد عبده) الذي وجّه نقداً إلى (أهل الجمود) في كتابه "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، رافضاً أن يتقيّد المتأخّر بما قاله المتقدّم بخصوص الاجتهاد[١]. ورأى الكواكبي أن حل هذه المشكلة يكون في حملة دعائية صحفية تقضي على تراجعهم وجمودهم، لأنهم هم الجسر الذي يعبر عليه الجهّال لإنشاء الاستبداد الديني. إن الكواكبي يدرس، هنا، المنحى النفسي للتدين، أسبابه، تطوره، ومواقف الناس تجاهه. ويشرح لنا كيف أن بعض المراوغين يستغلون هذه الحاجة النفسية في الإنسان ليسيّروا مصالحهم عبر إحداثهم فجوة في النفس البشرية عند البسطاء. إن الإله يملك المعرفة كما يمتلك القوة.. قوة أن يحيل الكائن إلى عدم، بل هو المعرفة والقوة. وتمثّلاً بالإله يحاول المستبد تجهيل الناس ليبدو هو العارف الوحيد، مستعيناً على ذلك بزبانيته المؤدلجين، ويسلب القوة ليبقى وحده مسلحاً بجيش من المرتزقة، ليمكنه بعد ذلك أن يدّعي الألوهية. فالاستبداد السياسي تسبقه، وترافقه، إيديولوجياً متلبّسة بالدين، تمهّد له.. فيحلّ الحاكم محلّ الإله.. ويصبح هو المنوط بوضع الشرائع. من هنا يأتي تغليب السلطة على الشريعة، ويدخل المستبد في طور مشاركة "الله" في الجبروت. إن المشكلة جاءت إذاً في تشويش الدين والدنيا على العامة من قبل العلماء المدلسين الذين أفسدوا الدين، في حين وقف العلماء الحقيقيون موقف المتفرج، ولما رأى المتعممون أنه لم يعد بوسعهم الحفاظ على مراكزهم مقابل السياسي الذي يمتلك القوة، انضموا إليه مبشرين بعظمته. إن هؤلاء المدلسين حافظوا على مراكزهم بالتواطؤ مع الساسة الذين بدورهم، استغلوا سلطة المتعممين لإخضاع العامة، وعملوا على إرضائهم والرفع من شأنهم. فأنشأوا لهم تكايا البطالين الذين، مقابل عطاياهم، يشهدون لهم بالقدرات الخارقة التي يسترهبون بها الناس، ويجعلونهم ينصاعون

(١) ينظر: فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام... ص ٢٠٤ – ٢٠٥.

لأوامرهم، ويعتقدون بما يقولونه عن عظمة أصحاب الجلالة العظام.

إن المتعممين والسلاطين تبادلوا الألقاب المفخمة (والمفخخة)، وتعاونوا على إرساء القواعد الاستبدادية في مناطقهم، ولم يأبه أحد بالويل الذي وقع على رأس العامة من جراء هذا الاتفاق[١].

إن السياسة تتكاتف مع مدّعي التفقّه في الدين، إذ يعطي كل منهما الآخر ما ينقصه ليبني استبداده. فالديني يملك الفكر الذي يمكنه بواسطته أن يسيطر على الأمة، إلا أنه يفتقد القوة التي بها يحافظ على استبداده، فيلجأ إلى الاستعانة بالسياسي الذي يمده بتلك القوة التي تسد ثغرة المعرفة بالعنف[٢].

إن السياسيين يحاولون، عن طريق الترغيب أو الترهيب أو التضليل، الاستعانة بالمتنفذين الدينيين لإعادة صياغة الدين، لا لتجديده وإنما لأدلجته، محاولة منهم لتبرير أفعالهم في الحاضر. وهكذا الديني يتمفصل مع السياسي لإشاعة الاستبداد.

إن الكواكبي يرد على من يرمي الإسلام بالاستبدادية، ويرى أنه لا ولاية لأحد في الإسلام، وإنما الخضوع "لله وحده"[٣]. ويبدو أن هذا الرد موجه، بشكل خاص، إلى مفكرين اثنين، (الفياري) حيث يرى أن الأديان كلها تؤيد الاستبداد، و(مونتسكيو) الذي يرى أن الحكومة المعتدلة تلائم النصرانية، والمستبدة تلائم الإسلام. يقول مونتسكيو في مؤلفه السياسي:

إن ((الدين النصراني بعيد من الاستبداد المحض، وذلك أن الإنجيل يبلغ من الإيصاء بالحكم ما يعارض معه الغضب الاستبدادي الذي ينتقم الأمير به لنفسه ويزاول جوره)) [٤].

---

(١) يُنظر: أم القرى، ص ٣٩ – ٤٩.

(٢) ينظر: طبائع الاستبداد ، ص ٣١.

(٣) ينظر: م.ن، ص ٥١.

(٤) مونتسكيو، روح الشرائع، تر: عادل زعيتر، مج٢، ج٥، باب ٥٤، فصل ٣، ص ١٧٨ – ١٧٩.

ومونتسيكو مع مثالية تصوراته الأخلاقية الصرف عن الحل الذي فسّر بموجبه سماحة الحاكم الذي يعتنق النصرانية، نجده يهاجم الإسلام، الذي يبدو أنه يجهل حتى أبسط مبادئه، قائلاً: ((فالإسلام الذي لا يتكلم بغير السيف يؤثّر في الناس بروح الهدم التي أقامته)) [١] . ويمضي الكواكبي، في رده على مثل تلك الأقوال، مضيفاً أنه ((لامجال لرمي الإسلامية بتأييد الاستبداد))، لأن الدين الإسلامي أباد الميزة والاستبداد، وهدم الشرك، ومنع التقرب إلى "الله" بواسطة أحد، كائناً من كان، ودعا إلى الحرية في القول وفي العمل[٢].

وليس الإسلام وحده الذي يفعل هذا، بل إن الأديان المعززة بالكتب السماوية، كلها بحسب رأي الكواكبي، تدعو إلى الحرية وترفض الاستبداد. لقد ((بني الإسلام بل وكافة الأديان على لاإله إلا الله، ومعنى ذلك أنه لا يعبد حقاً سوى الصانع الأعظم) [٣] فمن أي باب دخل الاستبداد إلى الدين؟ المشكلة ليست في بنية الدين نفسه، بل فيما دخل إليه من تصورات زيفته حتى غدا مختلفاً كل الاختلاف عن هذا الذي نراه في ممارسات الناس.

= الاستبداد الديني ما هو إلا استلاب فكري– نفسي:

إن المسألة تقوم، في تصور الكواكبي، بين استبداد المتعممين واستبداد الحكام، وحين لا يجد الأوّلون القوة لبسط سيطرتهم، ينضوون تحت جناح السياسيين، ويتحالفون معهم لقهر العامة، أو يتحولون هم أنفسهم إلى حكام مدججين بقوة السلاح.

فالاستبداد الديني لم ينشأ إلا لغرض سياسي. وهذه ملاحظة دقيقة أدركها الكواكبي، لأننا إذا استرجعنا التاريخ الإسلامي نؤكد مع (فلهوزن Wellhausen)

(١) م.ن المعطيات نفسها، فصل ٤ ، ص ١٨٠/١٨١.

(٢) ينظر: طبائع الاستبداد،ص ٣٤ – ٣٥ و ٣٩.

(٣) ينظر: م.ن ، ص ٥١.

أن الاختلاف في الآراء بين المسلمين لم يحدث إلا بعد معركة (صفّين) [1]. إن الدين تحوّل عن حقيقته بضغط من مشيئة أناس أرادوا الاستئثار بالسلطة السياسية لأنفسهم.

ولا مندوحة عن ملاحظة أن ذلك لم يكن استبداداً دينياً بقدر ما كان سياسياً متلبساً بثياب الدين. إن السياسي استغل الدين ليتمكّن من تنفيذ مآربه، وذلك لعلمه بمدى احترام الناس المعطيات الدينية. إنه استلاب فكري- نفسي، ولا يعدو أن يكون الشكل الأولي من أشكال الاستبداد. إنه ليس استبداداً دينياً، بأي حال، ما دام الكواكبي يدافع عن الدين الحق. إنه، فقط، يتهم ويهاجم الدين الوضعي/ المؤدلج، وهذا ما يوصف بالاستبدادية، وهو ليس بدين أصلاً، بحسب معطيات آراء الكواكبي. وما هو إلا أفكار تطرح وتورث وتعلم بالقوة ليتم اتباعها. إنه استبداد فكري/ ثقافي لاعلاقة له بالدين إلا من خلال استخدام المفاهيم الدينية لحصول الاستبداد الممهد والمرافق والناتج عن الاستبداد السياسي.

وهذا الذي حرّف الدين لم يهتم بممارسة العبادة كحركات وأفعال خاصة، إنما اهتم بالدين – الأخلاق لما للأخلاق من تأثير في المجتمع، فحاول إفساده. وهذا مايريده المستبد، أن يفرض عادات معينة تؤثر في السلوك العام للأشخاص، لا تلك التي تبقى بين الإنسان وربه إلا ما قد يفسد منها صفو المستبد ويبعد عن تأليهه. هذه هي النقطة التي يركز عليها المستبد في استغلاله نفوذ الدين على الناس. يقول (لوبرا): ((الممارسة الدينية لا تفرض على الشعوب مناهج ومواقف فحسب، بل كذلك، وإلى حد ما، مأكلها وملبسها ومسكنها، إنها تضبط الجماهير وتعوّدها على نظام معيّن، بما لها من تأثير دائم لا محسوس. وقد أدركت الحكومات في جميع الأزمنة والعصور قيمة هذا

---

(١) ينظر: يوليوس، فلهاوزن، الخوارج والشيعة، تر: عبد الرحمن بدوي، وخاصة ص ٢٠ – ٣٥.

الشرطي)) [١].

لقد أدرك الكواكبي استغلال الحكام لهذه النقطة عند الناس. إن الناس لا يذعنون عملياً لأحد ما لم يتهيأ لهم الإحساس بأنهم لا يطيعون إرادة بشرية أخرى، بل يطيعون إرادة أسمى من إرادتهم.. تتمثل في الإله. وكان هذا نتيجة الفهم الخاطئ الذي كرّسه خَدَمة المستبدين من رجال الدين، إذ جعلوا الحاكم يمثل السلطة الدينية المعصومة. وهكذا يحولون الإيمان من الإله إلى الشخص بصورة العرّاف والكاهن، ثم الحاكم بعد ذلك. وتكون غاية هذا الاستبداد الفكري – النفسي/ الديني تهيئة الوضع لإنشاء مجتمع محكوم. إن الاستبداد يبدأ فكرة تعتمد على الفكر ومظاهر الدين وقوة الاقتصاد والسلاح لتصبح نظاماً سياسياً. وما الدين الذي يستبد سوى الذي يُفرغ من محتواه ليبقى مجرد إطار لفكرة في يد المستبدين يتيح لهم إنشاء ما يريدونه من أفكار، بعيداً عن حقيقة النص– الأصل. ويعززون التفسيرات الجديدة المبعدة عن روح الدين حتى يترك الناس النص ويتعلقون بالتفسيرات فقط. وعلى مر الزمن لا يجد الناس أمامهم إلا مجموعة من أحكام وتسويغات لا تمت إلى النص الأصلي بصلة. يقول الكواكبي: ((اللهم إن المستبدين وشركاءهم قد جعلوا دينك غير الدين الذي أنزلت)) [٢] . من هنا يأتي رفضه كل اتجاه يحاول تسلق الدين لإقامة الاستبداد. لقد استطاع تحليل العلاقة التي تقوم بين الاستبداد والدين بحيث يتسنى للأول تحقيق مبتغاه. إن المستبد ينفذ عبر ثغرات النفس البشرية. فهو يلاحظ أن لدى الناس خوفاً طبيعياً من شيء أعظم قدرة منهم، وليست لديهم القدرة إلا على الانصياع له، فيستغل هذه النقطة. يحرّف الدين ليجعله يتوافق وما يرسمه لاستبداده، ويجعله متعلقاً بأشخاص السلطة السياسية، بعد أن عرف

---

(١) غبريل لوبرا، دراسات في علم الاجتماع الديني، باريس، ١٩٥٥ م، أوردها: جورج قرم، تعدد الأديان وأنظمة الحكم، ص٢٠.

(٢) طبائع الاستبداد، ص ٣٧.

الدور المهم الذي يلعبه الكاهن والعراف في تاريخ الشعوب. إنه يستعين بالمنظّرين أوّلاً، لأن النظر يقود إلى العمل، فقد يسوّغ ما يحدث، ويمهّد لما يُراد له الحدوث.

في هذه النقطة بالذات، نقطة العلاقة بين الدين والاستبداد، لم ينظر الكواكبي إلى الدين على أنه مضامين نظرية فقط، ولكنه رآها مضامين موظفة. لذلك فقد نظر إليها من حيث أنها نظرة إلى الإنسان والمجتمع. ومن هنا، فضلاً عن فهمه حاجة البشر إلى الدين، جاء، كما يرى (إفرام بعلبكي)- بحق- المقياس الذي يقيس به الكواكبي الأديان مقياساً واقعياً[١] .

إذاً فإن تحريف الدين ما هو إلا عملية فكرية تحاول السيطرة على تفكير الآخرين وعلى نفوسهم، مما يسمح بالتمهيد لولادة الاستبداد السياسي. وهكذا فليس هناك استبداد، في رأي الكواكبي، إلا من حيث التسمية المجازية. بحيث أن ما يطلق، عنده، على الاستبداد الديني، إنما يقصد به الاستبداد الفكري- النفسي، أو الاستلاب الذي يعين المستبد على التحكم في مصائر الآخرين. إنه استلاب يستعير قوة نفوذ الدين على العوام لاسترهابهم من خلال ما يدخله من تشابه بين صفات المستبد وصفات الإله، ليمهّد إلى سلب حق مراقبة الناس حكّامهم، الذين يتمتعون بالعظمة في مقابل دناءة العوام.

---

(١) ينظر: إفرام بعلبكي، منهجية في النقد...، الملفت الثالث، ص ١٣٢.

=الحرية مطلب أساسي:

وتأتي الحرية عند الكواكبي في مقابل استبداد علماء الفكر الديني خاصة. ويصف الكواكبي الحرية بأنها قدرة الإنسان على الاختيار ((بأن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم)) (١). وترتبط فكرة الحرية لديه بفكرتي العدالة والمساواة لأنه يرى أن ((من فروع الحرية تساوي الحقوق- ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدّار مغتال)) (٢). وتتعدد جوانب الحرية لديه من حرية التعبير إلى حرية الاعتقاد والعلاقات وحقوق التملك، وهي كلها تعني لديه ((الأمن على الدين والأرواح، والأمن على الشرف والأعراض، والأمن على العلم واستثماره)) وهو، مع مطالبته بحق التعبير عن الرأي وحق المطالبة بالحقوق، فإنه يدعو إلى ضرورة وجود الحرية السياسية إذ نراه يعدد من فروع الحرية ((محاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة. ومنها حرية التعليم، وحرية الخطابة والمطبوعات، وحرية المباحثات العلمية)) (٣).

وإذا كان يطالب بوجوب التعليم لكل أفراد المجتمع، فإنه يشدد على ضرورة تأمين حرية التربية والتعليم إذ ((إن التعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم، أفضل من التعليم مع الوقار)) (٤). فالكواكبي لا يرفض القسر في التعليم وحسب، بل هو أيضاً ينهى المعلم عن إقامة حاجز بينه وبين من يتعلم على يديه، بحجة الوقار. إن حرية التعليم مباحة للجميع من غير مانع أو تمييز. وكانت حرية التعبير عن الرأي مطلقة ثم أخذ الغرب عن العرب هذه الخصلة الحميدة فانتقل العلم إلى أوروبة ((ولما كان ضبط أخلاق الطبقات

---

(١) أم القرى، ٣٢.

(٢) م.ن، ص.ن.

(٣) أم القرى، ص ٣٢.

(٤) طبائع الاستبداد، ص ١١٢.

العليا من أهم الأمور، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات)) [1]، ورأت أن مضرة الفوضى خير من التحديد الذي لا يلبث أن يجعله الحكام سلاسل من حديد كي يفرضوا وجهات نظرهم على أفراد الأمة. وإذا أردنا لبلادنا التقدم فعلينا أن نطلق الحريات مسترشدين بديننا ((وقد حمى القرآن قاعدة الإطلاق بقوله الكريم: (ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ)•...)) [2].

ويتابع الكواكبي تأكيده على رعاية الدين للحرية ((فالحرية هي روح الدين ويُنسب إلى حسان بن ثابت الشاعر الصحابي رضي الله عنه قوله:

وما الدين إلا أن تُقامَ شرائعٌ وتُؤمَنَ سبلٌ بيننا وهضابُ

فلننظر كيف حصر هذا الصحابي الدين في إقامة الشرع والأمن)) [3]. فالدين مبني في جوهره على الحرية. إلا أن الحرية التي يعنيها الكواكبي في جلّ إشاراته هي حرية التفكير الديني. لكن هذا لا يعني أن الحرية هي حرية مطلقة من كل قيد، بل إنها حرية ملتزمة بالشريعة الإسلامية إطاراً لها. ومن هنا فإن حرية التفكير الديني تعني حق الاجتهاد الذي يدعو الكواكبي إلى إباحته لكل من يرى في نفسه قدرة عليه، يقول: ((لابد للمتحرّي في دينه من أن يهتدي بنفسه لنفسه، أو يأخذ عمن يثق بعلمه ودينه وصواب رأيه ولو من معاصريه)) [4]. إلا أن الاجتهاد محدود أيضاً فيما هو مباح من الشؤون التي لم يتناولها الشرع صراحة بأمر أو نهي، وذلك لا يعني نفي الاختيار ((ولكنْ، عَلِمَ اللهُ، الخير في القدر الذي هداكم إليه، وترك لكم الخيار على وجه الإباحة

---

(١) م.ن، ص ٩١.

• سورة البقرة ٢/٢٨٢.

(٢) م.س، ص ٩١.

(٣) تنظر: مثل هذه الأمثلة الكثيرة: الأعمال الكاملة للكواكبي بأقسامها الثلاثة: صحافته، أم القرى، طبائع الاستبداد. وفي صفحات كثيرة متفرقة.

(٤) أم القرى، ص ١٣٨.

في باقي شئونكم لتوفقوها على مقتضيات الزمان)) [١]. إن لحرية التفكير والاعتقاد الديني أمثلة كثيرة في تاريخنا، ويستشهد الكواكبي ببعض منها مدللاً على حق الاجتهاد لكل مؤمن، فيذكر مواقف (الإمام مالك) الذي قال: "ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم)) [٢]. ويستشهد الكواكبي بما قاله (أبو حنيفة): ((لاينبغي لمن لايعرف دليلي أن يأخذ بكلامي))، ثم يضيف عن أبي حنيفة أنه ((كان إذا أفتى يقول: هذا رأي النعمان بن ثابت، يعني نفسه، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب)) [٣]. ولم يكن (الشافعي) أقل من سابقيه مرونة في الأمور الاجتهادية ((وروى الحكم البيهقي أن (الشافعي) رضي الله عنه كان يقول: إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط. وأنه قال يوماً للمزني: يا إبراهيم لا تقلدني فيما أقول وانظر في ذلك لنفسك فإنه دين)) [٤].

والكواكبي ينادي بحرية تصرف المؤمن في الحياة العملية، فضلاً عن حرية إعمال الفكر بعيداً عن التعصب أو الاستكانة، حتى يتمكن الإنسان من تحقيق إرادته. ((وما هي الإرادة؟ هي أمّ الأخلاق... لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة)) [٥] إن الاختيار فعل يقوم به الإنسان العاقل تبعاً لما تتطلبه الحكمة ((أليس من الحكمة أن يحفظ الإنسان حريته واختياره، فيستهدي بنفسه لنفسه حسب وسعه)) [٦]. وهو لا يفعل ذلك باعتباره وصياً على الآخرين، وإنما يعمل فكره بحثاً عن قناعة خاصة له " فإنه دين". غير أن

(١) م.ن، ص ١٢١.
(٢) م.ن، ص.ن .
(٣) م.ن، ص.ن.
(٤) أم القرى، ص ١٢١.
(٥) طبائع الاستبداد، ص ٨٩.
(٦) أم القرى، ص ١٣٩.

هذا لا يمنع المرء من أن يأخذ عمن يثق به. إن الكواكبي ينحاز دائماً إلى حرية الإنسان، وما رفضه عقيدة الجبر إلا إحدى الدلائل على ذلك، ولا يرى في القضاء والقدر أي جبرية، وإنما هما "السعي والعمل". ويقدّس الكواكبي الحرية فيجعلها عزيزة على الإنسان، بعد حياته مباشرة، فبوجودها يحصل السعي ويُطلب المجد وتُحترم القوانين ويتم للإنسان الاستقلال في حياته فيعود كما ولد حراً غير مرتبط بأحد برباط قسري، وغير ملزم باتباع أحد(١).

ويربط الكواكبي الحرية الشخصية بالإنتاج والعمل وبمدى استقلال الإنسان فيه. فالحرية لاتكتمل ما لم يكن للإنسان صنعة، وما لم يتولَّ الإنسان قيادة نفسه في عمله، وقد ((قرر الأخلاقيون أن الإنسان لا يكون حراً تماماً، ما لم تكن له صنعة مستقل فيها، أي غير مرؤوس لأحد، لأن حريته الشخصية تكون تابعة لارتباطه بالرؤساء)) ولا يخفى أن الحرية، التي يعنيها هنا، هي انعدام القسر النفسي- الفكري الذي يمكن أن يمارسه صاحب العمل على العامل عن طريق تهديد قوت يومه.

وليست الحرية هي في الاستقلال بالعمل فقط، وإنما هي أيضاً في قدرة الإنسان على ترجيح عقله على نفسه التي قد تقوده كي يصبح عبداً من عبيد المال ((وقالوا أن أقل كسب يرضى به العاقل ما يكفي معاشه باقتصاد، وقالوا خير المال ما يكفي صاحبه ذلَّ القلة وطغيان الكثرة)) (٢). فليس الحر من امتلك المال الكثير، وليس الغني من فاضت أمواله عن حاجته وإنما ((الغني من قلت حاجته، والغني من استغنى عن الناس)) (٣) فعاش حراً لا تنيخه رغباته، ولا تذله حاجته إلى الآخرين،. ((ولا عار على الإنسان أن يختار

(١) م.ن، ص ٣٢ – ٣٣.

(٢) طبائع الاستبداد، ص ٨٢.

(٣) م.ن، ص.ن.

الموت على الذل)) [1] لأن المجد مفضل على الحياة عند الأحرار، لذلك ((يكون أئمة آل البيت عليهم السلام معذورين في إلقائهم بأنفسهم في تلك المهالك لأنهم كانوا نجباء أحراراً فحميتهم جعلتهم يفضلون الموت كراماً على حياة ذل مثل حياة ابن خلدون)). فطلب المجد هو طلب للحرية إذ ينحصر تحصيل المجد في زمن الاستبداد بأن يحاول كل إنسان إزالته قدر استطاعته، وذلك طلباً لحريته، التي لا طعم لحياته بدونها. هذه هي الحرية التي يتغنّى بها الكواكبي، مدركاً أنها لا تأتي من غير استعداد للتضحية في سبيلها. فنراه يحث قومه الذين اكتووا بنار الذل ورسفوا في الأغلال، يحثهم على طلب الحرية وعلى بذل كل ثمين ليتمكنوا من نوالها، يقول: ((إن الحرية هي شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح، والإسارة هي شجرة الزقوم وسقياها أنهر من الدم الأبيض أي الدموع، ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين)) [2].

ويرى الكواكبي أن التوحيد أساس الحرية، فالأنبياء يهدون الناس إلى رأس الحكمة، أي عبادة الله وحده، وبذلك يملك الناس ((حريتهم التي تحميهم من أن يكونوا أرقّاء أذلاّء لألف شيء من أرواح وأجسام وأوهام ((فثمرة الإيمان بأن (لاإله إلا الله) عتق العقول من الإسارة)) [3]. وهذا يعني أنه ليس في الأرض قوة قدسية ترجى، و يتخصص إنسان بهيبة مخيفة مادام يؤمن الإنسان بأن الله وحده هو الذي يمتلك قوة التحكم في حياة الناس. ولهذا جعل الكواكبي ((شعار الجمعية: لانعبد إلا الله)) [4]. وبذلك يمتلك الإنسان استقلاله الشخصي، ويأمن على حريته الدينية والفكرية والعملية، ولا يعود هناك ما يمنعه من تحقيق

---

(١) م.ن، ص ١١٧.

(٢) طبائع الاستبداد، ص ١٢٧.

(٣) أم القرى، ص ٨٠.

(٤) م.ن، ص ٨.

تطلعاته ((فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل وأمل)) [١]. والحرية الفكرية هي أولى الحريات التي يتلوها العمل، وبها نستدل إلى الطريق الموصلة لترقّي الأمم[٢]. لذلك على الشباب أن يتمسكوا بها، وأن يستميتوا في الدفاع عنها ولسان حالهم يقول: "أنا حر وسأموت حراً "[٣].

وليست هذه نهاية الطريق، بل على الإنسان أن يبقى ساعياً إلى مواصلة الترقي بالحرية، لأن الترقي الكامل لايحصل إلا حين يهتم الإنسان بحياة أمّته أوّلاً، لأن في حياتها حرة تكمن حريته هو، ويأمن بأمنها على حياته وعائلته وماله. هكذا يضيف الكواكبي شرطاً آخر من شروط الحصول على الحرية، وهو شرط جوهري، إذ لاحرية لفرد إلا بحرية بلاده، فمن أين لإنسان أن ينعم بالحرية وبلاده ترسف في القيود. فالحرية ليست مجرد اختيار فردي أو خلاص خاص، وإنما هي التزام بالمجموع إلى درجة أن ((يصير كل فرد من الأمة مالكاً لنفسه تماماً، ومملوكاً لقومه تماماً)) [٤]. وهذا لايكون إلاّ بإدراك الفساد ومعرفة الطريق التي توصل الى الإصلاح.

= أهميّةالوعي :

يشير الكواكبي إلى أهمية وعي الإصلاح معلناً ((إن احتياجنا العام إلى الإصلاح بالغ فينا حتى إلى لزوم الإصلاح في تفهّم معنى لفظة الإصلاح ولذلك نبتدئ بتعريف الإصلاح أنه في اصطلاح السياسيين إزالة المفاسد وإكمال النواقص وموضوعه تنظيم الإدارة السياسية وغايته حصول السعادة العمومية وهي بغية الكل في الكل)) [٥].

---

(١) م.س، ص ١٣٧.

(٢) ينظر: م.ن، ص ١١٨.

(٣) ينظر طبائع الاستبداد، ص ١٣٤ – ١٣٩.

(٤) طبائع الاستبداد، ص ١٣٤ – ١٣٩.

(٥) جان داية، صحافة الكواكبي، الوثائق، ص ١٦٣.

وهذا التعريف يتألف من شقين، فهو أولاً: إزالة المفاسد، وهو ثانياً: ترقي الأمة، وموضوع الإصلاح هو تنظيم الإدارة السياسية أولاً ليتم للناس التنعم بالسعادة في ظل الأمن والحرية.

والإصلاح ليس بالأمر المستحيل، ومن الخطأ تصديق ((قول من قال: أننا أمة ميتة فلا ترجى حياتنا، كما لا إصابة في قول من قال: إذا نزل الضعف في دولة أو أمة لايرتفع)) [١] بل على العكس من ذلك فإن الأمة، التي تسعى لاسترجاع أسباب حياتها، هي أمة ستحقق مبتغاها ولا ريب، ولنا في الأمم السالفة براهين على ذلك، فتلك أمة الرومان التي نهضت بعد عثرة، واليونان الذين جددوا نشاطهم ونهلوا من غيرهم حتى بلغوا من القوة ذروتها، ومن العلم أوجه. وكذلك فعل الأمريكان في العصر الحديث.

والمهم أن من يرصد الإصلاح عليه معرفة معناه ليجدّ في طلبه ولا ينتظر ذلك من حكومته أو من أمة أخرى غير أمته. فإذا أردنا إزالة المفاسد، وتنظيم أحوالنا السياسية، فإنه يجب علينا أن نطالب الحكومة بحقوقنا، ونلحّ في طلبها، ليس على سبيل الصدقة، وإنما بأسلوب يجعلها تدرك جدية مطالبنا. وبغير ذلك لن نتمكن من نيل حقوقنا[٢]. فلا يمكن أن تمنح الحكومة شعبها حقوقه مالم يطالبها بها باستمرار. فإذا شعر الإنسان أنه أسيرٌ في وطنه، ولا يمكنه الحصول على حريته، وجب عليه أن يضرب في الأرض سعياً وراءها، مقاطعا كل مستبد يواجهه، مهما عانى في سبيل حريته ((فإن الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط)) [٣]. ولا بد للمرء، حين يوضع في مجال الاختيار بين الذل والموت، أن يختار الموت حتى لايعيش حياة لاشيء فيها سوى الحرص على المستبد لقاء طعام لايسدّ رمقاً، وشراب لايروي عطشاً. إن

(١) أم القرى، ص ١٦.

(٢) جان داية، م.س، ص ١٤٩.

(٣) طبائع الاستبداد، ص ٢٨.

الخوف هو الذي يرسّخ الاستبداد، أما الشجاعة فهي وحدها التي تمنح الإنسان الحياة الكريمة أو الموت الشريف، وبذلك يحصل الإنسان على المجد الذي لايأتي بالتذلل أمام المتكبرين ولكنه يُطلب ببذل النفس في سبيل تحصيله.

ولا يكتمل الإصلاح السياسي إلا بمراقبة الحكم، الذي يجب أن يكون وفقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية، أما الحكم الظالم فإن طاعته غير واجبة على المسلمين وإنما الواجب هو محاربة الحكام الظالمين لإزالة مفاسدهم، وتنفيذ حكم الشريعة فيهم، تحقيقاً لمعنى الآية: [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون] (١)، الذين لاتجوز طاعتهم(٢).

يطرح الكواكبي، في نهاية كتابه عن الاستبداد، خمسة وعشرين مبحثاً يرى أنها تحتاج إلى تدقيق وتفصيل، بما ينطبق على أحوال كل بلد وخصوصياتها، ويقول إنه يعدّد ((هذه المباحث تذكرة للكتّاب ذوي الألباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها)) (٣) ويطالب بالبحث فيها بالترتيب، لكنه يبدأ بالعكس، ويتناول شرح البحث الأخير منها فقط، والذي يتعلق بالسعي في رفع الاستبداد، لأنه، في نظره، أهم الموضوعات المطلوب حلها، والتي يجب الابتداء بها. ويضع ثلاثة شروط مبدئية لرفع الاستبداد واستبداله وهي: شعور الأمة بآلام الاستبداد، والتدريج، وتهيئة البديل. فالشرط الأول: على الأمة أن تشعر بآلام الاستبداد وما يحدثه من تفاوت وفوضى بين الناس، وما يزرعه من ذل وضعة في قلوبهم، وذلك حتى تستحق الحرية لأن نوالها عفواً لايفيد الأمة في شيء، لأن من لايتعب في تحصيل شيء، لايهتم بحفظه "فلا تلبث الحرية أن تنقلب إلى فوضى، وهي إلى استبداد مشوش أشد وطأة كالمريض إذا انتكس"، والحرية النافعة إنما هي التي تحصّلها الأمة، بعد الاستعداد لقبولها،

---

(١) المائدة ٥/٤٤.

(٢) ينظر: طبائع الاستبداد، ص ٢٦ و ١٢٧ – ١٢٨.

(٣) ينظر: م.ن، ص ٥١ – ٥٨.

وبذلك تتمكن من الحفاظ عليها(1).

فيجب على الأمة أن تتمسك بالطباع الجيدة، وتطلب الحرية والعدالة، وتقدّر قيمة الاستقلال، وتعرف مزية النظام على الفوضى "وخلاصة البحث أنه يلزم أولاً تنبيه حس الأمة بآلام الاستبداد، ثم يلزم حملها على البحث في القواعد الأساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك أفكار كل طبقاتها". فمن أراد تخليص أمته من أسر الاستبداد، عليه أولاً، أن يبث فيها العلم بسوء حالتها، وأن يبين لها إمكانية التغيير. وسرعان ما ينتشر الشعور الحاد بآلام الاستبداد بين الناس حتى يكاد يشمل أكثر أفراد الأمة مما يؤدي بالناس إلى التحمّس فينادون مع المعري:

" **إذا لم تقم بالعدل فينا حكومةٌ   فنحن على تغييرها قُدراء** "

ومن يبعث في أمته الحياة، ويوقظها على الشعور بآلام الاستبداد، هو الإنسان الذي يجهد في ترقية معارفه، بالتلقي والمطالعة، وبإحراز علم يكسبه في قومه موقعاً محترماً، ويحافظ على آداب قومه وعاداتهم، محتفظاً بوقاره، متجنباً مصاحبة الحكام، وملتزماً بحسن الأخلاق، يحب وطنه، ويساعد الضعفاء، ويغار على الدين(2).

= إصلاح الدين:

إن كل إنسان مطالب بان يتّبع في أخلاقه وأعماله قانوناً يتوافق ومجتمعه في أساسياته، كذلك على كل قوم أن يتخذوا قانوناً لايتضارب مع قوانين الأقوام الذين تربطهم معهم علاقات من أي نوع كانت، وذلك حتى يتم التآلف والتعايش بين الأقوام.

---

(1) الأعمال الكاملة للكواكبي، محمد جمال طحّان، ص ٥٣٠.

(2) الأعمال الكاملة للكواكبي، محمد جمال طحّان، ص ٥٣٠.

ويرى الكواكبي أن الناموس (= القانون) الطبيعي في البشر هو ناموس وحشي لاخير فيه، لأنه مبني على تنازع البقاء، وحفظ النوع، والتزاحم على الأسهل، والاعتماد على القوة، وهذه كلها قواعد شر "لايلطفها غير ناموس شريف واحد، مودوع في فطرة الإنسان، وهو: إذعانه الفكري للقوة الغالبة، أي معرفة الله بالإلهام الفطري" وهذه الفطرة الدينية في الإنسان، هي التي تجعل حياته مقبولة، وتجعل تصرفاته متوازنة، تبعده عن إضرار غيره طمعاً في منفعة ذاتية "وذلك بما يؤمله المؤمن من المجازاة والمكافأة، والانتقام منه وله" في الحياة الأخرى. والإنسان مفطور على الشعور بوجود قوة غالبة عاقلة، يعبّر عنها العاملون بلفظة (الطبيعة)، والراشدون المهتدون يعبّرون عنها بلفظة (الله)[١].

والدين بمعناه العام هو إدراك النفس وجود تلك القوة الغالبة، ومن هنا فإنه لايوجد إنسان بلا دين ((بل كل إنسان يدين بدين إما صحيح، أو فاسد عن أصل صحيح، وإما باطل أو فاسد عن أصل باطل)) [٢]، والدين الصحيح يكفل السعادة في الدنيا، والفلاح في الآخرة.

إن الله يبعث الرسل، لينقذوا الناس من ضلالة الشرك، ويهدوهم إلى عبادة الله وحده، وبذلك يملكون حريتهم، التي تحميهم من ذلك الاستعباد خوفاً من مستبد أو ظالم متجبر. والأديان السماوية كلها كانت في بدايتها صحيحة، تبث النظام والنشاط وتهدي إلى سعادة الدارين، إلى أن طرأ عليها التحريف والتشويش والتشديد فداخلها الشرك بالله.

لقد جاءت التوراة، ومن ثم الإنجيل، بالتوحيد، وتلا ذلك الإسلام مطالباً بالتوحيد وهادماً الشرك بالكلية. فقد ((بني الإسلام بل وكافة الأديان على (لاإله

(١) ينظر: أم القرى، ص ٧٠ – ٧٧.

(٢) م.ن، ص ٢٥.

إلا الله)، ومعنى ذلك أنه لا يعبد حقاً سوى الصانع الأعظم)) [١]. لذلك على الإنسان ألا يخضع إلا لله فلا سيادة ولا عبودية في الإسلام إلا له. لكن تغييراً حدث في الدين، فترك أصله، واتبعت مزيدات ليست منه في شيء، فغدت حالة أكثر المسلمين تشبه حالة المشركين، إلا أهل جزيرة العرب، الذين استطاعوا المحافظة على أصول الإسلام. ولأن ذلك حدث بات من الضروري أن نحيي الدين الأصيل، ونصلح ما فسد منه، برد العامة عن ميلها إلى الشرك الأول. وهذا أمر غير هين، ولا يمكن تنفيذه إلا بالعلم وبالاجتماع على أهمية العودة إلى الإسلام، في أصوله الأولى، بعيداً عن النقول المتخالفة. فلا بد ((أن نترك جانباً اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها تقليداً)) [٢] وأن نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب، وصحيح السنة، وثابت الإجماع، كما فعل أجدادنا الأولون، إذ أن مذهب السلف هو الأصل الذي لا يرد، وهو الذي يجعلنا لا نتفرق في الآراء، ويمكننا من نبذ التقليد، الذي يخالف نص الكتاب أو صريح وثابت الإجماع. فعلى العلماء أن يقاوموا فكرة التعصب لمذهب دون آخر، ليتمكنوا من جمع كلمة الأمة على رأي واحد، بعيداً عن التشدد في الدين، الذي لم يجعل الله على الناس فيه من حرج، بل إنه أراد أن يرفع الأغلال، التي كان يرسف فيها الناس، وأراد أن يخفف عنهم التكاليف الثقيلة، لذلك لم يكلف الإنسان إلا بما له قدرة عليه، كما أمره بأن لا يغلو في دينه وبأن يقتصد فيه.

وحتى لا يغالي الناس في التعصب للدين، وحتى يتم جمع كلمة المسلمين، يقترح الكواكبي أن يعقد فقهاء الأمة كتاباً في العبادات، يعتمده المسلمون جميعاً، ويذكر فيه الحد الأدنى للفرائض والواجبات، وكتاباً تُذكر فيه السنن المستحبة، وكتاباً للسنن الإضافية، ثم كتاباً للمنهيات، فيه المكفرات والكبائر، ثم الصغائر والمكروهات، ومثل ذلك توضع كتب للمعاملات بحسب

---

(١) طبائع الاستبداد، ٥١. ينظر: م.ن، ص ٣٣ – ٣٤.

(٢) أم القرى، ص ١٣.

أحكامها الإجماعية أو الاجتهادية أو الاستحسانية ((فبمثل هذا الترتيب يسهل على كل من العامة أن يعرف ما هو مكلف به في دينه، فيعمل به على حسب مراتبه وإمكانه، وبهذه الصورة تظهر سماحة الدين الحنيف)) [١]. ومن الضروري أن نلتمس للضرورات أحكاماً اجتهادية، تعمل بها الأمة، مادام المقتضى باقياً، ويأمر بها الإمام أو السلطان، منعاً للخلاف.

وما أحوج الشرقيين، من الأديان كلها، أن يهجروا العلماء الأغبياء، ويجددوا النظر في الدين، لإعادة النواقص المعطلة فيه، وتهذيبه من الزوائد الباطلة، فيعيدوا الدين إلى أصله. ولا يصلح الدين إلا بالعلم والعلماء الذين يهدون الناس إلى خير الدنيا والآخرة.

إن العلوم أخذت تنمو في الغرب، وقد ظهرت ثمراتها العظيمة في شؤون الحياة، وعلى المسلمين الاهتمام بها، لإصلاح دينهم، ولمجاراة جيرانهم، فقد ((أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية، التي كادت تجعل الغربيين أدرى منا حتى في مباني ديننا)) [٢]. وإذا أردنا أن نستعيد نشأتنا، وأن نجلب إلى ديننا العالم المتمدن، علينا أن نهتدي بأنفسنا، وأن نبدي مزيداً من الاهتمام بالعلم، ونصغي إلى نصح العلماء العاملين، ونمنع الشعوذة، ونجاهد للحط من قدر العلماء المنافقين الذي يحاولون ممالئة المستبد السياسي، ونتعلم كيف نفرق بين الأوامر الدينية والأوامر السياسية. وهذا الإصلاح الديني ضروري، لأن السياسيين ((يعتبرون أن إصلاح الدين هو أسهل وأقوى وأقرب طريق للإصلاح السياسي)) [٣] وأنه متى زال أحدهما زال الآخر، فإذا صلح الدين صلحت السياسة. والسياسة في نظر الإسلام الصحيح تقوم على الشورى، لذلك فإن مجرد العودة إلى الينابيع الإسلامية الأولى، تعني عودة إلى الشورى

(١) م.ن، ص ١١٥، ينظر: م.ن، ص ١٥٥.

(٢) أم القرى، ص ٥٥.

(٣) طبائع الاستبداد، ص ٣٢.

السياسية.

كما أن للدين فوائد كثيرة، فهو يفيد الترقي الاجتماعي إذا صادف أخلاقاً فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، وهو أكبر معين على تحمل مشاق الحياة. والدين المبني على العقل أفضل صارف عن الخرافة، وأنفع وازع للنفس، وأقوى منشط على العمل، ومثبت على المبادئ الشريفة. كما أن الدين هو أفضل مقياس يستدل به على رقي أو انحطاط نفوس الأمم والأفراد.

وأحكام الإسلام أحكام يتلقاها العقل بالقبول والإجلال، إذ جاءت الإسلامية بالحرية والعدالة والمساواة والشورى، ولكي يتم لنا تحقيق الإسلامية، والتمسك بها، لا بد من إنشاء جمعية تهتم بإصلاح الدين وتحافظ على مبادئه السامية(١).

لكن إصلاح الدين، والانتقال لردم الهوة بين الإسلام والمسلمين لا يتم إلا بالتدريج، وبجهود علماء يشكلون جمعية توحد الله، ويتعاون أعضاؤها لتحقيق اتفاق المسلمين على محاربة الاستبداد. والعودة بالإسلام إلى أصله النقي. وتكون هذه الجمعية بزعامة العرب، لأنهم أصلح الشعوب لقيادة الجهاد في سبيل الحفاظ على مبادئ "الإسلامية" .

=الإسلامية الكواكبية:

يرى الكواكبي في الإسلامية بديلاً عاماً عن الاستبدادية، ويميز بين الإسلام والإسلامية. فالإسلامية عنده ليست هي ما يدين به المسلمون الآن، ولكنها المنهج المشتقّ من الإسلام الصحيح الذي ينبثق من "القرآن الكريم"

(١) ينظر: طبائع الاستبداد، ص ١١٨.

وصحيح السنّة من غير أن تنقص أو نزيد عما جاء فيهما من ناحية العبادات. والإسلام الصحيح هو ما تميّز به أسلافنا على العالمين، بعيداً عن تفقّه المتفقّهين، ملتزمين بما يعلمونه من صريح الكتاب وصحيح السنّة وثابت الإجماع. والإسلامية بهذا المعنى ((هي أحكام القرآن وما ثبت من السنة وما اجتمعت عليه الأمة في الصدر الأول، لايوجد فيها مايأباه عقل أو يناقضه تحقيق علمي)) (١). ومن أهم قواعد ديننا الالتزام بهذه الأحكام ليتم لنا السير على منهج الإسلام القويم الذي يترك للإنسان حرية التصرّف في حياته مادام يتصرف فيها ضمن قواعد الدين العامة. ((ومن قواعد ديننا كذلك: أن نكون مختارين في باقي شؤوننا الحيوية، نتصرّف فيها كما نشاء، مع رعاية القواعد العمومية التي شرعها أو ندب إليها (الرسول)، وتقتضيها الحكمة أو الفضيلة، كعدم الإضرار بالنفس أو الغير، والرأفة على الضعيف، والسعي وراء العلم النافع، والكسب بتبادل الأعمال، والاعتدال في الأمور، والإنصاف في المعاملات، والعدل في الحكم، والوفاء بالعهد)) (٢).

هكذا تتحد أفكار المساواة والحرية والعدالة والشورى عند الكواكبي في تعبير واحد هو الإسلامية، التي يراها تطالب بالمنفعة العامة للناس أجمعين، وهذه المنفعة لاتتم للإنسان إلا بالاشتراك العمومي بين الناس، حيث يقوم كل فرد بعمل مفيد للمجتمع. وذلك لأن طبيعة الكون تقتضي الاشتراك لتتم للناس المنفعة. وهذا الاشتراك موجود في الإسلام فقد ((أحدث الإسلام سنّة الاشتراك على أتم نظام)) (٣). ولم يكتف الإسلام بذلك، وإنما رسم الطريق العامة لخير الإنسان، إذ ((جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كلية تصلح للإحاطة بأحكام

---

(١) أم القرى، ص ١٤٣. ينظر للمقارنة: م.ن، ص ١٣ و ٦٩ و ٧٧. ينظر أيضاً: طبائع الاستبداد، ص ١١٩.

(٢) أم القرى، ص ٧٨.

(٣) طبائع الاستبداد: ص ٧٤.

كافة الشؤون حتى الجزئية الشخصية)) [١].

= **الشورى الدستورية :**

إن الإصلاح الديني والحصول على الحرية والعدالة) لاتتأتى إلا بسيادة الشعب على نفسه. وسيادة الشعب لاتكون إلا بتحقيق الشورى، عن طريق مشاركته في ممارسة الحكم ليكون الحكم عادلاً، لأن للحكم تأثيراً كبيراً على شؤون الحياة كلها، وهو الذي يمكنه الحفاظ على المساواة والحرية والعدالة بوساطة احترامه قانون الدولة، وتمسكه بأصول الشورى في الحكم.

يقول الكواكبي، بعد بحث امتدّ ثلاثين عاماً ((تمحّص عندي أن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية)) [٢]. فإذا كان ((الاستبداد السياسي" هو أصل الداء، فإن دواؤه إنما يكون بإيجاد "الشورى الدستورية" التي بها تصلح السلطة السياسية والقانونية ويعمّ الرخاء. وتنتمي الشورى، في فكر الكواكبي، إلى ميدان السياسة انتماء حميماً، فهي تعني مشاركة الرعايا في سياسة الدولة وشؤون الحكم بحثاً عن القرار الأكثر صواباً، على أن يتم ذلك في حدود القانون. لقد رأى الكواكبي أن الاستقلال في الرأي مضرّ، لذلك راح ينقّب في تراث العرب بحثاً عن الشورى، مستلهماً الأفكار الإسلامية الداعية إليها، فرأى أن العرب هم أعرق الأمم في أصول الشورى، ولاحظ أن الشورى مبدأ موجود في الإسلام، فقد ((جاء الإسلام محكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية)) [٣]، وانطلاقاً من [وشاورهم في الأمر] [٤]، وتوسطاً بين حكم الشعب، الذي لم يعد يصلح بالنظر

---

(١) م.ن، ص ٧٥.

(٢) طبائع الاستبداد، ص ٨٨.

(٣) م.ن، ص ٣٤.

(٤) آل عمران ١٥٩/٣.

إلى تزايد أعداد الناس في الأمة الواحدة، وبين حكم القلّة ذات النفوذ الاستبدادي الذي تمارسه على الآخرين. وقصة (بلقيس)• في "القرآن الكريم" "تعلّم كيف ينبغي أن يستشير الملوك الملأ أي أشراف الرعية، وأن لايقطعوا أمراً إلا برأيهم، وتشير إلى لزوم حفظ القوة والبأس في يد الرعية)) (١)، وما الملوك إلا منفذون، وينسب إليهم الأمر توقيراً فقط. وقد مورس مبدأ الشورى لفترة في زمن الخلافة الراشدية وما قبلها، فقد كان النبي ((أطوع المخلوقات للشورى امتثالاً لأمر ربه ...حتى أنه ترك الخلافة لمجرد رأي الأمة))، وهكذا فعل الخلفاء: الأول والثاني، اللذان فهما مغزى "القرآن الكريم" وعملا بموجبه.

والحكومة لا تكون صالحة إلا إذا كانت الشورى إحدى مميزاتها، لأنها، حينئذ فقط، يمكنها أن تقود الأمة. ويدلل الكواكبي على كلامه باستقرائه تاريخ الحكومات الإسلامية، قائلاً: ((وإذا دققنا النظر في أدوار الحكومات الإسلامية من عهد الرسالة إلى الآن، نجد ترقيها وانحطاطها تابعين لقوة أو ضعف احتساب أهل الحل والعقد واشتراكهم في تدبير شؤون الأمة)) (٢). فعلاقة الشورى بالترقي علاقة طردية، كلما زادت إحداهما نجد ارتفاعاً في رصيد الأخرى.

وأهمية الشورى لاتنحصر في شؤون الحكم فقط، بل تنسحب على حياة الناس في كل شأن وفي كل زمان ومكان. وإذا كان زمن الخلافة الراشدية الذهبي قد ولّى فعلينا ألاّ نستكين، بل يجب علينا أن نحاول استعواضه "بطراز سياسي شوري" يستفيد من فكر الغرب الذين استفادوا من الإسلام، وأقاموا نظام الشورى الذي نطالب به، ((ذلك الطراز الذي اهتدت إليه بعض أمم الغرب، تلك

• بلقيس: ملكة سبأ، ورد ذكرها في القرآن الكريم إذ خاطبت أشراف قومها (يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) النحل ٣٨/٢٧ وألقت الألغاز على سليمان الحكيم وسمعت حكمته.

(١) م.س، ص ٣٥.

(٢) أم القرى، ص ٦٦.

الأمم التي لربما يصح أن نقول، قد استفادت من الإسلام أكثر مما استفاده المسلمون)) [1]. لقد رأى الكواكبي أن سرّ تفوّق أوروبة هو في حصولها على الحرية وتمكّنها من إقامة الديمقراطية، لذلك دعا إلى الاسترشاد بتجربتها في إرساء قواعد الديمقراطية والشورى.

ولكن من يقوم بالشورى؟ يطالب الكواكبي بالشورى الارستقراطية، أي شورى الأشراف، وهم أهل الذكر، وأهل الحل والعقد من هُداة الأمة وقادتها. والأشراف هم أفراد جديرون بحمل المسؤولية، وهم أشراف لقيامهم بأعباء هذه الوظيفة الشريفة، ((وهم خواص الطبقة العليا في الأمة، الذين أمر الله، عزّ شأنه، نبيه بمشاورتهم في الأمر، الذين لهم شرعاً حق الاحتساب والسيطرة على الإمام والعمال لأنهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة، والقائمون في الحكومة الإسلامية مقام مجالس النواب والأشراف في الحكومات المقيدة))[2]. وهم ليسوا أهل الألقاب أو الميراث من الأصلاء والمتمجدين. إنهم أناس استعدّوا، بالعلم والكفاءة، لخدمة الناس، وليكونوا وكلاء عنهم في مراقبة الحكومة ومحاسبتها.

ولكن ما هو أساس الشورى لدى الكواكبي؟..

إن أساس الشورى عنده هو إرادة الأمة، وإرادة الأمة تتحقق (أو تتلخص) في الأخذ بآراء أهل الحل والعقد، إلا أن ذلك لايعني الاستسلام إلى الكسل والإذعان لما يطالب به الآخرون، لأن الناس جميعهم ملزَمون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر. إن الإلزام بإتيان الخير ودفع الشر في آية: [ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر][3] هو فرض عين لا فرض كفاية. وليس المراد منه سيطرة أفراد المسلمين بعضهم على بعض، بل المراد هو ((إقامة فئة تسيطر على حكامهم كما اهتدت إلى

(١) طبائع الاستبداد، ص ٣٤/٣٥.

(٢) أم القرى، ص ٦٦.

(٣) آل عمران٣/١٠٤.

ذلك الأمم الموفقة للخير، فخصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية: السياسية والمالية والتشريعية)) [١]. إن السيطرة والاحتساب، التي تقوم بها المجالس هي التي تحقق فرض الكفاية، أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو فرض عين، وعلى المسلمين جميعهم العمل على تحقيقه.

= روابط الإنسان في المجتمع المنشود:

ونظراً إلى أهمية التعاون والاشتراك في الشؤون العامة فإن كمال المجتمع لايتم إلا بروابط يقيمها الناس فيما بينهم، تساعدهم على التعاون من أجل مزيد من التقدم. فالمجتمع المثالي يتميز بالتعاون والعمل على تحقيق الاتحاد والتواصل إذ يجتمع أفراده في اتحادات قومية ودينية وإنسانية، من غير أن تكون هذه الروابط قسرية وإنما تكون نتيجة طبيعية ضرورية لتتويج اجتماعاتهم.

أ- الرابطة القومية:

إن أولى روابط الإنسان الاجتماعية هي الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد الذين تجمعهم أرض واحدة ولغة مشتركة. والوطنية ترادف القومية، عند الكواكبي. وما تغنيه بالوطن إلاّ تغنّياً بالقومية العربية، التي يرى قلبها النابض في الجزيرة العربية. داعياً إلى وحدة العرب وهو يذكرهم بالماضي المجيد، رغبة منه في عودة زمام الأمور إليهم. وهو حين يطالب بضرورة استقلال الوطن ووحدته ضد عبث الطغاة اللئام، فإنه إنما يسعى إلى تحقيق مطلبه باستقلال العرب واتحادهم ضد العثمانيين والأوربيين على السواء، داعياً العرب إلى تولي شؤونهم بأنفسهم بأن يحكّموا عليهم واحداً منهم، ويراقبوا بقاءه

---

(١) أم القرى، ص ٣٧.

مجرد رمز لجمع شملهم في رابطة اشتراك لا قسر فيها، مثل ((معيشة أكثر الإنكليز والأميركان الذين يفتكر الفرد منهم أن تعلقه بقومه وحكومته ليس بأكثر من رابطة شريك في شركة اختيارية، خلافاً للأمم التي تتبع حكومتها حتى فيما تدين))" [(١)]. والعرب يشتركون في اللغة والوطن، لذلك فإن اجتماعهم، في اتحاد يضمهم، ضرورة لابد منها، يساعد عليه وجود حكمٍ عادل، لما له من تأثير كبير على الوطن والمجتمع، ولقدرته على تشجيع إنشاء اتحاد وطني بين الأخوان. ففي ظله تنتشر التربية التراثية الهادفة إلى الحفاظ على المزيات الخاصة لكل شعب.

إن البلاد التي تحررت من النزاعات الطائفية، ومن سطوة الاتجار بالدين، استطاعت تكوين اتحاد جنسي بين مواطنيها، يحفظ لهم قوميتهم، بصرف النظر عن الانتماءات الدينية المختلفة.

فإذا قام الحكم العادل في البلاد العربية فلا شيء يمنع من إقامة الوحدة العربية بسبب وجود عوامل كثيرة مشتركة بين العرب. لذلك يدعو الكواكبي العرب من غير المسلمين لإقامة اتحاد وطني بينهم وبين أبناء جنسهم من المسلمين، بصرف النظر عن الانتماء الديني، يقول: (("يا قوم، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري))" [(٢)] فما بالنا لا نتبع ما يشبه تلك الطرق ونقول للأجانب الذين يحاولون إثارة البغضاء بيننا باسم الدين: ((دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء. دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحي الأمة، فليحي

---

(١) طبائع الاستبداد، ص ٢٥.

(٢) طبائع الاستبداد، ص ١٢٩.

الوطن، فلنحي طلقاء أعزّاء))[1] لأن الترابط القومي يضمن حرية الاستقلال الوطني، ويمنع من الوقوع في نظام غريب لا يلائم طبائع حياة الناس، وهو خير دافع لسطوة الاستعمار وشروره، وأفضل أشكال الروابط النافعة للاشتراك في الحياة مع بقاء الإنسان مستقلاً في حرية إرادته.

ب- الجامعة الإسلامية:

وإذا كانت الرابطة القومية هي الدائرة المهمة الأولى في حياة الإنسان فإن ذلك لا ينفي وجود روابط أخرى تقوي التعاون وتعززه بين الناس وتقرب بينهم، مثل الرابطة الدينية.

فإذا كانت ((الأمة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين))[2] فإن للأمة روابط متعددة الأشكال، من ضمنها الرابطة الدينية. فلا شيء يمنع من أن تشترك أكثر من رابطة في انتماء الإنسان أو تجتمع كلها في أمة واحدة. وقد تتقاطع تلك الروابط في أشياء كثيرة في بعض الأمم، من روابط وطنية أو لغوية أو دينية، فقد يجتمع النسب والوطن واللغة والدين، أو قد يجتمع بعضها من دون بعض.

ولم يكن مستغرباً أن يدعو الكواكبي المسلم لجمع شمل الأمة الإسلامية في رابطة دينية فضلاً عن الرابطة القومية بين العرب: مسلمين ومسيحيين.

وهذا يعني أن لدى الكواكبي انتماءين قويين: الأول هو الأمة الدينية، ويعني بها الرابطة التي تجمع المسلمين، ويحضّ المسلمين للدعوة إليها، وبخاصة المسلمين العرب، بالنظر إلى أهدافهم المشتركة في إصلاح الدين، وإسقاط ادعاء العثمانيين بالخلافة. وينادي الكواكبي هنا، بفصل الخلافة عن الملك، وعودتها إلى العرب، وقيامها على أساس الشورى والانتخاب، ويحدد

---

(١) م.ن، ص.ن.

(٢) طبائع الاستبداد، ص ١١٥.

وظيفتها بأنها وظيفة روحية لا علاقة لها بالسياسة الداخلية للبلاد الإسلامية.

أما الانتماء الثاني، فهو الانتماء القومي، ويعني به، وحدة العرب من كل الأديان، وهي عنده رابطة الأرض واللغة، وبالتالي الثقافة، والأهداف المشتركة بين العرب جميعهم في تخليص أوطانهم من سطوة الاستبدادين: الداخلي والخارجي. ثم هناك الحكم المحلي اللامركزي في الدولة القومية الواحدة.

ويشكل الانتماءان: الديني والقومي، دائرتين متطابقتين في فكر الكواكبي، العربي، المسلم. إلا أن تقاطعهما لا يسبب مشكلة، سواء لدى العربي غير المسلم، أو لدى المسلم غير العربي، وذلك لأنهما دائرتين غير متعارضتين لما بين العرب والإسلام من صلة حميمة. فينتمي العربي إلى إحدى الدائرتين، بينما ينتمي المسلم إلى الأخرى، في حين أن العربي المسلم ينتمي إليهما معاً.

من ذلك يتّضح أن الكواكبي أراد تنمية الشعور بالانتماء القومي والديني معاً، كما أنّه دعا إلى روابط أخرى تضمّ أقواماً وأدياناً مختلفة ويكون بيننا وبينهم قواسم مشتركة من ناحية ما. فليس الترابط القومي والديني هما الرابطان الوحيدان في المجتمع الصالح، بل إن المجتمع كلما ازداد مثالية كلما كثرت روابطه، وكلما كثرت روابطه، مع غيره من المجتمعات، كلما ازداد مثالية وتقدماً. فإذا استقلّ كل قوم في رابطة وطنية، وإذا اجتمع أهل الدين الواحد في رابطة دينية، فإن ذلك يعزز ويدعو إلى روابط أخرى متعددة بين الأقوام والأديان في شتى أنحاء الأرض.

ويتضح من ذلك أن الحضارة، عند الكواكبي، هي كلّ متكامل لايتجزأ، ولا يسع أحد الانغلاق على نفسه في قومية أو دين. كما أنه يرفض التعصب القومي أو الديني، منوّهاً بأهمية التسامح بين الأديان والأقوام من أجل التعايش السلمي والتعاون بينها.

=**الإسلامية منطلق يعزّزه العقل:**

إن الإسلام هو منطلق الكواكبي الأساسي، كما أن إثبات مقولاته هي غايته الأولى، وهو وصولاً إلى ذلك يحاول البرهنة على أنه المنهج السليم الذي يجب اتباعه.

والملاحظة المبدئية التي يطرحها هي أنه ليس هناك من لا يدين بدين، وأن الدين الصحيح هو الذي يقوم على التوحيد رافضاً الخضوع لغير الله. والإسلام، فضلاً عن أنه دين توحيد، فإنه أيضاً يترك المجال لإعمال العقل، بل إنه يدعو إلى العلم ويحض عليه حيث أن ((أول كلمة أنزلت من القرآن هي الأمر بالقراءة أمراً مكرراً))"[١] والكواكبي يشير بذلك إلى الآية (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)[٢]. والإسلام إذ يدعو إلى التفكير، حتى في مسائل الدين، إنما يريدنا أن نفعل ذلك من غير أن تكون هناك واسطة بين الله والإنسان، بل إنه يؤكد تحرر الإنسان من التبعية الدينية لأحد. ويخلص الكواكبي من هذه المقدمات إلى نتيجة مفادها ان الإسلام هو افضل دين تنزل على الإنسان، وإذا تفكّر الإنسان في الكون، فإن عقله لابد أن يهديه إليه،لأنه يدعو إلى الحرية وإلى التمسك بالوحدانية تحت شعار "لا إله إلا الله".

ومن هنا يمتد فكر الكواكبي ليرفض الجبرية ويهاجم مفهوم الزهد الشائع في زمنه.ويدعو الى التفكّر في القرآن الكريم الذي نكتشف من خلاله أن الشورى مبدأإسلامي،وأن الحل السياسي لمشكلات المجتمع عند الكواكبي إنما يكمن في الشورى الدستورية، وهو يستخرج أصول الشورى من القرآن مدللاً على ما جاء فيه حول قصة بلقيس، وقصة موسى، وآيات تطالب بالشورى وتحثّ عليها. ويدعو الكواكبي إلى الاستفادة من التراث العربي الإسلامي

---

(١) طبائع الاستبداد، ص ٥٠.

(٢) ١/٩٦ – ٥ سورة العلق، التي روى البخاري أنهاأول ما نزل من القرآن الكريم بغار حراء.

لإقامة طراز سياسي شوري، مستلهماً المقولات الإسلامية والتجربة الغربية في تحقيق الديمقراطية، التي رعاها الغرب أكثر مما رعاها المسلمون، حتى في صيغتها الإسلامية.

وقد وصف "القرآن الكريم" مادحاً من يأخذون بالشورى: (والذين استجابوا لربهم، وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)[١]، كما أنه يأمر الرسول باستشارة أصحابه (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)[٢]، وهذا يعني أن الشريعة تأمر الحاكم بأن يرجع إلى الأمة في الأمور المهمة، وهذا يجعله مراقباً من قبلها. وقد عد الإسلام الشورى من دعائم الإيمان، فقد سوى في النص السابق بينها وبين الصلاة. فالشورى فرض واجب على الحاكمين والمحكومين وبناءً على ذلك قرر الفقهاء أن من ترك الشورى من الحكّام فعزله واجب على المحكومين. ورأوا أن إلزام الحكام برأي الأمة هو أكبر ضمان لتقييد السلطة السياسية. وهذا ما حاول الكواكبي المحافظة عليه في وجه الاستبداد، الذي يجب الاستغلال والاستلاب، ليتسنى له، بعد ذلك، إقامة حكومة عادلة أساسها الشورى.

= علاقة الدين بالسياسة عند الكواكبي:

مما يبدو في فكر الكواكبي أن الإسلام لم يأت بنص تفصيلي يوضح فيه طريقة العمل السياسي، إلا أنه في الوقت نفسه لم يترك الأمر مطلقاً بل حدده

---

(١) الشورى ٤٢/٣٨.

(٢) آل عمران ٣/١٥٩.

في وظيفة الحاكم وحكومته، وفي غايات العمل الدنيوي بشكل عام في أنه يجب أن يصبّ في المصلحة العامة فوضع "مائة قاعدة وحكم" من غير أن يفسر الفعل السياسي على اتباع أساليب إجرائية معينة.

على ذلك يترتب أن الكواكبي لم يقل بفصل الدين فصلاً كلياً عن السلطة السياسية، بالرغم من أنه يميز بين الدين والدولة. إلا أن هذا لا يدعو إلى الاعتقاد بأنه قال بدمجها معاً تحت لواء سلطة الخلافة، وذلك لأن الكواكبي قد طالب بإعادة الخلافة إلى العرب، ونقلها إلى الحجاز، وهذا في حقيقة الأمر يشكل تشكيكاً بشرعية الخلافة كما يفهمها كثير من معاصريه، كما أنه يعد سعياً إرهاصياً نحو إقامة رابطة عربية قومية.

وهذه النتيجة تنسجم مع ملاحظة (سليمان موسى) إذ يقول عن الكواكبي: "لأول مرة يتقدم مفكر عربي مسلم بمشروع إنشاء دولة وطنية تفصل فيها السلطة التنفيذية عن الدين، بينما كان المفكرون المسلمون قبل ذلك يدعون إلى إبقاء السلطة التنفيذية والزعامة الدينية ملتصقتين في شخص الخليفة – السلطان"(١).

والكواكبي لم يقل باستعادة السلطة القديمة وإنما قال بأهمية استلهام منهج فترة الخلافة الراشدية ومثلها وغاياتها، مع تأكيده "بأنها لن تعود" لأنها فترة استثنائية تطلبها الواقع القائم آنذاك، ونحن علينا تحقيق ما حققته، ولكن عن طريق دولة معصرنة.

لذلك لا نرى أن الكواكبي قد سعى إلى إقامة سلطة دينية، وكل ما أكده هو ضرورة تكامل الدين والسياسة مع فصل السياسة عن الدين. وهو حين طالب بفصل السلطة السياسية عن الدين لم يكن يفصل بين سلطتين، كما حدث في أوروبة (فصل السلطتين: الدينية والسياسية)، وذلك لأنه لا يقرّ أصلاً

---

(١) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٢٣.

بوجود سلطة دينية لأحد في الإسلام، وجل ما كان يرمي إليه هو تحرير العرب من أسر السلطة العثمانية الاستبدادية، وبناء أمة عربية موحدة سياسياً.

وفي حين نادى السلفي بالجامعة الدينية، ونادى الليبرالي بالجامعة القومية، أراد الكواكبي الاثنتين معاً.

من هنا يحمل الكواكبي بذور فكر سلفي وليبرالي معاً، من غير أن ينتمي إلى أي منهما أكثر مما ينتمي إلى الآخر إلا بمقدار ضئيل. وظل حتى النهاية يطالب بالإسلامية حلاً للمسائل جميعها.

والإسلامية – بهذا التصور – يمكن تجسيدها بصيغ متعددة اجتماعياً وفكرياً وسياسياً مما يجعلها تشكل نسقاً فكرياً وعملياً للدين والدنيا على حد سواء، مما يسمح بتقديمها على أنها عقيدة وشريعة معاً، من كونها بديلاً يتخذ من النص الإسلامي إطاراً عاماً نقونن في ضوئه قوانيننا، وذلك لأن القرآن لم يترك خطاً عاماً شاملاً لم يأت على ذكره ضمناً أو صراحة، فهو يحيي العدل والتساوي والشورى ويرسم حدود اختيار الإنسان في حياته، ويقرر كيفية حصول التوازن الاقتصادي عبر الصدقات والزكاة، ويمنع التواكل ويشيع ملكية الأرض للناس أجمعين. ويجعل للبائس والمحروم حقاً في أموال الأغنياء[١]. ففي الإسلام تتوافر مطالب الإنسان في الحرية والعدالة والمساواة.

إن مثل هذا الفهم لشمولية "القرآن الكريم" عند الكواكبي يقطع الطريق على كل من يحاول التدليل على أنه يفصل الدين عن السياسة بوصفها صيغة أخيرة لتنظيم الدول ويجعل، بالتالي، من المتعذّر علينا موافقة (جان داية)[٢] في ما ذهب إليه من محاولة تأكيد فصل الكواكبي بن الدين والدولة، بل إن كل ما فعله الكواكبي هو أنه فصل بين القائمين على الحكم وبين علماء الدين. إنه أدخل تحديداً مبدئياً هو إخراج مؤسسة الحكومة عن دائرة التحكم بالدين

(١) ينظر: طبائع الاستبداد، ص ٣٥ و ٧٥ و ٧٨، أيضاً: أم القرى، ص ٥٩ – ٦٠.

(٢) ينظر: جان اية، فصل الدين عن الدولة، خاصة ص ٤١ – ٩٠.

لضمان حرية العقيدة، بعيداً عن السلطة السياسية. كما أنه جعل الرابطة الإسلامية بمنأى عن التدخل في شؤون الحكم، وأبقى على الخليفة بوصفه. مرشداً أو رمزاً روحياً للجماعة، وميزه من السلطان أو الحاكم المدني الدنيوي. وهذا بالتحديد ما عمد الكواكبي إلى إثباته عبر كتابته، وذلك لأن الإسلامية عنده أشمل من أن تكون حكومة أو أن تتمثل في أشخاص.

وتمثل الحل السياسي عنده في الدعوة إلى حكومة دنيوية، قانونها الأساسي الشريعة الإسلامية إطاراً عاماً فقط، رافضاً الصيغ الغربية، لأنه رآها غير صالحة للعرب المسلمين، الذين عليهم الانطلاق من واقعهم، والاسترشاد بشريعتهم، لأن فيها ما يكفل حرية الأفراد، وما يكفل قيام نظام حكم "ديمقراطي تماماً". وضمن هذا الإطار ناقش الكواكبي مسألة الخلافة.

= بين العروبة والإسلام:

إن الحرية بكل ضروبها وفروعها هي الثمرة المطلوبة من أجل الإنسان، عند الكواكبي، وقد روى عنه (محمد رشيد رضا) قوله: ((إن الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد، بل إن بلاد الحرية تولد في الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولد في غيرها))[١]، حيث يعيش الإنسان مستقلاً عن سواه من غير أن يشعر بتبعيته لأحد. لذلك يحب الكواكبي حياة البدو، فهو يعتقد أن البدوي ينشأ نشأة استقلالية بحيث يمكن لكل فرد من البدو الاعتماد على نفسه في معيشته ((خلافاً لقاعدة الإنسان المدني بالطبع، تلك القاعدة التي أصبحت سخرية عند علماء الاجتماع المتأخرين))[٢]، فقد صار بوسع الإنسان ((متى انتهت حضانته أن يعيش

(١) محمد رشيد رضا، في (المنار) ١٩٠٢، نقلاً عن سامي الدهان، الكواكبي...، ص ٥٥.

(٢) طبائع الاستبداد، ص ٢٤.

مستقلاً بذاته، غير متعلق بأقاربه وقومه كل التعلق، ولا مرتبط ببيته وبلده كل الارتباط))[١] وما ذاك التعلق الملاحظ لدى الناس في الدولة الديمقراطية سوى رابطة يختارها الإنسان من دون قسر.أما الأسراء فهم وحدهم الذي يعيشون متلاصقين متحامين من سطوة الاستبداد، بخلاف الأمم الحرة التي يعش أفرادها متفرقين أما الحكومة البدوية فهي- بحسب تكوين البدو- بعيدة عن الاستبداد، ومثال الكواكبي على ذلك، معيشة أهل جزيرة العرب. ونتصور أن الكواكبي لم يشد بالبداوة إلا للتدليل على محاسن أهل الجزيرة العربية، كما أن استقراءه الواقع كان ناقصاً، أو أن آراءه لم تكن متماسكة، بدليل أنه رأي إيجابية التفرق، هنا، في حين كان قد عده أحد أسباب الانحطاط وتفشي الاستبداد. لكن إيجابيته تكمن في أنه كان يطالب باستقلال الإنسان استقلالاً نسبياً بحيث يبقى لكل إنسان دور في وطنه وبين أفراد أمته. وهنا استطاع الكواكبي النفاذ إلى فهم تعدد أدوار الإنسان في مجتمعه. وجل ما أراده هو أن يعيش الإنسان مستقلاً في شؤونه الشخصية ويظل في الوقت نفسه جزءاً لا يتجزأ من مجموع أفراد أمته. لذلك حاول إيجاد روابط متنوعة بين الناس، فوضع برنامجاً للحل التدريجي يكون به الإنسان حراً مستقلاً في شخصه، وكذا تكون العائلة ثم القرية ثم المدينة ثم القبائل في الشعب، يكونون أحراراً ويرتبط بعضهم ببعض بروابط جنس أو دين. وهذه دعوة صريحة لاستقلال الفرد مع إبقائه على روابط وعلاقات مع غيره شرط ألا يجرح الارتباط الاستقلال.

وقد كان الكواكبي عربياً، حتى أن الجامعة الإسلامية التي رغب بها كانت تحت قيادة العرب. فهو كما قال عنه (محمد كرد علي):((مع تمسّكه بالإسلام لم يكن متعصباً، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة))[٢]. هذا فضلاً عن

---

(١) طبائع الاستبداد، ص ٢٥.

(٢) حديث في الهلال. عن سامي الدهان، الكواكبي، ص ٣٤.

تحديده مهمات الخليفة، إلا أن الكواكبي، مع ذلك، لم يهمل الرابطة الإسلامية، بل دعا إليها بصورة لا تتعارض والوحدة القومية. وهذا منطق سليم ففي الفكر الإسلامي لا يمكن التفكير في جامعة إسلامية بدون التفكير في العرب وإبراز فضلهم في حفظ الإسلام. ومن المنطلق العروبي لا يمكن إقامة دولة عربية من غير الأخذ بعين الاعتبار الثقافة والحضارة الإسلامية، ودور "القرآن الكريم" في حفظ لغة العرب. لكن أهمية الفكرة القومية التي قال بها الكواكبي تكمن في أنها إلغاء للتمايز الديني بين أفراد الشعب الواحد، والاستعاضة عنه بالتمايز الوطني، فيقوم اتحاد بين الإمارات العربية. وقد تحدث عن الأمة العربية على أنها تمتد من شمال أفريقيا إلى العراق.

ويقول (محمد عمارة) عن عروبة الكواكبي: ((إن فكرة العروبة بمعناها القومي الحديث، قد بلغت عند الكواكبي حداً من النضج ودرجة من الوضوح تستحق إلى جانب الإبراز، الفخر والاعتزاز))[١].

وقد أراد الكواكبي تكوين وحدة عربية، ضمن اتحاد إسلامي، مستندة إلى التراث والتاريخ العربي- الإسلامي، متجاوزاً بذلك إطار القومية الضيقة التي ليست، لديه، سوى شكل من أشكال التجمع. فمن اتحاد عائلي، إلى تجمع مديني، إلى قومي، إلى روابط دينية وجغرافية وسياسية وإنسانية. وهذا يجعل كلام (منيمنة) صحيحاً إذ يقول عن الكواكبي أنه ((كانت له رؤيا قومية وإسلامية وإنسانية شاملة))[٢]، وكان "ميله للعرب"[٣] واضحاً فقد نادى((باسم العودة إلى إسلام خالص، بتمجيد القومية العربية التي تمر نهضتها من خلال تجدد الخلافة العربية))[٤]. فالوحدة القومية ليست مشروعاً يحط من قيمة

---

(١) محمد عمارة، الأعمال الكاملة للكوكبي، ص ٧٠.

(٢) جميل منيمنة "الكواكبي..." في المقاصد، عدد ٥١، ص ١٢٥.

(٣) ينظر: **Khaldoun Al – Husri, three rformers,P.85.**.

(٤) أوليفر دوهاميل، تاريخ الأفكار لاسياسية، ص ٤٩٥.

المعتقد الديني ويحيي الأصول العرقية، كما أن الدين لايطالب بانصهار الوحدة القومية في كيان الاتحاد الديني، بالرغم من أنه أكثر اتساعاً من الوحدة القومية.

إن الدولة القومية الواحدة لا تهمش الدين، بل إنها تجعل منه رافداً لها ورابطاً مع الدول الأخرى. فقد عد الكواكبي القومية العربية والاتحاد الإسلامي صنوين، بحيث لا تكون العروبة بديلاً عن الإسلام ولا يكون الإسلام بديلاً عن العروبة، بل إن كلاً منهما يعزز الآخر بحيث لا ينتشر الإسلام على حساب العروبة، بل لحسابها.

وبذلك فإن((الكواكبي يجد حلّاً لتكوين اتحاد إسلامي بين الدول))[١]، ويبقى الرابط القومي، عنده، بعيداً عن المعتقد الديني، بحيث يمكن أن يكون من يرتبط معنا قومياً يدين بدين غير الإسلام، كما يمكن أن ينتمي المسلم إلى قوميته الخاصة فيكون إنكليزياً أو فرنسياً أو تركياً...

وهكذا نجد ترابطاً بين الأديان والأقوام كلها، مما يدل على تكامل الإنسانية والإخاء الطبيعي بين الناس أجمعين.

وهذا يعني أن الكواكبي كان مع الجامعة الإسلامية ومع القومية العربية في الوقت عينه، خلافاً (لمحمد عبده) الذي انحاز للجامعة الدينية ضد الوطنية[٢]. أما عند الكواكبي فإن الاتحاد الإسلامي يشكل جداراً تحصينياً أمام الغرب الطامع، ولا يتعارض حبه للجامعة مع حبه لانتمائه العربي.

---

(١) **K. Al-Husari, op. cit,p.92.**

(٢) ينظر: محمد عمارة، الإمام محمد عبدو مجدد الإسلام، ص ٥٢ و ٦٢.

خاتمة

فكر الكواكبي

هذه هي الأعمال الكاملة للكواكبي التي سمحت لنا دراستها باستنتاج بعض النقاط الأساسيّة في فكره . فبدا لنا أنّ الاستبداد الذي يعنيه هو الاستبداد السياسي في الدرجة الأولى . وهو يرى أن الحكومات كلهّا استبدادية مالم تكن منتخَبة وملزَمة بقانون، ومراقبة من قِبل الشعب مراقبة تسمح بالعقاب، ومُنَسّقاً بين هيئاتها : التنفيذية والتعليمية والتشريعية . لذلك دعا إلى مراقبة الحكومة مهما يكن شكلها، اتّقاء لمزالق الحكم التي تحوّل حتى الحكومات العادلة إلى مستبدّة، إذا لم ترنفسها مسؤولة أمام الشعب .

وهو يطالب بالفصل المتّصل بين التشريع والتنفيذ . صحيح أنّ كلّ هيئة مسؤولة عن عملها بشكل مستقل، لكنّ ذلك لا يعني انفصالاً كلّياً بينهما، بل لا بد أن تكون وظيفة كلّ منهما مكملّة لوظيفة الأخرى من غير أن يؤدي ذلك إلى تدخّل إحدهما في شؤون الأخرى . وإنمّا تترابط الهيئات من خلال مراقبة الشعب لهما معاً .

ومسؤولية الاستبداد تقع على عاتق الجميع، بمن في ذلك المستبد بهم أنفسهم . إذ يحملّهم الكواكبي كثيراً من مسؤولية وقوعها بين براثن الاستبداد. ومن أهم الأمور التي طرحها الكواكبي هي العلاقة بين المستبد والمستَبد به، محلّلاً نفسيّة كلّ منهما مؤكّداً دورهما معاً في بقاء الاستبداد وفي دعمه . وهو يرفض الاستبداد ويطالب بإزالته انطلاقاً من معتقداته الإسلاميّة ، ومن الواقع المُعاني في ظلّ الحكم العثماني، ومن ملاحظته أن الأمم المتقدّمة لم تصل إلى تقدّمها إلاّ بعد إزالة الاستبداد، فهو يرفضه على كلّ قانون . وهذه صفة

الأخلاقي يتعلّق بمنطلق الكواكبي الديني . فإن كان قد رأى أنّ الأخلاق ملكة مطردة على قانون فطري، وأنّ تربيتها التربية، وسقياها العلم، وأقوى ضابط لها هو النهي عن المنكر، فهذا يعني أنّ المنبع الأصلي للأخلاق عنده هو الدين الذي فُطِرَ عليه الناس أجمعون، وتكون تربيته هي إدراك أنّ الله يرى ويراقِب، وبالتالي فكلّ إنسان مكلّف بمراقبة نفسه من هذا المنظور . وليس وارداً عند الكواكبي أن يكون هناك إنسان بلا دين، وبالتالي فلا يوجد إنسان بلا أخلاق، وإنمّا تكون أخلاقه حسنة بدرجة ارتباطه بدينه ومدى تنفيذ تعاليمه . من هنا ندرك أنّ الكواكبي لا يفصل الفعل السياسي عن الأخلاق، ونراه تحييد الأخلاق الذي يؤدّي إلى إيجاد هّوة تفصل بين الحاكم والمحكوم . وبما أنّ الدين هو مصدر الأخلاق، لذلك يكون الدين عن أيّ تفكير أو فعل، بما نكون قد عدنا إلى ملاحظة أنّ الكواكبي لا ينحّي الدين عن أيّ تفكير أو فعل، بما في ذلك الفعل السياسي والتفكير به . وقد فرقّ الكواكبي، في الإسلام، بين ما هو عقيدة دينية، وبين ما هو تراث فيه .

فالأوّل . أي الإسلام بما هو دين . إنّما هو من وحي إلهي لا يشمل سوى القرآن الكريم والحديث الشريف . أمّا الثاني فهو من صنع بشر اجتهدوا قبلنا وتوصّلوا إلى نتائج معيّنة، ولا يتحتم علينا أن نتقيّد بما ارتأوه من آراء، وإنّما علينا نحن أن نبني اجتهاداتنا الخاصّة لنصنع فهمنا الخاص ونشكل تراثاً للاّحقين . وتتضح ثوريّة فكره الديني من تقويمه لبعض الاجتهادات السابقة، ورفضه الزهد الذي لم يعد سوى قشور، وعدم قبوله بتفسير بعض المتعمّمين للقرآن، ومهاجمته المتستّرين خلف الدين .

وإذا كان الكواكبي مفكّراً ثوريّاً ثوريتّه تدريجيّة وداخليّة . لقد طلب التقدّم، وعدّ أنّ تحقيقه منوط بإزالة الاستبداد أوّلاً . واقترح أن يتمّ ذلك بالتدريج، وبالاعتماد على تكاتف الواعين، وتهيئة الرأي العام للمشاركة في التغيير المنتظر، وفي صياغة الهدف وتحقيقه، بعيداً عن القوةّ والعنف، وذلك

لاعتقاده بأنّ كلّ شيء يتحقّق بقوة وزمان متناسبين مع أهميّته . وهو يريد الثورة أيضاً بعيداً عن الانتظار المستكين، لأنّه لا يقوم بالثورة إلاّ من تأذّى من الوضع الراهن فقال يطلب التغيير . وبذلك استطاع الكواكبي أن يفهم الثورة الحقيقيّة، التي لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلاّ بعد الوعي لإمكاناتها وأهدافها وتجنيد الأدوات اللازمة لانتصارها . ويبدو أنّه ثوري متعقّل، بدأ بإصلاح مفاهيم الدين السائدة لإصلاح الفكر وتوحيد الرأي العام، مستعيناً على ذلك بملاحظاته حول ما فعله الإصلاح الديني في الفكر الغربي . ومنطلِقاً أيضاً من اعتقاده بأنّ الدين هو حامل هذه الثورة، وأنّ الإصلاح الديني هو أقرب طريق للإصلاح السياسي، مع إدراكه أنّ الإصلاحات كلّها مترابطة ومتكاملة .

وهو مع العقل ضدّ النقل الأعمى، يجاهد لإثبات أنّ العقل لا يخالف الدين، وأنّ الدين لا يتناقض والعقل ن لأنّ الإسلام بُني على العقل، وخاصّة فيما يتعلّق منه بالحياة الدنيا . وهو إذ يفعل ذلك، إنما يفعله لصالح الدين والانتصار له، بعد أن اقتنع بصحّة مبادئه التي تطالب بالعمل الدؤوب . ويرى أنّ وقف السعي المتواصل للعثور على الذات أخّر الشرق، ممّا جعل الاستبداد يعشّش في أرضه (وهان يبدو تأثير ابن خلدون واضحاً) إذ بطر الناس ووصلوا إلى مرحلة الاستنعام فأهملوا إعمال الفكر، وتراخوا في الدّين، وتركوا واجب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الذي هو فرض عين على الجميع، وتفرّقوا واختلفوا فيما بينهم، وأهملوا رسالتهم الحضاري في تنوير عقول العالمين، مكتفين بالنقل العشوائي عن بعض المنافقين الذين شوّهوا تعاليم الدين، فخرج منهم من استطاع حسم الاقتتال لصالحه، فاستلم زمام الأمور وراح يستبدّ بهم . وهكذا فإنّ الكواكبي ينطلق في تفكيره من العقل حتى في انتقاء ما يأخذه من النقل ن ناهيك عمّا يقتنع به من الأفكار القادمة من أوربة أو من التراث . فلا يبدأ من مسلّمات منقولة من غير أن يشكّ في صحّتها، ولوشكّاً بسيطاً لا يرقى إلى الشكّ الديكارتي . وهو العقلانيّة هي التي هدته إلى

انتقاء الآراء التي تؤنسِن الإنسان، وتفحّصها . وفي كتاباته نلمح آثار فكر الثورة الفرنسّية التي أعاد بناؤها على أساس عروبته وإسلامه وعلى أساس اتجّاهه العقلي . لقد استوعب تلك الأفكار، وحاول الاستفادة منها بما يتلاءم وحاجات الإنسان العربي، مرتكزاً على وجهة دينيّة . أخلاقية في الوقت عينه . إنّ ما يعد تفكيراً عقلانيّاً في عصر النهضة العربية، هو ما فعله الكواكبي حيث أيّد ليبرالية الطبقة الوسطى في أوربة، مطلباً بحكومة دستوريّة، وبتحديد سلطة الحكومة، وتأمين حريّة الفرد، لكنّ ذلك تمّ استناداً إلى أسس عقليّة من منطلق إسلامي ز لقد حاكم الكواكبي الاستبداد استناداً إلى تراث العرب في الحريّة، وإلى ما يطلب به الإسلام، وإلى ما لاحظه في الغرب . فهو، بعد أن اقتنع عقلياً بالأفكار القادمة من الغرب، راح يبحث عن جذور دينيّة لقناعاته . ورأيه القائل أنّ صلاح الحاكم والحكم من صلاح الرعيّة، إنمّا يؤكد منطلقه الإسلامي الذي يصدر عن حديث : (كما تكونوا يولّى عليكم) . ومع ذلك فإنه كثيراً ما يورد دلائله من العقل والنقل معاً . وهو لا يمانع من الأخذ عن الغرب، مع الإبقاء على الخصوصيّة العربّية الإسلاميّة، وعدم التقليد الأعمى، لا للغرب ولا للتراث . فهي ليست مسألة استعارة بل استيعاب ما يطرحه الأخر من أفكار، والتصرّف وفق الواقع الذي نعانيه، والذي علينا أن ننطلق منه لإصلاح الدين وتحسين التربية وإشاعة العلم لمقاومة الاستبداد . وقد تجتمع قوى الشعب بوساطة جمعيّة تستلم زمام التوعية والتنظيم والتنوير . وأنّ استبدال الإسلامية باستبداد لا يمكن أن يحدث إلاّ بتحقيق شروط حدوثه، وهي شروط دينيّة وأخلاقية وسياسيّة . فالمسلمون يحتاجون إلى الحكمة العقليّة ليفهموا دينهم فهماً صحيحاً . وقد أراد العودة ليس غلى مناقشة أصل الدين الإسلامي وجوهره، بل إلى إصلاح ما اعوجّ منه في أذهان الناس . فما أصاب الإسلام ليس خللاً دينياً، بل هو خلل سياسيّ. وما يجب إصلاحه ليس إلاّ تلك السياسة التي تلبّست بالدّين وقادت إلى الانحطاط . وإذا نشد النّاس التحرّر من اسر

الاستبداد، عليهم أن يجتهدوا لأنّ الحريّة لا تؤخّذ عفواً، تحتاج إلى جهاد في سبيل نيلها، بتنبيه حسّ الأمّة وتوعيتها لتكوين رأي موحّد يطلب التغيير ويسعى إليه . ويضع الكواكبي منهجاً تدريجيّاً للحلّ، بالتربية والتعليم وبثّ الحماسة، لأنّه يرى أنّ ما يحصل بالتدريج يكون أنفع وأرسخ وأحكم ممّا يحصل بثورة مفاجئة . وهنا تظهر ثوريّته الواقعية التي لا تريد أن تقفز قفزاً عشوائياً، خشية السقوط بين براثن استبداد أشدّ مرارة من سابقه . ومن الملاحظة أيضاً أنّ صياغة قانون جمعية أمّ القرى متأتيّة من عمله الفعلي في المحاماة والقضاء فنراه يضع موادّ القانون ثم يسعى إلى تفسيرها .

لقد حمل الكواكبي واقعياً استهدف خير الإنسان، وواقعيته تتّضح من خلال النقاط الآتية ك

١ . الاستبداد فكرة عاناها واقعاً وفكراً .

٢ . ثقته بأنّ الدين ضرورة إنسانية .

٣ . ربطه العلم بالعمل .

٤ . استنتاجه أنّ الحكومة لابُد أن تستبدّ ما لم تجد عليها رقيباً .

إنّ مواقف الكواكبي الفكريّة جاءت متوافقة وسلوكه العملي، واستطاع أن يثبت أنّه مفكر مناضل، جريء في طرح أفكاره، دقيق في تحليله، صادق في الدفاع عن إنسان بلاده .

كما أنّه عربّي مسلم، يتضح انتماؤه العربي من خلال تمييزه مصالح العرب من مصالح الشعوب الإسلاميّة الأخرى، ومطالبته بتحرّرهم من أسر الحكم التركي . لقد أحبّ الكواكبي العرب وعدّهم قادة الجامعة الإسلامية، فبهم يتم إصلاح الدين وعلى أيديهم تقوم الجامعة الإسلامية، والخلفية الإسلامي يجب أن يكون عربياً قرشياً . ذلك كله يعبّر عن إرهاصات المطالبة بالقومية العربية لديه .

وقد لا حظ الكواكبي أنّ هناك ترابطاً دينياً بين الشعوب الإسلاميّة،

العربيّة ، وانتمى ـ بدوره ـ إلى العرب في وطنه العربي، وإلى أخوانه المسلمين في البلاد الإسلامية الأخرى، من خلال الرابطة الإسلامية التي دعا إليها . فكان مع القوميّة العربيّة ومع الجامعة الإسلامية في الوقت ذاته .

أمّا منطلق الكواكبي الأساسي فهو الإسلام . إنّه مفكّر متديّن، ولأنّه يدين بالإسلام، فقد شرحه مبّيناً اختلافه عن الإسلام الرسمّي السائد، وميزّ بين المسلمين والإسلام والإسلامية التي عدّها المنهج المشتق من الإسلام، وبهذا المعنى شكّلت الإسلامية، عنده، المنطلق والمنهج والهدف .

وقد حاول تعزيز انتماءيه : القومي والديني، من خلال وحدة سياسية عربية، وجامعة إسلامية يتولاها خليفة عربي . وهكذا فإن علاقة إسلام الكواكبي بعروبته، علاقة تكامل وانسجام، لا علاقة تنافر وخصام .

وهو، فضلاً عن إعانة الانتماء إلى العرب والمسلمين، ينتمي أيضاً إلى الإنسان لأنّه يرى روابط إنسانيّة وحضاريّة تجمع بين النّاس جميعاً، وتسعى إلى رقيّ الإنسان وتقدّمه . ولهذا نجده يزاوج بين المفاهيم الغربيّة الحديثة وما يطرحه الإسلام، والعربي ـ الإسلامي، فإنه إنّما يبني توفيقيته لمصلحة منطلقه الإسلامي، موفّقاً بين العلم والدين، من خلال توفيقه بين ثوابت الدين والمعطيات الغربيّة الحديثة . إنّه مفكّر توفيقيّ ـ انتقائيّ، وتوفيقيته تنطلق من طبيعة الإنسان ذاته، وتهدف إلى تحقيق مصلحته .

وبشكل عام فإن الكواكبي مفكّر متفائل إذ لم يشكّ لحظة واحدة إمكانيّة إصلاح الفتور الحاصل في المجتمع العربي ـ الإسلامي .

تلك هي منجزات الكواكبي وإسهاماته من أجل تحرّر الإنسان العربي وتقدّمه، وتلك هي المنطلقات التي رأى من خلالها الأمور، فكانت تجربته غنيّة وحلوله مرتبطة بظروفه ومصادر ثقافته .

لقد وعى مشكلات شعبه، وكان واحداً من الذين تصدّوا للإجابة عن سؤال النهضة الأساسي : لماذا تخلّف العرب وتقدّم غيرهم . كما كان واحداً من

الذين عانوا من تخلّف الأمة، ووهبوا لها حياتهم محاولين أن يضعوا لبنة على طريق تقدّمها، وغادروا تاركين لنا مسؤولية السير في درب النهضة الطويل، فهل ترانا فاعلين ؟ ! ..

الباب الثالث

كتب الكواكبي

أم القرى

طبائع الاستبداد

أمّ القُرى

مؤتمر النـهضة الإسلاميّة الأوّل

طبعات أم القرى

عنوانه الكامل (أم القرى : وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكّة المكرّمة سنة ١٣١٦ هجري) محرِّرُها هو (السيد الفراتي). ألّفه في حلب، وظهرت أولى مقالاته في صحيفة "المؤيّد" سنة (١٣١٧ هجري= ١٨٩٩ م) ثم طبعه، ونقّحه غير مرّة إلى أن نشره (محمد رشيد رضا) في (المنار) بعد أن حذف منه عبارات نقد الدولة العثمانية، وقال عنه إن الكواكبي قد نقّحه ستّ مرّات قبل طبعه في مصر[١].

وطبعة (المنار) عنوانها (جمعية أم القرى) ومؤرّخة سنة ١٣٢٠ هجري، وتقع في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط، وفي حواشيها تعليقات (المنار)، وهي تختلف . قليلاً . عن الطبعة المعتمدة، وسنبيّن ذلك في حينه.

كما أنّ هذه الطبعة محلاّة بعناوين الاجتماعات لتبيين ما دار فيها، وملحقة بفهرس دقيق للموضوعات. وهي نسخة خالية من الكتابة الجفرية[٢] التي ثبَّتها شخص ما بخط اليد على الوجه الداخلي من الغلاف الأخير. وسنرمز إلى هذه الطبعة بالحرفين (ط. م).

وعثرنا على ثلاث طبعات، كلّها متشابهة، من القطع الصغير، وتقع في ١٤٨ صفحة، وهي بدون تاريخ، ولا تختلف عن طبعة (المنار) إلاّ في خلوّها من الحواشي، ومن العناوين، ومن فهرسة الموضوعات.

وهناك طبعة مشتركة مع (طبائع الاستبداد) في مجلد واحد، طبع المكتبة التجارية بمصر عام ١٩٣١ م. وسنرمز لكل تلك الطبعات بالحرفين (ط.ق).

ووجدنا طبعة من الكتاب قام بها السيد (محمود أفندي طاهر) صاحب

---

(١) المنار، مج٥ (١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م).

(٢) الرمزية.

(جريدة العرب) وهي بدون تاريخ. وتاريخ إيداعها في دار الكتب المصرية هو ١٩٢٣ م، وتقع في ١٨٤ صفحة من القطع الصغير. وفيها زيادات عن سواها في الصفحة ١٧٤، حيث يوضح المؤلف أن الأتراك يُرهِبون أوروبة باسم الخلافة، وأنّ الإسلام الذي يؤمن به العرب، يكره العنف والحرب، لذلك، لم يشترك العرب في مذابح الأرمن، وأن الأتراك لم يُترجموا القرآن إلى لغتهم لضعف إيمانهم وعدم موافقته سياستهم.

وفي آخر هذه الطبعة أوراق مضافة تتحدث عن طريقة الكتابة الجفرية، وتحتوي على جدول الحروف ومفتاح التفاهم بين أعضاء جمعية تعليم الموحّدين. وفيها إرشاد إلى طريقة استخدام الجدول الأفقي في المراسلة، بالتركية والفارسية. وعلى هذه الطبعة اعتمدنا في تلك الإضافات. وسنرمز لهذه الطبعة بالحرفين (ط. ط).

وأخيراً، ظهرت طبعة سنة (١٣٧٩ هجري = ١٩٥٩ ميلادي) عن المطبعة المصرية في حلب بإشراف حفيده وسميّه (الدكتور عبد الرحمن الكواكبي). وتقع في ٢٥٥ صفحة من القطع المتوسط، وفي آخرها فهرس مرقم أبجدياً من (أ) حتى (ك)، ومصدّرة بمقدّمة قال فيها الدكتور عبد الرحمن : (هذه طبعة جديدة لكتاب (أم القرى)، قوبلت على الطبعات المختلفة التي صدرت له، مما يجعلها لا تختلف عن الطبعة الأولى التي أصدرها المؤلف لأوّل مرّة[١]... (إنّ جدي رحمه الله ألّف (أم القرى) و(طبائع الاستبداد) قبل هجرته إلى مصر، وكان عمي الدكتور أسعد الكواكبي يتولّى تبييض (أم القرى) له وهو في حلب، كما أخبرني أيضاً عالم حلب الثقة المرحوم الشيخ راغب

(١) وقد تبين لنا غير ذلك، نسبياً، لكن هذا القول يصدق على روح النص وعمومه، وإن كان يختلف مع بعض الجزئيات التي بيناها آنفاً، يضاف إلى ذلك أن أم القرى قد عُدّل ست مرات قبل أن يتخذ شكله النهائي.

الطبّاخ أن المؤلف أطلعه عليه قبل سفره إلى مصر) [١]. وفي صفحة ما بعد العنوان صورة للكواكبي باللباس البدوي ويحمل مظلّة في يده اليمنى.

وعموماً، فإن هذه الطبعة هي أكمل الطبعات، مما جعلنا نعتمدها، ونضيف إليها ما ينقصها من طبعة (الطاهر) في خاتمة الكتاب، ومن طبعة (المنار) مع الحواشي والتعليقات المضافة. وسنرمز إلى هذه الطبعة بالحرفين (ط.ح).

ولم نتوقّف عند هذا الحد، فقد جمعنا كل الطبعات المتوافرة بعد تلك الطبعة فوجدنا طبعة دُوّن عليها تاريخ ١٩٨٢ م على أنها طبعة ثانية صدرت عن دار الرائد العربي في بيروت، ولكن الواقع أنها نسخة مُصوَّرة عن طبعة ١٩٥٩ م، ولا يوجد بين الاثنتين أي اختلاف إلاّ في معلومات النشر الآتية : رقم الطبعة، الطابع، عام النشر.

أما الطبعات الجديدة فهي كثيرة جداً في الأقطار العربية كلها، وقد أُنجزت من دون الرجوع إلى الوثائق التي خلّفها الكواكبي، مما جعلها طبعات ناقصة وغير دقيقة، كالطبعة التي صدرت عن مؤسسة ناصر للثقافة في بيروت عام ١٩٨١م.

كما صدرت طبعة جديدة عن دار الشرق العربي : بيروت . حلب ط٤، ١٩٩١ م، وتقع في ١٩٩ صفحة من القطع المتوسط، وقد أخذ الناشر مقدمة الدكتور عبد الرحمن عن طبعة عام ١٩٥٩ م وأثبتها، كما اعتمد على تلك الطبعة، ولكن طبعته الجديدة جاءت محشوة بالأخطاء. وقد رصدتُ في هذه الطبعة خمسة وثلاثين خطأً خلت منها طبعة ١٩٥٩م.

فالثابت إذاً اعتمادنا على طبعة ١٩٥٩ م، ثم على زيادات ما جاء في طبعة الطاهر، وما جاء في حواشي طبعة المنار. ورمزنا إلى تلك الطبعات،

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ (حلب: المطبعة العصرية، ١٩٥٩)، ص ١.

علـى التـوالي، بـالحروف :   (ط. ح) و (ط. ط) و (ط. م) وأبقينـا الطبعـات القديمة تحت رمز (ط. ق).

أم القرى

مؤتمر النـهضة الإسلاميّة الأوّل



عبد الرحمن الكواكبي

أم القرى
مؤتمر النـهضة الإسلاميّة الأوّل



عبد الرحمن الكواكبي

١٩٠٢.١٨٥٥

هـذا هـو الأسـتاذ ربّ الفضـل مـن فقــدت بــه الكتّــاب أعظـم كاتــب

أبــدى لنــا مــن معجــزات بيانـــه شمسـاً تلالـت مـن يمـين كـواكبي

أيها الواقف على هذه المذكرات [١]:

اعلم أنها سلسة قياس لا يُغني أولها عن آخرها شيئاً. وأنها حلقات معان مرتبطة مترقّية لا يغني تصفّحها عن تتبّعها. فإنْ كنتَ من أمّة الهداية، وفيكَ نشأة حياة ودين وشمة مرؤة، فلا تعجل بالنقد حتى تستوفي مطالعتها، وتعي الفواتح والخواتم، ثم شأنكَ ورأيكَ.

أما إذا كنتَ من أمة التقاليد أسراء [٢] الأوهام، بعيداً عن التبصّر، لا تحبّ أن تدري مَنْ أنت وفي أي طريق تسير، وما حقّ دينكَ ونفسكَ عليكَ وإلى ماذا تصير، فتأثّرتَ من كشف الحقائق ودبيب النصائح، وشعرتَ بعار الانحطاط وثقل الواجبات، فلم تطق تتبّع المطالعة وتحكيم العقل والنقل في المقدّمات والنتائج، فأناشدكَ الإهمال الذي ألفناه أنْ تطرح هذه المذكراتِ إلى غيرك ليرى فيها رأيه.

السيد الفراتي[٣]

إخطار

مَنْ يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على إشاعته بين الموحّدين، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ماسيتلوه من نشريات[٤] الجمعية باسم (صحائف قريش) [٥] التي سيكون لها شأن إنْ شاء الله في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية.

(١) هذه الصفحة غير موجودة في طبعة (م).

(٢) جمع أسير.

(٣) اسم مستعار اتخذه الكواكبي لنفسه.

(٤) منشورات.

(٥) إحدى المخطوطات المفقودة للكواكبي.

(سجل جمعية أم القرى)

(في مكة المكرمة)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد أفضل المخلوقين، وعلى آله وصحبه أنصار دينه الأوّلين، وعلى أتباعهم في مسالكهم إلى يوم الدِّين.

أمّا بعد؛ فأقول، وأنا هو الرحّالة المتكنّي بالسيّد الفراتيّ :

إنّه لما كان عهدنا هذا، وهو أوائل القرن الرابع عشر [1]، عهداً عمّ فيه الخلل والضعف كافّة المسلمين، وكان من سنّة الله في خلقه أن جعل لكل شيء سبباً، فلا بدّ لهذا الخلل الطارئ، من أسباب ظاهريّة غير سرّ القدر الخفي عن البشر؛ فدعت الحميّة بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيّين للبحث عن أسباب ذلك، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية، فأخذوا ينشرون آراءهم في ذلك في بعض الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتاتارية، وقد اطلعتُ على كثير من مقالاتهم الغرّاء في هذا الموضوع الجليل، واتّبعت أثرهم بنشر ملامح لي في حلّ هذا المشكل العظيم.

ثمّ بدا لي أن أسعى في توسيع هذا المسعى بعقد جمعية من سراة الإسلام في مهد الهداية، أعني (مكة المكرمة)، فعقدتّ العزيمة، مُتوكِّلاً على الله تعالى، على إجراء سياحة مباركة بزيارة أمهات البلاد العربية [2]، لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع في موسم أداء فريضة الحج. فخرجت من وطني،

---

(١) الهجري = ق ١٩/١٨ م .

(٢) لأن العرب وحدهم أولياء هذا الأمر وهذا الدِّين كما سيُفصِّل (الكواكبي). ط. م خالية من هذه الحاشية سنرمز إلى حواشي الكواكبي بعد ذلك بالحرف (ك).

أحد[١] مدن الفرات [٢]، في أوائل محرّم سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف [٣]، وكُلّي ألسن تنشد :

دراكِ فمن يدنف[٤] لعمرُك يُدفنِ — ومانفع نوح متى قيل قد فني[٥]

دراكِ فإن الدِّين قد زال عزّهُ — وكان عزيزاً قبل ذا غيرَ هيّنِ

فكان لـه أهل يوفّون حقّه — بهدي وتلقين وحُسنِ تلقّنِ

إلام وأهلُ العلم أحلاس[٦] بيتهم — أما صار فرضاً رأبُ هذا التوهّن؟

هلمّوا إلى بذل التعاون إنّه — بإهماله إثم على كلّ مؤمنِ

هلموا إلى (أم القرى) وتآمروا [٧] — ولا تقنطوا من روع ربّ مهيمن

فإنّ الذي شادته أسياف قبلكم — هو اليوم لا يحتاج إلاّ لألسن

فأتيتُ بلدة لا أسميها[٨]، وما أطلتُ المقام فيها حيثُ وجدتها كما وصف أختها أبو الطيب[٩] بقوله :

ولم أر مثل جيراني ومثلي — لمثلي عند مثلهمو مقام[١٠]

بأرض ما اشتهيت رأيت فيها — فليس يفوتها إلاّ كرام

فخرجتُ منها سالكاً الطريق البحري من إسكندرون[١١] معرِّجاً على بيروت فدمشق، ثم يافا فالقدس، ثم جئتُ إسكندرية فمصر [١٢]، ثم من السويس يمّمتُ

---

(١) كذا في الأصل، والصواب : إحدى.

(٢) يقصد : حلب.

(٣) يقابل عام ١٨٩٨ ميلادي.

(٤) يدنف: يحتضر.

(٥) الأبيات من البحر الطويل، وبعضها مكسور.

(٦) يطيلون الجلوس مع نسائهم، لا يفارقونهن.

(٧) اجتمعوا وأنشؤوا مؤتمراً للتباحث.

(٨) أغلب الظن أنها القسطنطينية.

(٩) المتنبي : هو أبو الطيب المتنبي (٩١٥ – ٩٦٥ م) من كبار شعراء العرب، ولد في محلة كنده من الكوفة، وقُتل في عودته من فارس إلى بغداد. أفضل شعره في الحكمة وفلسفة الحياة ووصف المعارك. له ديوان شرحه المعري والعكبري وغيرهما.

(١٠) البيتان من البحر الوافر.

(١١) إسكندرون : إسكندرونة.

(١٢) مصر : يعني القاهرة.

الحديدة[١] فصنعاء[٢] فعدن[٣]، ومنها قصدت عُمان [٤] فالكويت، ومنها رجعتُ إلى البصرة، ومنها إلى الحائل[٥] إلى المدينة، على منوّرها أفضل الصلاة والسلام، على مكّة المكرّمة فوصلتها في أوائل ذي القعدة؛ فوجدتُ أكثر الذين أجابوا الدعوة ممّن كنتُ اجتمعتُ بهم من أفاضل البلاد الكبيرة المذكورة وسراتها قد سبقوني بموافاتها. وما انتصفت الشهر وهو موعد التلاقي إلاّ وقدم الباقون ما عدا البيروتيّ الذي حرمنا القدر ملاقاته لسبب أنبأنا عنه فعذرناه.

وفي أثناء انتظارنا منتصف الشهر، سعيتُ مع بعض الإخوان الوافدين في تحرّي وتخيّر اثني عشر عضواً أيضاً لأجل إضافتهم للجمعية وهم من مرّاكش[٦] وتونس[٧] والقسطنطينية وبغجة سراي[٨] وتفليس[٩] وتبريز [١٠] وكابل[١١] وكشغر [١٢] وقزان[١٣] وبكين[١٤] ودلهي[١٥] وكلكته[١٦] وليفربول[١٧].

وإذا كنتُ المباشر لهذه الدعوة بادرتُ واتّخذتُ لي داراً في حيّ متطرّف

---

(١) الحديدة : أهم مدن تهامة، وأكبر مرافئ اليمن على البحر الأحمر.

(٢) صنعاء : مدينة يمنية عريقة، وهي اليوم عاصمة الجمهورية اليمنية.

(٣) عدن : ميناء يمني قديم قرب باب المندب، ومن أشهر مدن اليمن.

(٤) عُمان : إمارة في الخليج العربي.

(٥) حائل : قاعدة إمارة نجد، أي بلاد ابن الرشيد (ك) ١ .هـ. مدينة تتوسط المملكة العربية السعودية، كانت عاصمة إمارة آل الرشيد في جبل شمّر.

(٦) مدينة في المغرب.

(٧) دولة ومدينة عربية على المتوسط في شمال إفريقيا.

(٨) بغجة سراي : قصر في استنبول.

(٩) تفليس : مدينة روسية على نهر كورا. تكتنفها نتواءات من بلاد القوقاز العظمى والصغرى. وهي المركز الاقتصادي والثقافي لبلاد القوقاز.

(١٠) تبريز : مدينة تقع في أذربيجان، ثانية مدن إيران الكبرى.

(١١) كابل : مدينة تقع على نهر كابول، وهي عاصمة أفغانستان.

(١٢) كشغر : كاشغر : إقليم في الصين.

(١٣) قازان : عاصمة جمهورية تتاريا في أواسط آسيا.

(١٤) بكين : عاصمة جمهورية الصين الشعبية اليوم. وهي من أعرق مدن الصين.

(١٥) دلهي : مدينة هندية عريقة، وهي اليوم عاصمة جمهورية الهند.

(١٦) كلكته : مدينة كبيرة في الهند تقع على دلتا نهر الغانج.

(١٧) ليفربول : مدينة في غرب بريطانيا تطل على بحر إيرلندا.

فـي مكّـة، مناسبة لعقد الاجتماعـات بصـورة خفيـة، ومـع ذلـك استأجرتها باسم بوّاب داغستاني روسي، لتكون مصونة من التعرّض رعاية للاحتياط[١].

وقـد انعقـد مـن منتصـف الشـهر إلـى سـلخة[٢] اثنـا عشـر اجتماعـاً غيـر اجتمـاع الـوداع، جرت فيـه مذاكرات[٣] مهمـة، صـار ضـبطها وتسـجيلها بكمـال الدقة كما سيُعلَم من مطالعة هذا السجلّ المتضمن كيفية الاجتماعات مع جميع المفاوضات والمقرّرات، غير ما آثرت الجمعية كتمه كما سيُشار إليه.

(١) لأن الروسي يعدّ أجنبياً، ولا يمكن للحكم التركي أن يتعدى عليه.

(٢) سلخه : آخره.

(٣) مذاكرات : مباحثات.

الاجتماع الأول

(تأسيس الجمعية وخطبة الرئيس)

يوم الاثنين خامس عشر ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ

في اليوم المذكور انتظمت الجمعية للمرّة الأولى وأعضاؤها اثنان وعشرون فاضلاً، كلّهم يحسنون العربيّة، فبعد أن عرّفتُ كُلاً منهم لباقي إخوانه، وتعارفوا بالوجوه، بادرتُهم بتوزيع اثنين وعشرين قائمة مهيئات قبلاً،، مطبوعات بمطبعة الجلاتين التي استعرتها من تاجر هندي في مكّة لأجل طبع هذه القائمة وأمثالها من أوراق الجمعيّة، محرّراً في نسخ القائمة، مختصراً تراجم إخوان الجمعية جميعهم، ببيان الاسم والنسبة والمذهب والمزية الخصوصية[١]، وموضحاً فيها أيضاً مفتاح الرموز التي يحتاج الإخوان لاستعمالها.

وأعضاء الجمعية هم :

(٨٤١٣٢٥٩٣٦٥٧٢٧٨٣٥٢٦٤٣٣٢٣٢٧٤٠٤٩١٩٨٦٧٥٦٢٣٢١٤٤٣١٣٨١٥١٢٧٩٨١٢١٧٦٦٣٥٥٨٤٥٢٢)[٢]

وأعني بذلك : السيد الفراتي[٣]، والفاضل الشامي، البليغ القدسي، الكامل الإسكندري، العلاّمة المصريّ، المحدث اليمنيّ، الحافظ البصريّ، العالم النجديّ، المحقّق المدنيّ، الأستاذ المكيّ، الحكيم التونسيّ، المرشد الفاسيّ، السعيد الإنكليزيّ، المولى الروميّ، الرياضي الكرديّ، المجتهد التبريزيّ، العارف التاتاريّ، الخطيب القازانيّ، المدقّق التركيّ، الفقيه الأفغانيّ، الصاحب الهنديّ، الشيخ السنديّ، الإمام الصينيّ.

ثم بادرتُ الإخوان جاهراً بكلمة شعار الأخوة التي يعرفونها مني من قبل

---

(١) في ط. ق و(ط. م) : المخصوصة.

(٢) أسماء أعضاء الجمعية بالأرقام، وهي شيفرة لم يتمكن أحد من حلها بعد. وفي (ط. م) لا وجود لهذه الأرقام.

(٣) شخصيات ابتدعها الكواكبي لتمثل بلادها في المؤتمر، وهي تمثل على التوالي : حلب، دمشق، القدس، الإسكندرية، القاهرة، اليمن، البصرة، نجد، المدينة المنورة، مكة المكرمة، تونس، فاس، بريطانيا، الأتراك العثمانيين، الأكراد، إيران، روسيا، شمال إيران، أتراك آسيا، أفغانستان، الهند، السند، الصين.

وهي (لا نعبد إلا الله) مسترعياً سمعهم، وخاطبتهم بقولي :

(مَنْ كان منكم يعاهد الله تعالى على الجهاد في إعلاء كلمة الله والأمانة لإخوان التوحيد أعضاء هذه الجمعية المباركة فليجهر بقوله : على عهد الله بالجهاد والأمانة، ومَنْ كان لا يطيق العهد فليعتزلنا)؛ وما جال نظري فيهم إلا وسارع الذي عن يميني إلى عقد العهد، ثم الذي يليه، ثم، وثم إلى آخرهم.

ثم التمستُ أن ينتخبوا أحدهم رئيساً يدير الجمعية ومذاكّراتها، وآخر كاتباً يضبط المفاوضات ويُسجِّل المقررات؛ فأجابني العلاّمة البصريّ : (إنّ معرفة الإخوان بعضهم ببعض جديدة العهد، وإنّك أشملهم معرفة بهم، فأنا أترك الانتخاب لك)؛وما أتم رأيه هذا حتى أجمع الكلّ على ذلك، فحينئذ أعلنتُ لهم أنيّ أتخير الأستاذ المكيّ، وأتخير نفسي لخدمة الكتابة، تفادياً عن إتعاب غيري في الخدمة التي يمكنني القيام بها، واستأذنت الأفاضلَ الأعجامَ منهم بنوع من التصرّف في تحرير بعض ألفاظهم[1]، فأظهر الجميع الرضاء والتصويب، وصرَّح الأستاذ بالقبول مع الامتنان من حسن ظنّهم به، واستولى على الجمعية السكوت ترقباً لما يقول الرئيس.

أما الأستاذ الرئيس فقطَّب جبينه، مستجمعاً فكره، ثم استهلَّ فقال:الحمد لله عالم السرّ والنجوى، الذي جمعنا على توحيده ودينه، وأمرنا بالتعاون على البرّ والتقوى، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد القائل (المسلم للمسلم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً) [2]، وعلى آله وأصحابه وسلّم الذين جاهدوا في الله انتصاراً لدينه، لم يشغلهم عن إعزاز الدِّين شاغل، وكان أمرهم شورى بينهم يسعى بذمّتهم أدناهم، اللهم إياك نعبد، لا نخضع لغيرك، وإياك نستعين، لا ننتظر نفعاً من سواك، ولا نخشى ضرّاً، اهدنا الصراط المستقيم الذي لاخفيّات ولا

---

(١) تدوينها بالفصحى.

(٢) نص الحديث الشريف : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. ينظر : الجامع الصغير، مج ٢، ص ٦٦٠. كشف الخفاء، ج٢، ص٣٨٧.

ثنيات فيه، صراط الذين أنعمت عليهم بنعمة الهدايا إلى التوحيد، غير المغضوب عليهم بما أشركوا، ولا الضالين بعدما اهتدوا، سبحانك ربّنا آتنا من لدنك رحمة، وهيّئ لنا من أمرنا رشداً.

وبعد، فيا أيها السادات الكرام، كلّ منّا يعلم سبب اجتماعنا هذا من سابق مفاوضات أخينا السيد الفراتيّ، الذي أجبنا دعوته لهذه الجمعية شاكرين سعيه.

ولذلك، لا أرى لزوماً للبحث عن السبب، كما لا أجد حاجة لتنشيط همّتكم وتأجيج حميّتكم، لأننا كلّنا في هذا العناء سواء، ولكنْ؛ أذكركم بخلاصة تاريخ هذه المسألة فأقول :

إنّ مسألة تقهقر الإسلام بنت ألف عام أو أكثر[١]، وما حفظَ عزّ هذا الدِّين المبين كل هذه القرون المتوالية إلاّ متانة الأساس، مع انحطاط الأمم السائرة عن المسلمين في كلّ الشؤون، إلى أن فاقتنا بعض الأمم في العلوم والفنون المنوّرة للمدارك، فربت قوّتها[٢]، فنشرت نفوذها على أكثر البلاد والعباد من مسلمين وغيرهم، ولم يزل المسلمون في سُباتهم إلى أن استولى الشلل على كلّ أطراف جسم المملكة الإسلامية؛ وقرب الخطر من القلب، أعني (جزيرة العرب)، فتنبهت أفكار مَنْ رزقهم الله بصيرةً بالعواقب، ووفّقهم لنيل أجر المجاهدين، فهبّوا ينشرون المواعظ والتذكرة والمباحث المنذرة، فكثر المتنبّهون، وتحرّكت الخواطر، لكنّها حركة متحيرة الوجه، ضائعة القوّة، فعسى الله أن يرشد جمعيتنا للتوصّل لتوحيد هذه الوجهة وجمع هذه القوة.

وبتدقيق النشريّات التي جادت بها أقلام الفضلاء بهذا الموضوع ترى كلها دائرة على أربعة مقاصد ابتدائيّة فقط :

الأول منها : بيان الحالة الحاضرة، ووصف أعراضها بوجه عامّ وصفاً بديعاً يفيد التأثّر، ويدعو إلى التدبّر، على أنّ ذلك لا يلبث إلاّ عشية أو

(١) أي منذ ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م. حيث تمكّن غير العرب من حكم الدولة العباسية في أواخر عهدها.

(٢) اعتنت بتقدّمها.

ضحاها.

والثـاني : بيـان أنّ سـبب الخلـل النـازل هـو الجهـل الشـامل بيـان إجمـال وتلميح، مع أنّ المقام يقتضي عدم الاحتشام من التفصيل والتشريح.

والثالـث : إنـذار الأمّـة بسوء العاقبـة المحدقـة بهـا إنـذاراً هـائلاً تطيـر منـه النفوس، مع أنّ الحال الواقع لا تغني فيه النذر.

والرابـع : توجيه اللـوم والتبعـة علـى الأمـراء والعلمـاء والكافّة لتقاعدهم عن استعمال قوّة الاتّفاق علـى النهضـة، مـع أنّ الاتفاق وهم متشاكسون متعذّر لا متعسّر.

فهذه المقاصد القولية قد استوفت حقّها من أنواع بدائع الأساليب، وآن أوان استثمارها، وذلك لا يتم إذا لم يشخّص المرض أو الأمراض المشتركة، تشخيصاً مدقّقاً سياسياً، بالبحث أولاً عن مراكز المرض، ثمّ عن جراثيمه، ليتعيّن بعد ذلك الدّواء الشافي الأسهل وجوداً والأضمن نتيجة، وبالتنقيب ثانياً عن تدبير إدخاله في جسم الأمة بحكمة تصرع العناد والوهم، وتتغلّب على مقاومة أعضاء الذوق والشمّ.

ثم أظنكم أيها السادة تستحسنون الاكتتام الذي اختاره أكثر هؤلاء الكتّاب الأفاضل، لأنّ لذلك محسّنات، بل موجبات شتّى، ينبغي أن تستعملها جمعيتنـا أيضـاً؛ فلنحـرص كلّنـا علـى الاكتتـام لأنّ مـن موجباتـه التـزام كـلّ منـا المشـرب الغمري[1]،أعنـي القول الصـريح فـي النصـيحة للدِّين بـدون ريـاء ولا استحياء ولا مراعاة ذوق عامّة أو عتاة، لأنّ حياء المريض مهلكة، وكتم الأمر المستفيض

(١) نسبة إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب : (ق. هـ ٢٤٧ هـ = ٥٨١ – ٦٤٤ م) ثاني الخلفاء الراشدين (١٣–٢٣ هـ = ٦٣٤ – ٦٤٤ م) من بني عدي أحد بطون قريش. أسلم قبل الهجرة بأربع سنوات. لقبه الرسول بالفاروق. اشترك في بدر وأحد، وتزوج الرسول من ابنته حفصة. بادر على إثر وفاة الرسول (ص) بمبايعة أبي بكر الصديق خليفة للمسلمين. أوصى أبو بكر بخلافته بعده. واصلت الجيوش العربية في عهده الفتوحات التي كانت قد بدأت في عهد أبي بكر. تمكّن قواده من فتح الشام والعراق وغالبية فارس ومصر. أول مَنْ نودي بأمير المؤمنين، وأول مَنِ اتخذ ديواناً لضبط المال، وأول مَنِ استقصى القضاء.

سخافة، والدِّين النصيحة[١]، ولا حياء في الدِّين[٢].

ومن موجبات الاكتتام أيضاً أنّ كلّ ما يخالج الفكر في موضوع مسألتنا معروف عند الأكثرين، ولكن بصورة مشتّتة،والناس فيه على أقسام، فَصِنفُ العلماء إما جبناء يهابون الخوض فيه، وإما مراؤون[٣] مداجون يأبون أن تُخالِف أقوالُهم أحوالَهم وباقي الناس يأنفون أن يذعنوا النصح صادع غير معصوم، ولذلك كان القول من غير معرفة القائل أرعى للسمع وأقرب للقبول والقناعة وأدعى للإجماع.

ثمّ يا أيّها الأخوان : أظنكم كذلك تستصوبون أن نترك جانباً اختلاف المذاهب التي نحن متّبعوها تقليداً فلا نعرف مآخذ كثير من أحكامها، وأن نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الإجماع، وذلك لكيلا نتفرّق في الآراء، وليكون مانقرّره مقبولاً عند جميع أهل القبلة، إذ إنّ مذهب السلف هو الأصل الذي لا يردّ، ولا تستنكف الأمة أن ترجع إليه، وتجتمع عليه في بعض أمّهات المسائل، لأن في ذلك التساوي بين المذاهب، فلا يثقل على أحد نبذ تقليد أحد الأئمة في مسألة تخالف المتبادر[٤] من نص الكتاب العزيز أو تباين صريح السنة الثابتة في مدوّنات الصدر الأول.

ولا يكبر هذا الرأي على البعض منكم؛ فما هو برأي حادث بين المسلمين، بل جميع أهل جزيرة العرب ما عدا أخلاط الحرمين على هذا الرأي، ولا يخفى عليكم أنّ أهل الجزيرة وهم من سبعة ملايين إلى ثمانية كلّهم من المسلمين السلفيّين عقيدة، وغالبهم الحنابلة[٥] أو الزيدية[١] مذهباً، وقد نشأ الدِّين فيهم

---

(١) حديث شريف متفق عليه.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) في الأصل : مراؤن.

(٤) المعنى الظاهر في القرآن الكريم.

(٥) نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل. وهو مذهب يأخذ بظاهر النص من دون التأويل.

وبلغتهم، فهم أهله وحَمَلَتُهُ، وحافظوه وحُمَاتُهُ، وقلّما خالطوا الأغيار، أو وُجِدَتْ فيهم دواعي الإغراب والتفنّن في الدِّين لأجل الفخار[٢] ولا يعظمنّ على البعض منكم أيضاً أنه كيف يُسوّغ لأحدنا أن يثق بفهمه وتحقيقه مع بعد العهد، ويترك تقليد مَنْ يعرف أنّه أفضل منه وأجمع علماً وأكثر إحاطة واحتياطاً.

ولا أظن أنّ فينا مَنْ ليس في نفسه إشكال عظيم في تحرّي مَنْ هو الأعلم بين الأئمة والعلماء، والأحرى بالاعتماد على تحقيقه، لوجود اختلافات واضطرابات مهمّة بينهم ما بين نفي وإثبات، حتى في كثير من الأمور التعبّدية الفعلية التي مأخذها المشاهدة المتكرّرة ألوف مرات، مثل : هل كان النبيّ عليه الصلاة والسلام، ثمّ جمهور أصحابه عليهم الرضوان، يُصلُّون وتر العشاء بتسليمة أم بتسليمتين ؟ وهل كانوا يقنتون[٣] في الوتر أم في الصبح ؟ وهل كان المؤتمّون يقرؤون أم ينصتون ؟ وهل كانوا يرفعون الأيدي عند تكبيرات الانتقال أم لا يرفعون ؟ وهل يعقدون الأيدي أم يرسلونها ؟

فإذا كان الأئمة والعلماء الأقدمون هذا شأنهم من التباين والتخالف في تحقيق كيفيّة عبادة فعليّة هي عماد الدِّين، أعني الصلاة التي هي من المشهودات المتكررات، وتؤدي بالجموع والجماهير، فكيف يكون شأنهم في الأحكام التي تستند إلى قول أو فعل أو سكوت صدر عن النبي صلى الله عليه وسلّم مرّة أو مرات فقط، ورواها فرد أو أفراد؟.

فعلى هذا، لا أرى من مانع أن نترك النقول المتخالفة خصوصاً منها المتعلّق بالبعض القليل من الأصول، ونجتمع على الرجوع إلى ما نفهمه من النصوص، أو ما يتحقّق عندنا – حسب طاقتنا – أنه جرى عليه السلف،

---

(١) نسبة إلى الإمام زيد بن علي. والزيدية تقابل الإمامية لكنها أقرب إلى أهل السنة. وعندهم أن الإمامة للأصلح. وللزيديين كتاب المجموع في الحديث والفقه.

(٢) سيأتي في أواخر السجل بحث مشبع في مزايا العرب (ك).

(٣) يقرؤون دعاء القنوت في صلاة الوتر.

وبذلك تتّحد وجهتنا، ويتسنّى لنا الاتفاق على تقرير ما نقرّره، ويقوى الأمل في قبول الأمة منا ما ندعوها إليه.

وإني أسلفكم أيها السادات أنّه ينبغي أن لا يهولنا ما ينبسط في جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كيلا نيأس من روح الله، وأنّ لا نتوهّم الإصابة في قول مَنْ قال : إنّنا أمة ميتة فلا ترجى حياتنا، كما لا إصابة في قول مَنْ قال : إذا نزل الضعف في دولة أو أمّة لا يرتفع؛ فهذه الرومان واليونان والأمريكان، الطليان واليابان وغيرها كلها أمم أمثالنا استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الأدبية للحياة السياسية، بل ليس بيننا، ولا سيّما عرب الجزيرة منا، وبين أعظم الأمم الحيّة المعاصرة فرق سوى في العلم والأخلاق العالية، على أنّ مدّة حضانة العلم عشرون عاماً فقط، ومدّة حضانة الأخلاق أربعون سنة[١].

فعلينا أن نثق بعناية الله لا يُعبَدُ سواه، وبهذا الدِّين المبين الذي نشر لواء عزِّه على العالمين، ولم يزل بالنظر لوضعه الإلهي ديناً حنيفاً متيناً محكماً مكيناً، لا يفضله، ولا يقاربه دين من الأديان في الحكمة والنظام ورسوخ البنيان.

ثمّ أيقنوا أيّها الإخوان أنّ الأمر ميسور، وأن ظواهر الأسباب ودلائل الأقدار مبشّرة أنّ الزمان قد استدار، ونشأ في الإسلام أنجاب أحرار وحكماء أبرار يُعَدُّ واحدهم بألف، وجمعهم بألف ألف. فقوّة جمعية منظّمة من هؤلاء النبلاء كافية لأن تخرق طبل حزب الشيطان، وتسترعي سمع الأمة مهما كانت في رقاد عميق، وتقودها إلى النشاط، وإنْ كانت في فتور مُستحكِمٍ عتيق، على أنّ محض انعقاد جمعيتنا هذه لمن أعظم تلك المبشِّرات، خصوصاً إذا وفّقها الله بعنايته لتأسيس جمعية قانونية منتظمة، لأن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها

(١) إشارة إلى صعوبة اكتساب الأخلاق قياساً إلى تلقّي العلوم.

الثبات على مشروعها عمراً طويلاً يفي بما لا يفي به عمر الواحد الفرد، وتأتي بأعمالها كلّها بعزائم صادقة لا يُفسدها التردُّد، وهذا هو سرّ ما ورد في الأثر من أن يد الله مع الجماعة[١]، وهذا هو سرّ كون الجمعيات تقوم بالعظائم، وتأتي بالعجائب، وهذا هو سرّ نشأة الأمم الغربية، وهذا هو سرّ النجاح في كلّ الأعمال المهمّة، لأن سنة الله في خلقه أنّ كل أمر كلّياً كان أو جزئياً لا يحصل إلا بقوّة وزمان متناسبين مع أهميته، وأنّ كلّ أمر يحصل بقوّة قليلة في زمان طويل يكون أحكم وأرسخ وأطول عمراً مما إذا حصل بمزيد من القوة في زمان قصير.

وكلّنا يعلم أنّ مسألتنا أعظم من أن يفي بها عمر إنسان ينقطع، أو مسلك سلطان لا يطّرد، أو قوّة عصبية حضرية حمقاء تفور سريعاً، وتغور سريعاً.

وإذا تفكّرنا أنّ مبدأنا أعظم الأعداد اثنان، فذلك مبدأ الجمعيّات شخصان ثم تتزايد حتّى تكمل، وتتقلّب أشكالاً حتّى ترسخ؛ فعلى هذا لا يبعد أن يتم لنا انعقاد جمعية منتظمة تنعقد الآمال بناصيتها. ولا ينبغي الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرّضة في شرقنا لتيّار السياسة فلا تعيش طويلاً، ولا سيّما إذا كانت فقيرة، ولم تكن كغالب الأكاديميات أي (المجامع العلمية)، تحت حماية رسميّة، بل الأليق بالحكمة والحزم والإقدام والثبات وتوقّع الخير إلى أنّ يتمّ المطلوب.

هذا، وإنّ شرقنا مشرق العظائم والزمان أبو العجائب، وما على الله بعزيز أن يتمّ لنا انتظام جمعية يكون لها صوت جهوريّ، إذا نادى مؤذنها حيّ على الفلاح في رأس الرجاء[٢] يبلغ أقصى الصين صداه.

ومن المأمول أن تكون الحكومات الإسلامية راضية بهذه الجمعية، حامية

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : (يد الله مع الجماعة، وإنما يصيب الذئب من الغنم الشاردة). رواه الطبري والترمذي، وفي رواية للترمذي (ومن شذّ شذّ في النار) كشف الخفاء : ج٢، ص ٥٢٩، برقم ٣٢٢٣.

(٢) يقصد : رأس الرجاء الصالح، وقد عرّفنا به أثناء وروده في الشهباء.

لها ولو بعد حين، لأنّ وظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة، وترقى بها في معارج المعارف، متباعدة عن كلّ صبغة سياسية، وسنعود لبحث الجمعية فيما بعد.

ولنبدأ الآن بتشخيص داء الفتور المستولي على الأمة تشخيصاً سياسياً مدققاً، فأرجوكم أيّها السادة أن يعمل كلّ منكم فكره الثاقب فيما هو سبب الفتور، ليبيّن رأيه، وما يفتح الله به عليه في اجتماعاتنا التي نواليها كل يوم، ماعدا يومي الثلاثاء والجمعة، من بعد طلوع الشمس بساعة إلى قبيل الظهر، أعني إلى ما بعد مثل هذا الوقت بساعة، فنفتتح كلّ اجتماع بقراءة ضبط المذاكرات التي جرت في الاجتماع السابق، ثمّ نشرع بالمفاوضات.

وإني أختم اجتماعنا اليوم ببرنامج المسائل الأساسيّة التي تدور عليها مذاكرات جمعيتنا، وينبغي لكلّ منا أن يفتكر فيها، ويدرسها، وهي عشر مسائل:

١ . موضع الداء.

٢ . أعراض الداء.

٣ . جراثيم الداء.

٤ . ما هو الداء ؟

٥ – ما هي وسائل استعمال الدواء ؟

٦ – ما هي الإسلامية ؟

٧ – كيف يكون التديّن بالإسلامية ؟

٨ – ما هو الشِّرك الخفيّ ؟

٩ – كيف تقاوم البدع ؟

١٠ى . تحرير قانون لتأسيس جمعية تعليمية.

ولما انتهى خطب الأستاذ الرئيس، وانتهت الجلسة، قال السيد الفراتيّ : إني أرى أن يقيّد كلّ منا هذه المسائل العشر في جانب من ورقة التراجم ليكون

القيد تذكرة له، فخفّ أربع منهم نحو المكتبة، وأخذ كلّ قلما، وقيّد فهرست المسائل، ثم توالى الباقون على ذلك؛ وعندما فرغوا من التحرير خاطبهم السيد الفراتيّ بقوله : إنّي أغتنم تشريفكم الأوّل لمحلّي[١] وسيلة لضيافتكم، وقد أعددتُ ما يتسهّل إعداده لغريب مثلي في مثل هذه البلدة المباركة، ثمّ خرج بهم إلى محلّ المائدة، وكان حديثهم على الطعام استقصاء أخبار مُهْتَدِي ليفربول[٢] من السعيد الإنكليزي، وبعد أن طعموا عرض عليهم الشاي والقهوة والشراب المثلوج، فكل اختار ما ألف وأحبّ، ثمّ انصرفوا أزواجاً وفرادى مجيبين دعوة خير الدعاة، إذ كان قد دنا وقت الصلاة.

---

(١) منزلي.

(٢) الذين أسلموا من الإنكليز.

الاجتماع الثاني

(الداء أو الفتور العام)

يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ

في صباح اليوم المذكور انعقد الاجتماع، وبعد قراءة ضبط الجلسة الأولى افتتح الكلام الأستاذ الرئيس فقال :

إنّا نجد الباحثين في الحالة النازلة بالمسلمين يُشبّهونها بالمرض، فيُطلقون عليها اسم الداء مجرّداً، أو مع وصفه بالدفين أو المزمن أو العضال، ولعل مأخذ ذلك ما ورد في الأثر، وألفته الأسماع من تشبيه المسلمين بالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسهر والحمى[١]. ويلوح لي أنّ إطلاق الفتور العام أليق بأن يكون عنواناً لهذا البحث لتعلق الحالة النازلة بالأدبيات أكثر منها بالمادّيات، ولأنّ آخر ما فيها ضعف الحس فيناسبه التعبير عنه بالفتور.

كما أنّ هذا الفتور في الحقيقة شامل لكافّة أعضاء الجسم الإسلاميّ، فيناسب أن يوصف بالعام، وربّما يتوقف الفكر في الوهلة الأولى عند الحكم بأنّ الفتور عام يشمل كافة المسلمين، ولكنْ؛ بعد التدقيق والاستقراء نجده شاملاً للجميع في مشارق الأرض ومغاربها لا يسلم منه إلاّ أفراد شاذة.

فيا أيها السادة : ما هو سبب ملازمة هذا الفتور منذ قرون للمسلمين، من أيّ قوم كانوا وأينما وُجِدُوا، وكيفما كانت شؤونهم الدينية أو السياسية أو الإفرادية أو المعاشية؛ حتى إننا لا نكاد نجد إقليمين متجاورين أو ناحيتين في إقليم أو قريتين في ناحية أو بيتين في قرية، أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين، إلاّ ونجد المسلمين أقلّ من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤونهم

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : (مثل المسلمين في توادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

الحيوية الذاتية والعمومية؛ وكذلك نجدهم أقلّ إتقاناً من نظرائهم في كلّ فنّ وصنعة، ومع أننا نرى أكثر المسلمين في الحواضر، وجميعهم في البوادي، محافظين على تميّزهم عن غيرهم من جيرانهم ومخالطيهم في أمّهات المزايا الأخلاقية مثل الأمانة والشجاعة والسخاء ؟

فما هو، والحالة هذه، سبب تعمّم هذا الفتور، وملازمته لجامعة هذا الدِّين كملازمة العلّة للمعلول، بحيث أينما وُجِدَت الإسلامية وُجِدَ هذا الداء، حتّى توهّم كثير من الحكماء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان ؟ هذا هو المشكل العظيم الذي يجب على جمعيتنا البحث فيه أوّلاً بحث تدقيق واستقراء، عسى أن نهتدي إلى جرثومة الدّاء عن يقين، فنسعى في مقاومتها، حتّى إذا ارتفعت العلّة برئ العليل إنْ شاء الله تعالى.

قال الفاضل الشامي : إنّي أوافق الأستاذ الرئيس على تعريفه وتوصيفه الحالة النازلة بالفتور، كما أنّي لا أعلم ما يعارض كون هذا الفتور عاماً محيطاً بجميع المسلمين.

قال الصاحب الهندي : إني، وإنْ كنت أقلّ الإخوان فضيلة، ولكنّني جوّال، وقد خبرتُ البلادَ وأحوالَ العباد، ولا شكّ عندي في أنّ هذا الفتور عام، وإنْ كان لا يظهر في بعض المواضع التي ليس فيها غير المسلمين، كأوساط جزيرة العرب وبعض جهات إفريقيا، ولا يظهر أيضاً في بعض مواقع أخرى مجاورو المسلمين فيها ومخالطوهم من أهل النحل الوثنية الغريبة الوضع، المتناهية في الشدّة، كبقايا الصابئة[١] حول دجلة[٢] الذين يُضيّعون كثيراً من أوقاتهم منغمسين في الماء تَعبُّداً، وكالكونغو من الزنوج[٣]، وكالبوذية[٤] من

(١) الذين تقتضي تعاليمهم الاغتسال في المياه الجارية، لذلك، فهم يُقيمون قرب الأنهار.

(٢) نهر ينبع من تركيا، شرق جبال طوروس، ثم يجري في العراق ماراً بالموصل وبغداد، ثم يلتقي مع الفرات ويمتزجان في شط العرب الذي يصبُّ في خليج البصرة.

(٣) اسم القبائل التي كانت تقطن ساحل إفريقيا الشرقي.

(٤) البوذية : عرّفنا بها في حواشي (الشهباء) من هذه الأعمال الكاملة.

الهنود المعتقدين أنَّ كلَّ مصائبهم حتّى الموت الطبيعي من تأثير أعمال السحرة عندهم، فإنّ أمثال هؤلاء أكثر فتوراً من المسلمين، على أنّ ذلك لا يرفع صفة الفتور وعموميّته عن المسلمين.

فقال الأستاذ الرئيس : إن الصاحب الهندي مصيب في تفصيله وتحريره، ولذلك، رجعتُ عن قولي بانّ المسلمين أحطّ من غيرهم مطلقاً إلى الحكم بأنهم أحطّ من غيرهم، ما عدا أهل النحل المتشدّدة في التديّن(١).

قال الحافظ البصري : يلوح لي أنّه يلزم استثناء الدهريّين والطبيعيّين وأمثالهم ممن لا دين لهم، لأنّهم لا بد أن يكونوا على غير نظام ولا ناموس في أخلاقهم، معذبين منغصين في حياتهم منحطّين عن أهل الأديان، كما يعترف بذلك الطبيعيّون فيقولون عن أنفسهم إنّهم أشقى الناس في الحياة الدنيا.

فأجابه الصاحب الهندي : إنّي كنتُ أيضاً أظن أنّه يوجد في البشر أفراد ممَّنْ لا دين لهم، وأنّ مَنْ كانوا كذلك لا خلق لهم؛ ثمّ إن خبرتي الطويلة قد برهنتْ لي أنّ الدِّين بمعناه العام وهو إدراك النفس وجود قوة غالبة تتصرّف في الكائنات، والخضوع لهذه القوّة على وجه يقوم في الفكر، هو أمر فطريّ في البشر؛ وأنّ قولهم فلان دهريّ أو طبيعيّ هو صفة لِمَنْ يتوهّم أن تلك القوّة هي الدهر أو الطبيعة فيدين لما يتوهّم.

بناء على ذلك ثَبتَ عندي ما يقرّره الأخلاقيون : من أنّه لا يصحّ وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقاً، بل كلّ إنسان يدين بدين، إما صحيح، أو فاسد عن أصل صحيح، وإما باطل أو فاسد عن أصل باطل. والفاسدان يكون فسادهما إما بنقصان أو زيادة أو بتخليط، وهذه أقسام ثمانية.

فالدِّين الصحيح كافل للنظام والنجاح في الحال، والسعادة والفلاح في المآل. والباطل والفاسدان بنقصان قد يكون أصحابها على نظام ونجاح في

(١) المذاهب التي تميل إلى التعصب والمبالغة.

الحياة على مراتب مختلفة؛ وأمّا الفاسدان بزيادة أو بتخليط فمهلكة محضة. ثم أقول ربّما كان تقريري هذا غريباً في بابه فألتمسُ أنْ لا يقبل ولا يُردَّ إلا بعد التدقيق والتطبيق، لأنه أصل مهم لمسألة الفتور العام المستولي على المسلمين.

قال الأستاذ الرئيس : إنّي أجلّكم أيّها السادة الأفاضل عن لزوم تعريفكم آداب البحث والمناظرة، غير أنّي أنبّه فكركم لأمر لا بدّ هو قائم في نفوسكم جميعاً، أو تحبون أن يُصرَّح به، ألا وهو عدم الإصرار على الرأي الذاتي، وعدم الانتصار له، واعتبار أنّ ما يقوله ويبديه كلّ منّا إنْ هو إلاّ خاطر سَنَحَ له، فربّما كان صواباً أو خطأً، وربّما كان مغايراً لما هو نفسه عليه اعتقاداً أو عملاً، وهو إنّما يورده في الظاهر معتمداً عليه، وفي الحقيقة مستشكلاً أو مستثبتاً أو مستطلعاً رأي الغير. بناء على ذلك فما أحدٌ منا مُلزم برأي يبديه، ولا هو بملوم عليه، وله أن يُعدّل أو يرجع عنه إلى ضده؛ لأنّنا إنّما نحن باحثون لا متناظرون[1]، فإذا أعجبنا رأي المتكلم منّا أثناء خطابه إعجاباً قويّاً فلا بأس أن نجهر بلفظ (مرحى)[2]، تأييداً لإصابة حكمه وإشعاراً باستحسانه، وعلى هذا النسق فلنمضِ في بحثنا فيما هي أسباب الفتور العام.

قال الفاضل الشامي: إنّي أرى أنّ منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقاديّة والأخلاقية : مثل العقيدة الجبرية[3]، التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبريّة باطناً قدريّة ظاهراً[4]. (مرحى). ومثل الحثّ على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق، وإماتة المطالب النفسية : كحبّ المجد والرياسة، والتباعد عن الزينة والمفاخر، والإقدام على عظائم الأمور،

---

(١) لا متبارون في تقديم الحجج والبراهين للفوز بمكافأة.

(٢) (مرحى) كلمة تعجب تقولها العرب عند إصابة الرامي. (ك).

(٣) العقيدة الجبرية يعتقد معتنقوها أن الإنسان مسيّر، وأن الله هو الذي يخلق الأفعال كما يخلق الجمادات. من القائلين بها (جهم بن صفوان : ت ١٢٨ هـ = ٧٤٥ م). وتُسمّى أيضاً : الجهمية.

(٤) القدرية: اتجاه يرى أن الإنسان خالق لأفعاله، وهو حرٌ في اختياره، من القائلين به (غيلان الدمشقي). ومبدأ القدرية أحد أصول فكر المعتزلة.

وكالترغيب في أن يعيش المسلم كميّت قبل أن يموت. وكفى بهذه الأصول مفتّرات، مخدّرات، مثبّطات، معطّلات، لا يرتضيها عقل، ولم يأتِ بها شرع، ولمثلها نفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا ذر الغفاري[1] الربذة[2].

فأجابه البليغ القدسي : إنّ هذه الأصول الجبريّة والتزهيديّة الممتزجة بعقائد الأمة، وما هو أشدّ منها تعطيلاً للأخذ بالأسباب ولنشأة الحياة، موجودة في كافة الديانات، لتعدل من جهة شرّه الطبيعة البشرية في طلب الغايات، وتدفعها إلى التوسُّط في الأمور، ولتكون من جهة أخرى تسلية للعاجزين وتنفيساً عن المقهورين البائسين، وتوسُّلاً لحصول التساوي بين الأغنياء والفقراء في مظاهر النعيم.

ألا يرى إجماع كلّ الأديان على اعتقاد القدر خيره وشرّه من الله تعالى، أوخيره منه وشرّه من النفس أو من الشيطان ؟ ومع ذلك، ليس في البشر مَنْ ينسب أمراً إلى القدر إلاّ عند الجهل بسببه ستراً لجهله، أو عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشرّ ستراً لعجزه، وحيث غلب أخيراً على المسلمين جهل أسباب المسبِّبات الكونيّة، والعجز عن كلّ عمل، التجؤوا إلى القدر والزهد تمويهاً لا تديُّناً.

وهذا التبتل والخروج عن المال من أعظم القربات في النصرانيّة، فهل كان قصد شارع الرهبانية أن ينقرض الناس كافّة بعد جيل واحد ؟ أم كان قصده أن يشرّعها على أنْ لا يتلبّس بها إلاّ البعض النزر ؟ كلاّ، لا يعقل في هذا المقام إلا التعميم، وينتج من ذلك أنّه لا يصحّ اعتبار هذه الأصول الجبريّة والتزهيديّة سبباً للفتور، بل هي سببٌ لاعتدال النشاط وسيره سيرَ انتظام ورسوخ.

وفي النظر إلى المشاقّ والعظائم التي اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون

---

(١) أبو ذر الغفاري (ت :٦٥٢ م)صحابي هاجر بعد وفاة النبي (ص) إلى بادية الشام، ثمّ قضى في الربذة. والذي نفاه إلى الربذة هو الخليفة عثمان بن عفان لا عمر بن الخطاب كما ذكر الكواكبي.

(٢) الربذة : موضع قرب المدينة المنورة.

رضي الله عنهم لنيل الغنى والرياسة والفخار فضلاً عن الثواب، كفاية برهان، مع أنّ الأمة إذ ذاك كانت زاهدة فعلاً، لا كالزهد الذي ندّعيه الآن كذباً ورياءً. (مرحى).

إذا تتبّعنا كلّ ما ورد في الإسلامية[1] حاثّاً على الزهد، نجده موجّهاً إلى الترغيب بالأثرة العامة[2]، أي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه، حتّى إنّ كلّ ما ورد في الحثّ على الجهاد في سبيل الله مراد وبه سعي المؤمن بكل الوسائل، حتّى ببذل حياته لإعزاز كلمة الله وإقامة دينه، لا في خصوصيّة محاربة الكفّار كما تتوهّم العامة، كما أن المراد من محاربة الكفار هي من جهة إعزاز الجامعة الإسلامية، ومن أخرى خدمة الجامعة الإنسانية من حيث إلجاء الكفّار إلى مشاركة المسلمين في سعادة الدارين؛ لأنّ للأمم المترقية علماً ولاية طبيعية على الأمم المنحطّة، فيجب عليها إنسانية أن تهديها إلى الخير ولو كرهاً باسم الدِّين أو السياسة[3].

ثم قال : أمّا عندي، فَيخيَّل إليّ أن سبب الفتور هو تحوّل نوع السياسة الإسلامية، حيث كانت نيابيّة اشتراكية أي (ديمقراطية) تماماً، فصارت بعد الراشدين بسبب تمادي المحاربات الداخلية مَلَكيّة مقيّدة بقواعد الشرع الأساسية، ثمّ صارت أشبه بالمطلّقة[4]. وقد نشأ هذا التحوّل من أنّ قواعد الشرع كانت في الأوّل غير مدوّنة ولا محرّرة، بسبب اشتغال الصحابة المؤسّسين رضي الله عنهم بالفتوحات، وتفرّقهم في البلاد، فظهر في أمر ضبطها خلافات ومباينات بين العلماء، وتحكّمت فيها آراء الدخلاء، فرجحوا الأخذ بما يلائم نزعتهم

---

(١) الإسلامية : منهج الإسلام.

(٢) في (ط.م) (في الإيثار العام) ومُصحَّحة بخطّ اليد، مما يدلُّ على أنه خطأ طباعي، وأنّ الطبعات الأخرى كانت قبل طبعة م. الأثرة : حبُّ النفس، ويقابله : الإيثار.

(٣) لكن هذه الفكرة تخالف سياق آراء الكواكبي العام، ونظن أنه بها غير ما يظهر منها.

(٤) هنا يبدو تأثره بابن خلدون جلياً : ينظر : مقدمة ابن خلدون، القاهرة، طبعة مصطفى فهمي أفندي ١٣٢٢ = ١٩٠٤ م، ص ١٥٩.

الوثنية[١] فاتخذ العمّال السياسيون ولا سيّما المتطرّفون منهم هذا التخالف في الأحكام وسائل للانقسام والاستقلال السياسي، فنشأ عن ذلك أنْ تفرّقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهباً، متعادية سياسة، متكافحة على الدوام. وهكذا خرج الدِّين من حصانة أهله، وتفرّقت كلمة الأمة، فطمع بها أعداؤها، وصارت معرّضة للمحاربات الداخلية والخارجية معاً لا تصادف سوى فترات قليلة تترقّى فيها العلوم والحضارة على حسبها. وقد أثّر استمرار الأمة في هذه الحروب أن صارت باعتبار الأكثريّة أمة جنديّة صنعة وأخلاقاً، بعيدة عن الفنون والصنائع الكسب بالوجوه الطبيعية. ثمّ بسبب فقدان القوّاد والمعدات لم يبق مجال للحروب الرابحة، فاقتصرت الأمة على المدافعات، خصوصاً منذ قرنين إلى الآن، أي منذ صارت الجنديّة عند غيرهم صنعة علميّة مفقودة عندنا، فصرنا نستعمل بأسنا بيننا فنعيش بالتغالب والتحايل لا بالتعاون والتبادل؛ وهذا شأن يميت الانتباه والنشاط، ويولّد الخمول والفتور. (مرحى).

ابتدر الحكيم التونسي وأجابه : إنّ غيرنا من الأقوام، جرمانيا[٢] مثلاً، وجدوا في حكومات مطلقة كليّاً وفي اختلافات مذهبيّة وفي انقسامات إلى طوائف سياسيّة وفي حروب مستمرّة، ولم يشملهم الفتور بوجه عام؛ فلا بدّ للفتور في المسلمين من سبب آخر.

ثم قال : وفيما أتصور أنّ بلاءنا من تأصل الجهل في غالب أمرائنا المترفين، الأخسرين أعمالاً، الذين ضلّوا وأضلّونا سواء السبيل وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، حتّى بلغ جهل هؤلاء منزلة أحطّ من جهل العجماوات التي لها طبائع ونواميس؛ فمنها التي تحمي زمارها، وتمنع عن حدودها، وتدافع عما استحفظت عليه؛ وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس، يخربون بيوتهم بأيديهم

(١) وليتهم لم يدخلوا فيه، فلم يدنسوه، ولم يتغلّبوا على أهله حتى في أهم حق لقريش (ك) أ.هـ. ويقصد : حق الخلافة.

(٢) ألمانيا .

وهم لا يشعرون[1].ومنهم البعض ضالّون على علم، وهم الذين يشكون ويبكون حتّى يظن أنّهم مغلوبون على أمرهم، ويتشدّقون بالإصلاح السياسيّ مع أنّهم – وأيم الحق – يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؛ يظهرون الرغبة في الإصلاح، ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد دينهم ودنياهم، وهدم مباني مجدهم وإذلال أنفسهم والمسلمين، وهذا داء عياء لا يُرجى منه شفاء لأنّه داء الغرور، ولا يقرّ صاحبه لفاضل بفضيلة، ولا يجاري حازماً في مضمار، وقد سرى من الأمراء، إلى العلماء، إلى الكافة.

أجاب المولى الرومي : إنّ تحميل التبعة على الأمراء فقط غير سديد، خصوصاً لأنّ أمراءنا إنْ هم إلاّ لفيف منّا، فهم أمثالنا من كل وجه؛ وقد قيل(كما تكونوا يُولّى عليكم)[2] فلو لم نكن نحن مرضى لم يكن أمراؤنا مدنفين[3].

وعندي أنّ البلية فَقْدُنا الحريّة، وما أدرانا ما الحريّة ؟! هي ما حرمنا معناه حتّى نسيناه، وحرم علينا لفظه حتّى استوحشناه[4]. وقد عرّف الحريّة مَنْ عَرَّفها: (بأن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم). ومن فروع الحريّة تساوي الحقوق ومحاسبة الحكّام باعتبار أنّهم وكلاء، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة. ومنها : حريّة التعليم، وحريّة المباحثات العلميّة؛ ومنا العدالة بأسرها حتّى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدّار

---

(١) المعنى مستوحى من الآية الكريمة : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ الحشر : ٢.

(٢) حديث ضعيف. رُوي بحذف النون في (تكونوا) وبإثباتها، كما روي أيضاً (يؤمر عليكم). رواه الديلمي والبيهقي والطبراني، وهنا (كما) بمعنى (أن) فنصبت تكونون من غير أن تكون عاملة بالنسبة إلى (يولّى). ينظر : السيوطي : الجامع الصغير : مج ٢، ص ٢٤٨، رقم الحديث ٦٤٠٦، و: العجلوني، كشف الخفاء : ج٢، ص ١٦٦، رقم الحديث ١٩٩٧.

(٣) مدنفين : محتضرين. الدنف : المرض الملازم الشديد.

(٤) إن المولى الرومي هو من أهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسية التلفظ بكلمات : حرية وجمعية ووطن ومراد ورشاد وخلافة وخلع ومبعوث ومعتوه ومختل إلى نحو ذلك من الألفاظ التي تمس سياسة الوهم (ك).

مغتال؛ ومنهم الأمن على الدِّين والأرواح، والأمن على الشرف والأعراض، والأمن على العلم واستثماره، فالحرية هي روح الدِّين، ويُنسب إلى حسان بن ثابت[١] الشاعر الصحابي رضي الله عنه قوله :

وما الدينُ إلاّ أن تُقامَ شرائعٌ وتؤمَنَ سُبْلٌ بيننا وهِضَابُ [٢]

فلننظر كيف حصر هذا الصحابي الدِّين في إقامة الشرع والأمن.

هذا، ولا شكّ أنّ الحرية أعزّ شيء على الإنسان بعد حياته، وإنّ بفقدانها تفقد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس، وتتعطّل الشرائع، وتختلّ القوانين. وقد كان فينا راعي الخرفان حرّاً لا يعرف للملك شنآناً[٣] يخاطب أميرَ المؤمنين بيا عمر، ويا عثمان، فصرنا ربّما نقتل الطفل في حجر أمّه ونلزمها السكوت فتسكت، ولا تجسر أن تزعج سمعنا ببكائها عليه.

وكان الجندي الفرد يؤمن جيش العدو فل يخفر له عهد، فصرنا نمنع الجيش العظيم صلاة الجمعة والعيدين، ونستهين دينه لا لحاجة غير الفخفخة الباطلة. (مرحى).

فلمثل هذه الحال لا غرور أن تسأم الأمّة حياتها، فيستولي عليها الفتور، وقد كرّت القرون، وتوالت البطون، ونحن على ذلك عاكفون، فتأصّل فينا فَقْدُ الآمال وتَرْكُ الأعمال والبعد عن الجدّ والارتياح للكسل والهزل، والانغماس في اللهو تسكيناً لآلام أسْر النفس، والإخلاد إلى الخمول والتسفّل طلباً لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب. إلى أن صرنا ننفر من كلّ الماديات والجدّيات حتّى لا نطيق مطالعة الكتب النافعة ولا الإصغاء إلى النصيحة الواضحة، لأنّ

---

(١) حسان بن ثابت الأنصاري (ت : ٦٧٤ م) شاعر مخضرم وُلد ومات بالمدينة المنورة. دافع عن الإسلام، وهجا قريشاً، أُعجب به النبي (ص) فاتخذه شاعراً له. عُمي في أواخر أيامه.

(٢) البيت من البحر الطويل.

(٣) في الأصل (شنئاناً). والشنآن : العداوة.

ذلك يذكّرنا بمفقودنا العزيز، فتتألم أرواحنا، وتكاد تزهق إذا لم نلجأ إلى التناسي بالملهّيات والخرافات المروحات.

وهكذا ضَعُف إحساسنا، وماتت غيرتنا، وصرنا نغضب ونحقد على مَنْ يُذكّرنا بالواجبات التي تقتضيها الحياة الطيّبة، لعجزنا عن القيام بها عجزاً واقعياً لا طبيعيّاً.

هذا، ونعترف أنّ فينا بعض أقوام ألفوا ألوف سنين الاستعباد والاستبداد، والذل والهوان، فصار الانحطاط طبعاً لهم تؤلمهم مفارقته؛ وهذا هو سبب أنّ السواد الأعظم من الهنود والمصريين والتونسيين لا سيّما بعد أن نالوا رغم أنوفهم الأمن على الأنفس والأموال[1]، والحرية في الآراء والأعمال، لا يرثون، ولا يتوجعون لحالة المسلمين في غير بلادهم[2]، بل ينظرون للناقمين على أمرائهم المسلمين شذراً، وربّما يعتبرون طالبي الإصلاح من المارقين من الدِّين، كأنّ مجرد كون الأمير مسلماً يغني عن كلّ شيء حتّى عن العدل، وكأنّ طاعته واجبة على المسلمين، وإنْ كان يُخرِّب بلادهم، ويقتل أولادهم، ويقودهم لِيُسلِّمَهم لحكومات أجنبية، كما جرى ذلك قبلاً معهم، والحاصل أنّ فقدنا الحريّة هو سبب الفتور والتقاعس عن كلّ صعب وميسور.

أجاب المجتهد التبريزي : إنّ هذا الحال ليس بعامّ، مع أن الفتور لم يزد ازدياداً عامّاً، بل هو في ازدياد واستحكام، فلا بدّ لذلك من سبب آخر.

ثمّ قال : ويلوح لي أنّ انحطاطنا من أنفسنا، إذ أننا كنّا خير أمّة أُخرجت للناس، نعبد الله وحده، أي نخضع ونتذلّلُ له فقط، ونطيع مَنْ أطاعه ما دام مطيعاً له، فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، أمرنا شورى بيننا، نتعاون على البر والتقوى، ولا نتعاون على الإثم والعدوان، فتركنا ذلك كلّه ما صعب منه وما هان.

---

(١) نتيجة الاحتلال البريطاني والفرنسي لهم.

(٢) تعميم غير صحيح.

وقد يُظنّ أنّ أصعب هذه الأمور النهي عن المنكر، مع أنّ إزالة المنكر في شرعنا تكون بالفعل، فإنْ لم يكن فبالقول، فإنْ لم يكن فبالقلبَ، وهذه الدرجة الثالثة هي الإعراض عن الخائن والفاسق والنفور منه وإيطال بغضه في الله؛ ومن علائم ذلك تجنب مجاملته ومعاملته، ولا شكّ أنّ إيفاء هذا الواجب الديني كافٍ للرَّدْعِ[١]،ولا يُتَصَوَّرُ العجز عنه قطّ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [٢]؛ فهذا هو سبب استرسال الأمّة لعبادة الأمراء والأهواء والأوهام، ولا طاعة العصاة اختياراً، ولترك التناصح، وللركون إلى الفسّاق، والإذعان للاستبداد، وللتخاذل في الخير والشر، قال :﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣] وعنه صلى الله عليه وسلم : (لتأمرن بالمعروف،ولتنهين عن المنكر، أو ليستعملنّ الله عليكم شراركم، فيسومونكم سوء العذاب)[٤] إلى غير ذلك من الآيات البيّنات والأحاديث المنذرات القاضيات بالخذلان على تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا هو السبب الناشئ عنه الفتور.

أجابه المرشد الفاسيّ : إنّنا كنا على عهد السلف الصالح، شريعتنا سمحاء واضحة المسالك، معروفة الواجبات والمناهي، فكان الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) في النص إشارات إلى آيات وأحاديث كثيرة.

(٢) البقرة : ٢٥١.

(٣) آل عمران :١٠٤.

(٤) في الأصل (لتأمرون بالمعروف، ولتنهون...) وفي ط، م (لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهنَّ عن المنكر...). وتعلّق المنار (لفظ الحديث : (أو ليسلطن الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم، فلا يستجيب لهم) رواه البزار عن عمر والطبراني عن أبي هريرة، وسندهما ضعيف. وللترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال : (أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم) وقال : حديث حسن.١.هـ.

عن المنكر وظيفة لكلّ مسلم ومسلمة، وكنّا في بساطة من العيش، متفرّغين لذلك، ثمّ شَغَلَنَا شأن التوسّع فخصّصنا لذلك محتسبين[1]. ثمّ دخل في ديننا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب، وحصروا اهتمامهم في الجباية وآلتها التي هي الجندية فقط، فبطل الاحتساب، وبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبعاً، فهذا يصلح أن يكون سبباً من جملة الأسباب، ولكنّه لا يكفي وحده لإيراث ما نحن فيه من الفتور.

على أنّ انحصار همّة الأمراء الدخلاء في الجباية والجنديّة أدّى بهم لإهمال الدِّين كلّيّاً، ولولا أنّ في القرآن آيتين اثنتين لهجروه ظهريّاً، إحداهما قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [2] مع الغفلة عن المراد بأولي الأمر، وما تقتضيه صيغة الجمع، وما يقتضيه قيد (منكم)، والثانية قوله تعالى :﴿ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] مع إغفال : هل الجهاد المأمور به ما يُستحصل به إعزاز كلمة الله، أم ما تُؤيِّد به سلطةُ الأمراء العاملين على الإطلاق ؟ فإهمال الاهتمام بالدِّين قد جرّ المسلمين إلى ما هم عليه حتّى خلت قلوبهم من الدِّين بالكلّية ولم يبق له عندهم أثر إلا على رؤوس الألسن، لا سيّما عند بعض الأمراء الأعاجم، الذين ظواهر أحوالهم وبواطنها تحكم عليهم بأنهم لا يتراؤون بالدِّين إلا بقصد تمكين سلطتهم على البسطاء من الأمّة، كما إنّ ظواهر عقائدهم وبواطنها تحكم عليهم بأنّهم مشركون، ولو شركاً خفيّاً من حيث لا يشعرون.

فإذا أُضيف إلى شركهم هذا ما هم عليه من الظلم والجور، يحكم عليهم

---

(١) موظفون لمراقبة البضائع في الأسواق من حيث جودتها وأسعارها وطرق عرضها وحفظها، وهم يُسمّون في عصرنا مراقبي التموين.

(٢) النساء : ٥٩.

(٣) الأنفال : ٧٤.

الشرع والعقل بأنّ ملوك الأجانب أفضل منهم وأولى بحكم المسلمين، لأنّهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامّة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد، وهذه هي حكمة الله في نزع الملك من أكثرهم، كما يقتضيه مفهوم : لا يهلك الله القرى وأهلها مصلحون[1].

وقد افتخر النبّي عليه السلام بأنّه وُلد في زمن كسرى أنوشروان[2] عابد الكواكب[3] فقال : (وُلدتُ في زمن الملك العادل) [4].

وحكى (ابن طباطبا)[5] في (الآداب السلطانية والدول الإسلامية) أنّه لما فتح السلطان هلاكو[6] (وهو مجوسّي) بغداد سنة ٦٥٦ هـ [7] أمر أن يُستفتى علماؤها أيّهما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ فاجتمع العلماء في المستنصرية لذلك، فلمّا وقفوا على الفتيا، أحجموا عن الجواب، حيث كان رضيّ الدِّين علي بن طاووس حاضراً، وكان مقدّماً محترماً، فتناول الفتيا ووضع خطّه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع العلماء خطوطهم بعده.

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود :١١٧. وطبعة المنار تثبت الآية في المتن بخلاف جميع الطبعات الأخرى.

(٢) أنو شروان، كسرى الأول (ت :٥٧٩م) حكم (٥٣١-٥٧٩م)بسط حكمه على بلخ وأجزاء من شبه الجزيرة العربية وأرمينيا والقوقاز. حارب الأباطرة البيزنطيين. أُعيد في عهده تنظيم الإدارة، وفُرضت الضرائب الثابتة على الأرض، وأُدخلت تحسينات على وسائل الري وطرق المواصلات والجيش. شَجَّعَ التعليم والتجارة، وبنى المدن.

(٣) يظن أن اتخاذ الشمس للآن شارة للملك في إيران، وكذلك اتخاذ الهلال والنجم شارة للملك عند الترك، هو من بقايا دياناتهم الأولى.(ك).

(٤) تعليق طبعة المنار: (الحديث موضوع باطل، وإن استشهد به بعض العلماء والأعلام، ومنهم حجة الإسلام) ط.م. ذكره الصنعاني بالتنكير، وقال: إنه موضوع. ينظر :كشف الخفاء ج٢، ص ٤٥٤، الحديث ٢٩٢٧.

(٥) هو محمد بن أحمد الحسني العلوي (ت : هـ = ٩٣٤م) شاعر وبلاغي. وُلد ومات بأصبهان. نظم في الغزل والوصف، وألّف كتباً أدبية، منها : (تهذيب الطبع) و(عيار الشعر).

(٦) هولاكو (نحو ١٢١٧ – ١٢٦٥) فاتح مغولي، ومؤسس دولة المغول الإليخانية في إيران. حفيد جنكيز خان. قضى على الخلافة العباسية في بغداد (١٢٥٨ م) واحتل سورية. هاجم المصريون جيشه في الشام، وأبادوه سنة ١٢٦٠م.

(٧) تقابل ١٢٥٨ م.

ثمّ قال : إنّي أظنّ أنّ السبب الأعظم لمحنتنا هو انحلال الرابطة الدينية، لأنّ مبنى ديننا على أنّ الولاء فيه لعامّة المسلمين؛ فلا يختص بحفظ الرابطة والسيطرة على الشؤون العمومية رؤساء دين سوى الإمام إن وُجدَ؛ وإلا فالأمر يبقى فوضى بين الجميع، وإذا صار الأمر فوضى بين الكلّ فبالطبع تختلّ الجامعة الدينية، وتنحل الرابطة السياسية كما هو الواقع.

ومن أين لنا حكيم (كبسمرك) أو مُلزمٌ (كغاريبالدي)[1] يوفّق بين أمرائنا، أو يُلزِمُهُم ويجمع كلمتنا ؟ وقد زاد على ذلك فَقْدُنا الرابطة الجنسية[2] أيضاً فإنّ المسلمين في غير جزيرة العرب لفيف أخلاط دخلاء، وبقايا أقوام شتى لا تجمعهم جامعة غير التوجّه إلى هذه الكعبة المعظّمة.

ومن المقرّر المعروف أنّه لولا رؤساء الدِّين في سائر الملل وروابطهم المنتظمة المطّردة، أو مَنْ يقوم مقام الرؤساء من الدعاة أو مديري أو معلّمي المدارس الجامعة المتّحدة المبادئ، لضاعت الأديان، وتشعّبت أخلاق الأمم، ونالهم ما نالنا من أنّ كلّ فرد منّا أصبح أمّة في ذاته.

أجابه المحقّق المدني : إنّ فَقْدَ الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان أن يكونا سبباً للفتور العام، بل لا بدّ لذلك من سبب أعمّ وأهمّ.

ثمّ قال : أمّا أنا، فالذي يجول في فكري، أنّ الطامّة من تشويش الدِّين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلّسين وغلاوة المتصوّفين الذين استولوا على الدِّين فضيّعوه، وضيعوا أهله. وذلك أنْ الدِّين إنما يُعرف بالعلم، والعلم يُعرف بالعلماء العاملين، وأعمال العلماء قيامهم في الأمّة مقام الأنبياء في الهداية إلى خير الدنيا والآخرة.ولا شكّ أنّ لمثل هذا المقام في الأمّة شرفاً باذخاً

---

(١) غاريبالديس، جيوزيبي (١٧٠٨–١٨٨٢) جندي وطني إيطالي، من أبطال حركة البعث (الريزور جيمنتو). وُلد في نيس، وهرب بعد اشتراكه في مؤامرة جمهورية فاشلة (١٨٣٥). شارك في الحروب الأهلية بالبرازيل وأورجراي. نزل عن آرائه الجمهورية، وأيّد سياسة كافور وفيكتور عمانويل الثاني. وفي عام (١٨٦٠) قاد ألف متطوع عُرفوا بـ (أصحاب القمصان الحمر) وانتُخب نائباً (١٨٧٤) ولكن حياته السياسية ليست هامة. وظل بطلاًشعبياً للإيطاليين.

(٢) الوطنية أو القومية.

يتعاظم على نسبة الهمم في تحمّل عنائه والقيام بأعبائه.فبعض ضعيفي العلم وفاقدي العزم تطلّعوا إلى هذه المنزلة التي هي فوق طاقتهم، وحسدوا أهلها المتعالين عليهم، فتحيّلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء العظماء بالإغراب في الدِّين وسلوك مسلك الزاهدين؛ ومن العادة أنْ يلجأ ضعيف العم إلى التصّوف، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث. (مرحى).

فصار هؤلاء المتعالين يُدلّسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله مُحكم النظم الكريم، فيفسّرون . مثلاً . البسملة أو الباء منها بسفر كبير، تفسيراً مملوءاً بلفظ لا معنى له، أو بحكم لا برهان عليه. ثمّ جاؤوا الأمّة بوراثة أسرار ادّعوها، وعلوم ابتدعوها، وعلوم لدنيّات ابتدعوها، وتسنّم مقامات اخترعوها، ووضع أحكام لفّقوها، وترتيب قربات زخرفوها، وبالإمعان نجدهم قد جاؤوا مصداقاً لما ورد في الحديث الصحيح : (لتتبعنّ سنن مَنْ كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع)، وفي رواية (حذو القُذَّة بالقُذَّة[١]، حتّى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم)، (قلنا يارسول الله اليهود والنصارى، قال هو: فَمَنْ)[٢]؛ وذلك أنّ هؤلاء المدلّسين اقتبسوا ما هنالك كلّه أو جلّه عن أصحاب التلمود[٣] وتفاسيرهم، ومن المجامع المسكونيّة[٤] ومقرّراتها، ومن البابويّة ووراثة السرّ،

---

(١) القُذّة : ريشة الطائر بعد تسويتها وإعدادها لتركّب في السهم، وحذو القذة بالقذة، مَثَلٌ يُضرَب للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان.

(٢) حديث شريف رواه البخاري في صحيحه (كتاب الاعتصام) ومسلم في (العلم). وابن ماجة في (الفتن). والترمذي في (الفتن) أيضاً.

(٣) التلمود : من أهم كُتُبِ اليهود التي دُوّنت بعد الكتاب المقدس، وهو قسمان : (المشنا) أي مجموعة التقاليد التي تُمَثِّلُ الشريعة الشفاهية. و(غمارا) وهو تفسير (المِشنا). وللتلمود نسختان تختلف فيها الغمارا، هما : التلمود الفلسطيني (٢٣٠م) والتلمود البابلي (٥٠٠م).

(٤) المجامع المسكونية : المجمع مؤتمر مسيحي يعقده الأساقفة للتداول في شؤون الكنيسة. وهو (مسكوني) إذا دُعي إليه أساقفة العالم كله، وانعقد برئاسة البابا، خلافاً للإقليمي أو الوطني أو الطائفي.

ومن مضاهاة مقامات البطاركة والكردينالية والشهداء وأسقفية[١] كلّ بلد، ومظاهر القدّيسين وعجائبهم، والدعاة المبشِّرين وصبرهم، والرهبنات ورؤسائها، وحالة الأديرة وبادريتها، والرهبنة أي التظاهر بالفقر ورسومها، والحميّة وتوقيتها، ورجال الكهنوت ومراتبهم وتميزهم في ألبستهم وشعورهم، ومن مراسم الكنائس وزينتها، والبيَع واحتفالاتها، والترنّحات ووزنها، والترنّمات وأصولها، وإقامة الكنائس على القبور وشدّ الرحال لزيارتها والإسراج عليها، والخضوع لديها وتعليق الآمال بسكّانها، وأخذوا التبرك بالآثار كالقدح والحربة والدستار[٢] من احترام الذخيرة[٣] وقدسيّة العكاز[٤] وكذلك إمرار اليد على الصدر عند ذكر بعض الصالحين من إمرارها على الصدر لإشارة التصلُّب؛ وانتزعوا الحقيقة من السرّ [٥] ووحدة الوجود من الحلول[٦]، والخلافة من الرسم[٧]، والسقيا من تناول القربان[٨]، والمولد من الميلاد[٩]، وحفلته من الأعياد؛ ورفع الأعلام من حمل الصلبان، وتعليق ألواح الأسماء المصدّرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل؛ والاستفاضة والمراقبة من التوجّه بالقلوب انحناء أمام الأصنام[١٠] ومنع الاستهداء من نصوص الكتاب والسنّة من حظر الكهنة الكاثوليك قراءة الإنجيل على غيرهم، وسدّ اليهود باب الأخذ من التوراة وتمسّكهم بالتلمود إلى غير ذلك مّما جاء به المدلّسون تقليداً لهؤلاء شبراً شبراً،

---

(١) أسقفية : هيئات كهنوتية مسيحية. بطريك : يُطلق على بعض الرؤساء الدينيين الذين تمتد سلطتهم إلى عدد من الأساقفة. الكردينال : أحد الأحبار، وهم رفاق البابا ومستشاروه، ولهم الحق في انتخابه من بينهم. والبابا : هو السلطة العليا بينهم.

(٢) القدح : سهم الميسر. والدستار : الوتر من العدد.

(٣) الذخيرة : تقديس أدوات الأنبياء والصالحين وبقايا آثارهم.

(٤) العكاز : العصا التي تُنسب إلى الرسول (ص).

(٥) السرّ :أي التثليث.

(٦) الحلول : أي حلول الله في المخلوقات.

(٧) الرسم : ترسيم رجال الدِّين من أصحاب السلطة الدينية.

(٨) القربان : الطقس الشائع في الكنيسة.

(٩) عيد المولد النبوي المأخوذ من عيد المسيح عليه السلام.

(١٠) مراتب المريد الصوفي ومراحل علاقته بالخالق.

واقتفاء لأثرهم حجراً حجراً، وهكذا إذا اتبعنا البدع الطارئة نجد أكثرهم مقتبساً وقليلها مخترعاً.

وقد فعل المدلّسون ذلك سِحراً لعقول الجهلاء، واختلاباً لقلوب الضعفاء: كالنساء وذوي الأهواء والأمراض القلبيّة أو العصبيّة من العامة، والأمراء اللينـي القياد طبعاً إلى الشِّرك، لأنّ التعبّد رغبة أو رهبة لما بين أيديهم وتحت أنظارهم أقرب إلى مداركهم من عبادة إله ليس بجوهر ولا عرض و﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾[1] ولأنّ التعبّد باللهو واللعب أهون على النفس والطبع من القيام بتكليفات الشرع، كما وصف الله تعالى عبادة مشركي العرب فقال :﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً ﴾ [2] أي صفيراً وتصفيقاً، وهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقاً وشهيقاً وخلاعة ونعيقاً. (مرحى).

والحاصل، أنّ بذلك وأمثاله نجح المدلّسون فيما يقصدون، ولا سيّما بدعوى فئة منهم الكرامة على الله والتصرف بالمقادير، وباستمالتهم العامة بالزهد الكاذب والورع الباطل والتقشّف الشيطانيّ؛ وبتزيّينهم لهم رسوم تميل إليها النفوس الضعيفة الخاملة، سمّوها آداب السلوك، ما أنزل الله بها من سلطان، ولا عمل بها صحابيّ أو تابعيّ، ظاهرها أدب وباطنها تشريع وشرك؛ وبجذبهم البله الجاهلين بتصعيب الدِّين من طريق العلم والعمل بظاهر الشرع، وتهوينه كل التهوين من طريق الاعتقاد بهم وبأصحاب الفتور. وقد تجاسروا على وضع أحاديث مكذوبة أشاعوها في مؤلفاتهم، حتّى التبس أمرها على كثير من العلماء المخلصين من المتقدمين والمتأخرين، مع أنها لا أصل لها في كتب الحديث المعتبرة. وجلبوا الناس بالترهيب والترغيب، ترغيباً في الاستفادة من الدخول في

(١) الشورى : ١١ .

(٢) الأنفال : ٣٥ .

الرابطات والعصبيّات المنعقدة بين أشياعهم، وترهيباً بتهديدهم معاكسيهم أو مسيئي الظنّ بهم أو بإضرارهم في أنفسهم وأولادهم وأموالهم، ضرراً يتعجّلهم في دنياهم قبل آخرتهم.(مرحى).

وقد قام لهؤلاء المدلّسين أسواق في بغداد ومصر والشام وتلمسان[١] قديماً، ولكن لا كسوقها في القسطنطينية[٢] منذ أربعة قرون إلى الآن، حتى صارت هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هي دين معظم أهلها، لا الإسلام؛ وكأنّهم لما ورثوا عن الروم الملك، حرصوا على أن يرثوا طبائعهم أيضاً، حتّى التوسّع في هذه المصارع السيئة؛ فاقتبس لهم المدلّسون كثيراً مّما بيّناه، وطبّقوه على الدِّين، وإنْ كان الدِّين يأباه، وزيّنه لهم الشيطان بأنّه من دقائق الدِّين وآدابه، ومن هذه العواصم سرى ذلك إلى الآفاق بالعدوى من الأمراء إلى العلماء الأغبياء إلى العوام.

فهؤلاء المدلّسون قد نالوا بسحرهم[٣] نفوذاً عظيماً، به أفسدوا كثيراً في الدِّين، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للبطّالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المرهبة، وبه حوّلوا كثيراً من الجوامع مجامع للطّبالين الذين ترتجّ من دويّ طبولهم قلوب المتوهّمين، وتكفهرّ أعصابهم، فيتلبّسهم نوع من الخبل يظنّونه حالة من الخشوع؛ وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم، ممّا يُسمّى في البلاد العثمانية (دعاكو وطعامية).(مرحى).

---

(١) تلمسان : مدينة بالجزائر، كانت مركزاً للعلوم الفقهية والكلامية، ثم تدهور العلم فيها بعد الحكم العثماني لها.

(٢) التعريض بالدولة العثمانية واضح من خلال ذكره لعاصمتهم على أنها سوق للمدلّسين.

(٣) السحر لغة إخراج الباطل في صورة الحق بالتمويه والخداع، والسحر الذي في لسان الشرع هو أيضاً ليس غير ذلك بدليل وصفه تعالى لعمل سحرة فرعون في قوله جلّت حكمته :﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف :١١٦). وقوله:﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه :٦٦).(ك).

وبذلك ضاق على العلماء الخناق، لا رزق ولا حرمة، وكفى بذلك مضيّعاً للعلم وللدِّين؛ لأنّه قد التبس العامّة علماء الدِّين الفقراء الأذلاّء من هؤلاء المدلّسين الأغنياء الأعزّاء، فتشوّشت عقائدهم، وضعفَ يقينهم. فَضَيَّعَ الأكثرون حدود الله، وتجاوزوها، وفقدوا قوّة قوانين الله، ففسدت أيضاً دنياهم واعتراهم هذا الفتور.

أجاب المولى الرومي : إنّ كلّ الديانات معرّضة بالتمادي لأنواع من التشويش والفساد، ولكنْ، لا تفقد من أهلها حكماء ذوي نشاط وعزم، يُنبّهون الناس، ويرفعون الالتباس، أو يُعوّضون قواعد الدِّين إذا كان أصلها واهياً [1] فوهنت بقوانين موضوعة تقوم بنظم دنياهم، ويتحمّلون في سبيل ذلك ما يتجمّلون من المشاقّ خدمة لأفكارهم السامية، ويفدون ما عزّ وهان حفظاً لشرفهم، القائم بشرف قومهم، بل حفظاً لحياتهم وحياة قومهم من أن يصبحوا أمواتاً متحرّكين في أيدي أقوام آخرين.

ولقد أثبت الحكماء المدقّقون بعد البحث الطويل العميق، أنّ المنشأ الأصلي لكل شقاء في بني حواء هو أمر واحد لا ثاني له : ألا وهو وجود السلطة القانونية منحلّة ولو قليلاً لفسادها، أو لغلبة سلطة شخصيّة أو أشخاصيّة عليها.

فما بال الزمان يضنّ علينا برجال يُنبّهون الناس، ويرفعون الالتباس ؟ يفتكرون بحزم، ويعملون بعزم، ولا ينفكّون حتّى ينالوا ما يقصدون، فينالون حمداً كثيراً وفخراً كبيراً وأجراً عظيماً.

وعندي أنّ داءنا الدَّفين : دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميّين، وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهّال المتعمّمين.

نبّه السيد الفراتي الأستاذ الرئيس إلى قرب وقت الانصراف، وعندئذ جهر

---

(١) لا كقواعد الدِّين الإسلامي.(ك).

السيد الرئيس بشعار (لا نعبد إلا الله) استلفاتاً للإخوان، وقال لهم : إنّ أخانا المولى الرومي لفارس مغوار نحبّ منه ما عوّدنا من التفصيل والإشباع، والآن قد آن وقت الظهر، وحان أنْ نتفرَّق لندرك الصلاة، وموعدنا غداً، إنْ شاء الله تعالى.

الاجتماع الثالث

(الداء أو الفتور العام)

يوم الخميس ثامن عشر ذي العقدة سنة ١٣١٦ هـ

في الوقت المعيَّن، وهو بعد طلوع الشمس بساعة، تمّ توارد الإخوان لمحفل الجمعية؛ غير أن الأستاذ الرئيس تأخَّر نحو نصف ساعة، ثمّ حضر، واعتذر بأنّه أعاقه عن الحضور أنّ حضرة الشريف الأمير[1] قد طلبه لزيارته، فما وسعه إلاّ الإجابة باكراً، وما يظنُّ أنْ يسترسل بينهما الحديثُ فيتأخّر عن الميعاد، ولكنْ صادف أنّ الحديث كان طويلاً.

ثمّ قال الأستاذ الرئيس : إننا متشوّقون لتمام بحث المولى الرومي، وأمر السَّيدُ الفراتيّ، كاتبَ الجمعيّة، فقرأ ضبط مذكرات الاجتماع السابق، حتّى بلغ آخره من عبارة المولى الرومي، وهو قوله: وعندي أنّ داءنا الدَّفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميّين، وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهلة المتعمِّمين.

فحينئذ أفاض المولى الرومي في الكلام، فقال : وهم المقربون من الأمراء على أنّهم علماء، وارتباط القضاء والإمضاء بهم، فإنّ هؤلاء المتعمِّمين في البلاد العثمانية كانوا اتخذوا لأنفسهم قانوناً سمّوه (طريق العلماء)، وجعلوا فيه من الأصول ما أنتج، منذ قرنين إلى الآن، أن يصير العلم منحة رسميّة تُعطى للجهّال، حتّى الأميّين، بل وللأطفال.

ويترقّى صاحبها في مراتب العلم والفضل والكمال، بمجرّد تقادم السنين أو ترادف العنايات[2] لا سيّما إذا كان من زمرة (زاد كان)، أي الأصلاء، فإنّه يكون طفلاً في المهد، ويُنعت في منشوره الرسميّ من قبل حضرة السلطان بأنّه : (أَعْلَمُ العلماءِ المحقّقين)؛ ثم يكون فطيماً فَيُخاطَبُ بأنّه : (أفضلُ الفضلاءِ

---

(١) كان يحكم مكة الأشراف الهاشميون.

(٢) كثرة الوساطات.

المدقّقين)؛ ثم يصير مراهقاً فَيُعطى المولويّة[١]، ويُشهد له بأنّه : (أقضى قضاة المسلمين، معدنُ الفضل واليقين، رافعُ أعلام الشريعة والدِّين، وارثُ علم الأنبياء والمرسَلين) ثمّ، وثمّ حتّى يُصَدَّر فيوصفَ : (بأعلم العلماء المتبحّرين، وأفضل الفضلاء المتورّعين، ينبوع الفضل واليقين)[٢] إلى آخر ما في تلك المناشير من الكذب المشين!

ولا يظنُّ ظانٌّ أن هذا الإطراء من حضرة السلطان للمتعمِّمين هو بقصد أن يقابلوه بالمثل، بوصفهم إيّاه ومخاطبتهم له بنحو : (المولى المقدس، ذي القدرة، صاحبِ العظمة والجلال، المنزِّهِ عن النظير والمثال، واهبِ الحياة، ظلّ الله، خليفةِ رسول الله، مهبطِ الإلهامات، مصدرِ الكرامات، سلطانِ السلاطين، مالكِ رقاب العالمين، وَليِّ نعمة الثقلين، ملجأِ أهل الخافقين)[٣]. إلى غير ذلك من مصارع الشِّرك والكبرياء والمهالك.

هذا، ولا ريب، أنّ التسعين في المائة من العلماء المتبحّرين لا يُحسِنون قراءة نعوتهم المزوّرة، كما أنّ الخمسة وتسعين من أولئك المتورّعين، رافعي أعلام الشريعة والدِّين، يحاربون الله جهاراً، ويستحقّون ما يستحقّون من الله وملائكته والمؤمنين.

ويكفي حجّة عليهم بذلك، تمييزهم جميعاً بلباس عروسي[٤]، محلّى بكثير من الفضّة والذهب، ممّا هو حرام بالإجماع، ولا يحتمل التأويل؛ وقد اقتبسوا هذا اللباس من كهنة الروم الذين يلبسون القباء والقلنسوات المذهّبة عند إقامة شعائرهم، وفي احتفالاتهم الرسميّة. وهذا الخطيب في بعض جوامع السلاطين، يستوي على المنبر، ويقول : اتقوا الله، وعلى رأسه وصدره ومنكبيه هذا اللباس

---

(١) طريقة صوفية تُنسب إلى جلال الدِّين الرومي، كان يقيم أصحابها (حلقات الذكر) بالأناشيد والرقص على توقيعات آلات الطرب. والمقصود هنا : مرتبة.

(٢) صفات كان يحصل عليها المتملِّقون في ظلّ الدولة العثمانية.

(٣) ألقاب كانت شائعة في فترة الحكم العثماني.

(٤) التشريفة المزركشة التي يمنحها السلطان لمنافقيه.

المنكر. (مرحى).

وهؤلاء قضاة القسطنطينية على عهدنا أكثرهم لا يعرضون لحضرة السلطان المعظم نصبَ خطيبٍ لإقامة الجمعة، ولا ينصّبون وصيّاً على أبله، أو مختلّ العقل، أو مسرف فاسد التدابير؛ ولا يعزلون متولّياً أو وصيّاً لخيانة في مال الوقف أو اليتيم؛ ولا يقضون في مسألة خلع زوجة، ولا يسمعون بيّنة تواتر[1]؛ إلى غير ذلك من قضايا وأحكام شرعية كثيرة لا يجوز شرعاً ولا إدارة إهمالها، ولا حجّة لهم في ارتكاب إثم تعطيلها غير مجاراة الأوهام.

ثمّ إنّ هؤلاء المتعمِّمين ماكفاهم هذا القانون، فألحقوه بقانون آخر سمّوه قانون (توجيه الجهات)؛ جعلوا فيه التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية، كالعروض، تُباع، وتشرى، وتوهب، وتورث، وما ينحلُّ منها نادراً عن غير وارث، يبيعها القضاة لمن يريدون؛ ويتكرمون بها على المتملّقين؛ وبهذا القانون انحصرت الخدم الدينية في الجهلاء والمنافقين.

ثمّ لما وُضع قانون (تشكيل الولايات)، لم يرض المتعمّمون حتّى جعلوا فيه قاضي المسلمين، وكذلك مفتي المؤمنين في كل بلد، عضوين في مجلس الإدارة، يحكمان بأشياء كثيرة ممّا يصادم الشرع كالربا والضريبة على الخمور، والرسوم العرفية، وغيرها مما كان الأليق والأنسب بالإسلامية أنْ يبقى العلماء بعيدين عنه. كما أنّ القسّيس، بل الشمّاس[2] لا يحضر مجلساً يُعقد فيه زواج أو تفريق مدنيان، ولا يشهد في صك دَيْنٍ دَاخَلَهُ ربا، فضلاً عن أنْ يقضي، أو يمضي بصفة رسميّة كهنوتية، أمثال ذلك من الأعمال التي تصادم دين النصرانيّة.

ثمّ لما وُضِعَ (قانون العدليّة)[3]، تهافت المتعمّمون على جعل قاضي

---

(١) الخبر أو الحديث المتواتر : ما أخبر به جمع يُؤمَنُ تواطؤهم على الكذب. والخبر المتواتر : مصطلح في الحديث.

(٢) الشمّاس : مرتبة كنسية.

(٣) نظام المحاكم.

المسلمين رئيساً للمحكمة النظامية[1]، التي تحكم بما لم ينزل الله، وبما يتبرأ الدِّين الحنيف منه، من نحو : ربا صريح، ومن إبطال حدود الله التي صرّح بها القرآن كليّاً، أو باستبدالها بعقوبات سياسيّة، أو بتغريمات ماليّة؛ ومن نحو : معاقبة العباد بمجرد الظنّ، والرأي، وشهادة الواحد، وشهادة الفاسق، وشهادة العاهرة المجاهرة، مما لا يلائم الشرع قطعيّاً؛ ومن نحو : تنفيذ كلّ حكم عرفيّ، حقّ أو باطل، بدون النظر فيه. ومن تحصيل الضرائب وغرامات. ومن توقيف الأحكام الشرعيّة على استيفاء الرسوم من الأخصام وأموال الأيتام.

ومن أهمّ دسائس المتعمّمين، أنّهم ينفثون في صدور الأمراء لزوم الاستمرار على الاستقلال في الرأي[2]، وإنْ كان مضرّاً، ومعاداة الشورى، وإنْ كانت سُنّة، والمحافظة على الحالة الجارية، وإنْ كانت سيئة. ويلقون عليهم بأنّ مشاركة الأمّة في تدبير شؤونها، وإطلاق حريّة الانتقاد لها، يخلّ بنفوذ الأمراء، ويخالف السياسة الشرعية؛ ويلقنونهم حُجَجَاً واهنة، لولا أنّ أمامها جهل الأمة، ووراءها سطوة الإمارة، لما تحرّكت بها شفتان، ولا تردّد في ردّها إنسان.

والأمرُ الأَمَرُّ أنّ أولئك الأمراء يقتبسون من هذه الحجج، ما يتسلحون به في مقابلة مَنْ يعترض على سياستهم من الدول الأجنبية، بقولهم : إنّ قواعد الدِّين الإسلامي لا تلائم أصول الشورى، ولا تقبل النظام والترقيات المدنية، وأنّهم مغلوبون على أمرهم، ومضطرّون لرعاية دين رعاياهم، ومجاراة ميل الفكر العام.

ولنرجع لبحث العلماء الرسميين، فنقول : بهذه القوانين عند العثمانيين، وبأشباهها عند أكثر حكومات المسلمين، ضلّ المتعمّمون، وصاروا أضرّ[3] على الدِّين من الشياطين.

وبهذه القوانين استأثر الجهلاء الفاسقون بمزايا العلماء العاملين، واغتصبوا

---

(١) أي : الرسمية المدنية.

(٢) أي الانفراد فيما تجب المشورة فيه.

(٣) الصواب : أكثر ضرراً.

أرزاقهم من بيت المال، ومن أوقاف الأسلاف، فبالضرورة قلّت الرغبات في تحصيل العلوم، وثبطت الهمم، وصار طالب العلم يضطر للاكتفاء ببلغة منه، ويشتغل بالاحتراف للارتزاق، وهكذا فسد العلم، وقلّ أهله، فاختلّت التربية الدينيّة في الأمّة، فوقعت في الفتور، وعمّت فيها الشرور.

أجاب الرياضي الكردي : إنّ هذا الداء خاص ببعض الأمم الإسلامية، فلا يصلح سبباً للفتور العام الذي نبحث فيه، ونتساءل عنه؛ وعندي أن السبب العام، هو أنّ علمائنا كانوا اقتصروا على العلوم الدِّينية وبعض الرياضيات، وأهملوا باقي العلوم الرياضيّة والطبيعيّة، التي كانت إذ ذاك ليست بذي بال، ولا تفيد سوى الجمال والكمال، فَفُقِدَ أهلها من بين المسلمين، واندرست كُتُبُهَا، وانقطعت علاقتها، فصارت منفوراً منها، على حكم : (المرءُ عدوٌّ ما جهل)؛ بل صار المتطلّع إليها منهم يُفسَّق[١] ويُرمى بالزيغ والزندقة[٢]، على حين أخذت هذه العلوم تنمو في الغرب؛ وعلى كرّ القرون ترقّت، وظهر لها ثمرات عظيمة في كافّة الشؤون الماديّة والأدبية، حتّى صارت كالشمس، لا حياة لذي حياة إلاّ بنورها، فأصبح المسلمون ـ مع شاسع بعدهم عنها ـ محتاجين إليها لمجاراة جيرانهم، احتياجاً يعمّ الجزئيّات والكليّات : من تربية الطفل إلى سياسة الممالك، ومن استنبات الأرض إلى استمطار السماء، ومن عمل الإبرة والقوارير إلى عمل المدافع والبوارج، ومن استخدام اليد والحمار إلى استخدام البرق والبخار.[٣]

ولا شك أن المسلمين أصبحوا ـ بعد الاكتشافات الجديدة ـ يستفيدون من

---

(١) يُتَّهَم بالفسق.

(٢) زنديق : مُعرَّب عن الفارسية، أطلقه الفرس قديماً على الخارج عن دين الدولة ببدع معينة، أهمها القول بأزلية العالم. استعمله المسلمون أولاً للدلالة على القائلين بالأصلين : النور والظلمة، على مذهب المانوية وغيرهم الثنوية، ثم اتسع معناه، فشمل الدهريين والملحدين وسائر أصحاب المعتقدات الضالة، بل أطلق على المتشككين، وكل متحرر من أحكام الدِّين فكراً وعملاً.

(٣) ما تزال الرياضيات تحقق المزيد من التقدم العلمي، وقد أدرك الكواكبي أهميتها في وقت مبكر.

العلوم الطبيعية والحكمية فوائد عظيمة جداً، بالنظر إلى كشفها بعض أسرار كتاب الله وبالغ الحكمة المنطوية فيه، مما كان مستوراً إلى الآن، وقد خبط فيه المفسرون خبط عشواء[1]، كظهور حياة الجمادات بماء التبلور[2]؛ وكازدواج النباتات عامة[3]، وكقبول الأرض الانتقاص وانشقاق القمر منها[4]؛ وكانفتاق الأرض من السماء[5]؛ وكحدوث الجدري الذي نشأ في أصحاب الفيل بالمكروب[6]، وكظهور سلسلة خلق الحيوان من تراب وطين وصلصال، بقاعدة الترقي[7] التي أثبتها العلاّمة دارون[8]؛ وكظهور صفة الحركة الدائمة من الشخوص والهبوط المستمرّين في الكائنات كلّها[9] وكظهور سرّ ضبط المقادير

---

(١) بعد كلمة (عشواء) حتى كلمة (الحديد) لا وجود لها ولا لحواشيها في (ط. م).

(٢) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾. الأنبياء : ٣٠.

(٣) ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يس : ٣٦.

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ طه :٥٣. ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ الحج : ٥.

﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ﴾ الرعد : ٣.

(٤) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ الرعد : ٤١.

(٥) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ الأنبياء : ٣٠.

(٦) ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ الفيل :٣. أي متتابعة مجتمعة،﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ الفيل٤، أي من الطين الذي يتماسك على سطح المستنقعات.

يرى – واضحاً من حواشي الكواكبي – أنه لم يُحِلْ أياً من الظواهر العلمية إلى تفسيرات غيبية، بل حاول أن يفسرها تفسيرات علمية تُدْرَك بالعقل. الحواشي من وضعه، وتثبيت الإحالة من وضعنا.

(٧) يقصد (نظرية النشوء والتطور) التي قال بها دارون (١٨٠٩ – ١٨٨٢) عالم طبيعة إنكليزي، صاحب نظرية التطور والارتقاء في الأجناس الحية. قال بالبقاء للأصلح.

(٨) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ المؤمنون : ١٢ (ك)

(٩) ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يس : ٤٠ .(ك). راجع لما ذكر عند ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ يس : ٣٣. لا خاص بالشمس والقمر. (ك).

في التركيبات الكيماوية[١]؛ وكظهور انقسام طبقات الأرض إلى سبعة[٢] على الرأي الأصح؛ وكظهور أن السماء فضاء بالإجماع؛ وبذلك تندفع مشكلة قبولها الفتق والرتق[٣]، وكظهور امتلاء الكون بالأثير وأنّه أصل مادّة الكائنات[٤]؛ وكالإخبار عن المركوبات البريّة والبخارية والكهربائية[٥]. وغير ذلك من الحقائق التي كشفها العلم أخيراً، وأَعْظِمْ بها من براهين قطعية على إعجاز القرآن، وتجدّد إعجازه ماكرَّ الجديدان[٦]. بل أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقليّة، التي كادت تجعل الغربيّين أدرى منّا حتّى في مباني ديننا؛ كاستدلالهم بالمقايسة على أن نبيّنا، عليه الصلاة والسلام، أفضل العالمين عقلاً وأخلاقاً؛ وكإثباتهم بالمقابل أنّ ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية.

وعندي أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون في هذا الفتور، والأمل بعناية الله أنهم بعد زمن قصير أو طويل، لا بدّ أن يلتفتوا لهذه العلوم النافعة، فيستعيدوا نشأتهم، بل يجلبوا إلى دينهم العالمَ المتمدّنَ، لأنّ نور المعارف، على قدر إبعاده العقلاء عن النصرانيّة وأمثالها، يقربهم من الإسلاميّة، لأنّ الدِّين المملوء بالخرافات والعقل المتنوّر لا يجتمعان في دماغ واحد. (مرحى).

ثمّ إن تبعة هذا التقصير، وإنْ كانت تلحق علماء الأمّة المتقدمين، إلاّ أنّ علماءنا المتأخرين أكثر قصوراً، لأنهم في زمان ظهرت فيه فوائد هذه العلوم،

---

(١) ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ الرعد : ٨.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ الطلاق : ١٢

(٣) إشارة إلى قوله تعالى :﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ الأنبياء : ٣٠.

(٤) ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ فصلت : ١١. (ك).

(٥) ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ يس: ٤١-٤٢ (ك).

(٦) يقصد : الليل والنهار.

ولم يحصل فيهم ميلٌ لاقتباسها؛ بل نراهم مقتصرين على تدريس اللغة والفقه فقط، أو بعلاوة شيء من الحساب إكمالاً للفرائض والمواريث قلّما يفيد.

وكذلك نرى وعّاظنا مقتصرين على البحث في النوافل والقربات المزيّدة في الدِّين، ورواية الحكايات الإسرائيليات[١]؛ ومثلهم المرشدون أهل الطرائق، مقتصرون على حكايات نوادرها الزهّاد، من صحيح وموضوع[٢]، ورواية كرامات الأنجاب والنقباء والأبدال[٣]، وعلى ضبط وزن التمايل وأصول الإنشاد؛ ولا ننسى خطباءنا واقتصارهم على تكرار عبارات في النعت، والدعاء للغزاة والمجاهدين، وتعداد فضائل العبادات.

والحاصل، أنّ تقصيرات العلماء الأقدمين، واقتصارات المتأخّرين، وتباعد المسلمين إلى الآن عن العلوم النافعة الحيويّة، جعلتهم أحطّ بكثير عن الأمم. ولاشكّ أنّه إذا تمادى تباعدهم هذا خمسين عاماً أخرى، تبعد النسبة بينهم وبين جيرانهم كبعدها ما بين الإنسان وباقي أنواع الحيوان. فبناءً عليه، يكون ناموس الارتقاء هو المسبّب لهذا الفتور، كما قال تعالى :﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤].

فأجابه الكامل الإسكندري : إنّ هذا سبب من الأسباب، ولا يكفي وحده لحلّ الإشكال، لأنَّ فَقْدَ العلوم الحكميّة والطبيعيّة لا يصلح سبباً لفقد الإحساس الملّي[٥] والأخلاق العالية، لأنّها توجد في أعرق الأمم جهالة. وإنما سبب فتور حياتنا الأدبيّة هو يأسنا من المباراة، وذلك أنّنا كنّا علماء راشدين، وكان جيراننا

---

(١) ما حاول اليهود دسّه في الكتب الإسلامية.

(٢) مُبْتَدَع.

(٣) ألقاب لرتب الصوفية.

(٤) الزمر : ٩.

(٥) عند الكواكب الملة تعني القوم، والملي ـ هنا ـ القومي، أو الوطني. وهو مصطلح كان شائعاً في الدولة العثمانية، بالعربية والتركية على حد سواء.

متأخّرين عنّا، فعرفنا البقاء فنمنا، واجتهدوا فلحقونا، ولبثنا نياماً فاجتازوا وسبقونا، وتركونا وراء؛ وطال نومنا، فَبَعُدَ الشوط حتّى صار ما بعد ورائنا وراء، فصغرت نفوسنا وفترت همّتنا، وضعف إحساسنا، فيئسنا من اللّحاق والمجاراة؛ وخرجنا من ميدان المنافسة والمباراة وألسنتنا تفيض بقولنا : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [١]؛ فعدنا إلى كهف النوم مستسلمين للقضاء، نطلب الفرج بمجرّد التمنّي والدعاء، ذاهلين عن أنّ الله تعالى، جلّت حكمته، رتّب هذه الحياة الدنيا على أسباب ظاهريّة، ولم يشأ أن يجعلها كالآخرة عالم أقدار؛ فهذا اليأس هو سبب الفتور، فنسأل الله تعالى اللطف من المقدور.

أجابه العارف التاتاري : إنّ هذه شكاية حال، ولا تفي بالجواب؛ لأنّه ما السبب في هذا النوم الذي غشي المسلمين، ولم يزل يغشاهم دون كثير غيرهم من الأمم التي انتبهت، وسارت، ولحقها ظعن[٢] الأحياء ؟ وما المسلمون الأبعدين[٣] المنقطعين كأهل الصين، ولا هم بالمتوحشين العريقين كأهل أمريكا الأصليّين.

ثمّ قال : أنا أرى أنّ عارضَنا فَقْدُنَا السراة والهداة : فلا أمير عامّ حازم مطالع لسوق الأمّة طوعاً أو كُرهاً إلى الإرشاد؛ ولا حكيمٌ معترف له بالمزيّة والإخلاص، لتنقاد إليه الأمراء والناس؛ ولا تربية قويمة المبادئ، ينتج منها رأي عامّ لا يطرقه تخاذل وانقسام؛ ولا جمعيات منتظمة تسعى بالخير، وتتابع السير. ولذلك،حلّ فينا الفتور، وإلى الله ترجع الأمور.

أجابه الفقيه الأفغاني : إنّ ما وصفته من أمير وحكيم لا يوجدان في

---

(١) إبراهيم : ٢١.

(٢) رحيل. ظَعَنَ : سار، وارتحل.

(٣) بالبعيدين.

الأمم المنحطّة إلاّ اتفاقاً، أمّا الرأي العام والجمعيّات فلا يُفْقَدَان إلا بسبب فَقْدِ الإحساس، وهذا ما نتساءل عنه.

وذكر أنّ الداء العام فيما يراه هو الفقر الآخذ بالزمام، لأنّ الفقرَ قائدُ كلّ شرّ، ورائدُ كل نحس، فمنه جَهْلُنا، ومنه فسادُ أخلاقنا، بل منه تشتُّتُ آرائنا حتى في ديننا، ومنه فَقْدُ إحساسنا، ومنه إلى كلّ ما نحن فيه، أو نتوقّع أننا سنوافيه.

فهذه فطرتنا، لا نقص فيها عن غيرنا؛ وعددنا كثير، وبلادنا متواصلة، وأرضنا مخصبة، ومعادننا غنيّة، وشرعنا قويم، وفخارنا قديم؛ فلا ينقصنا عن الأمم الحيّة غير القوة الماليّة، التي أصبحت لا تُحَصَّلُ إلاّ بالعلوم والفنون العالية، وهذه لا تُحصَّل إلاّ بالمال الطائل؛ فوقعنا في مشكل الدور[1]، وعسى أن نهتدي لفكّه سبيلاً، وإلاّ فيحيق بنا ناموس فناء الضعيف في القويّ وبيننا الجاهل والعالم.

ومن أعظم أسباب فقر الأمّة : أنّ شريعتنا مبنيّة على أنّ في أموال الأغنياء حقّاً معلوما للبائس والمحروم[2]، فيؤخذ من الأغنياء، ويُوزّع على الفقراء؛ وهذه الحكومات الإسلامية، قد قلبت الموضوع، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابي بها المسرفين والسفهاء.

أجاب السعيد الإنكليزي : إنّ المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لا يعوزهم المال اللازم للتدرج في العلوم، حتّى للسياحات البحريّة والقطبيّة، لأنّ فريضة الزكاة على مالكي النصاب والكفّارات الماليّة، جاعلة لفقراء الأمّة وبعض المصاريف العموميّة نصيباً غير قليل في مال الأغنياء؛ بحيث إذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة أمنوا الفقر، وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي

(١) اصطلاح منطقي يعني (الحلقة المفرغة).

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ الذاريات ١٩.

المنتظم التي يتمنّى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدّن الإفرنجي، وهم لم يهتدوا بَعْدُ لطريقة نيلها، مع أنّه تسعى وراء ذلك منهم جمعيات وعصبيّات مكوّنة من ملايين باسم (كومون[١]، وفنيان[٢]، ونيهلست، وسوسيالست[٣])، كلّها تطلب التساوي أو التقارب في الحقوق والحالة المعاشية؛ ذلك التساوي والتقارب المقرّرين في الإسلاميّة ديناً بوسيلة أنواع الزكاة والكفّارات، ولكنّ تعطيل إيتاء الزكاة وإيفاء الكفّارات سَبَّبَ بعض الفتور المبحوث فيه، كما سبَّبَ إهمالُ الزكاة فَقْدَ الثمرات العظيمة من معرفة المسلم ميزانية ثروته سنويّاً، فيوفّق نفقاته على نسبة ثروته ودخله، ولا شكّ أنّ الواحد من الأربعين يكفي أن يُبذل لأجل هذه الثمرة وحدها.

والشريعة الإسلاميّة هي أوّل شريعة ساقت الناس والحكومات لأصول البودجة[٤] المؤسّس عليه فن الاقتصاد المالي، الإفرادي والسياسي.

ويخيل لي أنّ سبب هذا الفتور، الذي أخلّ حتّى في الدِّين، هو فَقْدُ الاجتماعات والمفاوضات؛ وذلك أنّ المسلمين في القرون الأخيرة قد نسوا بالكلّية حكمةَ تشريع الجماعة والجمعة وجمعيّة الحجّ؛ وتركِ خطبائهم ووعاظهم، خوفاً من أهل السياسة، التعرّض للشؤون العامة.

كما أنّ علماءهم صاروا يَسْتُرون جُنْبَهُم بجعلهم التحدّث في الأمور العموميّة والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يغني، وأن إتيان ذلك في الجوامع من اللغو الذي لا يجوز، وربّما اعتبروه من الغيبة أو التجسس أو السعي بالفساد؛ فسرى ذلك إلى أفراد الأمة، وصار كل شخص لا يهتمّ إلاّ

(١) كومون : تُطلق في العصور الوسطى على أي بلدة قامت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانيّة، عندما أصبحت الدول الأوربية ذات حكم مركزي، ألغت الحكومات ـ تدريجياً ـ امتياز الكومونات. وظهر أقدم الكومونات في شرق إيطاليا.

(٢) الفنيان : حركة تدعى (الأخوة الفنيانية)، وهي جمعية سرية ثورية أيرلندية، نظمت في (١٨٥٨ م) للحصول على الاستقلال عن إنكلترا.

(٣) اشتراكية.

(٤) من الكلمة الفرنسيّة **Budget** أي الميزانية.

بخويصة نفسه وحفظ حياته في يومه، كأنّه خُلق أمة واحدة؛ وسيموت غداً، جاهلاً أن له حقوقاً على الجامعة الإسلامية والجامعة البشريّة، وأنّ لهما عليه مثلها، ذاهلاً عن أنَّهُ مدني الطبع، لا يعيش إلاّ بالاشتراك، ناسياً أو جاهلاً أوامر الكتاب والسنّة له بذلك. (مرحى).

ثم بتوالي القرون والبطون على هذه الحال، تأصّل في الأمة فقد الإحساس، إلى درجة أنّه لو خربت هذه الكعبة، والعياذ بالله تعالى، لما تقطّبت الحياة أكثر من لحظة، ولا أقول لما زاد تلاطم الناس على سبعة أيّام كما ورد في الأثر، لأنّ المراد بأولئك الناس أهل خزينة العرب إذ ذاك.

وإذا دقّقنا النظر في حالة الأمم الحيّة المعاصرة، وهي ليس عندها ما عندنا من الوسائل الشريفة للاجتماعات والمفاوضات، نجدهم قد احتالوا للاجتماعات ولاسترعاء السمع والاستلفاف بوسائل شتّى :

١ . منها تخصيصهم يوماً في الأسبوع للبطالة والتفرّغ من الأشغال الخاصّة، لتحصل بين النّاس الاجتماعات، وتنعقد الندوات، فيتباحثون، ويتناجون.

٢ . ومنها تخصيصهم أيّاماً، يَتَفَرَّغون فيها لتذاكر مهمّات الأعمال لأعاظم رجالهم الماضين، تشويقاً للتمثّل بهم.

٣ . ومنها إعدادهم في مدنهم ساحات ومنتديات، تسهيلاً للاجتماع والمذكرات وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات.

٤ . ومنها إيجادهم المنتزهات[1] الزاهية العموميّة، وإجراء الاحتفالات الرسميّة والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات.

٥ . ومنها إيجادهم محلاّت التشخيص المعروف (بالكوميديا والتياترو) [2]،

---

(١) كذا في الأصل، والصواب : المنتزهات.

(٢)المسرح. والكوميديا : مسرحية ذات طابع خفيف، تُكتب بقصد التسلية، أو هي عمل أدبي تهدف طريقة عرضه إلى إحداث الشعور بالبهجة.

بقصد إراءة العبر واسترعاء السمع للحكم والوقائع، ولو ضمن أنواع من الخلاعة التي اتُّخذت شباكاً لمقاصد الجمع والإسماع، ويعتبرون أنّ نفعها أكبر من ضرر الخلاعة.

٦ . ومنها اعتناؤهم غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريخهم الملّية [١]، المفصّلة المدمجة بالعلل والأسباب، تمكيناً لحبّ الجنسيّة [٣].

٧ . ومنها حرصهم على حفظ العاديات المنبّهة، وادخار الآثار القديمة المنوّهة، واقتناء النفائس المشّعرة بالمفاخر.

٨ . ومنها إقامتُهم النصب، المفكِّرة بما نصبت له من مهمّات الوقائع القديمة.

٩ . ومنها نشرهم في الجرائد اليوميّة كلّ الوقائع والمطالعات الفكريّة.

١٠ . ومنها بثّهم في الأغاني والنشائد الحِكَمَ والحماساتِ؛ إلى غير ذلك من الوسائل التي تُنشئ في القوم نشأة حياة اجتماعية، وتولِّد في الرؤوس حميّة وحماسة، وفي النفوس سموّاً ونشاطاً.

أمّا المسلمون فإنهم كما سبق بيانه، أهملوا استعمال تلك الوسائل الشريفة، المؤسّسة عندهم للشورى والمفاوضات والتناصح والتداعي، أعني بذلك الجماعة والجمعة وجمعيّة الحجّ؛ حتّى كأن الشارع لم يقصد منها أداء الفريضة فقط بصورة تعبّديّة بسيطة، والحال[٢] حكمة الشارع أبلغ من ذلك، وعندي أنّ هذا أعظم أسباب الفتور. (مرحى).

فأجابه الإمام الصينيّ : إنّ هذا أشبه بالعوارض منه بالأسباب، فهو أَلْيقُ بأن يكون دواءَ للدَّاء، ونحن مهتمّون ابتداءً بمعرفة سبب الفتور.

ثم قال: إني أرى أنّ السبب الأكبر للفتور هو تكبُّر الأمراء، وميلُهم

(١) القومية.

(٢) عبارة دارجة في القرن الماضي، وهي تماثل (في الواقع أنّ).

للعلماء المتملّقين المنافقين، الذين يتصاغرون لديهم، ويتذلّلون لهم، ويُحَرِّفون أحكام الدِّين ليوفقوها على أهوائهم؛ فماذا يُرجى من علماء يشترون بدينهم دنياهم، ويُقبّلون يَدَ الأمير لِتُقَبّل العامةُ أيديهم، ويُحقّرون أنفسهم للعظماء ليتعاظموا على ألوف من الضعفاء، أكبر همّهم التحاسد والتباغض والتخاذل والتفاشل، لا يُحسنون أمراً من الأمور حتّى ولا الخصومة، فتراهم لا يتراغمون إلاّ بتكفير بعضهم بعضاً عند الأمراء والعامّة ؟

وهذا داء عياء صعب المداواة جدّاً، لأنّ كِبَرَ الأمراء يمنعهم من الميل إلى العلماء العاملين، الذين فيهم نوع غلظة لا بدّ منها، ولنعمّا هي مزيّة لولاها لَفُقِدَ الدِّين بالكلية. (مرحى).

فلا شكّ أنّ في هذا الزمان، أفضلَ الجهاد في الله الحطُّ من قدر العلماء المنافقين عند العامّة، وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين؛ حتّى إذا رأى الأمراء انقياد الناس لهؤلاء أقبلوا هم أيضاً عليهم رغم أنوفهم، وأذعنوا لهم طوعاً أو كرهاً؛ على أنّه يجب على حكماء الأمة المجاهدين في الله أن يعتنوا بالوسائل الليّنة لتثقيف عقول العلماء العاملين، لأنّ العلم رافعٌ للجهل فقط، ولا يفيد عقلاً ولا كياسة؛ فيلزم تعليمهم وتعريفهم كيف تكون سياسة الدِّين، وهكذا يفعل الحكماء عندنا معاشر إسلام الصين، ولا تفقد أيّة بلدة كانت رجالاً حكماء نبلاء يمتازون طبعاً على العامة، لهم نوع من الولاء حتّى على العلماء.

وهؤلاء الذين نُسمّيهم عندنا بالحكماء هم الذين يُطلق عليهم في الإسلامية اسم أهل الحلّ والعقد، الذين لا تنعقد شرعاً (الإمامة) إلاّ ببيعتهم؛ وهم خواصّ الطبقة العليا في الأمّة، الذين أمر الله عزّ شأنه نبيّه بمشاورتهم في الأمر، الذين لهم شرعاً حق الاحتساب والسيطرة على الإمام والعمّال، لأنّهم رؤساء الأمّة ووكلاء العامّة، والقائمون في الحكومة الإسلامية مقام مجالس النوّاب

والأشراف في الحكومات المقيّدة[1]، ومقام الأسرة المملوكيّة التي لها حقّ السيطرة على الملوك في الحكومة المطلقة كالصين وروسيا؛ ومقام شيوخ الأفخاد[2] في إزاء أمراء العشائر العربيّة، أولئك الأمراء الذين ليس لهم من الأمر غير تنفيذ ما يبرمه الشيوخ.

وإذا دقّقنا النظر في أدوار الحكومات الإسلاميّة من عهد الرسالة إلى الآن، نجد ترقّيها وانحطاطها تابعين لقوّة أو ضعف احتساب أهل الحلّ والعقد واشتراكهم في تدبير شؤون الأمّة.

وإذا أرجعنا البصر على التاريخ الإسلاميّ، نجد أنّ النبي عليه السلام كان أطوع المخلوقات للشورى امتثالاً لأمر ربّه في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[3]، حتّى إنّه ترك الخلافة لمجرّد رأي الامّة.

ثم كان أوّل الخلفاء[4] رضي الله عنه أشبه الناس به حتّى أخذ رأي سراة الصحابة فيمن خلَّف، ثم الخليفة الثاني[5] اتّبعَ أثر الأوّل، وإنْ استأثر في ترتيب الشورى فيمَنْ يخلفه، ثم الخليفة الثالث[6] اجتهد في مخالفة رؤساء الصحابة في بعض المهمّات، فلم يستقم له الأمر، وظهرت الفتن كما هو معلوم؛ ثمّ معاوية ـ رحمه الله ـ كان قليل الاستقلال بالرأي فحسُنت أيّامه عن قبل. وهكذا، كانت دولة الأمويّين تحت سيطرة أهل الحلّ والعقد لا سيمّا من سراة بني أميّة، فانتظمت على عهدهم الأحوال، كما كان ذلك كذلك على عهد

---

(١) الدستوريّة.

(٢) الفخذ : فرع من فروع البطن، والفخد والبطن مصطلحان يدلان على أقسام القبيلة العربية.

(٣) آل عمران : ١٥٩.

(٤) أبو بكر الصديق.

(٥) عمر بن الخطاب.

(٦) عثمان بن عفان.

صدر العبّاسيين، حيث كانوا مذعنين لسيطرة رؤساء بني هاشم[١]، ثمّ لمّا استبدوا في الرأي والتدبير، فخالفوا أمر الله وإتباع طريقة رسول الله، ساءت الحال حتى فُقِدَ الملك.

هكذا عند التدقيق في كلّ فرع من الدول الإسلامية الماضية والحاضرة، بل في ترجمة كلّ فرد من الملوك والأمراء، بل في حال كلّ ذي عائلة أو كلّ إنسان فرد، نجد الصلاح والفساد دائريين مع سُنَّة الاستشارة أو الاستقلال في الرأي[٢].

فإذا تقرّر هذا، علمنا أن سبب الفتور العام المبحوث فيه هو استحكام الاستبداد في الأمراء شيمة وتكبّراً، وترك أهل الحلّ والعقد والاحتساب جهلاً وجبانة؛ وهذا عند بعض الأقوام المسلمين كإيران، وأمّا الأكثر فقد أمسوا لا علماء هداة ولا سراة أباة، بل هم فوضى في الدِّين والدنيا. ولا بدع فيمَنْ يكونون على مثل هذا الحال، أنْ لا يُرجى لهم دواء إلاّ بعناية بعض الحكماء، الذين يُنجَبُون من أيّ طبقة كانت من الأمّة، وقد قضت سُنّة الله في خلقه أنْ لا تخلو أمّة من الحكماء.

فأجاب العالم النجديّ : إنّ شؤون السياسة في الصين تختلف كثيراً عنها في غيرها، وليس في الصين ملوك كثيرة وأمراء جبابرة كما عند غيرهم، فالحكماء في الصين آمنون؛ ومن جهة أخرى لم يزل الإسلام في الصين حنيفاً خفيفاً، لم يفسده التفنّن والتشديد، ومع ذلك، نرى الفتور شاملهم أيضاً.ونحن الآن نبحث عن السبب العامّ لهذا الداء، وليس كلّ السبب أحوال الأمراء والعلماء.

ثمّ قال : إنّي أجزم، ولا أقول أظنّ أو أخال، أنّ سبب الفتور الطارئ

---

(١) وفي ذلك مغالاة، إذْ لم تسلم ممارسات العباسيين من الاستبداد، كما أن بني أمية عمدوا إلى حصر أهل الحل والعقد في أسرتهم وحسب.

(٢) فيتّسع الصلاح باتّساع الشورى.

الملازم لجامعة هذا الدِّين هو هذا الدِّين الحاضر ذاته، ولا برهان أعظم من الملازمة، وما جاء الخفاء إلاّ من شدّة الوضوح؛ فهل بقي من شكّ بعد هذه الأبحاث التي سبقت في جمعيتنا، ولا سيمّا ما بيّنه المحقّق المدنيّ، في أنّ الدِّين الموجود الآن بالنظر إلى ما ندين به لا بالنظر إلى ما نقرّره، وباعتبار ما نفعله لا باعتبار ما نقوله، ليس هو الدِّين الذي تميّز به أسلافنا مئين من السنيين على العالمين؟ كلاّ، بل طرأت على الدِّين طوارئُ تغيير غيّرت نظامه.

وذلك أنّ الأخلاف تركوا أشياء من أحكامه : كإعداد القوة بالعلم والمالِ، والجهاد في الدِّين، والأمر بالمعروف، وإزالة المنكر، وإقامة الحدود، وإيتاء الزكاة؛ وغير ذلك ممّا أوضحه الإخوان الكرام، وزاد فيه المتأخّرون بدعاً وتقليداتٍ وخرافاتٍ ليست منه، كشيوع عبادة القبور، والتسليم لمدّعي علم الغيب والتصرف في المقدور.

وهذه الطوارئ من تغييراتٍ أو متروكاتٍ أو مزيداتٍ أكثرها يتعلق بأصول الدِّين، وبعضها بأصل الأصول أعني التوحيد[1]،وكفئ بأن يكون سبباً للفتور، وقد قال الله تعالى :﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ** ﴾[2]. (مرحى).

ولقائل أن يقول : إذا سلّمنا أنّ الدِّين تغيّر عمّا كان عليه، فما تأثير ذلك في الفتور العامّ الذي هو من شؤون الحياة الدنيا، وها نحن نجد أكثر الأمم الحيّة التي نغبطها قد طرأ على دينها التغييرُ والتبديلُ في الأصول والفروع، ولم يؤثر ذلك في الفتور؛ بل زعم كثير من حكماء تلك الأمم أنّهم ما أخذوا في الترقّي إلاّ بعد عزلهم شؤون الدِّين عن شؤون الحياة، وجعلهم الدِّين أمراً وجدانياً

(١) يبدوا واضحاً من حديث (العالم النجدي) أنه ينتمي إلى النزعة الوهابية، ومعلوم أن الوهابية وجدت المناخ الملائم لها في نجد.

(٢) الرعد : ١١.

محضاً لا علاقة له بشؤون الحياة الجارية على نواميس الطبيعة.

فالجواب على ذلك بأنّه كما يُطالب كلُّ إنسان بأن يكون صاحب ناموس، أي متّبعاً على وجه الاطراد في أخلاقه وأعماله قانوناً ما، موافقاً ولو في الأصول فقط لقانون الهيئة الاجتماعية التي هو منها، وإلا فيكون لا ناموس له، منفوراً منه مضطهداً؛ فكذلك كلّ قوم مكلّفون بأن يكون لهم ناموس عام بينهم، ملائم نوعاً لقوانين الأمم التي لها معهم علاقات جواريّة أو تجاريّة أو مناسبات سياسيّة، وإلاّ فيكونون قوماً متوحّشين لا خلاق لهم ولا نظام، منفوراً منهم مضطهدين.

وذلك أنّ الناموس الطبيعيّ في البشر هو ناموسٌ وحشيٌّ لا خير فيه، لأنّ مبانيه هي تنازع البقاء، وحفظ النوع، والتزاحم على الأسهل، والاعتماد على القوّة، وطلب الغايات، وحبّ الرئاسة، وحرص الادخار، ومجاراة الظروف، وعدم الثبات على حال، إلى غير ذلك. وكلّها قواعد شرّ ومجالب ضرّ، لا يلطّفها غير ناموس شريف واحد، مودوع في فطرة الإنسان، وهو : إذعانه الفكري للقوة الغالبة، أي معرفة الله بالإلهام الفطري، الذي هو إلهام النفس رشدها، وإلهامها فجورها وتقواها[1]. (مرحى).

ولا ريب في أنّ لهذه الفطرة الدينية في الإنسان علاقة عظمى في شؤون حياته، لأنّها أقوى وأفضل وازع يعدّل سائر نواميسه المضرّة، ويخفّف مرارة الحياة التي لا يسلم منها ابن أنثى، وذلك بما يؤمّله المؤمن من المجازاة والمكافأة، والانتقام منه وله. (مرحى).

وعند تدقيق حالة جميع الأديان والنحل تدقيقاً تاريخياً، توجد كلّها ناشئة عن أصل صحيح بسيط سماويّ، لاترى فيه عِوَجاً ولا أمتاً، يوجد أن كل دين كان في أوّليته باثّاً في أهله النظام والنشاط، وراقياً بهم إلى أوج السعادة في

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾. الشمس : ٨.

الحياة، إلى أن يطرأ عليه التأويل والتحريف والتفنّن والزيادات رجوعاً إلى أصلين اثنين : (الإشراك بالله، والتشديد في الدِّين). فيأخذ في الانحطاط في الأمّة، ولم يزل نازلاً بها إلى أن تبلغ حالة أقبح من الحالة الأصلية الهمجيّة، فتنتهي بالانقراض أو الاندماج في أمّة أخرى.

أو يتدارك الله تلك الأمّة بعناية بالغة، فيبعث لهم رسولاً يُجدّد دينهم، أو يخلق فيهم أنبياء أو حكماء يُصلحون لهم ما فسد من دينهم، كما حصل ذلك في الأمم الماضية : كعاد وثمود،وكالسِّريان وإسرائيل وكنعان وإسماعيل، وكما قال الله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (١).

وعند التأمل يوجد الشِّرك والتشديد كأنهما أمران طبيعيّان في الإنسان، يسعى وراءهما جهده بسائق النفس وقائد الشيطان؛ لأن النفس تميل إلى عبادة المشهود الحاضر أكثر من ميلها إلى عبادة المعقول الغائب، ومفطورة على التشديد رغبة في التميّز؛ والشيطان يُسعف النفس بالتسويل والتأويل، والتحويل والتضليل، إلى أن يفسد الدِّين. (مرحى).

ثم إذا دقّقنا حالة الإسلامية في القرون الخالية، نجدها عند أكثر أهل القبلة قد أصابها بعضُ ما أصاب قبلها غيرَها من الأديان؛ كما أخبرنا الله تعالى بقصصها في كتابه المبين، ووعدنا بوقوعنا فيه سيدُ المرسلين، وأرشدنا إلى طرائق التخلّص منه إنْ كنّا راشدين.

أعني بذلك ما طرأ على الإسلاميّة من التأويل والتحريف في بعض أصولها وكثير من فروعها، حتّى استولى عليها التشديد والتشويش، وتطرّق لها الشِّرك الخفيّ والجليّ من يمينها وشمالها، فأمست محتاجة إلى التجديد بتفريق

---

(١) التوبة : ١١٥.

الغَي من الرشد، وعندي أنّ هذه الحال أعمّ وأعظم سبب للفتور المبحوث فيه، قال الله تعالى :﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [1]. (مرحى).

وأنتم أيها السادة الأفاضل، في غناء عن إيضاح ذلك لكم بوجه التفضيل.

قال الأستاذ الرئيس : إنّي أرى أنّ البحث في أعراض الدّاء وأسبابه وجرائمه، وما هو الدواء، وكيف يُستعمل، قد نضج أو كاد؛ وقد قرّرنا في اجتماعنا الأوّل أنّنا سنبحث في : ماهي الإسلامية ؟ وما يتبع ذلك ممّا أدرجناه في برنامج المباحث، وإنّي أرى أنّ تقرير أخينا العالم النجدي نِعْم المدخل لنقل البحث، ولا سيّما إذا تكرّم بتفصيل ما أجمله؛ لأنّ مسائل منشأ الديانات، وسنن الله في مسراها، وأسباب طوارئ التغير والتحريف عليها، كلّها مسائل مهمّة تقتضي تدقيق النظر واستقصاء التحقيق، ويَحسن فيها الإطالة والاستيعاب. بناء عليه، نرجو من العالم النجديّ أنّ يتكرّم بإعادة ما قرّره بصورة مفصّلة في اجتماعنا الآتي، إذ اليوم قد آذن لنا الوقت بالانصراف.

---

(١) طه : ١٢٤.

الاجتماع الرابع

(الدِّين والإسلام والشِّرك والتصوف)

يوم السبت العشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ

انتظمت الجمعية في اليوم المذكور صباحاً، وقُرئ الضبط السابق حسب العادة، وأذن الأستاذ الرئيس بالشروع في البحث.

فقال العالم النجديّ : إنّي أستسمح السادة الإخوان عن إمْلالهم بمقدّمات وتعريفات هم أعلم منّي بها، بل هي عندهم في رتبة البديهيات، ولكنْ، لا بدّ منها للباحث رعاية لقاعدة التسلسل الفكريّ والترتيب القياسيّ، فأقول :

إنّ النوع الإنساني مفطور على الشعور بوجود قوّة غالبة عاقلة، لا تتكيّف، تتصرّف في الكائنات على نواميس منتظمة، فالعامّة يُعبِّرون عن هذه القوّة بلفظ (الطبيعة)؛ والراشدون من الناس مهتدون إلى أنّ لهذه القوّة مَنْ هو قائم بها، يعبِّرون عنه بلفظ (الله). ثمّ إن هذا الشعور يختلف قوّة وضعفاً، حسب ضعف النفس وقوّتها، ويختلف الناس في تصوّر وتوصيف ماهيّة هذه القوّة حسب مراتب الإدراك فيهم، أو حسبما يُصادفهم من التلقّي عن غيرهم، وذلك هو (الضلال والهداية). على أنّ الضلال غالب لأنّ موازين العقول البشريّة مهما كانت واسعة قويّة، لا تسع وتتحمّل وزن جبال الأزليّة والأبديّة، والامتثال، والأزمان، والإمكان، ونحو ذلك، ممّا لصعوبته سمّي العلم به علم ما وراء العقل؛ ولهذا، لا يقال في حقّ الضالّين أنّهم منحطّون عقلاً عن المهتدين، بل كثير منهم، في الماضين والحاضرين، أسمى عقلاً بمراتب كبيرة من المهتدين، ولكن صعوبة التصوُّر والحكم أوقعتهم في بحار من الأوهام وظلمات من الضَّلال، على أنّ البارئ تعالى قدّر اللطف ببعض عباده، وأراد إقامة الحجّة على الآخرين، فأوجد بعض أفراد من البشر يُميّزون في تصوُّر توصيف ماهيّة القوّة تمييزاً كبيراً، فصاروا هداة للناس هم (الأنبياء) عليهم الصلاة

والسلام.

ثمّ بعض الأنبياء الكرام قاموا فيمَنْ حولهم من الناس مقام المشرّعين؛ وأثبتوا، ببراهين خرق العادات على يدهم عند التحدّي أي عند طلب ذلك منهم[1]، أنّ مخاطبيهم مُكلَّفون من قبل الله تعالى باتباعهم وهم (المرسَلون) فآمن بهم مَنْ آمن، أي شهدوا لهم بالرسالة واتبعوهم في هديهم مستسلمين، فأخرجوهم من بحار الأوهام إلى ساحل الحكمة، ومن ظلمات الضّلال إلى نور الهداية، وهؤلاء (المؤمنون)، فهذه مقدّمة أولى. (مرحى).

ومن المؤمنين : نحن معاشر (المسلمين)؛ علمنا، بما علمنا، أنّ محمداً بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي أجلّ البشر حكمة وفضيلة، وصدّقناه بأنّه رسول الله للعالمين كافة، مُصَحِّحَاً ملّة إبراهيم، داعياً لعبادة الله وحده، هادياً إلى ما يكلف الله له عباده من أمر ونهي، كافلين لكل خير في الحياة وبعد الممات.

ومن أمّهات قواعد ديننا، أنْ نعتقد : أنّ محمداً عليه السلام بلَّغ رسالته، لم يترك، ولم يكتم منها شيئاً، وأنّه أتمّ وظيفته بما جاء به من كتاب الله، وبما قاله، أو فعله، أو أقرّه على سبيل التشريع إكمالاً لدين الله.

ومن أهمّ قواعد ديننا أيضاً : أنّه محظور علينا أنْ نزيدَ على ما بلّغنا إياه رسولُ الله، أو ننقصَ منه أو نتصرَّفَ فيه بعقولنا، بل مُتحتّم علينا أنّ نتبع ما جاء به الصريحُ المحكم من القرآن، والواضح الثابت ممّا قاله الرسول، أو فعله، أو أقرّه، وما أجمع عليه الصحابة، إن أدركنا حكمة ذلك التشريع، أو لم نقدر على إدراكها، وأن نترك ما يتشابه علينا من القرآن، فنقول فيه : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ**

(١) هكذا فسّر التحدي هنا. والمعروف في علم الكلام أن التحدي طلب المعارضة للمعجزة بأن يقول الرسول : هذه آية صدقي، فاءتوا بمثلها، أو فآمنوا. (ط. م).

عِندِ رَبِّنَا ﴾ [1].

ومن قواعد ديننا كذلك : أن نكون مختارين في باقي شؤوننا الحيويّة، نتصرَّف فيها كما نشاء، مع رعاية القواعد العموميّة التي شرّعها، أو ندب إليها الرسول، وتقتضيها الحكمة أو الفضيلة، كعدم الإضرار بالنفس أو الغير، والرأفة على الضعيف، والسعي وراء العلم النافع، والكسب بتبادل الأعمال، والاعتدال في الأمور، والإنصاف في المعاملات، والعدل في الحكم، والوفاء بالعهد، إلى غير ذلك من القواعد الشريفة العامّة. وهذه مقدمة ثانية.

ويتفرَّع عن هاتين المقدّمتين بعض مسائل مهمّة، ينبغي أيضاً إفرادها في البحث تباعاً وإشباعاً.

منها أنّ أصل الإيمان بوجود الصانع أمر فطري في البشر كما تقدّم، فلا يحتاجون فيه إلى الرسل، وإنّما حاجتهم إليهم في الاهتداء إلى كيفيّة الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتنزيه.

وهؤلاء قوم نوح، وقوم إبراهيم، وجاهلية العرب، واليهود والنّصارى، ومجوس فارس، ووثنيّو الهند والصين، ومتوحّشو إفريقيا وأميركا وسائر البشر، كلّهم كانوا، ولا زالوا، أهل فطرة دينيّة يعرفون الله، وليس فيهم مَنْ ينكره كليّاً كما قال عزّ من قال :﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[2]. وبل البشر، يغلب عليهم الإشراك بالله، فيخصّصونه تعالى شأنه بتدبير الأمور الكلية والشؤون العظام كالخالقيّة[3] وتقسيم الأرزاق والآجال، كأنّهم يجلّونه عن تدبير الأمور الجزئيّة، ويتوهّمون أنّ تحت أمره مقرّبين وأعواناً ووسائط من ملائكة

(١) آل عمران : ٧. في الأصل : (آمنا به، كل من عندي ربنا، وما يعلم تأويله إلا الله) وهو خطأ وقع فيه (محمد عمارة) أيضاً، ولم يتنبّه إلى تصويبه. يُنظر الأعمال الكاملة، ط : ١٩٧٠، ص ١٨٨، وأيضاً ط : ٧٥، ص ٢٧٦. ولأهمية النص القرآني اقتضى التنبيه.

(٢) الإسراء : ٤٤.

(٣) الخالقية : فعل الخلق.

وجنّ وأرواح، وبشر وحيوانات، وشجر وحجر؛ وأنّه جعل لهم وللنواميس الكونيّة من أفلاك وطبائع، وللحالات النفسيّة من سحر وتوجّه فكر،دخلاً وتأثيراً في تدبير الأمور الجزئيّة إيقاعاً أو منعاً، وأعطاهم شيئاً من القوّة القدسية وعلم الغيب.

وتوهّمهم هذا ناشئ عن قياسهم ملكوت ذي الجبروت على إدارة الملوك في اختصاصهم بتدبير مهمّات الأمور، وتفويضهم ما دون ذلك للعمال الأعوان، واستعانتهم بالأخصّاء والخدَّام، وربطهم مجرى الأعمال بالقوانين والنظامات. (مرحى).

ومن تَتَبُّعِ تواريخ الأمم الغابرة وأفكار الأمم الحاضرة، لا يستريب فيما قرّرناه من أنّ آفة البشر الشِّرك الذي أوضحناه فقط، وكفى بالقرآن برهاناً، فقد قال تعالى :﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾[1]. وقال تعالى :﴿ **بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾[3]. وقال تعالى :﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾[4]. إلى غير ذلك من الآيات البيّنات المُثْبِتَة أنّ زيغ البشر هو الإشراك من بعض الوجوه فقط، لا الإنكار ولا الإشراك المطلق، لأنّ العقل البشري مهما تسفَّل[5] لا ينزل درجة الشِّرك المطلق.

بناء عليه، جرت عادة الله تعالى ـ جلّت حكمته ـ أنْ يبعث الرُّسل، يُنقِذون النّاسَ من ضلالة الشِّرك، وينتشلونهم من وهدة شرّه في الحياة الدنيا والآخرة،

---

(١) لقمان :٢٥، والزمر :٣٨.

(٢) الأنعام :٤١.

(٣) الجن :١٨.

(٤) البقرة : ٢٥٥.

(٥) تدنى في تفكيره.

ويهدونهم إلى رأس الحكمة أي (معرفة الله) حقّ معرفته لكي يعبدوه وحده. وبذلك، تتم حجته عليهم، ويملكون حرّيّتهم التي تحميهم من أن يكونوا أرقّاء أذلاّء لألف شيء من أرواح وأجسام وأوهام، فثمرة الإيمان بأنْ (لا إله إلاّ الله) عتق العقول من الإسارة[1]، وثمرة الإذعان بأنَّ (محمداً رسوا الله) اتّباعه حقّاً في شريعته التي تحول بين المسلم وبين نزوعه إلى الشِّرك، وتنيله سعادة الدَّارين.

ثمّ إنّ الإنسان، قُتل ما أكفره، وقبح ما أجهلُه[2]، لا يهتدي إلى التوحيد إلاّ بجهد عظيم، ويندفع، أو ينقاد بشعرة إلى الشِّرك، فيتلبس به على مراتب ودرجات في اعتقاد وجود قوّة قدسية تُرجى وتُتقى في غير الله،أو تبعاً لله، ذاهلاً عن أنه لو كان في الأرض أو في السماء آلهة غير الله، أي أصحاب قوّة في شيء ولو في تحريك ذرة رمل، لفسدتا.

فالناس سريعو الإعراض عن ذكر الله، إلى ذكر مَنْ يتوهّمون فيهم أنهم شركاء وأنداد لله، فيعبدونهم، أي يُعظِّمونهم، ويخضعون لهم، ويدعونهم، ويستمدُّون منهم، ويرفعون حاجاتهم إليهم، ويرجون عند ذكر أسمائهم الخير، ويتوقّعون من سخطهم الشرّ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[3]، والله صادق الوعد، نافذ الحكم. وفي الواقع، وبالضرورة والطبع، لا معيشة أشدّ ضنكاً من معيشة المشركين الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بأنّهم لأنفسهم ظالمون، فقال :﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ

---

(١) الأسر والعبودية والقيد.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَـٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾. عبس : ١٧.

(٣) طه : ١٢٤.

﴿ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾[1]،وقال : ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2]. وهذا زيد بن عمرو بن نفيل[3]، الحكيم الجاهلي، ضجر من الشِّرك فقال من أبيات له :

أَرَبّاً واحداً أم ألفُ ربٍّ أَدينُ إذا تقسَّمت الأمُور ؟ [4]

تركتُ اللاتَ والعُزَّى جميعاً كذلكَ يفعلُ الرَّجُلُ الخبيرُ

ومثل الحياة الأدبية في الموحِّدين والمشركين : كبلد سلطانُه حكيم قاهر، بابه مفتوح لكل مراجع، ويُنفّذ قانوناً واحداً، ولا يصغي لساع ولا لشفيع، ولا يشاركه في حكمه أحد. وبلد آخر سلطانه جبان مغلوب على أمره، نال منه مقربوه المتعاكسون وأعوانه المتشاكسون مراتب من الكرامة ونفوذ الكلمة عنده، وأحرزوا سلطة استقضائه ما يشاؤون من حوائج خير لذويهم، أو دفع شرّ عن أتباعهم، فهل يستوي أهل البلدين ؟ كلا، لا تستوي السعادة والشقاء، ولله المثل الأعلى . فإنّه جلَّتْ عظمته . لا يرضى أن يشاركه في ملكه أحد، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[5]. ولا شكّ أنّ الشِّرك من أكبر الفجور وعمل السوء،

---

(١) لقمان : ١٣.

(٢) الكهف : ٤٩.

(٣) زيد بن عمرو بن نفيل : هو ابن عم عمر بن الخطاب (رض)، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

(٤) البيتان من البحر الوافر. ورواية البيت الثاني في كتب الأدب على الشكل الآتي :

عزلتُ اللاتَ والعُزَّى جميعاً كذلكَ يفعلُ الجَلِدُ الصبورُ

(٥) النساء : ١١٦.

وقد قال تعالى :﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [1]. وقال تعالى :﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[2]. وما الجحيم والمجازاة خاصّان بالآخرة، بل يشملان الحياة الدنيا والآخرة.

ثمّ أقول : فإذا أراد المسلم أن يعلم ما هو الشِّرك المشؤوم عند الله، بمقتضى ما عرَّفه إيّاه في كتابه المبين، يلزم أن يغرف ما هو مدلول ألفاظ : (إيمان، وإسلام، وعبادة، وتوحيد، وشرك) في اللغة العربية التي هي لغة القرآن، حيث قال تعالى :﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [3]، وقال تعالى :﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[4]. فإذا علم المسلم معنى هذه الألفاظ، وأراد أن يمتثل أمر ربه بأن لا يتعدى حدود الله، يتعيّن حينئذ عنده ما هو مراد الله بالشِّرك الذي لا يرضاه، الذي أشفق، وأخاف علينا نبيّنا عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيه، فقال (إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشِّرك)[5].

ومَنْ يبحث عمّا ذُكر من الألفاظ، يجد أنّ أهل اللغة مجمعون على أنّ المدلول للفظ (الإيمان) الطاعة والتسليم بدون اعتراض[6]، وللفظة (العبادة)

---

(١) الانفطار : ١٤.

(٢) النساء : ١٢٣.

(٣) الزخرف : ٣.

(٤) إبراهيم : ٤.

(٥) تُعلِّق المنار في م.ط : (الحديث رواه ابن ماجه بن شداد بن أوس، ولفظه : (إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ على أمتي الإشراكُ بالله، أما أنني لست أقول تعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً، ولكنْ أعمالاً لغير الله، وشهوة خفية) رواه أحمد والبيهقي بلفظ آخر. أ. هـ. الحديث : ورد في سنن ابن ماجه /باب الزهد، باب الحدود، وابن حنبل : ٢٢/١، ٤٤-٧/٣، ٠٠٣٠.
والترمذي : الحدود، الفتن، الزهد.

(٦) (ما فسّر به الإيمان. هو معنى (الإسلام) وعدم ذكر هذا اللفظ يدل على أنه سقط في الأصل تفسير الإيمان، وهو التصديق القطعي بلا تردُّد، وسقط بعده لفظ الإسلام فصار تفسيره للإيمان.) (ط.م).

التذلّل والخضوع[١]؛ وللفظة (التوحيد) العلم بأنّ الشيء واحد، ومضافة إلى الله نفي الأنداد والأشباه عنه. ومن هذه المادة[٢] الواحد والأحد، صفتان لله، معناهما المنفرد الذي لا نظير له أو ليس معه غيره. وأصل معنى مادة الشِّرك لغة الخلط، واستعمالاً اسم الله للإشراك بالله. في اصطلاح المؤمنين الإشراك بالله في (ذاته) أو (ملكه) أو (صفاته).

ثمّ إذا وزَّعنا اعتقاداتِ مَنْ وصفهم الله تعالى بالشِّرك في كتابه العزيز على هذه الأنواع الثلاثة، نجد مظنة (الإشراك في الذات) قائمة في اعتقاد الحلول، وهو أنه، تعالى شأنه عما يصفون، أفنى، أو يُفني بعض الأشخاص في ذاته، كقول النصارى في عيسى ومريم عليها السلام، وقول علمائنا في وحدة الوجود، وهذا النوع من الشِّرك عسر التصوّر والتفريق حتّى عند أساطين أهله، ولذلك، يُسمّيه النصارى حقيقة سرّيّة، ويُسمّيه علماؤنا (حقيقة ذوقية)[٣]. (مرحى).

أمّا مظنّات (الإشراك في الملك) : فيدخل تحتها اعتقاد اختصاص بعض المخلوقين بتدبير بعض الشؤون الكونية، كاعتقاد اليهود في ملك الموت، وكاعتقاد بعض الناس تصرّف غير الله في شيء من شؤون الكون، كقول مَنْ يقول : فلانٌ عليه دركُ البرّ أو البحر، أو الشام أو مصر[٤].

وأمّا مظنّات (الإشراك في الصفات) : فهي الاعتقاد في مخلوق أنّه مُتَّصف بشيء من صفات الكمال من المرتبة العليا، التي لا تنبغي إلاّ لواجب الوجود جَلَّتْ شؤونه.

وهذا النوع الثالث أكثر شيوعاً من النوعين الأولين لثلاثة أسباب :

---

(١) (فسَّر العبادة بالمشهور في كتب اللغة وغيرها، ولكنَّ استعمال العرب يدلَّ على أنهم لا يُسمّون كل تذلُّل وخضوع عبادة، وإنما يخصّون العبادة بالخضوع الناشئ عن الاعتقاد بسلطة غيبية وراء الأسباب العادية)، (ط.م).

(٢) يقصد المادة اللغوية المعجمية.

(٣) الإدراك الحدسي.

(٤) أي اقتسام الأولياء التصرف في شؤون الكون.

الأول : كون غير الأحديّة والخالقية، ونحوها من الصفات الخاصة بالله تعالى، صفات مشتركة يعسرُ على غير العلماء الراشدين تمييز الحدّ الفارق بين مراتبها في المخلوقين، وبين مراتبها المختصّة به تعالى.

الثاني : ما نطقت به الشرائع من تفويض الله ـ تعالى ـ بعض الأمور إلى الملائكة، واستجابة دعاء المقرّبين، وإكرامه ـ تعالى ـ بعض عباده الصالحين، ووعده بقبول شفاعة مَنْ يأذن لهم بها يوم القيامة، فالتبس الأمر على الجهلاء التفريق بين هذه وبين التصرف.

الثالث : هو كون التعظيم مدرجة طبيعيّة للإغراق والتغالي، ومطيّة سريعة السير لا يلتوي عنانها عن تجاوز الحدود إلا برغم الطبع وتوفيق الله، ولذلك، قاسى الرسُلُ أُولو العزم الشدائدَ في كبح جماح الناس عن إشراكهم معظّميهم مع الله في مرتبة بعض صفاته العليا، وركبوا متون الصعاب والعزائم في إرجاع الناس إلى حدّ الاعتدال؛ وشدّدوا النكير على إطراء الناس إياهم؛ وحذّروا، وأنذروا من مقاربة مظانّ الشِّرك، حتّى الخفي الذي يدبُّ دبيب النمل.

ومن المعلوم عندنا أنّ نبينا ـ عليه أفضل السلام ـ لبث عشرة أعوام يقاسي الأهوال في دعوته الناس إلى التوحيد فقط، وسمّى أمّته الموحّدين، وأنزل الله القرآن رُبْعَهُ في التوحيد؛ وتأسَّس دين الله على كلمة (لا إله إلا الله)، وجُعلت أفضل الذكر لحكمة أنّ المسلم مهما رسخ في الإيمان، يبقى محتاجاً إلى نفي الشِّرك عن فكره احتياجاً مستمراً، وذلك لما قلنا من شدّة ميل الإنسان إلى الشِّرك، ولشدّة التباسه عليه، ولشدّة قربه منه طبعاً، فنسأل الله تعالى الحماية. (مرحى).

وما هذا خاصّ بالمسلمين، بل مضت الأمم كلها، لم يكد يفارقها رُسُلُهَا الكرام إلاّ ووقعت في الشِّرك، كقوم موسى عليه السلام فارقهم أربعين ليلة،

فاتخذوا العجل[١]. (مرحى).

ثمّ إذا انقلبنا في البحث إلى ما هو الشِّرك في نظر القرآن وأهله لنتّقيه، نجد أن الله ـ تعالى ـ قال في حقّ اليهود والنصارى :﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٢]. مع أنّه لم يوجد من قبل ولا من بعد من الأحبار والرهبان من ادّعى المماثلة، ونازع الله الخالقية أو الإحياء أو الإماتة كما يقتضيه انحصار معنى الربوبيّة عند العامّة من الإسلام، حسبما تلقّوه من مروّجي الشِّرك بالتأويل والإيهام، بل الأحبار والرهبان إنّما شاركوا الله ـ تعالى ـ في التشريع المقدس فقط، فقالوا : هذا حلال وهذا حرام، فَقَبِلَ منهم أتباعهم ذلك، فوصفهم الله ـ تعالى ـ أنّهم اتخذوا أرباباً من دون الله.

ونجد أيضاً أنّ الله تعالى سمّى قريشاً مشركين، مع أنّه وصفهم بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٣] أي يُخصّصون الخالقية بالله، ووَصَفَ توسّلهم بالأصنام إلى الله بالعبادة، فحكى عنهم قولهم : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾[٤]؛ والمعظّمة من المسلمين يظنّون أنّ هذه الدرجة التي هي التوسّل ليست من العبادة ولا من الشِّرك؛ ويُسمّون المتوسَّل بهم وسائط، ويقولون إنّه لابد من الواسطة بين العبد والربّ، وأنّ الواسطة لا تُنكر.

ويُعلم من ذلك أنّ مشركي قريش ما عبدوا أصنامهم لذاتها، ولا لاعتقادهم فيها الخالقية والتدبير، بل اتّخذوها قِبْلة يعظّمونها بندائها والسجود أمامها، أو

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى :﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ الأعراف:١٤٨.

(٢) التوبة :٣١.

(٣) لقمان : ٢٥،الزمر : ٣٨.

(٤) الزمر : ٣.

ذبح القرابين عندها، أو النذر لها على أنها تماثيل رجال صالحين كان لهم قرب من الله ـ تعالى ـ وشفاعة عنده، فيحبّون هذه الأعمال الاحترامية منهم، فينفعونهم بشفاء مريض أو إغناء فقير وغير ذلك، وإذا حلفوا بأسمائهم كذباً، أو أخلّوا في احترام تماثيلهم يغضبون، فيضرونهم في أنفسهم وأولادهم وأموالهم.

ونجد أن الله ـ تعالى ـ قال :﴿ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾[1]، وأصل معنى الدعاء النداء، ودعا الله : ابتهل إليه بالتوسُّل، واستعان به، والدليل الكاشف لهذا المعنى قوله تعالى :﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ ﴾[2]؛ وكذلك أنزل الاستعانة به مقرونة بعبادته في قوله جلّت كلمته :﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[3].

وبما ذكر وغيره من الآيات البينات جعل الله هذه الأعمال لقريش شِركاً به حتّى صرّح النبي صلى الله عليه وسلم في الحلف بغير الله أنّه شِركٌ فقال: (مَنْ حلف بغير الله فقد أشرك)[4]. وجعل الله القربان لغيره والإهلال والذبح على الأنصاب شِركاً، وحَرَّمَ تسييب السّوائب[5] والبحائر[6] لما فيها من ذلك المعنى. ومكان المشركون يحجّون لغير بيت الله بقصد زيارة محلاّت لأصنامهم، فنهى النبيّ عليه الصلاة والسلام أمّته على مثل ذلك، فقال : (لا تُشَدُّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)[7] بناء عليه، لا ريب أنّ هذه الأعمال وأمثالها شِركٌ، أو مدرجة

---

(١) الجن : ١٨.

(٢) الأنعام : ٤١.

(٣) الفاتحة : ٥.

(٤) كذا في الطبعات كلها، وأما في ط.م : (مَنْ حلف بغير الله فقد كفر وأشرك). وتعلّق المنار على الحديث بالقول: (الحديث رواه الترمذي، وحَسَّنَهُ وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال صحيح على شرطهما) ا. هـ.

(٥) السوائب : النوق التي تُترك لنذر، أو لأنها ولدت عشر إناث، فَتُهَمل.

(٦) البحائر : النوق إذا شقت أذنها، وتكون آخر إناث السائبة.

(٧) حاشية ط.م (رواه أحمد والشيخان عن أبي هريرة، وروياه عن أبي سعيد. رواه أصحاب السنن وغيرهم).أ.هـ.

للشِّرك. (مرحى).

فليُنظر الآن، هل فشا في الإسلام شيء من هذه الأعمال وأشباهها في الصورة أو الحكم ؟ ومَنْ لا تأخذه في الله لومة لائم، لا يرى بدّاً من التصريح بأنّ حالة السواد الأعظم من أهل القبلة، في غير جزيرة العرب[١]، تشبه حالة المشركين من كلّ الوجوه، وأنّ الدِّين عندهم عاد غريباً كما بدأ كشأن غيرهم من الأمم.

فمنهم الذين استبدلوا الأصنام بالقبور، فبنوا عليها المساجد والمشاهد، وأسرجوا لها، وأرخَوا عليها الستور، يطوفون حولها مقبّلين مستلمين أركانها، ويهتفون بأسماء سكانها في الشدائد، ويذبحون عندها القرابين يُهلّ بها عمداً لغير الله، وينذرون لها النذور، ويشدّون للحج إليها الرحال، ويعلقون بسكّانها الآمال، يستنزلون الرحمة بذكرهم وعند قبورهم، ويرجونهم . بإلحاح وخضوع ومراقبة وخشوع . أنْ يتوسطوا لهم في قضاء الحاجات وقبول الدعوات، وكلّ ذلك من الحبّ والتعظيم لغير الله، والخوف والرجاء من سواه.

ومنهم مَن استعاضوا ألواح التماثيل عند النصارى والمشركين بألواح فيها أسماء معظّميهم، مصدّرةً بالنداء تبركاً وذكراً ودعاءً، يُعلّقونها على الجدران في بيوتهم، بل في مساجدهم أيضاً[٢] ويتوّجون بها الأعلام من نحو: يا علي[٣]، ياشاذلي[٤]، يادسوقي[١]، يارفاعي[٢]، يابهاء الدِّين النقشي[٣]، يا جلال

---

(١) لوجود الحركة الوهابية فيها، والتي تُحَرِّم التبرك بالأولياء.

(٢) كجوامع القسطنطينية وبلاد الأتراك. (ك). وتُعلِّق ط. م قائلة : (كذا في هامش الأصل، ومثل بلاد الترك أكثر بلاد المسلمين) ا.هـ. وهذا دليل على أن ط.م تلت ط.ق.

(٣) ابن عم النبي. عاش في كنفه. تزوج فاطمة بنت الرسول، وأنجب منها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم. رابع الخلفاء الراشدين. طعنه أحد الخوارج وهو يهم بصلاة الفجر، فقضى عام ٦٦١، عن ثلاث وستين سنة، ودُفن بالكوفة، وإليه ينتسب الشيعة والعلويون.

(٤) أبو الحسن الشاذلي (١١٩٦–١٢٥٨) صوفي مشهور. ومؤسس طريقة صوفية تُعرف بالشاذلية. حَجَّ مرات كثيرة، ومات في الحجة الأخيرة وهو يجتاز صحراء مصر.

الرومي[٤]، يا بكتاش ولي[٥].

ومنهم ناس يجتمعون لأجل العبادة بذكر الله، ذكراً مشوباً بإنشاد المدائح والمغالاة لشعراء المتأخرين، التي أهون ما فيها الإطراء الذي نهانا عنه النبيّ عليه الصلاة والسلام حتّى لنفسه الشريفة فقال : (لا تطروني كما أطرت اليهود والنصارى أنبياءهم)[٦]. وبإنشاد مقامات شيوخية، تغالوا فيها بالاستغاثة بشيوخهم والاستمداد منهم بصيغ لو سمعها مشركو قريش لكفّروهم، لأنّ أبلغ صيغة تلبية كانت لمشركي قريش قولهم : (لبّيك، اللّهم لبيك لا شريك غير شريك واحد، تملكه وما ملك)[٧]، وهذه أخفُّ شركاً من المقامات الشيوخية التي يهدرون بها إنشاداً بأصوات عالية مجتمعة، وقلوب محترقة خاشعة كقولهم :

عبد القادر يا كيلاني   يا ذا الفضلِ والإحسان[٨]

صرتُ في خطب شديد   من إحسانك لا تنساني

---

(١) دسوقي : إبراهيم بن عبد المجيد الدسوقي (١٢٣٥-١٢٧٧) من دسوق بمصر. بها قبره. ويُقام له مولد كبير. صوفي، وّليّ، تُنسب له كرامات وخوارق، صاحب الطريقة الدسوقية. له كثير من الكتب.

(٢) رفاعي : أحمد بن علي رفاعي (١١٠٦-١١٨٣) نشأ في البصرة، وأسّس الطريقة الرفاعية في الطرق. اشتهر الرفاعية بالقبض على الثعابين كالحواة. ومن عقائدهم عدم إيذاء الحيوان أو قتله.

(٣) بهاء الدِّين النقشي : مؤسس الطريقة النقشبندية في فارس، وتمتاز بطريقة خاصة في الذكر، ولها فروع في الصين وتركستان وقازان وتركيا.

(٤) محمد بن محمد بن حسين الخطيبي البكري المعروف بمولانا جلال الدِّين (١٢٠٧-١٢٧٣) أكبر شعراء الصوفية الإيرانيين، تُرجمت أشعاره إلى لغات مختلفة، له (ديوان شمس تبريزي) و(المثنوي) و(وفيه ما فيه). له مريدون بإيران، والهند وآسيا الصغرى، ومنهم تتألف المولوية.

(٥) البكتاشية: فرقة صوفية تركية تُنسب إلى السيد محمد بن إبراهيم آتا، الشهير بالحاج بكتاش (-١٣٣٦)، له (مقالات) يتبع فيه فكرة الاثني عشرية. اتصلت البكتاشية بفرقة الإنكشارية فسَمّوا أنفسهم بها. تسلّطت البكتاشية على الإنكشارية إلى أن قضى السلطان محمود الثاني على هذه الطريقة (١٨٢٦).

(٦) لفظ الحديث: لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله. رواه البخاري، والترمذي في الشمايل ولا أذكر غيرهما الآن) (ط.م)أ.هـ. والحديث رواه البخاري : الأنبياء، الدارمي : الرقاق، ابن حنبل : ٣/١، ٢٤، ٤٧، ٥٥.

(٧) يُنقل عنهم (إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) (ط.م) أ. هـ.

(٨) نوع من التوسلات الدينية الشعبية، بعضها موزون وبعضها الآخر اختلّ وزنه.

وقولهم :

ألآهـــــم[1] يارفـــــاعي لـــــي أنـــا المحســوب أنـــا المنســوب[2]

رفـــــــاعي لا تضـــــيعني أنـــا المحســوب أنـــا المنســـوب

إلى نحو ذلك مما لا يُشَكُّ فيه شكّ أنه من صريح الإشراك الذي يأباه الدِّين الحنيف.

ومنهم جماعة لم يرضوا بالشرع المبين، فابتدعوا أحكاماً في الدِّين سمّوها علم الباطن، أو علم الحقيقة، أو علم التصوف. علماً لم يعرف شيئاً من الصحابة والتابعون وأهل القرون الأولى المشهود لهم بالفضل في الدِّين. علماً نزعوا مسائله من تأويلات المتشابه من القرآن، ومع أنّ الله ـ تعالى ـ أمرنا أن نقول في المتشابه منه ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ﴾[3]، وقال تعالى :﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[5]. وقال عز شأنه في حقّهم :﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ ﴾[4]. وقال تعالى :﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾[5]. وقال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾[6] وقال تعالى:﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾[7].

---

(١) في (ط.ق) و (ط.ج) "اللهم يا فاعي إني...." عدا (ط.م).

(٢) و (٢) آل عمران: ٧.

(٣) و (٢) آل عمران :٧ .

(٤) الأنعام : ٦٨.

(٥) الإسراء : ٣٦.

(٦) هود : ١١٣.

(٧) النور : ٦٣.

وانتزع هؤلاء المداجون أيضاً بعض تلك المزيدات من مشكلات الأحاديث والآثار، وممّا جاء عن النبيّ عليه السلام من قوله على سبيل الحكاية، أو عمل على سبيل العادة، أي لم يكن ذلك منه عليه السلام على سبيل التشريع. أو من الأحاديث التي وضعها أساطينها إغراباً في الدِّين لأجل جذب القلوب، كما ورد في الحديث ومعناه : (يُفْتَحُ بالقرآن على الناس حتى يقرأه المرأة والصبي والرجل، فيقول الرجل قد قرأتُ القرآن فلم أُتبع، لأقومنّ به فيهم لعلي أُتبع، فيقوم فيهم فلا يُتبَع؛ فيقول قد قرأتُ القرآن، وقمتُ به فلم أُتبع، لأحتظرنّ في بيتي مسجداً لعلّي أُتبع، فيحتظر في بيته مسجداً فلا يُتبع، فيقول قد قرأتُ القرآن، وقمتُ به، واحتظرتُ في بيتي مسجداً فلم أُتبع، والله لآتينَّهم بحديثٍ لا يجدونه في كتاب الله، ولم يسمعوه عن رسول الله لعلي أُتبع)[1].

ومنهم فئة اخترعوا عباداتٍ وقرباتٍ لم يأت بها الإسلام، ولا عَهْدَ له بها إلى أواخر القرن الرابع؛ فكأن الله ـ تعالى ـ ترك لنا ديننا ناقصاً فهم أكملوه، أو كأن الله ـ جلّ شأنّه ـ لم ينزّل يوم حجّة الوداع :﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2].

أو كأنّ النبي عليه السلام لم يتمّم ـ كما يزعمون ـ تبليغَ رسالته، فهم أتمّوها لنا، أو كتم شيئاً من الدِّين وأسرّ به إلى بعض أصحابه وهم أبو بكر وعلي وبلال رضي الله عنهم، وهؤلاء أسرّوا به إلى غيرهم؛ وهكذا تسلسل حتّى وصل إليهم، فأفشوه لمن أرادوا من المؤمنين، تعالى الله ورسوله عما يأفكون. وهل ليس من الكفر بإجماع الأمّة اعتقاد أنّ النبي عليه السلام نقّص التبليغ، أو كتمَ، أو أسرَّ شيئاً من الدِّين. (مرحى).

(١) كذا في الأصل، والصواب : (يُفتَحُ القرآنُ على الناس ...) سنن الدرامي : المقدمة.

(٢) المائدة : ٣.

ومنهم جماعة اتخذوا دين الله لهواً ولعباً، فجعلوا منه التغنّي والرقص، ونقر الدفوف ودقّ الطبول، ولبس الأخضر والأحمر، واللعب بالنار والسلاح والعقارب والحيّات، يخدعون بذلك البسطاء، ويسترهبون الحمقاء.

ومنهم قوم يعتبرون البلادة سلاحاً، والخمول خيراً، والخبل خشوعاً، والصرع وصولاً، والهذيان عرفاناً، والجنون منتهى المراتب السبع للكمال.

ومنهم خلفاء كهنة العرب، يدّعون علم الغيب بالاستخراج من الجفر والرمل وأحكام النجوم، أو الروحانّي الزايرجة[١]، أو الأبجدات، أو بالنظر في الماء أو السماء والودع، أو باستخدام الجنّ والمردة؛ إلى غير ذلك من صنائع التدليس والإيهام والخزعبلات. وليس العجب انتشار ذلك بين العامّة الذين هم كالأنعام في كلّ الأمم والأقوام، بل العجب دخول بعضه على كثير من الخواصّ وقليل من العلماء، كأنّه من غريز الكمالات في دين الإسلام. (مرحى).

فهذه[٢] حالات السَّواد الأعظم من الأمّة، وكلّها إمّا شِرْكٌ صراح، أو مظنّات إشراك، حكمها في الحكمة الدينية حكم الشِّرك بلا إشكال، وما جرَّ الأمّة إلى هذه الحالات الجاهلية، وبالتعبير الأصحّ رجع بها إلى الشِّرك الأوّل، إلاّ الميل الطبيعيّ للشِّرك كما سبق بيانه، مع قلّة علماء الدِّين، وتهاون الموجودين في الهدى والإرشاد.

نعم رَدُّ العامّة عن ميلها أمرٌ غير هيّن، وقد شبّه النبيّ عليه السلام معاناته الناس فيه بقوله : (مثلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن،

---

(١) الزايرجة : من الفارسية : علم أحكام مواقع النجوم، جدول اكتشاف المستقبل، وذكره ابن خلدون كعلم كشف المخبأ، وذكرها الحاج خليفة في (الكشف).

(٢) في الأصل : أفهذه.

ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها)[١].

وقد قال الله ـ تعالى ـ في العلماء المتهاونين عن الإرشاد كيلا يقابلوا الناس بما لا يهوون :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾[٢] وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي : نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وآكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)[٣].

بناء عليه، فالتبعة كلّ التبعة على العلماء الراشدين، ولم يزل ـ والحمد لله ـ في القوس منزع، ولم يستغرقنا بعد انتزاع العلماء بالكليّة كما أنذرنا به النبي عليه السلام في قوله : (إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس، ولكن يقبض العلماء، حتّى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلاء، فَسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا)[٤]، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ثم قال[٥] : ولننتقل من بحث الشِّرك والإعراض عن ذكر الله إلى بيان أسباب التشديد في الدِّين، وحالة التشويش الواقع فيه المسلمون، فأقول :

---

(١) تعليق ط.م : (الحديث رواه أحمد ومسلم عن جابر بلفظ : " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها، وهو يذهبُّهن عنها. وأنا آخذ بحجزكم من النار، وأنتم تفلّتون من يدي " أ.هـ) رواه مسلم في كتاب الفضائل، والترمذي في كتاب الأدب، يُنظر ـ أيضاً ـ : البخاري : الرقاق.

(٢) البقرة : ١٧٤.

(٣) تعليق ط.م : (رواه الترمذي، وقال : حسن غريب) أ. هـ. رواه الترمذي وأحمد بن حنبل في مسنده.

(٤) تعليق ط.م : (رواه الشيخان وأصحاب السنن، ماعدا أبو داود، عن عبد الله بن عمرو، ولفظ مسلم : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس، ولكنْ يقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فَسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا " وفي البخاري : " من العباد " بدل " من الناس "، وقال : " حتى إذا لم يبق عالم "كما هنا) أ.هـ. والحديث رواه الستة.

(٥) يقصد (العالم النجدي) الذي بدأ الحديث في بداية الاجتماع الرابع.

قد وُجد فينا علماء كان أحدهم يطلّع في الكتاب أو السُّنَّة على أمر أو نهي فيتلقّاه حسب فهمه، ثمّ يعدّي الحكم[1] إلى أجزاء المأمور به أو المنهيّ عنه، أو إلى دواعيه، أو إلى ما يشاكله ولو من بعض الوجوه، وذلك رغبة منه في أنْ يلتمس لكلّ أمر حكماً شرعياً، فتختلط الأمور في فكره، وتشبَّه عليه الأحكام، ولا سيّما من تعارض الروايات، فيلتزم الأشدَّ، ويأخذ بالأحوط، ويجعله شرعاً، ومنهم مَنْ توسَّع فصار يحمل كلّ ما فعله، أو قاله الرسول عليه السلام على التشريع والحقّ؛ كما سبق لنا ذكره أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال وفعل أشياء كثيرة على سبيل الاختصاص أو الحكاية أو العادة. ومنهم مَنْ تورّع فصار لا يرى لزوماً لتحقيق معنى الآية، أو للتثبّت في الحديث إذا كان الأمر من فضائل الأعمال، فيأخذ بالأحوط، فيعمل به، فيقع في التشديد، ويظنّ الناس منه ذلك ورعاً وتقوى ومزيد علم واعتناءً بالدين، فيميلون إلى تقليده، ويُرجِّحون فتواه على غيره.

وهكذا بالتمادي عَظمَ التشديد في الدِّين حتّى صار إصراً وأغلالاً، فكأنّنا لم نقبل ما منَّ الله به علينا من التخفيف، فوضع عنّا ما كان على غيرنا ثقيل التكليف، قال تعالى شأنه وجلّت حكمته : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2]. وقال مبشّراً جلّت منّته : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[3]، أي يخفّف عنهم التكاليف الثقيلة. وعلّمنا كيف ندعوه بعد أنّ بيّن لنا أنّه :﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

---

(١) يعدّي الحكم : يُعَمِّمُهُ.

(٢) الحج : ٧٨.

(٣) الأعراف : ١٥٧.

فنقـــــــــول :﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾[1] ﴾[2] وأمرنا بقوله تعالى :﴿ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾[3].

وقد ورد في الحديث : (لن يشادّ الدِّين أحد إلاّ غلبة)[4] وفي حديث آخر : (هلك المتنطّعون)[5] أي المتشدّدون في الدِّين. وظنّ بعض الصحابة أنّ تَرْكَ السُّحور أفضل بالنظر إلى حكمة تشريع الصيام، فنهاهم النبيّ عليه السلام عن ظنّ الفضيلة في تَرْكِهِ، وقال عمر، رضي الله عنه، بحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمَنْ أراد أن يصل النافلة بالفرض (بهذا هلكَ مَنْ قبلكم)، فقال النبي عليه السلام : (أصاب اللهُ بكَ يا ابنَ الخطاب)[6].

وأنكر النبي عليه السلام على عبد الله بن عمرو بن العاص[7] التزامَهُ قيامَ الليل وصيامَ النهار واجتنابَ النساء، وقال له : (أرغبتَ عن سُنَّتي) ؟ فقال : بل سُنَّتَكَ أبغي، قال : (فإني أصوم، وأفطر، وأصلي، وأنام، وأنكح النساء، فمَنْ رغب عن سُنَّتي فليسَ منّي)[8]. وقد كان عثمان بن مظعون وأصحابه عزموا على سرد[9] الصوم وقيام الليل والاختصاء، وكانوا حرّموا الفطرَ على أنفسهم

---

(١) البقرة : ٢٨٦.

(٢) البقرة : ٢٨٦.

(٣) النساء : ١٧٠.

(٤) تعليق ط.م : (رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ " لن يشادّ هذا الدِّين أحد إلا غلبه، فَسَدِّدُوا وقارِبُوا " ورواه غيره أيضاً) أ. هـ. الحديث مطلعه : " إنَّ هذا الدِّينَ متينٌ " رواه أحمد في مسنده.

(٥) تعليق ط.م : (رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن ابن مسعود) أ.هـ.

(٦) تعليق ط.م : (رواه أبو داود والطبراني والحاكم عن أبي رمثة) أ.هـ. ينظر صحيح مسلم : باب الإيمان.

(٧) تعليق ط.م : (رواه الشيخان وغيرهما بألفاظ مختلفة) أ.هـ. رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن حنبل.

(٨) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، أبو السائب (ت ٢ هـ = ٦٢٤ م) من حكماء العرب في الجاهلية. أسلم، وبالغ في الزهد.

(٩) متابعته.

ظنّاً أنّه قربة إلى ربّهم، فنهاهم الله عن ذلك لأنّه غلوّ في الدِّين واعتداء عمّا شرّع، فأنزل[1] : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[2]، أي أنّه لا يحبّ مَن اعتدى حدوده، وما رسمه من اقتصاد في أمور الدِّين.

وقد ورد في الحديث الصحيح قوله عليه السلام : (والذي نفسي بيده، ما تركتُ شيئاً يقرّبكم من الجنة، ويباعدكم من النار إلاّ أمرتُكم به، وما تركتُ شيئاً يقرّبكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلاّ نهيتكم عنه)[3]. فإذا كان الشارع يأمرنا بالتزام ما وضع لنا من الحدود فما معنى نظرنا الفضيلة في المزيد ؟

وورد في حديث البخاري[4] : (إن أعظم المسلمين جرماً مَنْ سأل عن شيء لم يُحرَّم فَحُرِّمَ من أجل مسألته)[5]. وبمقتضى هذا الحديث ما أحقّ بعض المحقّقين المتشدّدين بوصف المجرمين ؟

وهذه مسألة السواك مثلاً، فإنه ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها أنّه قال : (لولا أن أشقّ على أمّتي لأمرتهم بالسواك)[6]. فهذا الحديث مع صراحته في ذاته أنّ السواك لا يتجاوز حدّ الندب، جعله الأكثرون سنّة،

---

(١) تعليق ط. م : (أصل الحديث رواه الشيخان وغيرهما، وورد في أسباب النزول) أ.هـ.

(٢) المائدة : ٨٧.

(٣)

(٤) محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ=٨١٠ - ٨٧٠) محدّث، حافظ، فقيه. له (الجامع الصغير) و(الجامع الكبير) وغيرهما.

(٥) تعليق ط.م : (رواه الشافعي وأحمد والشيخان وأبو داود وابن حيان عن سعد بن أبي وقاص، ولفظه " إن أعظم المسلمين جرماً مَنْ سأل عن شيء لم يُحرَّم على الناس " وفي رواية " على المسلمين " فَحُرِّم من أجل مسألته).أ.هـ.رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن حنبل.

(٦) تعليق ط. م : (رواه أحمد والترمذي والضياء عن زيد بن خالد الجهني بزيادة " عند كل صلاة، ولأخرتُ العشاء إلى ثلث الليل" ورواه مالك والشافعي والبيهقي والطبراني في الأوسط عن علي بزيادة " مع كل وضوء " وهو حسن الإسناد).أ.هـ. متفق عليه.

وخصّصه بعضهم بعود الأراك[1]، وعمّم بعضهم الإصبع وغيرها بشرط عدم الإدماء؛ وفصّل بعضهم أنّه إذا قصر عن شبر، وقيل عن فتر، كان مخالفاً للسّنّة. وتفنّن آخرون بأنّ من السّنة أن تكون فتحته مقدار نصف الإبهام ولا يزيد عن غلظ أصبع؛ وبيّن بعضهم كيفية استعماله فقال : يسند ببطن رأس الخنصر، ويُمسَك بأصابع الوسطى، ويُدعم الإبهام قائماً. وفصّل بعضهم أن يبدأ بإدخاله مبلولاً في الشدق الأيمن، ثمّ يراوحه ثلاثاً، ثمّ يتفل، وقيل يتمضمض؛ ثمّ يراوحه، ويتمضمض ثانية، وهكذا يفعل مرة ثالثة.

وبحث بعضهم في أنّ هذه المضمضة هل تكفي عن سنّة المضمضة في الوضوء أم لا ؟ ومَنْ قال لا تكفي احتجّ بنقصان الغرغرة؛ واختلفوا في أوقات استعماله في اليوم مرّة أو عند كلّ وضوء، أو عند تلاوة القرآن أيضاً، حتّى البعض صاروا يتبرّكون بعود الأراك يُخلّلون به الفم يابساً، والبعض يعدّون له كثيراً من الخواصّ، منها أنّه إذا وُضع قائماً يركبه الشيطان؛ والبعض خالف فقال: بل إذا أُلقي يورث لمستعمله الجذام، وكثير من العامّة يتوهّم السواك بالأراك من شعائر دين الإسلام. إلى غير هذا من مباحث التشديد والتشويش المؤدِّيَيْن إلى التَّرْكِ، على عكس مراد الشارع عليه السلام من الندب إلى تعهدّ الفم بالتنظيف كيفما كان.

ثمّ قال العالم النجديّ : هذا ما ألهمني ربّي بيانه في هذا الموضوع، وربّما كان لي فيه سقطات، ولا سيّما في نظر السادات الشافعية[2] من الإخوان كالعلاّمة المصريّ والرياضيّ الكرديّ، لأنّ أغلب العلماء الشافعيّة محسنون الظنّ بِغُلاة الصوفية، ويلتمسون لهم الأعذار، وهم لا شكّ أبصر بهم منّا معاشر أهل الجزيرة، لفقدانهم بين أظهرنا كليّاً ولندرتهم في سواحلنا؛ ولولا

---

(١) السواكُ يتخذ من شجرة السواك، وهي أشجار من الفصيلة الأراكية، تنبت في أودية الصحارى، خوارة العود، أوراقها خضر متقابلة، تكسب لبن الماشية التي تأكلها رائحة طيبة، ويُتخذ من أغصانها وجذورها مساويك.

(٢) أتباع المذهب الشافعي الذي أسَّسه الإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ – ٨١٩ م).

سياحتي في بلاد مصر والغرب[1]. والروم والشام لما عرفتُ أكثر ما ذكرتُ وأنكرتُ إلاّ عن سماع،ولكنتُ أقربَ لتحسين الظنّ، ولكن ما بعد العيان لتحسين الظنّ مجال، وما بعد الهدى إلاّ الضلال، فنسأل الله تعالى أن يلهمنا سواء السبيل.

فأجابه العلاّمة المصريّ : إنّ أكثر الصوفية من رجال مذهبنا، ونحن معاشرَ الشافعيّة نتأوّل لهم كثيراً ممّا ينكره ظاهر الشرع، ونلتمّس له وجوهاً ولو ضعيفة لأنّنا نرى مؤسّسي التصوف الأوّلين كالجنيد[2] وابن سبعين[3] من أحسن المسلمين حالاً وقولاً.

وفيما يلوح لي أنّ منشأ ذلك فينا جملة أمور منها : كون علماء الشافعيّة بعيدين عن الإمامة والسياسة العامّة إلاّ عهداً قصيراً؛ ومنها كون المذهب الشافعيّ مؤسّساً على الأحوط والأكمل في العبادات والمعاملات، أي على العزائم دون الرخص[4]؛ ومنها كون المذهب مبنياً على مزيد من العناية في النيّات.

بناءً عليه، فالشافعيّ في شغل شاغل بِخُوَيصة[5] نفسه، وهمّ مستمرّ من جهة دينه، ومحمول على تصحيح النيّات وتحسين الظنون، ومَنْ كان كذلك مَالَ بالطبع إلى الزهد والإعجاب بالزاهدين، وحمل أعمال المتظاهرين بالصلاح على الصحّة والإخلاص، بخلاف العلماء الحنفية : فإنهم من عهد أبي

---

(١) أي : المغرب.

(٢) الجنيد هو أبو القاسم محمد البغدادي (ت : ٢٩٨ هـ = ٩١٠ م) صوفي سنّي بغدادي، له طريقة صوفية تُعرف باسم "الجنيدية " امتاز مذهبه بإيثار الصحو على السكر الذي آثره البسطامي وغيره.

(٣) ابن سبعين هو قطب الدِّين بن محمد الإشبيلي (٦١٤ – ٦٨٨ هـ = ١٢١٧ – ١٢٦٩ م) فيلسوف صوفي، عربي أندلسي، منشئ طريقة السبعينية للتصوف يقول بوحدة الوجود. توفي بمكة. له "ما لابدّ للعارف منه" و"جواب صاحب صقلية" و" رسالة الإحاطة " وغيرها.

(٤) شدة التكليف بعيداً عن التخفيف والتسهيل.

(٥) تصغير خاصّة.

يوسف[١] لم ينقطع تقلّبهم في النظر في[٢] الشؤون العامة في عموم آسيا، وكذا المالكية[٣] في الغرب[٤] وإمارات أفريقيا . والحنابلة[٥] والزيديّة في الجزيرة. ومن لوازم السياسة الحزم، وتغليب سوء الظن، وإتقان النقد، والأخذ بالجروح[٦]، ومحاكمات الشؤون لأجل العمل بالأسهل الأنسب.

وقد امتاز أهل الجزيرة في هذا الخصوص بأنّهم كانوا، ولازالو بعيدين عن التوسّع في العلوم والفنون، وهم لم يزالوا أهل عصبية وصلابة ورأي وعزيمة، وقد ورد قول النبيّ عليه السلام فيهم : (إنّ الشيطان قد آيس أن يعبده المسلمون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش)[٧] أي إغراء بعضهم بعض. وكذلك أهل الجزيرة، لم يزل عندهم بقية صالحة كافية من السليقة العربية، فإذا قرؤوا القرآن أو الحديث أو الأثر أو السيرة يفهمون المعنى المتبادر باطمئنان، فينفرون من التوسع في البحث، ولا يعيرون سمعاً للإشكالات، فلا يحتاجون للتدقيقات والأبحاث التي تُسبّب التشديد والتشويش. وأمّا غيرهم من الأمم الإسلامية فيتلقّون العربية صنعة، ويُقاسون العناء في استخراج المعاني والمفاهيم، ومن طبيعة كلّ كلام في كلّ لغة إذا مخضته الأذهان تعبت، وتشتّتت فيه الأفهام.

---

(١) الحنفية : أتباع مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠ – ١٥٠ هـ ٦٩٩ – ٧٦٧ م) القائل بالقياس والرأي. وهو من أصل فارسي.

(٢) أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب (ت : ١٨٢ هـ = ٧٩٨ م) من أصل عربي. أخذ عن أبي حنيفة ومالك. اشتغل بالقضاء حتى صار كبير القضاة على عهد الرشيد. له "كتاب الخراج" وغيره.

(٣) المالكية هم أتباع مذهب الإمام عبيد الله مالك بن أنس الأصبحي (٩٣ – ١٧٩ هـ = ٧١١ – ٧٩٥ م).

(٤) المغرب.

(٥) الحنابلة هم أتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني (١٦٤ – ٢٤١ هـ = ٧٨٠ – ٨٥٥ م) وهو الذي عذّبه المأمون الذي انتصر للمعتزلة من أجل مسألة القول بخلق القرآن.

(٦) الجروح : التشكيك.

(٧) تعليق ط. م : (رواه أحمد ومسلم والترمذي من حديث جابر بلفظ "إن الشيطان قد يئس [وفي رواية أيس] أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم" وعجيب أن لفظ "في الجزيرة العربية" سقط من الجامع الصغير المطبوع، مع أنه مثبت في أصله الجامع الكبير) أ.هـ. والحديث رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وابن حنبل.

وربّما جاز أن يُقال في السادة الشافعيّة، ولا سيّما في علماء مصر منهم، إنَّ انطباعهم على سهولة الانقياد سهّلت أيضاً دخول الفنون الدِّينية المستحدثة عليهم؛ ووداعة أخلاقهم تأبى عليهم إساءة الظنّ ما أمكن تحسينه، فبناءً عليه، حازت هذه الفنون التصوّفية المستحدثة قبولاً عند علماء الشافعيّة الأوّلين، فتبعهم الآخرون.

هذا، وحيث قلنا إنّ من خلق المصريين سهولة الانقياد ولا سيّما للحقّ، وكذلك علماء الشافعية الأكراد كلّهم أهل نظر وتحقيق، فلا يصعب حمل الشافعية على النظر في البدع الدينية خصوصاً ما يتعلق منها بمظنات الشِّركِ الجالبِ للمقتِ والضّنْكِ، ولا شك أنّهم يمتثلون أوامر الله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى :﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[2]. وقوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[4]. هذا، وكثير من علماء الشافعية، الأقدمين والمتأخرين؛ المنتصرون

(١) النور : ٥١.

(٢) النساء : ٥٩.

(٣) الأنفال : ٢٤.

(٤) الأعراف : ٣.

للمذهب السلفيّ السّديد[1] المقاومون للبدع والتشديد؛ والحقّ أنّ التصوُّفَ المتغالى فيه لا تصحّ نسبته لمذهب مخصوص، فهذا الشيخ الجيلي[2] رضي الله عنه حنبلي وصوفي.

قال الأستاذ الرئيس : إن أخانا النجدي يعلم أنّ ما أفاض به علينا لا غبار عليه بالنظر إلى قواعد الدِّين وواقع الحال، وكفى بما استشهد به من الآيات البيّنات براهين دامغة، ولله على عباده الحجّة البالغة. وعبارة التردّد التي ختم به خطابه، يُترَكُ بها الحكم لرأي الجمعية، ما هي إلاّ نزعة مَنْ فَقَدَ حرّيّة الرأي والخطابة. فأرجوه، وأرجو سائرَ الإخوان الكرام أن لا يتهيّبوا في الله لومة لائم، ورأي كلّ منا هو جتهاده وما على المجتهد سبيل. وليعلموا أنّ رائد جمعيّتنا هذه الإخلاص، فالله كافل بنجاحها، وغاية كلّ منّا إعزاز كلمة الله، والله ضامن إعزازه، قال تعالى : ﴿ **إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ** ﴾[3].

نعم، هذا النوع من الإرشاد، أعني الانتقاد على الاعتقاد، هو شديد الواقع والصَّدْعَ على التائهين في الوهلة الأولى، لأنّ الآراء الاعتقادية مؤسّسة غالباًعلى الوراثة والتقليد دون الاستدلال والتحقيق، وجارية على التعاند دون التقانع. على أنّ أعضاء جمعيّتنا هذه وكافة علماء الهداية في الأمّة، يشربون ـ والحمد لله ـ من عين واحدة هي عين الحقّ الظاهر الباهر الذي لا يخفى على أحد. فكلّ منهم يختلج في فكره ما يخالج فكر الآخرين عينه أو شبهه، لكنّه يتهَيَّبُ التصريح به لغلبة الجهل على الناس واستفحال أمر المدلّسين. ويخاف من الانفراد في الانتقاد في زمان فشا فيه الفساد، وعمَّ البلاد والعباد، وقلّ أنصار الحقّ، وكثر التخاذل بين الخلق.

---

(١) السابق على المذهب.

(٢) تعليق (ط.م) : (عبد القادر الجيلي شافعي المذهب، ثم صار يؤلف ويفتي بمذهب أحمد إحياءً له).أ.هـ.

(٣) محمد : ٧.

ويسرّني . والله . ظهور الثمرة الأولى من جمعيّتنا هذه، أعني اطمئنان كلّ منا على إصابة رأيه، واطّلاعه على أنّ له في الآفاق رفاقاً يرون ما يراه، ويسرون مسراه، فيقوى بذلك جنانه، وينطلق لسانه، فيحصل على نشاط وعزم في إعلاء كلمة الله، ويصبح غير هيّاب لوم اللائمين ولا تحامل الجاهلين. ومن الحكمة استعمال اللين والتدريج والحزم والثبات في سياسة الإرشاد، كما جرى على الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام. وقد بسطتُ ذلك في اجتماعنا الأوّل، وسنلاحظه في قانون الجمعية الدائمة الذي نقرّره إنْ شاء الله بعد استيفاء البحث في طريقة الاستهداء من الكتاب والسُّنَّة في اجتماعاتنا الآتية، أمّا اليوم فقد انتهى الوقت، وانتصف النهار.

الاجتماع الخامس

(الاستهداء بالكتاب والسنّة)

يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ

في الوقت المعيَّن في اليوم المذكور تَكاملَ الاجتماع، واستعدَّت الهيئة للمداولة والسَّماع، وقرأ كاتبُ الجمعية ضبطَ الجلسة السابقة حسب القاعدة المرعيّة.

قال الأستاذ الرئيس : سنبحث بعد يومين في وضع قانون للجمعية الدائمة، وإنّي أرى أن نفوّض للجنة منّا من الذين سبق لهم دخول في جمعيات علميّة، أو الذين لهم وقوف على مباني[١] الجمعيات القانونيّة ولا سيّما الغربية المعروفة باسم (أكاديميات)[٢] لتنظّم لنا هذه اللجنة سانحة[٣] قانون نضعها تحت البحث في الجمعية.

وإنّي أكلّف لهذه اللجنة أخانا السيّد الفراتي ليقوم بكتابتها، وأخانا السعيد الإنكليزي ليفيد اللجنة عمّا يعلمه عن الأكاديميات وعن مجريات جمعيّات ليفربول ورأس الرجاء[٤]، وإخواننا العلامة المصريّ والصاحب الهنديّ والمدقّق التركيّ[٥] وهذا يرأسهم لأنه أسنّهم[٦]، وهؤلاء خمسة أعضاء، فهل تستصوب الجمعية ذلك، وترى الكفاية والكفاءة أم تستدرك شيئاً ؟

ثم ابتدر السعيد الإنكليزي للمقال مخاطباً الأستاذ الرئيس فقال: إننا مسلمي (ليفربول) حديثو عهد بالإسلام، ولنا إشكالات مهمّة تتعلق ببحث

(١) نُظُم.

(٢) لجان تأسيس.

(٣) مبادئ أوليّة أو مسوّدة.

(٤) رأس الرجاء الصالح.

(٥) هو من تُرْكِ كاشغر لا من أتراك الروم. (ك) أي إنّه لا يُمَثِّلُ العثمانيين، بل هو من أتراك أواسط آسيا.

(٦) أكبرهم سنّاً.

اليوم، أعني بطريقة الاستهداء من الكتاب والسنّة، لأن أكثرنا قد اهتدينا . والحمد لله . إلى الإسلامية منتقلين إليها من (البروتستانتية) أي الطائفة الإنجيليّة لا من الكاثوليك أي الطائفة التقليديّة، فنميل طبعاً لاتّباع الكتاب والسنّة فقط، ولا نثق بقول غير معصوم فيما ندين[1]. وقد تركنا دين آبائنا وقومنا لنتّبع دين محمد نبيّ الإسلام عليه الصلاة والسلام، لا لنتبع الحنفيّ أو الشافعيّ أو الحنبليّ أو المالكيّ، وإنْ كانوا ثقاة ناقلين.

ولنا جمعيّة منظمة لها شعبتان في أمريكا وجنوب إفريقيا، ونحن راغبون أن نسعى سعياً حثيثاً في الدعوة للدِّين السامي الإسلامي المبين.والأقوام الذين ندعوهم غالبهم متمدّنون أي أفكارهم متنوّرة بالعلوم والمعارف، وأكبر أملنا بهداية فئتين الأولى من البروتستان والثانية الزنادقة.

أمّا أملنا في البروتستان فلأنّهم منقلبون حديثاً من الكاثوليكيّة انقلاباً ناشئاً عن ترجيحهم الاقتصار على الإنجيل ومجموعة الكتب المقدّسة متوناً فقط، أي بإهمال الشروح والتفسيرات والمزيدات التي لا يوجد لها أصل صريح في الإنجيل. والبروتستان في أوربّا وأمريكا يزيدون على مائة مليون من النفوس كلّهم مفطورون على التديّن، قليلو العناد في الاعتقاد، مستعدّون لقبول البحث والانقياد للحقّ بشرط ظهوره ظهوراً عقلياً؛ ولا سيّما إذا كان الحقّ ملائماً لأسباب هجرهم الكاثوليكيّة من نحو: إنكارهم الرياسة الدينيّة والرهبانيّة، والتوسّل بالقديسين وطلب الشفاعة منهم، واحترام الصور والتماثيل، والدعاء لأجل الأموات، وبيع الغفران والقول بأن للبطارقة[2] قوّة قدسيّة وقوّة تشريعيّة، وأنّ للبابا[3] صفة العصمة عن الخطأ في الدِّين، وأنّ للأساقفة[4] ومن دونهم

---

(١) طرق استنباط الأحكام.

(٢) البطرك : مقدّم النصارى، ورئيس رؤساء الأساقفة.

(٣) البابا: الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية، وأُطلق أخيراً على رئيس الكنيسة الأرثوذكسية أيضاً.

(٤) الأسقف: لقب ديني لأحبار النصارى، فوق القسيس ودون المطران.

القسّيسين[١] مراتب مقدّسة، إلى غير ذلك مما يُنتج في النصرانيّة سلطة دينيّة وتشديدات تعبّديّة لا يوجد لها أصل في الإنجيل.

وقد يشبه هؤلاء البروتستان في رأيهم فئة قليلة من اليهود تعرف باسم القرّائين[٢]، وهم الآخذون بأصل التوراة والمزامير[٣] النابذون للتلمود، أيّ لتفسيرات ومزيدات الأحبار والحاخامين[٤] الأقدمين.

أمّا الفئة الثانية فهم الزنادقة المارقون من النصرانيّة كليّاً لعدم ملاءمتها للعقل، وهؤلاء في أوربا وأمريكا كذلك يزيدون على مائة مليون من النفوس، غالبهم مستعدون لقبول ديانة تكون معقولة حرّة سمحاء تريحهم من نَصَبِ الكفر في الحياة الحاضرة فضلاً عن العذاب في الآخرة.

ومن غريب نتائج التدقيق : أنّ أفراد هذه الفئة كلّما بَعُدوا عن النصرانيّة نفوراً من شركها وخرافاتها وتشديداتها، يقربون طبعاً من التوحيد والإسلامية وحكمتها وسماحتها.

فبناء على هذه الآمال ترى جمعيّة (ليفربول) أهميّة عظيمة لتحرير مسألة الاستهداء من الكتاب والسنّة، وتصوير حكمة وسماحة الدِّين الإسلامي للعالم المتمدّن. فأرجو حضرة الأستاذ الرئيس أن يسمح لي بتفهّم مسألة الاستهداء على أسلوب المحاورة والمساجلة مع بعض الإخوان الأفاضل في هذا المحفل العلميّ العظيم.

فأجابه الأستاذ الرئيس بقوله : سَاجِلْ مَنْ شئتَ، وخَاطِبْ مَنْ أردتَ، فالإخوان كلّهم علماء أفاضل حكماء.

فقال السعيد الإنكليزي مخاطباً العالم النجديّ : إنّكَ يا مولاي قد صوّرتَ

(١) القس : رئيس من رؤساء النصارى في الدِّين، وهو الآن في مرتبة الأسقف والشمّاس.

(٢) هم اليهود السلفيون.

(٣) مزامير داود : أحد كتب العهد القديم، ويشتمل على /١٥٠ قطعة شعرية تكوّن الأناشيد الدينية الأساسيّة في اليهودية والمسيحية، ويُعزى نَظْمُ كثير منها إلى نبيّ الله داود.

(٤) رُتَبُ يهوديّة. ومعنى الحبر : العالِم.

في مقدمة خطابكَ في التوحيد مَنْ هو المسلم،وأَلزَمْتَهُ العملَ بالكتاب والسنّة، فأرجوكَ أنْ تُعرّفني أولاً ما هو الكتاب ؟ وما هي السنّة ؟

فقال العالم النجديّ : أمّا (الكتاب) فهو هذا القرآن الذي وصل إلينا بطريق لا تحتمل الشبهة فيه لاجتماع الكلمة واتّفاق الأمّة عليه، وتناقلها إياه جيلاً عن جيل، وحفظاً في الصدور، وضبطاً في السطور، مع الحرص العظيم على كيفيّة أدائه لفظاً، وعلى هيئة إملائه كتابة، ومع الاعتناء الكامل في تحقيق أسباب النزول ومكانه ووقته، ومع حفظ اللغة العربية المضريّة القرشيّة التي نزل بها بإتقان لا مزيد عليه. وبقاء القرآن محفوظاً من التحريف والتغيير وموجبات الريب إلى الآن هو أحد وجوه إعجازه، حيث جاء مصدّقاً لقوله تعالى فيه :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[1].

أمّا (السّنة) فهي ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام، أو فَعَلَهُ أو أقرَّهُ، ولم يكن صدر منه ذلك على سبيل الاختصاص أو الحكاية أو العادة؛ وقد اعتنى الصحابة، ولا سيّما التابعون وتابعوهم رضي الله عنهم، بحفظ السنّة حديثِهَا وآثارِها وسيرِها غاية الاعتناء؛ وتناقلوها بالرواية والسند المتسلسل متحرّين الوثوق منتهى مراتب التحرّي وثوقاً تاماً وقبولاً عامّاً في الأمّة، فوصلتنا بكمال الضبط خصوصاً منها الكتب الستّة[2].

قال السعيد الإنكليزي : لايشكّ أحد حتّى العدو والمعاند في أنّه لم تبلغ أمّة من الأمم شَأْوَ المسلمين في اعتنائهم بحفظ القرآن الكريم وضبطهم التاريخ النبويّ أو السنّة، وكذلك يُقال في اعتنائهم باللغة العربيّة التي هي آلة فهم الخطاب.

---

(١) الحجر : ٩.

(٢) الكتب الجامعة للحديث النبويّ الشريف وهي : صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، جامع الترمذي، سنن ابن ماجة، سنن النسائي.

وبالنظر إلى ذلك كان يجب أن نُحرِّر الشريعة الإسلاميّة أحسن تحرير، فلا يوجد فيها ما وُجِدَ في غيرها بسبب عدم ضبط أصولها من اختلاف ومباينات مهمّة بين العلماء الأئمة، فأرجوكَ أنْ تُبَيِّنَ لي ما هو منشأ هذا التشتّت الذي نراه في الأحكام.

أجابه العالم النجديّ : إنّ الاختلافات الموجودة في الشريعة ليست كما يُظَنُّ شاملة للأصول، بل أصول الدِّين كلّها والبعض من الفروع متّفق عليها لأن لها في القرآن أو السنّة أحكاماً صريحة قطعيّة الثبوت، قطعيّة الدلالة، أو ثابتة بإجماع الأمّة الذي لا يجوز العقل فيه أن يكون عن غير أصل في الشرع[1].

أمّا الخلافات فإنّما هي فروع تلك الأصول وفي بعض الأحكام التي ليس لها في القرآن أو السنة نصوص صريحة، بل بعض علماء الصحابة رضي الله عنهم وفقهاء التابعين ومَنْ جاء بعدهم من الأئمة المجتهدين أخذوا تلك الأحكام التي تخالفوا فيها إمّا تلقيّاً من بعض الصحابة، فكلّ قلّد مَنْ صادف[2]؛ وإمّا استنبطوها اجتهاداً من نصوص الكتاب أو السنّة بالمدلول المحتمل، أو بالمفهوم أو بالاقتصاد، أو من قرائن الحال أو قرائن المقال، أو بالتوفيق أو بالتخريج أو بالتفريع أو بالقياس، أو باتحاد العلّة أو باتحاد النتيجة أو بالتأويل أو الاستحسان. وهذه الأحكام الخلافية كلها ترجع إلى دلائل إمّا قطعية الثبوت ظنية الدلالة، أو ظنية الثبوت ظنّية الدلالة. ولكلّ واحد من المجتهدين أصول في التطبيق وقوانين في الاستنباط يخالف فيها الآخر، ومنشأ معظمها الخلافات النحويّة والبيانيّة.

---

(١) تعليق ط.م : (هذا القول غير مسلم به، إذ لا يجوز العقل أن يقول المجتهدون في زمن من الأزمان قولاً مبنيّاً على خطأ في الاجتهاد، لا سيّما إذا كانوا قليلي العدد، كما هو الواقع بعد الصدر الأوّل. وقد حصل هذا في جميع الملل، والذي لا يجوزه العقل هو الذي لا يمكن أن يقع) . ا . هـ.

(٢) تعليق ط. م : (وهذا أيضاً غير صحيح، فإن هؤلاء الأئمة ما كانوا مقلّدين للصحابة). ا. هـ.

ثمّ إن أكثر الخلافات هي في مسائل المعاملات، وعلى كلّ حالٍ جاحِدُها لا يُكفَّر باتّفاق الأئمة، بل المتخالفون لا يفسق بعضهم بعضاً إذا كان التخالف عن اجتهاد لا عن هوى نفس أو تقصير في التتبّع الممكن للمقيم في دار الإسلام. (مرحى).

قال السعيد الانكليزي : إني أشكركَ على ما أجملتَ، وأوضحتَ، غير أنّك لم تذكر في جملة أسباب الاختلاف في اعتبار الناسخ والمنسوخ[١] بين آيتين أو حديثين، أو آية وحديث، وإني أظن أن ذلك من أعظم أسباب الاختلاف في الأحكام.

أجابه العالم النجدي : إن نواسخ الأحكام قليلة ومعلومة، والخلاف فيها أقل، لأن النسخ في زمن التشريع لم يحصل إلا عن حكمة ظاهرة كالتدريج في منع السكر حالة الصلاة ثم تعميم منعه. وكتغيير المقتضى للتوارث بالإخاء وهو القطيعة التي حصلت بين المهاجرين وذوي أرحامهم في بدء الأمر، ثم لما تلاحقوا بعد فتح مكّة نُسخ ذلك، وجُعل التوارثُ بالنسب. وكالدعوة في الأوّل للتوحيد والدِّين بمجرد الموعظة بدون جدال، ثم به بدون صدع، ثم به بدون قتال، ثم به في أهل جزيرة العرب فقط[٢] ثم بتعميمه مع قبول الجزية والخراج من غيرهم. (مرحى).

قال السعيد الإنكليزي : إنّ ما وصفتَ من أصول الاجتهاد وقوانين استنباط الأحكام قد أنتجَ خلافَ ما يأمر الله به في قوله تعالى : ﴿ **أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ** ﴾[٣]، وخلاف ما تقتضيه الحكمة، فهل من وسيلة

---

(١) الآيات التي أزال الله حكمها.

(٢) شرع الإسلام أو السيف خاص بأهل جزيرة العرب بقصد إحكام الوحدة السياسية في الوحدة الجنسية، لا كما يتوهم الطاعنون في الإسلامية أنها لم تقم إلا بالسيف. (ك) تعليق ط. م (ما ذكره في الدعوة وفي تحريم الخمر ليس من النسخ في شيء) . ا. هـ.

(٣) الشورى : ١٣

سهلة لرفع هذا التفرّق؟

أجابه العالم النجدي : إني لا أهتدي لذلك سبيلاً[١] ولعلّ في الإخوان مَنْ يتصوّر وسيلة لهذا الأمر المهم.

فابتدر العلاّمة المصري مخاطباً السعيد الإنكليزي، وقال : إنّ رفع الخلاف غير ممكن مطلقاً، ولكنْ، يمكن تخفيف تأثيراته. وذلك أنّه لما كان معظم الاختلاف كما قرّره أخونا العالم النجدي في الفروع دون الأصول، وفي السنن والمندوبات والصغائر والمكروهات دون الشعائر والواجبات والكبائر والمنكرات؛ وكان أكثر الأمة هم العامّة الذين لا يقدرون أن يُميِّزوا بين الواجب[٢] و السنّة[٣] والمندوب[٤] وبين النفل[٥] والمباح[٦]؛ أو يُفرِّقوا بين الكفر والحرام، وبين الكبيرة والصغيرة والمكروه تنزيهاً والتقوى؛ بل تنقسم الأحكام كلّها في نظرهم إلى نوعين أصليين فقط : مطلوب ومحظور، وبتعبير آخر إلى حلال وحرام، وكانت أحكام الشريعة كثيرة جداً، فالعامة يجدون أنفسهم مكلّفين بما لا يطيقون الإحاطة بمعرفته فضلاً عن القيام به، ويرون أنْ لا مناص لهم من التهاون في أكثره أو بعضه، فيقوم أحدهم بالبعض دون البعض، فيأتي بالنفل، ويتهاون بالواجب، ويتّقي المكروه، ويقدم على الحرام، وذلك كما قلنا لاستكثاره الأحكام وجهله بمراتبها في التقديم والتأخير[٧].

---

(١) الأديان والمذاهب كلّها مصابة بالانشقاق، فهذه البرتستانية، في ظرف مائتي سنة تفرقت إلى ما يزيد على مائتي فرقة، وهذه أحكام الأحوال الشخصية من نكاح ونحوه في النصرانية مختلف فيها بين الكنائس أو بين رؤساء كلّ كنيسة اختلافا لا يُهتدي معه إلى نتيجة. (ك).

(٢) في عرف الفقهاء : ما ثبت وجوبه بدليل فيه شبهة العدم، كخبر الواحد، وهو ما يثاب بفعله، ويُعاقَبُ على تركه، يُضلّل جاحده، ولا يُكَفَّرُ به.

(٣) ما استنه النبي من طريقة يُشَرَّعُ بها بقول أو فعل.

(٤) في الشرع : المستحب.

(٥) ما شُرِّعَ زيادة على الفريضة والواجب.

(٦) الإباحة (عند الأصوليين) حكم يقتضي التخيير بين الفعل والترك.

(٧) كالأتراك يهتمون بالسُّنَنِ والمكروهات أكثر من الواجبات والمنهيات. (ك). واو العطف سقطت من حواشي النسخ القديمة جميعها.

بناءً على ذلك، أرى لو أنَّ فقهاء الأمة . كما فرّقوا مراتب الأحكام على المسائل . يُفرّقون المسائل أيضاً على مراتب في متون مخصوصة؛ فيعقدون لكلّ مذهب كتاباً في العبادات ينقسم إلى أبواب وفصول تُذكر في كل منها الفرائض والواجبات فقط، وتنطوي ضمنها الشرائط والأركان بحيث يُقالُ إنَّ هذه الأحكام في هذه المذاهب هي أقل ما تجوز به العبادات.

و يعقدون كتاباً آخر ينقسم إلى عين تلك الأبواب والفصول، تُذكر فيها السُّنَنُ بحيث يُقال إنَّ هذه الأحكام ينبغي رعايتها في أكثر الأوقات.

ثم كتاباً ثالثاً مثل الأوّلَين تُذكر فيه سنن الزوائد، بحيث يُقال إنَّ هذه الأحكام رعايتها أولى من تركها.

وعلى هذا النسق يوضع كتاب للمنهيّات، يُقسَّمُ إلى أبواب وفصول تُعَدُّ فيها المكفِّرات والكبائر، وكذا الصغائر والمكروهات، ومثل ذلك تُقَسَّمُ كتب المعاملات على طبقات من الأحكام الإجماعية أو الاجتهاديّة أو الاستحسانيّة.

فبمثل هذا الترتيب يسهل على كلّ من العامة أن يعرف ما هو مُكلَّف به في دينه، فيعمل به على حسب مراتبه وإمكانه، وبهذه الصورة تظهر سماحة الدِّين الحنيف، ويصير المسلم مطمئن القلب، مثله كمثل تاجر له دفاتر وقيود وحسابات وموازنات منتظمة فيعيش مطمئنّ الفكر. وكم بين هذا التاجر وبين تاجر آخر حساباته في أوراق منتثرة ومعاملاته مشتّتة متزاحمة في فكره، لا يعرف ما له وما عليه، فيعيش عمره مرتبك البال مضطرب الحال. (مرحى).

قال المحدّث اليمني : إننا معاشرَ أهل اليمن ومن يلينا من أهل الجزيرة، كما أننا لم نزل بعيدين عن الصنائع والفنون فكذلك لم نزل على مذهب السلف في الدِّين، بعيدين عن التفنن فيه. ومسلكنا مسلك أهل الحديث وأكثرنا يُخرِجُ الأحكام على أصول اجتهاد الإمام زيد بن علي بن زين العابدين، أو أصول

الإمام أحمد بن حنبل[١]. وإنّي أذكر للإخوان حالتنا الاستهدائيّة عسى أنّ الذكرى تنفع المؤمنين؛ وعسى أن يعلم المسلمون ولا سيّما الأتراك ومَنْ يحكمون أننا من أهل السنّة، لا كما يوهمون أو يتوهّمون، فأقول إنّ المسلمين عندنا على ثلاث مراتب : العلماء والقرّاء والعامة.

فالطبقة الأولى : العلماء، وهم كل مَنْ كان مُتّصفاً بخمس صفات :

١ . أن يكون عارفاً باللغة العربيّة المضريّة القرشيّة بالتعلّم والمزاولة معرفة كافية لفهم الخطاب، لا معرفة إحاطة بالمفردات ومجازاتها وبقواعد الصرف وشواذّه، والنحو وتفصيلاته، والبيان وخلافاته، والبديع وتكلفاته، مما لا يتيسر إتقانه إلاّ لمن يفني ثلثي عمره فيه، مع أنّه لا طائل تحته ولا لزوم لأكثره إلاّ لمن أراد الأدب.

٢ . أن يكون قارئاً كتاب الله تعالى قراءة فهم للمتبادر من معاني مفرداته وتراكيبه، مع الاطلاع على أسباب النزول ومواقع الكلام من كتبها المدوّنة المأخوذة من السنّة والآثار وتفاسير الرسول عليه السلام، أو تفاسير أصحابه عليهم الرضوان، ومن المعلوم أنّ آيات الأحكام لا تجاوز المائة والخمسين آية عدّاً[٢].

٣ . أن يكون متضلعاً في السنّة النبوية المدّونة على عهد التابعين وتابعيهم، أو تابعي تابعيهم فقط، بدون قيد بمائة ألف أو مائتي ألف حديث، بل يكفيه ما كفى مالكاً في موطئه[٣] وأحمداً في مسنده[٤] ومن المعلوم أن أحاديث

(١) يذكر هنا أن المذهب الشافعي منتشر في اليمن أكثر من المذهب الحنبلي، وكذلك الفرقة الزيديّة الشيعيّة.

(٢) وقد أحاط بها التفسير الأحمدي الهندي.ا . هـ

والتفسير الأحمدي الهندي وضعه أحمد خان بن السيّد محمد تقي خان (١٨١٧-١٨٩٨م) هو تفسير استلهم روح القرآن الكريم من دون التقيّد بحرفيته.

(٣) يقصد كتاب " الموّطأ " لمالك بن أنس، وهو كتاب جمع فيه أحاديث نبوية شريفة.

(٤) يقصد كتاب" المسند " لأحمد بن حنبل، وهو كتاب جمع فيه أحاديث نبوية شريفة.

الأحكام لا تجاوز الألف وخمسمائة حديث أبداً[١].

٤ . أن يكون واسع الاطّلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأحوالهم من كتب السير القديمة والتواريخ المعتبرة لأهل الحديث كالحافظ الذهبي[٢]و ابن كثير[٣] ومَنْ قبلهم، وكابن جرير[٤] وابن قتيبة[٥] ومَنْ قبلهم كمالك[٦] والزهري[٧] وأضرابهم.

أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التعليميين[٨] والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيثاغورسية[٩]، وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعتزلة، وإغرابات الصوفية وتشديدات الخوارج[١٠]، وتخريجات الفقهاء المتأخرين، وحشويات الموسوسين، وتزويقات المرائين وتحريفات المدلّسين. (مرحى).

فأهل هذه الطبقة يستهدون بأنفسهم، ولا يقلّدون إلا بعد الوقوف على دليل

---

(١) وقد أحاط بها الإمام الشوكاني اليمني. (ك). تعليق ط. م (لعل المؤلف يشير إلى كتاب الأخبار الذي شرحه الشوكاني).ا. هـ.

(٢) الحافظ الذهبي، هو محمد بن أحمد (٦٧٣-٧٤٩هـ = ١٢٧٤ – ١٣٤٨ م) مؤرخ ومحقق تركماني الأصل. له : (دول الإسلام) وسواه.

(٣) عماد الدِّين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت : ٧٧٤ هـ = ١٣٧٢ م) له : (البداية والنهاية) في التاريخ و (تفسير القرآن العظيم).

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١١ هـ = ٨٣٨ – ٩٢٣ م) مؤرخ ومفسر وفقيه. له " أخبار الرسل والملوك " وسواه.

(٥) ابن قتيبة : عبد الله مسلم بن قتيبة (ت : ٢١٥ هـ – ٧٤٢ م) مؤلف لغوي وديني وتاريخي،له (أدب الكاتب) و(غريب القرآن) وسواهما.

(٦) هو مؤسس المذهب المالكي السُّني، وقد سبق ترجمته.

(٧) الزهري : محمد بن مسلم الزهري (ت: ٢١٥ هـ = ٧٤٤) محدث شهير، له كتاب واحد هو (كتاب نسب قوم).

(٨) قد حقَّقَ الغربيون أن لاثمرة من المنطق كلياً، فأهملوه، مع أنهم يعتنون بالبحث عن وسائط تفاهم العجماوات. (ك).

٩ نسبة إلى فيثاغورس (٥٨٢-٥٠٧ ق.م) فيلسوف يوناني يؤمن بتناسخ الأرواح، وضرورة الحياة المطهرة من الشهوة، ورأى أن جوهر الأشياء هو العدد، وله نظرية هندسية مدوّنة باسمه. فيما بعد نشطت حركة فيثاغورثية فلسفية دينية بالإسكندرية، واختلطت بعناصر دخيلة من تصوّف الشرق وعقائده.

١٠ الخوارج : فرقة سياسية ودينية، ثارت على عثمان بن عفان، ورفضت مبدأ التحكيم بين علي ومعاوية، وثارت على الأمويين والعباسيين. رفض أصحابها مبدأ وراثة الحكم.

مَنْ يُقلِّدون، فإذا وجدوا في المسألة قرآناً ناطقاً لا يتحوَّلون عنه لغيره مطلقاً، وإذا كان القرآن محتملاً لوجوه، فالسنَّة قاضية عليه مُفسِّرة له. ثم ما لم يجدوه في كتاب الله أخذوه من صحيح سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان الحديث مستفيضاً أم غير مستفيض، عمل به أكثر من واحد من الصحابة المجتهدين أم لم يعمل إلا واحد فقط، ومتى كان في المسألة حديث صحيح لا يعدلون عنه إلى اجتهاد. ثم إذا لم يجدوا في المسألة حديثاً يأخذون بإجماع علماء الصحابة، ثم بقول جماعة من الصحابة والتابعين، ولايتقيدون بقوم دون قوم. فإنْ وجدوا مسألة يستوي فيها قولان رجّحوا أحدهما بمرجح يقوم في الفكر، لا يتبعون فيه أصولاً موضوعة غير مشروعة، أو طرقاً مقرّرة غير مرفوعة. وأهل هذه الطبقة عندنا ينوّرون أذهانهم بأصول استدلالات الإمام زيد[1] رضي الله عنه أو غيره من الأئمة في تخريجهم الأحكام واستنباطها من النصوص بدون تقيّد بتقليد أحدهم خاصة دون غيره. لأنهم لا يجوِّزون اتبّاع إمام إذا رأوا ما ذهب إليه في المسألة بعيداً عن الصواب، فلا يُقلّدون أحداً تقليداً مطلقاً كأنه نبيّ مرسل.

والطبقة الثانية هم : القرّاء، وهم الذين يقرؤون كتاب الله تعالى قراءة فهم بالإجمال مع اطلاع على جملة صالحة من سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء يستهدون في أصول الدِّين بأنفسهم لأنها مبنية غالباً على قرآن ناطق أو سنة صريحة، أو إجماع عام مفسّر لغير الناطق والصريح.

و أما في الفروع فيتبعون أحد العلماء الموثوق بهم عند المستهدي من الأقدمين أو المعاصرين، بدون ارتباط بمجتهد مخصوص أو عالم دون آخر، مع سماع الدليل والميل إلى قبوله كما كان عليه جمهور المسلمين قبل وجود التعصب للمذاهب.

(١) زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت٧٤٠) يُنسب إليه المذهب الزيدي. كان عالماً ورعاً وشجاعاً. استشهد في الكوفة بالعراق.

والطبقة الثالثة هم : العامّة، وهؤلاء يهديهم العلماء مع بيان الدليل بقصد الإقناع، فالعلماء عندنا لا يجسرون على أن يفتوا في مسألة مطلقاً ما لم يذكروا معها دليلها من الكتاب والسنّة أو الإجماع، حتى ولو كان المستفتي أعجمياً أمياً لا يفهم ما الدليل، وطريقتهم هذه هي طريقة الصحابة كافّة والتابعين عامّة والأئمة المجتهدين والفقهاء الأوّلين من أهل القرون الأربعة أجمعين. (مرحى).

والتزام علمائنا هذه الطريقة مبنيّ على مقاصد مهمّة أعظمها تضييق دائرة الجراءة على الإفتاء بدون علم، وفي هذا التضييق على العلماء توسعة على المسلمين وسدّاً لباب التشديد في الدِّين والتشويش على القاصرين، ولهذه الحكمة البالغة بالغَ اللهُ ورسولُهُ في النكير على المتجاسرين على التحليل والتحريم والمستسلمين لمحض التقليد.

فالعالم عندنا لا يستطيع أن يجيب إلاّ عن بعض ما يُسأل، ولا يأنف أن يقف عند (لا أدري) بل يحذر، ويخاف من غشّ السائل وتغريره إذا أجابه بأنّ فلاناً المجتهد يقول إن الله أحلّ كذا أو حرّم كذا، لأنّ السائل لا يعلم ما يعلم هو من أنّ هذا المجتهد الذي ليس بمعصوم كثيراً ما يخالف في قوله مَنْ هو أفضل منه من الصحابة والتابعين، ومن أنّه يتردَّدُ في رأيه وحكمه كم اجتهد، وكم رجع، ومن أن أكثر دلائله أمّا ظنيّة الثبوت أو ظنيّة الدلالة أو ظنّيتهما، ومن أنّه لم يُدوِّن ما قاله، ولكنْ، نقله عنه الناقلون، وكم اختلفوا في الرواية عنه بين سلب وإيجاب ونفي وإثبات.وكم زيّف أصحابُهُ اجتهادَهُ، ورأوا غيرَ ما رآه، ومن أنّه . أي المجتهد . إنّما اجتهد لنفسه، وبلغ عذره عند ربّه، وصرَّحَ بعدم جواز أن يتبعه أحد فيما اجتهد، وتبرّأ من تبعة الخطأ.

فهذا (الإمام مالك) رضي الله عنه يقول : (ما مِنْ أحدٍ إلاّ وهو مأخوذٌ من كلامه، ومردودٌ عليه إلاّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم).

ونقل المؤرخون أنّ المنصور [١] لمّا حجّ واجتمع بمالك أراده على الذهاب معه ليحمل الناس على (الموطأ) كما حمل عثمان الناس على المصحف، فقال مالك: لا سبيل إلى ذلك، لأن الصحابة افترقوا بعد وفاة النبيّ عليه الصلاة والسلام في الأمصار، يريد أنّ السنّة ليست بمجموعة في موطئه الذي جمع فيه مرويّات أهل المدينة.

وحُكي في (اليواقيت والجواهر)[٢] أنّ (أبا حنيفة) رضي الله عنه كان يقول: (لا ينبغي بِمَنْ لا يعرف دليلي أن يأخذ بكلامي). وكان إذا أفتى يقول : (هذا رأي النعمان ابن ثابت، يعني نفسه، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمَنْ جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب).

وروى الحاكم البيهقي[٣] أنّ (الشافعي) رضي الله عنه كان يقول : إذا صحّ الحديث فهو مذهبي، وفي رواية إذا رأيتُم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي عرض الحائط. وأنّه قال يوماً للمزني[٤]: يا إبراهيم لا تقلّدني فيما أقول، وانظر في ذلك لنفسك، فإنّه دين. وكان يقول : لا حجّة في قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

ويُروى عن (أحمد بن حنبل) رضي الله عنه أنّه رأى بعضهم يكتب كلامه، فأنكر عليه، وقال » تكتب رأياً لعلّي أرجع عنه «. وكان يقول : »وليس لأحد مع الله ورسوله كلام « وقال لرجل » لا تقلّدني، ولا تقلّدن مالكاً،

---

(١) المنصور : أبو جعفر بن عبد الله المنصور (٩٥- ١٥٩هـ = ٧١٤-٧٧٥م) ثاني خلفاء بني العباس. حكم من (١٣٧-١٥٩ هـ = ٧٥٤-٧٧٥ م)وهو المؤسس الفعلي للدولة العباسيّة. أسس بغداد (دار السلام).

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشعراني. وهو كتاب في عقيدة أهل الكشف والتصوف.

(٣) الحاكم البيهقي : أحمد بن علي أبو جعفر البيهقي (٤٧٠ -٥٤٥ هـ = ١٠٧٧-١١٥٠ م) لغوي، وُلد ومات بنيسابور. له (المحيط بلغات القرآن)و(تاج المصادر) وغيرهما.

(٤) المزني : (؟) إسماعيل بن يحيى (١٧٥-٢٦٤هـ = ٧٩١-٨٧٨ م) تلميذ الشافعي وناشر مذهبه. تُوفي في مصر. له (المختصر) وفيه خلاصة الفقه الشافعي مع بعض الزيادات.

ولا الأوزاعي[١] ولا الحنفي ولا غيرهم، وخُذِ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنّة« وأسَّس مذهبه على ترك التأويل والترقيع بالرأي واتباع الغير فيما فيه طريق العقل واحد.

ونقل الثقاة أن سفيان الثوري[٢] رضي الله عنه لمّا مرض مرض الموت دعا بكتبه فغرَّقها جميعها.

ورُوي عن أبي يوسف وزفر[٣] رحمهما الله تعالى أنّهما كانا يقولان لا يحلّ لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا. وقيل لبعض أصحاب أبي حنيفة : إنّك تكثر الاختلاف إلى أبي حنيفة، فقال : لأنه أُوتيَ من الفهم مالم نؤتَ، فأدركَ مالم ندركْ،ولا يسعنا أن نفتي بقوله ما لم نفهم دليله، ونقنع. (مرحى).

ثم قال : أيّها الإخوان الكرام قد أطلّتُ المقال فاعذروني، فإنّي من قوم ألفوا ذكر الدليل، وإنْ كان معروفاً مشهوراً، وقد ذكرتُ طريقة علماء العرب في الجزيرة منّوهاً بفضلها لا بفضلهم على غيرهم، كلا، بل غالب علماء سائر الجهات أحدّ ذهناً وأدقّ نظراً وأغزر مادّة وأوسع علماً، ولذلك لم نزل نحن في تعجّب وحيرة من نظر أولئك العلماء المتبحّرين في أنفسهم العجز عن الاستهداء وقولهم بسدّ باب الاجتهاد.

نعم، لم يبق في الإمكان أن يأتي الزمان بأمثال ابن عمر[٤] وابن العباس[٥]، أو النخعي[٦] وداود.أو سفيان ومالك، أو زيد وجعفر[٧]، أو النعمان

---

(١) الأوزاعي : عبد الرحمن الأوزاعي (٨٨– ١٥٧هـ = ٧٠٧–٧٧٤ م) وُلد في بعلبك، وتُوفي في بيروت. من أئمة الفقه في الإسلام. له كتاب (السُّنن) وكتاب (المسائل).

(٢) سفيان الثوري : أبو عبد الله (ت ١٦١ هـ = ٧٧٨م) مُحَدِّثٌ، من الأئمة المجتهدين. وُلد في الكوفة، وتُوفي في البصرة. أثار اجتهاده جدلاً في عصره، له (الجامع الكبير) و(الفرائض) وغيرهما.

(٣) زفر : محمد بن الحسن الشيباني المعروف بزفر بن الهذيل (١٣٢– ١٨٩ = ٧٤٩–٨٠٤ م) كان يلازم الإمام أبا حنيفة، ويأخذ عنه.

(٤) هو الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠ق.هـ – ٧٣ هـ = ٦١٣ – ٦٩٢ م).

(٥) هو الصحابي عبد الله بن العباس (ت ٨٧١ هـ = ت ١٤٦٧ م) من الفقهاء الذين رُوي عنهم تفسير القرآن.

(٦) النخعي : هنالك تسع شخصيّات تُكنّى بالنخعي، ومن الصعب معرفة المقصود.

(٧) جعفر الصادق : هو رئيس الشيعة الإماميّة (٨١–١٤٨ = ٧٠٠ – ٧٦٥ م)

والشافعي، أو أحمد والبخاري رضي الله عنهم أجمعين، ولكنْ، متى كلّف الله تعالى عباده بدين لا يفقهه إلاّ أمثال هؤلاء النوابغ العظام ؟ أليس أساس ديننا القرآن وقد قال تعالى عنه فيه : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ ؟[١]

وقال تعالى :﴿ **كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا** ﴾[٢] وقال تعالى :﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ** ﴾[٤].وقال تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ** ﴾ [٥] فما معنى دعوى العجز والتمثل بِمَنْ قالوا :﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ** ﴾[٦]، حمانا الله تعالى. (مرحى).

أمّا السنة النبويّة أفلم تصل إلينا مجموعة مدوّنة بهمّة أئمة الحديث جزاهم الله خيراً، الذين جابوا الأقطار والبلاد التي تفرّق إليها الصحابة رضي الله عنهم بسبب الفتوحات والفتن فجمعوا متفرقاتها ودوّنوها، وسهّلوا الإحاطة بها بما لم يتسهّل الوقوف عليه لغير أفراد من علماء الصحابة الذين كانوا ملازمين النبي عليه السلام ؟

وكذا يُقالُ في حق أسباب النزول ومواقع الخطاب ومعاني الغريب في القرآن والسنّة، فإن علماء التابعين وتابعيهم والنّاسجين على منوالهم رحمهم الله

---

(١) الزخرف : ٣ .

(٢) فصّلت : ٣ .

(٣) القمر : ١٧- ٢٢-٣٢ - ٤٠ .

(٤) البقرة : ٩٩ .

(٥) النساء : ٨٢ .

(٦) البقرة : ٨٨ .

لم يألوا جهداً في ضبطها وبيانها.

وكذلك الأئمة المجتهدون والفقهاء الأوّلون علَّمونا طرائق الاستهداء والاجتهاد، والاستنباط والتخريج والتفريع، وقياس النظير على النظير، فهم أرشدونا إلى الاستهداء وما أحدٌ منهم دعانا إلى الاقتداء به مطلقاً.(مرحى).

ثم أننا إذا أردنا أن نُدقِّقَ النظر في مرتبة علم أولئك المجتهدين العظام لا نجد فيهم علماً وهبيّاً أو كسبيّاً خارقاً للعادة، فهذا الإمام الشافعي رحمه الله، وهو أغزرهم مادّة وأوّلُ مَنْ وضع أصولاً لفقهه، نجده قد أسَّس مذهبه على اللغة فقط من حيث المشترك والمتباين والمترادف، والحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والشرط والجزاء، والاستثناء المتصل والمنفصل والمنقطع، والعطف المرتّب وغير المرتّب والفور والتراخي، والحروف ومعانيها إلى قواعد أخرى لا تخرج عن علم اللغة. واتّبعَ أبو حنيفة في إدخاله في أصول مذهبه بعض قواعد منطقية مثل : دلالة المطابقة، والتضمّن والالتزام، ومعرفة الجنس واللون والنوع والفصل والخاصة والعرض، والمقدّمتين والنتيجة والقياس المنتج. وأتبعه أيضاً في قياس ما لم يرد فيه قرآن أو حديث على ما ورد فيه؛ وهكذا فتح كلّ أولئك الأئمة العظام لمن بعده ميداناً واسعاً، فجاء أتباعهم ومدّوا الأطناب، وأكثروا من الأبواب، وتفنّنوا في الأشكال وتنويع الأحكام، وأحدثوا علميّ الأصول والكلام. وهذا التوسيع كلّه ليس من ضروريات الدِّين، بل ضرره أكثر من نفعه، وما أشبه الأمور الدينيّة بالأمور المعاشيّة؛ كلما زاد التأنّق فيها بقصد استكمال أسباب الراحة سُلبت الراحة.

والقول الذي فيه فصل الخطاب : إن الله سبحانه وله الحكم لم يرض منّا أن نتبع إلاّ علم الأفضل، بل كُلِّفنا بأن نستهدي من كتابه وسنّة رسوله على حسب إمكاننا وطاقاتنا وهو يرضى منّا بجهدنا حيث قال تعالى :﴿ **لَا يُكَلِّفُ**

ﭐللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾[1] فنسأل الله التوفيق لسواء السبيل.

قال الأستاذ الرئيس : إنّي أحمد الله على توفيقه إيّانا إلى هذا الاجتماع المبارك، الذي استفدنا منه ما لم نكن نعلمه من قبل عن حالة إخواننا وأهل ديننا في البلاد المتباعدة. ولم يكن يسمع بعضنا عن بعض شيئاً إلاّ من السوّاح الغرباء الجهلاء الذين لا يعرفون ما يصفون؛ أو من أهل السياسة والعلماء المتشيعين لهم، الذين ربما يموهون الحقّ بالباطل بقصد تفريق الكلمة ومنع الائتلاف. (مرحى).

ثم قال : هذا، واليوم قد انسحب ذيل الظلّ، وقرب الزوال، وآذن لنا الوقت بالانصراف.

(١) البقرة : ٢٨٦ .

الاجتماع السادس

(التصوّف والتقليد وطرق رفع الاختلاف)

يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ.

في الضحى الأوّل من اليوم المذكور تألّفت الجمعيّة حسب معتادها، وقُرئ الضبط السّابق، واستعدّت الأذهان لتلقّي ما يفيضه الله على ألسنة أهل الإيمان من الإخوان.

قال الأستاذ الرئيس: مخاطباً (الشيخ السّندي): إنّك يا مولانا لم تشاركنا في البحث إلى الآن، فنرجوكَ أن تتكرم على إخوانك بنبذة من عرفانك تنوّر بها أفكارنا، ونرجوك أنْ لا تحتشم من التلعثم في بعض التعبيرات اللغويّة لغلبة العجمة عليك، فإن لك أسوة بالفيروز أبادي[١] والسعد[٢] والفخر[٣] وغيرهم.

فقال الشيخ السّندي : إنكم أيّها السادة الإخوان، سراة أفاضل الزمان، وسُبَّاق فرسان كل ميدان، قد أفدتم وأجدتم، ولم تتركوا لقائل من مجال، ولا لمثلي غير الإصغاء والامتثال. وإني أحب أن أذكر لكم حالتي وفكرتي قبل هذه الاجتماعات، وما أثرته في هذه المفاوضات، فأقول :إنني من خلفاء الطريقة النقشبنديّة[٤]. إذ كان والدي المرحوم هو ناقل هذه الطريقة للأقاليم الشرقية والجنوبية في الهند، وقد صرتُ بعد والدي مرجعاً لعامة خلفائها، ثم

---

(١) الفيروز أبادي : محمد بن يعقوب الشيرازي (٧٣٠-٨١٨ هـ = ١٣٢٩ – ١٤١٥ م) لغوي ألّفَ كتباً كثيرة في التفسير والحديث والتراجم. وتقوم شهرته على تأليفه لمعجم (القاموس المحيط).

(٢) السعد : مسعود بن عمر بن عبد الله (التفتازاني) سعد الدِّين (٧١٢ – ٧٩٣ هـ = ١٣١٢– ١٣٩٠ م) من أئمة العربية والبيان والمنطق له (تهذيب المنطق) و (المطوّل) و (المختصر) وسواها.

(٣) الفخر : فخر الدِّين أبو عبد الله محمد الرازي (٥٤٤-٦٠٦ هـ = ١١٤٩– ١٢٠٩ م) متكلم وفيلسوف ومفسّر للقرآن الكريم. لُقب بشيخ الإسلام. له مصنفات كثيرة أشهرها تفسيره للقرآن المسمّى (مفاتيح الغيب).

(٤) طريقة صوفية منتشرة في الصين وتركستان والهند وتركيا. مُؤسِّسَها : بهاء الدِّين محمد بن أحمد الفاروقي (ت٧٩١ هـ – ١٣٨٩ م) صوفي أصله من بخارى. له (الأوراد البهائية). و (سلك الأنوار وهدية السالكين).

جرت لي سياحات مكرّرة في تلك الأرجاء، وفي أيالات كاشغر وقازان حتّى سيبيريا وتلك الانحاء، وبسسبب حرصنا على تعميم طريقتنا، صار لها شيوع مهم وانتشار عظيم بين مسلمي هاتيك الديار.

ومن المعلوم أنّ طريقتنا من أقرب الطرائق للإخلاص وأقلّها انحرافاً عن ظاهر الشرع؛ وهي مُؤسَّسَة على الذكر القلبي وقراءة ورد خواجكان، ومراقبة المرشد والاستمداد من الروحانيات[1]. وإنّي لم أكن أفكر قط في أنّ الذكر وقراءة الورد على وجه راتب فيه مظنّة البدعة أو الزيادة في الدِّين ولا أنّ المراقبة والاستفاضة والاستمداد من أرواح الأنبياء والصالحين فيها مظنّة الشِّرك، إلى أن حضرتُ هذه الاجتماعات المباركة فسمعتُ، وقنعتُ، وأقلعتُ، والحمد لله.

على أنّي عزمتُ أيضاً على أتلطَّفَ في الأمر بالنصيحة والموعظة الحسنة عسى أن أُوفق لهداية جماهير النقشبندية في تلك البلاد، وإلى تصحيح وجهتهم بأن يذكروا الله قلباً ولساناً بدون عدد مخصوص معين، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم[2] بدون هيئة أو كيفية معينة، متى شاؤا وأرادوا بدون وقت مرتّب، فرادى ومجتمعين بدون تداعٍ. وأن يتركوا المراقبة، ويستعيضوا عنها بالدعاء والغفران والرحمة لكل من الشيخ بهاء الدِّين النقشي[3] مرشدهم الأعلى ولخليفته مرشدهم الأدنى الذي هم مبايعوه.

و قد فتح الله عليّ ببركة جمعيتنا هذه فهم أسباب ميل المسلمين في هاتيك البلاد، صالحهم وفاسقهم، للآنتساب إلى إحدى الطرائق الصوفية، وكنتُ قبلاً أحمل ذلك على مجرد إخلاص المرشدين، والآن اتضح لي أن السبب هو

---

(١) طقوس وقراءات يمارسها أتباع النقشبندية.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ آل عمران :١٩١ .

(٣) بهاء الدين محمد بن أحمد الفاروقي (ت ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ م) صوفي أصله من بخارى . مُؤسِّس الطريقة النقشبندية. وقد ذكرناه آنفاً .

: أن السادة الفقهاء عندنا من الحنفية والشافعية قد ضيّقوا على المسلمين العبادات تضييقاً لا يعلم أن الله تعالى يطلبه من عباده، وكثّروا الأحكام في المعاملات تكثيراً ضيّع الناس، وشَوَّشَ الإفتاء والقضاء، حتى صار المسلم لا يكاد يمكنه أن يُصَحِّحَ عبادته أو معاملته ما لم يكن فقيهاً.

فتوسع الفقهاء دائرة الأحكام أنتج تضييق الدِّين على المسلمين تضييقاً أوقع الأمة في ارتباك عظيم، ارتباكاً جعل المسلم لا يكاد يمكنه أن يعتبر نفسه مسلماً ناجياً لتعذّر تطبيق جميع عباداته ومعاملاته على ما يتطلبه منه الفقهاء المتشددون الآخذون بالعزائم، فبذلك أصبح الجمهور الأكبر من المسلمين يعتقدون في أنفسهم التهاون اضطراراً، فيهون عليهم التهاون اختياراً كالغريق لا يحذر البلل.

لأنه كيف يطمئن الحنفيّ العاميّ حقَّ الاطمئنان في الاستبراء لتصحَّ طهارته؟ وكيف يحسن مخارج الحروف كلّها وقد أفسدت العجمة لسانه لتصح صلاته؟ وكذلك كيف يُصَحِّحُ الشافعيُّ العاميُّ نيَّته على مذهب إمامه في الصلاة، أو يعرف شدّات الفاتحة الثلاث عشرة، وينتبه لإظهارها كلّها ليكون أدّى فريضته؟

بل أي عامي يعرف وصف الكلام، ومعنى الاستواء، وتأويل الوجه واليد واليدين، وتعيين الجزء الاختياري، وإضافة الأعمال له أو لله، إلى غير ذلك، ليكون عند الحنفية الماتريدية[1] والشافعية الأشاعرة[2] مسلماً مُقلِّداً يُرجى له قبول الإيمان. ومَنْ مِنَ العامة يحيط علناً بكل ما ثبت

---

(١) الحنفية الماتريدية: هم الذين جمعوا بين فقه أبي حنيفة وعقائد أبي منصور السمرقندي الماتريدي (ت: ٣٣٣ هـ = ٩٢٤ م) فقيه حنفي أصولي من أئمة علماء الكلام ولد وتوفي في سمرقند. دافع عن عقائد السنة ضد المعتزلة والفرق الأخرى له: شرح الفقه الأكبر والتوحيد وغيرهما.

(٢) الشافعية الأشاعرة : هم الذين جمعوا بين فقه الشافعي وعقائد أبي الحسن الأشعري. وأبو الحسن الأشعري (٢٦٠ – ٣٢٤ هـ = ٨٧٤ – ٩٢٦ م) وُلد في البصرة، وتُوفي في بغداد. مُتكلِّم من الأئمة، أَسَّسَ مذهب الأشاعرة، أَلَّف كتباً كثيرة منها : (مقالات الإسلاميين).

بالنقص القاطع حتى صفرة بقرة بني إسرائيل مثلاً [1] لكيلا يعتقد خلافه، فيكفر، فيحبط عمله، ومن جملته انفساخ نكاحه.

و كم من مسلم يحكم عليه الفقيه الشافعي بأنه نسل سفاح ومقيم على السفاح وراض لمحارمه بالسفاح، إلى غير ذلك مما ينافي سماحة الدِّين ومزية التديُّن به في الدنيا قبل الآخرة.

فبهذا التضييق صار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان، الذين يُهوّنون عليه الدِّين كل التهوين. (مرحى).

و هم القائلون : إنَّ العلمَ حجابٌ، وبلمحة تقع الصلحة، وبنظرة من المرشد الكامل يصير الشقيُّ وليَّاً، وبنفخة في وجه المريد أو تفلة في فمه تطيعه الأفعى، وتحترمه العقرب التي لدغت صاحب الغار عليه الرضوان [2]، وتدخل تحت أمره قوانين الطبيعة، وهم المقرُّون : بأن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها إلاّ الكذب، وأن الاعتقاد اولى من الانتقاد، وأن الاعتراض يوجب الحرمان، أي أن تحسين الظن بالفسّاق والفجّار أولى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك من الأقوال المهوّنة للدِّين والأعمال التي تجعله نوعاً من اللهو الذي تستأنس به نفوس الجاهلين.

على أن الناس لو وجدوا الصوفية الحقيقيين؛ وأين هم، لفرّوا منهم فرارهم من الأسد، لأن ليس عند هؤلاء إلاّ التوسل بالأسباب العادية الشاقة لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات، وتصفية القلوب من شوائب الشَّرَهِ في حُبِّ الدنيا، وحمل الطبائع بوسائل القهر والتمرين على الاستئناس بالله وبعبادته عوضاً عن الملاهي المضرّة، وذلك طلباً للراحة الفكرية والعيشة الهنية في الحياة الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة. وأين التهوين السالف البيان لصوفية

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى :﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفۡرَآءُ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ البقرة : ٦٩.

(٢) تعليق ط. م : (المنقول أن الصِّديق لَسَعْتهُ حيّة لا عقرب، ولم يصحّ). ا.هـ.

الزمان من هذه المطالب التهذيبية الشاقّة ؟ ومن حقائق العرفان المعنوية التي لا يعرفها ويتلبّس بها إلا مَنْ وفّقَهُ الله، وكشفَ عن بصيرته. وذلك نحو العرفان عن يقين وإيمان : إنَّ مَنْ أعزَّ كلمةَ الله أعزّه الله، ومَنَ نصر الله نصرَهُ الله، ومَنْ توقَّعَ الخير أو الشر جازماً نال ما توقع. ومَنْ تصفو نفسه يُلهَمُ رشده، ومَنِ اتكل على الله حقاً كفاه الله ما أهمَّهُ، ومَنْ دعا الله مضطراً أجاب دعاءه. إلى غير ذلك من الحقائق المقتبسة من القرآن وأسرار حكمة سيّد ولد عدنان صلى الله عليه وسلم. (مرحى).

قال الأستاذ الرئيس : قد أحسن أخونا الشيخ السَّندي توصيفه المتفقهة المتشدِّدَة والمتصوِّفة المخفِّفة، وإني ملحقٌ تقريرَهُ بما يناسب أن يكون مقدّمة تاريخية لبحث التصوف فأقول : قد كان التنسُّكُ في المسلمين شيمة لأكثر الصحابة والتابعين، ثم إنَّ التوسُّعَ في الدنيا قَلَّلَ عدد المتنسكين، فصار لأهله حرمة مخصوصة بين الناس. وصار بعض المتفرّغين يصون نيل هذه الحرمة بالتلبس بالتنسك وإلزام النفس بالتمرن عليه؛ وحيث كان من لوازم استحصال تلك الحرمة إظهار التقشف اتخذوا الصُّوف دثاراً واسم الفقر شعاراً، فغلب عليهم اسم الصوفية واسم الفقراء. ثم إنَّ بعض العلماء من هؤلاء المعتزّين بالتنسُّك، أحبّوا التميز بالرئاسة أيضاً، فصاروا يدعون الناس إلى التنسُّكِ، ويرشدوهم إلى طرائق التمرن عليه، ومن هنا جاء اسم الإرشاد واسم الطريق.

و حيث كانت إرادة الاعتزاز بالدِّين إرادة حسنة لأن فيها إعزازاً لكلمة الله، فلا يؤخذ شيء على المرشدين الأوّلين، ولا على البعض النادر من المتأخرين ولو من أهل عهدنا هذا كالسادات السنوسية [1] في صحراء أفريقيا.

أما دخول الفساد على التصوُّف وإضراره بالدِّين وبالمسلمين مما ذكره أخونا الشيخ السَّندي وغيره من الإخوان الكرام، فقد نشأ من أن بعض المرشدين

(١) السنوسية : طريقة صوفية وسياسية، أسَّسها في ليبيا محمد بن علي الجزائري السنوسي الإدريسي (١٢٠٢ – ١٢٧٦ هـ – ١٧٨٧ – ١٨٥٩ م) قاوم أصحابها الاحتلالين الإيطالي والفرنسي، وثاروا على الحكم العثماني.

من أهل القرن الرابع، لما رأوا توسُّعَ الفقهاء في الشَّرْعِ، وتفنن المتكلمين في العقائد، فهم كذلك اقتبسوا من فلسفة فيثاغورس[١] وتلامذته في الإلهيات قواعد، وانتزعوا من لاهوتيات الكتابيين والوثنييّن جملاً، وألبسوها لباساً إسلامياً فجعلوه علماً مخصوصاً ميّزوه باسم علم التصوُّف، أو الحقيقة، أو الباطن.

و هكذا بعد أن كان التصوُّف في القرن الخامس وما بعده بعض غلاة دهاة، رأوا مجالاً في جهل أكثر الأمة لأن يحوزوا بينهم مقاماً، كمقام النبوّة، بل الألوهية، باسم الولاية والقطبانية[٢] أو الغوثية[٣]؛ وذلك بما يدّعون من القوة القدسية والتصرف في الملكوت، فوسّعوا فلسفة التصوُّف بأحكام تشبه الحكم، بنوها على زخرف التأويلات والكشف والتحكّمات والمثال والخيال والأحلام والأوهام، وألّفوا في ذلك الكتب الكثيرة والمجلدات الكبيرة، محشوة بحكايات مكذوبة، وتقريرات مخترعة، وقضايا وتركيبات لا مفهوم لها البتة حتى ولا في مخيلة قائلها، كما أن قارئيها أو سامعيها لا يتصوَّرون لها معنى مطلقاً وإن كان بعضهم يتظاهر بحالة الفهم، ويتلمّظ بأن للقوم اصطلاحاتٍ لا تُدرَكُ إلاّ بالذوق الذي لا يعرفه إلا مَنْ شرب مشربهم.

و بعض هؤلاء الغلاة قُتلوا كفراً [٤] ومع ذلك شاعت كتبهم ومقالاتهم، وحازوا المقام الذي ادّعوه بعد مماتهم، لأن في تعظيم شأنهم ترويج مقاصد المقتفين لآثارهم كالإباحييّن. وبعضهم لم يكن من الغلاة، ولكن أخلافه .

---

(١) فيثاغورث : (من القرن السادس قبل الميلاد) فيلسوف ورياضي يوناني، عاش زاهداً. قال بتناسخ الأرواح وبقيام حركة الكون على الأرقام. ورد ذكره آنفاً.

(٢) القطبانية وتعني أن العالم مرتكز على بركات وولايات أقطاب الصوفية الذين قد لايعرفهم أحد في عصرهم، وإنما يكشف أمرهم بعد مماتهم. وحسب اعتقادات أغلب الصوفيين فإن الله مثبت الحياة في الأرض كرامة لأربعة أقطاب عندما يموت قطب يكون قد بويع قطب آخر.

(٣) الغوثية : مرتبة من مراتب الصوفية أشهر من لُقِّبَ به محمد الهندي (ت ٩٧٠ هـ = ١٥٦٢ م) وهو سليل فريد الدِّين العطار، له (تذكرة الأولياء).

(٤) ربما يقصد بذلك الحلاج ومحيي الدِّين بن عربي وهما من مشاهير المتصوِّفين الذين قُتلوا لاعتقاداتهم.

إعظاماً لأنفسهم في نظر حُمقاء الأمّة[1] . نسبوا إليه الغلو، وعزوا إليه كتباً ومقالات لا يعرفها، ومنهم الأفاعيّون[2] يفعلون ذلك حتى في عهدنا هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال الأستاذ الرئيس للخطيب القازاني : إنّ الإخوان يترقبون منه أيضاً أن يفيدهم بما يلهمه الله مما يناسب موضوع مباحث الجمعية.

فقال الخطيب القازاني : إن الإخوان الأفاضل لم يتركوا قولاً لقائل. ولذلك، لا أجد ما أتكلم فيه، وإنما أقصُّ عليهم مساجلة جرت في الاستهداء بين مفتي قازان وإفرنجي روسي من العلماء المستشرقين العارفين باللغة العربية، المولعين باكتشاف وتتبع العلوم الشرقية ولاسيما الإسلامية، وقد هداه الله إلى الدِّين المبين، فاجتمع بمفتي قازان، وقال له : إنّه أسلم جديداً وهو بالغٌ من معرفة القرآن، والسنّة مبلغاً كافياً، وعالم بموارد ومواقع الخطأ علماً وافياً، فيريد أن يتتبَّعَ القرآن وما يمكنه أن يتحقَّق وروده عن رسول الله، فيعمل بما يفهمه، ويمكنه تحقيقه على حسب طاقته، لأنه لا يرى وجهاً معقولاً للوثوق بزيد أو عمرو أو بكر أصحاب الأقوال المتضاربة المتناقضة، لأنّ حكم العقل في الدليلين المتعارضين التساقط، وفي البرهانين المتباينين التهاتر، فهل من مانع في الإسلاميّة يمنعه من ذلك ؟

فأجابه (المفتي) : إن أكثرية الأمّة مطبقة[3] منذ قرون كثيرة على لزوم اعتماد ما حرّره أحد المجتهدين الأربعة المنقولة مذاهبهم، فإطباق الأكثرية دليل الصحّة، فلا يجوز الشذوذ.

فقال (المستشرق) : لو كان الصواب قائماً بالكثرة والقدم، وإنْ خالف

---

(١) لعلمهم بأن أكثر الناس (حمقاء) لا سيّما الأمراء، ودأبهم تعظيم العظام البالية، حتى لو فرض أن أحيا الله أصحابها لأعرضوا عنهم، ومالوا إلى أموات غيرهم. (ك). في ط. م (حمقى).

(٢) الذين يمارسون الحيل باستخدام الأفاعي.

(٣) متّفقة، مُجْمِعَةْ.

المعقول، لاقتضى ذلك صوابيّة الوثنية ورجحان النصرانيّة، ولاقتضى كذلك عكس حكم ما صحّ وروده عن النبي صلى الله عليه وسلّم : من أنَّ أمته تفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في النّار إلاّ واحدة، هي التي كان هو وأصحابه عليها[١]. وقد وقع ما أخبر به، وكل فرقة تدّعي أنّها هي تلك الواحدة الناجية، ولا شكّ أنّ الاثنتين وسبعين فرقة أكثر من أيّ واحدة كانت منها، فأين يبقى حكم الأكثرية ؟

فأجابه (المفتي) : إنّه قد سبقنا من أهل التحقيق والتدقيق الذين تشهد آثارهم بمزيد علمهم ألوف من الفضلاء، وكلّهم اعتمدوا لزوم اتّباع أحد تلك المذاهب القديمة، حتّى بدون مطالبة أهلها بدلائلهم، لأنّ مداركنا قاصرة عن أنْ توازِنَ الدلائلَ وتميّز الصحيحَ والراجحَ، ومثلنا في ذلك الطبيب لا يلزمه أن يجرّب طبائع المفردات كلّها ليعتمد عليها، بل يأخذ علمه بطبائعها عمّا دوّنه أئمة الطب.

فقال المستشرق : نعم، إن الطبيب يعتمد على ما حقَّقه الأوّلون، ولكنْ، فيما اتّفقوا عليه، وأمّا ما اختلفوا فيه على طرفي نقيض بين نافع أو سام فلا يعتمد فيه أحد القولين، بل يهملهما، ويُجدّد التجربة بمزيد الدقّة والتحقيق، لأن اعتماده على أحدهما يكون ترجيحاً بلا مرجّح، هذا وإننا لنرى ببادىء النظر أنّ هؤلاء الأئمة الأقدمين لا يقدرون أن يطّلعوا على ما لا يقدر المتأخرون أنْ يطّلعوا عليه، ويكفينا برهاناً على ذلك :

(أولاً) تخالفهم في كلّ الأحكام، إلاّ فيما قلّ وندر، تخالفاً مهمّاً ما بين موجب وسالب، ومُحلِّل ومُحرِّم، حتّى لم يمكنهم الاتفاق في نحو مسائل الطهارة وستر العورة، وما يحلّ أكله، وما لايحلّ.

(ثانياً) : تردّدهم في الأحكام وتقلّبهم في الآراء، وذلك كحكم أحدهم في

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة وأبو داود والنسائي، وقال الترمذي: ((حديث حسن صحيح)). سنن الترمذي، ج٧،ص ٢٩٧.

المسألة، ثم عدوله عنه إلى غيره؛ كما يقول أصحاب الشافعي إنّه كان له مذهبان، رجع بالثاني منهما عن الأوّل[1].

(ثالثاً) : اختلاف أتباعهم في الرواية عنهم كأصحاب أبي حنيفة الذين قلّما يتفقون على رواية عنه، ويُؤَوِّلُ ذلك لهم بعض المتأخرين بتعدُّدِ مذاهبه في المسألة الواحدة.

والحاصل، أن الإنسان الذي يتقيّد بتقليد أحد أولئك الأئمّة، ولاسيّما الإمام الأعظم منهم، لايتخلّص من قلق الضمير، أو يكون كحاطب ليل. بناءً على ذلك، لا بدّ للمتحري في دينه من أن يهتدي بنفسه لنفسه، أو يأخذ عمّن يثق بعلمه ودينه وصواب رأيه ولو من معاصريه، لأن الدِّين أمر عظيم لا يجوز العقل والنقل فيه المماشاة واتّباع التقليد.

أجابه (المفتي) : نحن لا نحتّم بأن الصواب مقطوع فيه في جانب أحد تلك المذاهب، بل المقلّد منا إما أن يقول بإصابة الكل، أو يرجّح الخطأ في جانب مَنْ ترك مع احتمال الصواب.

فقال (المستشرق) : هذا القول يستلزم تعدّد الحق عند الله، أو القول بالترجيح بلا مرجّح، لأنكم تتحامون المفاضلة بين الأئمة. واعترافكم باحتمال الجميع للخطأ يقتضي جواز تركها كلّها مع أنكم توجبون اتّباع أحدها. أفليست هذه قضايا لا تتطابق، ولا تعقل؟ فلماذا لا تُجوِّزون . وأنتم على هذا الارتباك . أن يستهدي المبتلي لنفسه، فإن تحقَّقّ عنده شيء عن يقين أو غلبة ظن اتّبعه وإلاّ كان مختاراً. وهل يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ؟

أجابه (المفتي) : إننا لِبُعدِ العهد لم يبق في إمكاننا التحقيق، فما لنا من سبيل غير اتّباع أحد المتقدمين ولو كان تحقيقه يحتمل الخطأ.

قال (المستشرق) : ما الموجب لتكليف النفس ما لم يكلّفها به الله ؟ أليس

---

(١) ولكن الشافعي فعل ذلك بحسب مقتضيات الظروف تبعاً لقاعدة (تتغير الأحكام بتغيّر الأزمان). لذلك، اختلفت أحكامه في مصر عنها في العراق.

من الحكمة أن يحفظ الإنسان حريّته واختياره، فيستهدي بنفسه لنفسه حسب وسعه، فإنْ أصاب كان مأجوراً، وإنْ أخطأ كان معذوراً، ويكون ذلك أولى من أن يأسر نفسه للخطأ المحتمل من غيره ؟

أجابه (المفتي): إن هذا الغير أعرف منّا بالصواب، وأقلّ منّا خطأ، فتقليده أقرب للحق.

قال (المستشرق): هذا مسلم فيما اتّفق عليه الأقدمون، أمّا في الخلافات فالعقل يقف عند الترجيح بلا مرجّح، ولاسيّما إذا كنتم لا تجوّزون أيضاً البحث عن الدليل ليحكم المبتلي عقله في الترجيح، بل تقولون نحن أسراء النقل، وإنْ خالفَ ظاهرَ النص.

أجابه (المفتي) : إننا إذا أردنا أن لا نعدّ من شرعنا إلاّ ما نتحقق بأنفسنا دليله من الكتاب أو السنّة أو الإجماع تضيق حينئذ علينا أحكام الشرع، فلا تفي بحلّ إشكالاتنا في العبادات، ولا لتعيين أحكام حاجاتنا في المعاملات، فيحتاج كلّ منّا أن يعمل برأيه في غالب دقائق العبادات والمعاملات، ويصير القضاء غير مقيّد بإيجابات شرعية. وهل من شك في أن اطراد الآراء وانتظام المعاملات أليق بالحكمة من : لا اطراد ولا نظام ؟

قال (المستشرق) : لا شكّ في ذلك، ولكنْ، أين الاطراد والانتظام منكم، ولا يكاد يوجد عندكم مسألة في العبادات أو المعاملات غير خلافيّة، إنْ لم تكن في المذهب الواحد فبين مذهبين أو ثلاث ؟ هذا وربّما يُقال إنّ توفيق العمل على قول من اثنين أو أكثر، أقرب للاطراد من الفوضى المحضة في تفويض الحكم لحرية القاضي. فَيُجَاب على ذلك أن الأمر أمر ديني ليس لنا أن نتصرّف فيه برأينا، ونعزوه إلى الله ورسوله كذباً وافتراءً وإفساداً لدين الله على عباده، ولو إن الأمر نظام وضعي لمَا كان أيضاً من الحكمة أن يلتزم أهل زماننا آراء مَنْ سلفوا من عشرة قرون، ولا أن يلتزم أهل الغرب بقانون أهل الشرق. وعندي أنّ هذا التضييق قد استلزم ما هو مشاهد عندكم من ضعف

حرّمه الشرع المقدّس.

ثم قال (المستشرق) وأعيد قولي إنكم تحبون أن تكلّفوا أنفسكم بما لم يكلّفكم به الله، ولو أن في الزيادات خيراً لاختارها الله لكم، ولم يمنعكم منها بقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [١] أي مما يتعلّق بالدِّين[٢]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٣]. وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [٤]. ولكنْ، عَلِمَ اللهُ، الخيرَ في القدر الذي هداكم إليه، وترك لكم الخيار على وجه الإباحة في باقي شؤونكم لتوقفوها على مقتضيات الزمان أبي الغير[٥] وموجبات الأحوال التي لا تستقر، فبناءً عليه، إذا أتيتم أكثر أعمالكم الحيويّة باطمئنان قلب بإباحتها، يكون خيراً من أن تأتوها وأنتم حيارى لا تدرون هل أصبتم فيها أم خالفتم أمر الله؟ فتعيشون وأفئدتكم هواء، تحاذرون في الدِّين شؤم المخالفة، وفي الآخرة عذاباً عظيماً. وليس هذا مخافة الله التي هي رأس الحكمة، ولا من مراقبة الوازع التي هي مزية الدِّين، بل هذا من الارتباك في الرأي والاضطراب في الحكم، ونتيجة ذلك فُقِدَ الحزم والعزم في الأمور.

ثم قال : اعلم أيها المفتي المحترم، أنَّ هذه الحالة التي أنتم عليها من التشديد والتشويش في أمر الدِّين، هي أكبر أسباب انحطاط المسلمين بعد القرون الأولى في شؤون الحياة، كما انحطّ قبلهم الإسرائيليون بما شدّده وشوّشه

(١) الأنعام : ٣٨.

(٢) يريد أن القرآن محيط بأحكام الدِّين وما يناسبه، لا بكل ما في علم الله تعالى، كما يتوهَّم الكثيرون (ك).

(٣) المائدة :٣.

(٤) البقرة : ٢٢٩.

(٥) وصف الزمان بأنه أبو التغيير، وهو بدل من الزمان أو صفة له.

عليهم أهل التلمود[1]، وكما انحطّت الأمم النصرانيّة لمّا كانت (أرثوذكسيّة)[1] مغلظة أو (كاثوليكيّة) [1] متشدّدة، يتحكّم فيها البطارقة والقسيسون بما يشاؤون تحت اسم الدِّين، فكانوا يُكلّفون الناس أن يتّبعوا ما يلقنونهم من الأحكام بدون نظر ولا تدقيق؛ حتّى كانوا يحظرون عليهم أن يقرؤوا الإنجيل أو يستفهموا معنى التثليث الذي هو أساس النصرانيّة كما أن التوحيد أساس الإسلامية. وبقي ذلك إلى أن ظهرت (البروتستان) [1] أي الطائفة الإنجيليّة التي رجعت بالنصرانية إلى بساطتها الأصلية، وأبطلت المزيدات والتشديدات التي لا صراحة فيها في الأناجيل، وإلى أن اتّسع من جهة أخرى عند الأمم النصرانيّة نطاق العلوم والفنون رغماً عن معارضة رجال الكهنوت لها، فتلطَّفت أيضاً الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة عند العوام، واضمحلّتا بالكليّة عند الخواصّ. لأن العلم والنصرانية لا يجتمعان أبداً، كما أن الإسلامية المشوبة بحشو المتفننين تُضَلِّلُ العقولَ وتُشوّش الأفكار.

أمّا الإسلامية السَّمحاء، الخالصة من شوائب الزوائد والتشديد، فإنّ صاحبها يزداد إيماناً كلّما ازداد علماً ودقّ نظراً، لأنه باعتبار كون الإسلاميّة هي أحكام القرآن، وما ثبت من السنّة، وما اجتمعت عليه الأمّة في الصَّدر الأول، لايوجد فيها ما يأبه عقل، أو يناقضه تحقيق علمي.وكفى شرفاً للقرآن العزيز أنه . على اختلاف مواضيعه من توحيد وتعليم وإنذار وتبشير وأوامر ونواه وقصص وآيات آلاء[2] . قد مضى عليه ثلاثة عشر قرناً تمخضه أفكار الناقدين المعادين، ولم يظفروا فيه ولو بتناقض واحد، كما قال الله تعالى فيه ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[3]. بل

(١) سبق تعريفها في تحقيقنا لصحيفة (الشهباء) ضمن هذه المجموعة التي تضمُّ الأعمال الكاملة للكواكبي.

(٢) نِعَم .

(٣) النساء : ٨٢ .

الأمر كما تنبّه إليه المدقِّقون المتأخِّرون أنّه كلّما اكتشف العلم حقيقة وجدها الباحثون مسبوقة التلميح أو التصريح في القرآن. أودع الله ذلك فيه ليتجدّد إعجازه، ويتقوّى الإيمان به أنّه من عند الله، لأنّه ليس من شأن مخلوق أن يقطع برأي لا يبطله الزمان.

فهذه القضايا التي قرّرها حكماء اليونان وغيرهم على أنّها حقائق، ولم تتردَّد فيها عقول عامة البشر ألوفاً من السنين، أصبحت محكوماً على أكثرها بأنها خرافات.

وكذا يقال : كفى السنّة النبويّة شرفاً، أنّه لم يوجد في أعاظم الحكماء المتقدّمين والمتأخّرين، مَنْ يربو عدد ما يعزى إليه من الحكم التي قررها غير مسبوق بها على عدد الأصابع، مع أنّ في السنّة المحمّدية على صاحبها أفضل التحيّة من الحكم والحقائق الأخلاقيّة والتشريعيّة والسياسيّة والعلميّة ألوفاً من المقرَّرات المبتكرة، ويتجلّى عظم قدرها مع تجدُّد الزمان وترقّي العلم والعرفان.

وكفى بذلك مُلزِماً لأهل الإنصاف بالإقرار والاعتراف لصاحبها عليه السلام بالنبوّة والأفضليّة على العالمين عقلاً، وعلماً وحكمة، وحزماً، وأخلاقاً، وزهداً، واقتداراً، وعزماً. وكفى أيضاً بهذه المزايا العظمى ملزماً بتصديقه في كلّ ما جاء به واتّباعه في كل ما أمر، أو نهى، لأنّ الدهر لم يأتِ بمرشد للبشر أكمل وأفضل منه. (مرحى).

ثم قال (المستشرق) للمفتي : وهذا ما دعاني للإسلام، فلبّيتُ والحمد لله، وعندي أن لو قام في الإسلام سراة حكماء مقدّمون لما بقي على وجه الأرض عاقل يكفر بالله.

ثم قال : وإني أرى أنّه لا يمضي قرن إلاّ ويكثر المهتدون من المستشرقين، ويرسخون في الدِّين، فيتولُّون تحرير شريعة الإسلام، ويفيضون بها على الأنام، حتّى على أهل الركن والمقام. ولا يبعد أن تاتي الأيام بالبرنس

محمد المهتدي الروسي أو الإنكليزي مثلاً، قائماً مقام الإمام، معيداً عزَّ الإسلام بأكمل نظام.

أجاب (المفتي) : لا مانع مما ذكرتَ، ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء، ودينُ الله دينٌ عام لايختصُّ بقوم من الأقوام.

ثم قال (المستشرق): أيّها المفتي المحترم، لا يطاوعني لساني أن أدّعي الغيرة على الملّة البيضاء الأحمديّة أكثر منكَ، إنّما أناشدكَ باللهِ وبحبكَ لدينكَ أن تترك هذه الأوهام التقليديّة القائمة في فكركَ، وتعينني على تأليف كتاب يصوّر حكمة دين الإسلام وسماحته، ليكون سعينا هذا ذخراً عظيماً ننال به فخر وثواب هداية عشرات الملايين، بل مئات الملايين من الناس لهذا الدِّين المبين. ولا يكبرن ما أقول على فكركَ، فإنَّ أهل هذا الزمان المتنوّرين الأحرار لا يُقاسون بأهل الأزمنة المظلمة الغابرة. نعم، وننال أيضاً ثواب حفظ الملايين الكثيرة من أبناء المسلمين العريقين، تلامذة المدارس العصريّة، من هجر الإسلاميّة على صورتها الحاضرة المشوّهة باختلاط الحكم بالخرافات، المعطّلة بثقل التشديدات المبتدعة، فالبدار البدار لأن نفوز بهذه الخدمة التي يكاد يعادل أجرها أجر نبيّ مرسل والله المعين الموفّق.

أجابه (المفتي) : أصبتَ فيما افتكرتَ، ولنِعْمَ ما أشرتَ به، ولكنْ، هذا عملٌ مهمٌّ، يحتاج القيام به لعناية جمعيّة يتكوّن من تضلّع أعضائها في فروع العلوم الدينية علم كاف للإحاطة وحصول الثقة، ولسوء الحظ، لا يوجد مَنْ فيهم الكفاءة في هذه البلاد، ولذلك، يتحتم علينا أن نترك هذه الفكرة آسفين، وندعو الله تعالى أنْ يُلهمَ علماءَ مكة أو صنعاء أو مصر أو الشام القيام بإيفاء هذا الواجب.

ولمّا انتهى الخطيب القازاني إلى هنا قال : هذه هي المساجلة، وقد سمعتُ المفتي يقول إنّه اجتمع بكثير من المستشرقين، فوجدهم كلَّهم يحسنون العربية أكثر من علماء الإسلام غير العرب، مع أنهم يشتغلون في علوم اللّغة

عمرهم كلّه، وما ذلك إلاّ من ظفر مدارس اللغات الشرقيّة الإفرنجيّة بأصول لتعليم العربية أسهل من الأصول المعروفة عندنا.

قال المجتهد التبريزي : إني أرى أنّ الإسلام أصابه فتنتان عظيمتان، ولولا قوّة أساسه البالغة فوق ما يتصوّره العقل لما لبث الدِّين إلى الآن.

أما الفتنة الأولى : فقد قَدَّرَها الله، ومضت على وجهها، وهي حين تشاجروا في الخلافة والملك، وانقسموا على أنفسهم، بأسهم بينهم، يقتل بعضهم بعضاً، وتفرّقوا في الدِّين لتفرقهم في السياسة.

وأما الفتنة الثانية : فلم تزل مستمرة، وهي أنّ الخلفاء العباسيين مالوا إلى تعميق النظر في العقائد، فَخَدَمَهُمْ مَنْ خدمهم من علماء الأعاجم تقرّباً إليهم في علم الكلام، وأكثروا من القيل والقال. ثم سرت العدوى إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من المذاهب، فأقبلوا على التدقيق والجدل في الخلافات بين أبي حنيفة والشافعي. وأثاروا بينهما فتنة عمياء وحرباً صمّاء، وتركوا بقيّة المذاهب، فاندرست، ولم يبق منها سوى مذهب زيد وأحمد في جزيرة العرب، ومذهب مالك في المغرب ومذهب جعفر في بلاد الخزر وفارس. فأكثروا التأليف والتصنيف في هذه المذاهب، كلّ مؤلف يجب أنْ يُبدي ما عنده ليشتهر فضله، وينال حظّه من دنياه، زاعماً أن غرضه استنباط دقائق الشَّرْعِ وتقرير علل المذاهب. فتزاحموا، وتجادلوا، وناقض بعضهم بعضاً، وكان من العلماء بعض الصلحاء المغفّلين شاركوهم في الفتنة وهم لا يشعرون كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى ﴿

(١) البقرة : ١١ و١٢.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.[1]

و هكذا اتّسعت دائرة الأحكام في الشرع، فصار الخَلَفُ عاجزين عن التقاط الفروع فضلاً عن الرجوع إلى الأصول، فاطمأنت الأمة للتقليد، وأقبل العلماء على التعمقات في الدِّين : يغرب المفسّر، ويَتَفَنَّنُ ولو بحكايات قاضي الجنّ لأنه غير مطالب بدليل. ويتفحَّص المحدّث عن نوادر الأخبار والآثار ولو موضوعة لأنه غير مسؤول عن سنده. ويستنبط الفقيه الحكم ولو بالشبه من وجه للازم اللازم للعلة لأن مجال التحكّم واسع. وهذه الفتنة لم تزل مستمرة إلى أن أوقفها قصور الهمم عند الأكثرين.

على أن هؤلاء المتأخرين أخلدوا إلى التقليد الصرف حتى في مسألة التوحيد التي هي أساس الدِّين، ومبدأ الإيمان واليقين، والفارق بين الكفر والإسلام. وجعلوا أنفسهم كالعميان، لا يميزون الظلمة من النور ولا الحق من الزور، وصاروا يحسنون الظّن في كل ما يجدونه مُدوَّناً بين دَفَّتَي كتاب، لأنهم رأوا التسليم أهون من التبصّر، والتقليد أستر للجهل. وصار كل إقليم أو بلد يتعصّبون لمؤلفات شيوخهم الأقدمين، ويتخذون الخلافيات مداراً لتطبيق الأحكام على الهوى، لا يُبالون بحمل أثقال الناس في الدِّين على عواتقهم، يزعمون أنَّ التسليمَ أَسْلمُ، وأنهم أسراء النقل، وإنْ خالف ظاهرَ النّص، ويتوهمون أنّ اختلاف الأئمة رحمة للأمة.

نعم، إن اختلاف الأئمة يكون رحمة إذا حَسُنَ استعماله، ويكون نقمة إذا صار سبباً للتفرقة الدينية والتباغض : كما هو الواقع بين أهل الجزيرة السلفيين، وبين أهل مصر والمغرب والشام والترك وغيرهم من المستسلمين، وبين أهل

---

(١) الكهف : ١٠٣ و١٠٤.

العراق العجم وفارس، والصنف الممتاز من أهل الهند الشيعيين، وبين أهل زنجبار[١] ومَنْ حولهم من الإباضيين[٢] فهذه الفرق الكبرى يعتقد كل منهم أنهم وحدهم أهل السنّة والجماعة، وأنَّ سواهم مبتدعون أو زائغون. فهل . والحالة هذه . يتوهم عاقل أنّ هذا التفرق والانشقاق رحمةٌ لا نقمة، وسببه، وهو التوسع في الأحكام، سبب خير لا سبب شر ؟

و كذلك اختلاف المجتهدين في كلّ فرقة من تلك الفرق، لا يتصوره العقل أن يكون رحمة إلاّ بقيد حَسُنَ استعماله، وإلاّ فيكون نقمة حيث يوجب تفرقة ثانية بين مالكي وحنفي وشافعي مثلاً.

و المراد من حسن استعمال الخلاف، هو أن كل قوم من المسلمين قد اتبعوا مذهباً من المذاهب ترجيحاً أو وراثة أو تعصباً، ولابد أن يكون في المذهب الآخذ به كل قوم بعض الأحكام الاجتهادية، التي تناسب أخلاق القوم أو لا تلائم أحوالهم المعاشية وطبائع بلادهم، فيضطرّون إلى الإقدام على أحد أمرين : إما التمسُّك بتلك الأحكام، وإنْ أضرّت بهم، أو الجنوح إلى تقليد مذهب اجتهادي آخر في تلك الأحكام فقط. وقد كان أكثر العلماء وفقهاء المسلمين إلى القرن الثامن، بل التاسع يختارون الشقّ الثاني، فيقلدون في هذه الحالة المذاهب الأخرى، ولكن بعد النظر والتدقيق في الأدلة كما كان شأنهم في نفس مذاهبهم الأصلية، لئلا يكونوا مُقلّدين تقليداً أعمى لا يجوّزه الدِّين أساساً إلاّ للجاهل بالكلية.

و هذه الطريقة هي الطريقة المتّبعة إلى اليوم في بلاد فارس، والعلماء المتصدِّرون لذلك هم أفراد من نوابغ العلماء المتضلِّعين في علوم مآخذ الدِّين،

---

(١) زنجبار جزيرة في شرق أفريقيا الجنوبي، سكانها خليط من الأفريقيين والهنود والعرب والأوروبيين.

(٢) فرقة معتدلة من الخوارج، أخذت نسبتها من عبد الله بن أباض، وتقابل الأزارقة والصفرية. قام الأباضيون بثورات متعددة ضد الأمويين، وبسطوا نفوذهم على اليمن وحضرموت، أسسوا الدولة الرستمية (٧٦١-٩٠٨) انتشرت تعاليمهم بشكل واسع بين البربر.

أكثرهم ولا سيّما الإيرانيون فهم متفقهون ومتخرّجون على مذهب الإمام "جعفر الصادق " رضي الله عنه المدوَّن عندهم، ويُطلق أهل فارس على هؤلاء العلماء اسم " مجتهدين " تجوّزاً واتّباعاً لعادة الأعاجم في التغالي في التبجيل ونعوت الاحترام، ومن ذلك يُعلم أنّ ما يظنه فيهم إخوانهم المسلمون البعيدون عنهم غير الواقفين على أحوالهم إلا من تفوّهات السياسيين غير صحيح، فما هم كما يقولون عنهم مجتهدون في أصول الدِّين، مجوّزون الرأي في الإجماعيات، مخرجون الأحكام أخذاً من الدلائل الظنية، ولو لم يقل بها أحد من علماء الصحابة أو التابعين وأعاظم أئمة الهداية الأوّلين. فما أحرى أنْ يُسمّى مجتهدو فارس بمرجّحين أو مخرّجين أو فقهاء مدقّقين.

ثم إن بعضهم وصفوا المقلِّد لأحد المذاهب، إذا أخذ في بعض الأحكام بمذهب آخر، مُلَفِّقاً وأخذه تلفيقاً، واستعملوا لفظة تلفيق في مقام التلاعب في الدِّين أو الترقيع القبيح. والحال، ليس ماسمّوه بالتلفيق إلا عين التقليد من كلّ الوجوه، ولابدّ لكل مَنْ أجاز التقليد أن يجيزه، لأنه إذا تأمّل في القضية يجد القياس هكذا : يجب على كل مسلم عاجز عن الاستهداء في مسألة دينية بنفسه أن يسأل عنها من أهل الذكر، أي يُقلّد فيها مجتهداً، وكلّ مقلّد عاجز طبعاً عن الترجيح بين مراتب المجتهدين، فبناءً عليه، يجوز أن يُقلّد في كلّ مسألة دينية مجتهداً ما.

وما المانع على هذا الاعتبار للمسلم المقلِّد أن يتعلَّم كلَّ مسألة من الطهارة والغسل والوضوء والصلاة من مجتهد أو فقيه تابع لمجتهد، فإذا اغتسل بماء دون قلّتين لحقته قطرة خمر، واعتبره طاهراً كما علّمه عالم مالكيّ، غسلاً بدون دَلْكٍ كما علّمه عالم حنفيٌّ؛ وبعد حدث موجب توضّأ، ومسحَ شعراتٍ من الرأس كما علّمه عالم شافعيٌّ، وصلّى بعد خروج دم قليل منه كما علّمه عالم حنبليٌّ، صلاة الصبح بعد طلوع الشمس كما علّمه عالم زيديٌّ، ووصل الفرض بصلاة أخرى بدون خروج من الأولى كما علّمه عالم جعفريٌّ.

أفلا يكون هذا المقلِّد صلّى صلاة تجزئة عند الله ؟ بلى، ثمّ بلى، تجزئة بالضرورة حتى لا يقوم دليل على أن ذلك خلاف الأولى، كما يُقال في حقّ الخروج من الخلافات، لأنّه لا يُعقل أن يُكلّف هذا المقلِّد بأخذ دينه كلّه من عالم واحد، لأنّ الصحابة رضي الله عنهم ـ مع اجتهادهم وتخالفهم في الأحكام ـ كان يصلّي بعضهم خلف بعض، مع حكم المؤتمّ منهم على حسب اجتهاده بعدم صحّة صلاة إمامِهِ، واشتراطه صحّة صلاة المأموم بصحة صلاة الإمام. وهل يتوهّم مسلم أن أبا حنيفة كان يمتنع أن يأتم بمالك، أو يأبى أن يأكل ذبيحة جعفر؟ كلا، بل كانوا أجلَّ قدراً من أن يخطر لهم هذا التعصُّب على بال، وما كان تخالفهم إلاّ من احتياط كلّ منهم لنفسه.

و يوجد في كل مذهب من المذاهب جماعة من تلاميذ الإمام أو الفقهاء المعروفين بالمرجّحين، كلٌّ منهم كان مجتهداً لم يتقيّد بمذهب إمامه تماماً، وخالفه في كثير أو قليل من الأحكام مخالفة اجتهاد بسبب اطّلاعه على أدلّة مجتهد آخر، أو الفتح عليه بما لم يُفتَحْ به على إمامه.

و لأن الدِّين يُلزِمُ المسلمَ بأن يتّبع في كل مسألة منه الشارع لا الإمام، وأن يعمل في مواقع الاجتهاد باجتهاده، لا باجتهاد غيره، وإنْ كان أفضل منه.

و هذا هو أبو حنيفة وأمثاله رحمهم الله تعالى، كانوا أفضل من أن يعتقدوا في أنفسهم الأفضلية على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ومع ذلك، خالفوهما في كثير من الأحكام الاجتهادية. وفقهاء كلّ مذهب من المذاهب، لم يزالوا إلى الآن يُجوّزون الأخذ تارة بقول الإمام، وتارة بقول أحد أصحابه، مع أنّ ذلك هو عين التلفيق. فلماذا لا يجوّز الحنفية مثلاً التلفيق بين أقوال أبي حنيفة والشافعي ومالك وابن عباس ؟ فما هذا إلا تفريق بلا فارق، وحكم بعكس الدليل.

و قد نتج من التفريق بين المسلمين والتشديد عليهم في دينهم ومصالحهم

بدون موجب غير التعصب المخالفة لأمره تعالى : ﴿ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾[1]. (مرحى).

ثم ختم المجتهد التبريزي مقاله بقوله : وليس مقامنا الآن مقام استيفاء لهذا البحث، وإنما أوردتُ هذا المقدار بقصد بيان جواز التلفيق إذا كان عن عرض صحيح كما جوَّزه كثير من فقهاء كلّ المذاهب.

و لاشك أن ضرورة التلفيق أهم من الضرورة التي لأجلها جوَّز الفقهاء الحيل الشرعية مع أنها وصمة عار على الشرع. حيث لا يُعقل أن يقالَ مثلاً إنّ الشفعة مشروعة دفعاً للضرر عن الشريك أو الجار، ولكنْ، يُجوَّز هذا الإضرار للمحتال، أو أن الربا حرام، ولكنْ، إذا أُضيف للقرض ثمن مبيع خسيس بنفيس جاز استباحة مقصد الربا. أو أن إيتاء الزكاة فرض، ولكنْ، إذا أخرج ربّ المال مالَهُ قبل الحول، ثم استعاده سقطت عنه الزكاة.. إلى غير ذلك من إبطال الشرع وجعل التكليف تخييراً والتقيّد إطلاقاً؛ ولا حُجَّة لهم في هذا غير ما رخّص الله به لأيوب[2] عليه السلام من التوصل للبرّ باليمين في قوله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾[3]، وما أبعد القياس بين الحنث وبين إبطال الشرع، ولاشك أنَّ بذلك صار المسلمون كأنهم لا شرع لهم. وقد غضب الله على اليهود لتحيّلهم على صيد السبت فقط. ونحن نجوّز ألف حيلة مثلها بضرورة وبلا ضرورة.

بناءً عليه، من الحكمة أن نلتمس للضرورات أحكاماً اجتهادية، فيأمر بها الإمام إنْ وُجِدَ وإلا فالسلطان. ليرتفع الخلاف، فتعمل بها الأمة مادام المقتضى

---

(١) الشورى :١٣.

(٢) أيوب : نبي ضُرِبَ المثل بصبره. ورد ذكره في التوراة؛ (سفر أيوب) وفي القرآن الكريم في سور (النساء ١٦٣ – الأنعام ٨٤ – الأنبياء ٨٣ – ص ٤١).

(٣) ص : ٤٤.

باقياً. فإذا ألجأ الزمان إلى تبديلها بقول اجتهادي آخر فكذلك يأمر به الإمام أو السلطان رفعاً للخلاف. وبمثل هذا التدبير الذي لا يأباه شرعنا، ولا تنافيه الحكمة نستعوض تلك الحيل المعطّلة للشرع، المسلّمة لترقيعات كل فقيه ومتفقه، بأحكام شرعية إيجابية لا زيغ فيها.

و بنحو ذلك يسلم شرعنا من التلاعب والتضارب، ويتخلّص القضاء والإفتاء من التوفيق على الأهواء، وحينئذ يتحقّق أنّ الخلاف في الفروع رحمة.

والحاصل، أنّه يقتضي على علماء الهداية أن يقاوموا فكر التعصّب لمذهب آخر، فيكون سعيهم هذا منتجاً للتأليف وجمع الكلمة في الأمة.

قال الأستاذ الرئيس : إنّا نشكر أخانا المجتهد التبريزي على بيانه لنا حالة إخواننا أهل فارس، وعلى غيرته للدِّين وقصده التأليف بين المسلمين. أمّا تقريره بخصوص أنّ حكم الإمام إنْ وُجِدَ وإلا فالسلطان، يرفع الخلاف، وبخصوص أنَّ التلفيقَ هو عينُ التقليد، فتقريرٌ يحتاج إلى نظر وتدقيق، وستقوم بمثل هذه التدقيقات في المسائل الدينيّة التي بحث فيها الإخوان الكرام الجمعيةُ الدائمةُ التي سَتُشَكَّل إنْ شاء الله. واليوم قد قرب وقت الظهر، وآن أوان الانصراف.

الاجتماع السابع

(مجمل أسباب الفتور)

يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ.

في صباح اليوم المذكور انتظمت الجمعية، وقُرئ الضبط السابق حسب القاعدة المرعية.

قال الأستاذ الرئيس مخاطباً السيّد الفراتي : إنّ الجمعية لتنتظر منكَ فوق همتكَ في عقدها وقيامكَ بمهمتها التحريرية، أن تفيدها أيضاً رأيك الذاتي في سبب الفتور المبحوث فيه، وذلك بعد أن تقرّر لها مجمل الآراء التي أوردها الإخوان الكرام، حيث أحطت بها علماً مكرّراً بالسمع والكتابة والقراءة والمراجعة فأنت أجمعنا لها فكراً.

هذا، والجمعية ترجو الفاضلَ الشاميَّ والبليغ الإسكندريَّ [١] أن يشتركا في ضبط خطابكَ بأن يتعاقبا في تلقي الجمل الكلاميّة وكتابتها، لأنهما كباقي الإخوان لا يعرفان طريقة الاختصار الخطي المستعمَل في مثل هذا المقام.

نظر الفاضل الشامي إلى رفيقه، واستلمح منه القول، ثم قال : إننا مستعدّان للتشرّف بهذه الخدمة.

قال السيد الفراتيّ : حبّاً وطاعة، وإنْ كنتُ قصير الطَّوْلِ، كليلَ القولِ، قليلَ البضاعةِ. ثم انحرف عن المكتبة[٢]، فقام مقامه عليها الفاضل الشاميُّ والبليغ الإسكندري[٣]، وما لبث أن شرع في كلامه، فقال :

يُستفاد من مذكّرات جمعيتنا المباركة أنّ هذا الفتور المبحوث فيه ناشئ عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه، لا عن سبب واحد أو أسباب قلائل تمكن

(١) كذا وردت، والصواب : البليغ القدسي أو الكامل الإسكندري.

(٢) مكان المكتبة.

(٣) لا ندري لماذا يصرّ الكواكبي على البليغ الإسكندري، مع أنه في هذا التركيب الجديد يجمع بين اسمين من المجتمعين هما البليغ القدسي والكامل الإسكندري.

مقاومتها بسهولة. وهذه الأسباب منها أصول ومنها فروع لها حكم الأصول، وكلّها ترجع إلى ثلاثة أنواع : وهي أسباب دينيّة، وأسباب سياسيّة، وأسباب أخلاقيّة. وإني أقرأ عليكم خلاصتها من جدول الفهرست الذي استخرجته من مباحث الجمعيّة رامزاً للأصول منها بحرف (الألف) وللفروع منها بحرف (الفاء) وهي :

النوع الأول : الأسباب الدينية :

١ . تأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة (ا).

٢ . تأثير المزهّدات في السعي والعمل وزينة الحياة (ف).

٣ . تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية (ا).

٤ . الاسترسال للتخالق والتفرق في الدِّين (ا).

٥ . الذهول عن سماحة الدِّين وسهولة التديّن به (ا).

٦ . تشديد الفقهاء المتأخّرين في الدِّين خلاف السلف (ا).

٧ . تشويش أفكار الأمّة بكثرة تخالف الآراء في فروع أحكام الدِّين (ف).

٨ . فقد إمكان مطابقة القول للعمل في الدِّين بسبب التخليط والتشديد (ف).

٩ . إدخال العلماء المدلّسين على الدِّين مقتبسات كتابيّة وخرافات وبدعاً مضرّة (ا).

١٠ . تهوين غلاة الصوفيّة الدِّين وجعلهم إياه لهوا ولعباً (ف).

١١ . إفساد الدِّين بتفنّن المداجين بمزيدات ومتروكات وتأويلات (ف).

١٢ . إدخال المدلّسين والمقابريّة[١] على العامّة كثيراً من الأوهام (ا).

١٣ . خلع المنجّمين والرمّالين[٢] والسَّحرة والمشعوذين قلوب المسلمين بالمرهّبات (ف).

١٤ . إيهام الدجّالين والمداجين أنَّ في الدِّين أموراً سريّة، وأنَّ العلم حجاب

---

(١) الذين يُعظمون الأضرحة.

(٢) الذين يتنبّؤون بالمستقبل باستخدامهم الرمل.

(ا).

١٥ . اعتقاد منافاة العلوم الحكميّة والعقليّة[١] للدِّين (ا).

١٦ . تطرّق الشِّرك الصريح أو الخفي إلى عقائد العامّة (ف).

١٧ . تهاون العلماء العاملين في تأييد التوحيد (ف).

١٨ . الاستسلام للتقليد وترك التبصّر والاستهداء (ف).

١٩ . التعصّب للمذاهب ولآراء المتأخّرين وهجر النصوص ومسلك السلف (ف).

٢٠ . الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعيّة الحجّ (ا).

٢١ . العناد على نبذ الحريّة الدينيّة جهلاً بمزيّتها (ف).

٢٢ . التزام مالا يلزم لأجل الاستهداء من الكتاب والسنّة (ف).

٢٣ . تكليف المسلم نفسه ما لا يكلّفه به الله، وتهاونه فيما هو مأمور به (ف).

النوع الثاني : الأسباب السياسية :

٢٤ . السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤوليّة (ا).

٢٥ . تفرّق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسيّة (ف).

٢٦ . حرمان الأمّة من حريّة القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل (ف).

٢٧ . فقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمّة (ف).

٢٨ . ميل الأمراء طبعاً للعلماء المدلّسين وجهلة المتصوّفين (ف).

٢٩ . حرمان العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق والتكريم (ا).

٣٠ . اعتبار العلم عطيّة يُحسِنُ بها الأمراء على الأخصّاء وتفويض خدمة الدِّين للجهلاء (ا).

٣١ . قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء (ا) .

---

(١) الفلسفة.

٣٢ . تكليف الأمراء القضاة والمفتين أموراً تهدّم دينهم (ف).

٣٣ . إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملّقين والأشرار (ا).

٣٤ . مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم (ف).

٣٥ . فقد قوّة الرأي العامّ بالحجر والتفريق (ف).

٣٦ . حماقة أكثر الأمراء وتمسّكهم بالسياسات الخرقاء (ف).

٣٧ . إصرار أكثر الأمراء على الاستبداد عناداً واستكباراً (ف).

٣٨ . انغماس الأمراء في الترف ودواعي الشهوات، وبُعدهم عن المفاخرة بغير الفخفخة والمال[1] (ف).

٣٩ . حصر الاهتمام السياسيّ بالجباية والجنديّة فقط (ا).

النوع الثالث : الأسباب الأخلاقيّة :

٤٠ . الاستغراق في الجهل والارتياح إليه (ا).

٤١ . استيلاء اليأس من اللّحاق بالفائزين في الدِّين والدنيا (ف).

٤٢ . الإخلاد إلى الخمول ترويحاً للنفس (ف).

٤٣ . فقد التناصح وترك البغض في الله (ا).

٤٤ . انحلال الرابطة الدينيّة الاحتسابيّة (ا).

٤٥ . فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد (ف).

٤٦ . فقد التربية الدينية والأخلاقيّة (ا).

٤٧ . فقد قوّة الجمعيات وثمرة دوام قيامها (ا).

٤٨ . فقد القوّة المالية الاشتراكيّة بسبب التهاون في الزكاة (ا).

٤٩ . ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال (ف).

٥٠ . إهمال طلب الحقوق العامّة جبناً وخوفاً من التخاذل (ف).

٥١ . غلبة التخلّق بالتملّق تزلّفاً وصغاراً (ف).

---

(١) لأن السلطة مفسدة.

٥٢ . تفصيل الارتزاق بالجنديّة والخدم الأميرية على الصنائع (ف).

٥٣ . توهّم أنّ علم الدِّين قائم في العمائم وفي كلّ ما سُطّر في كتاب (ف).

٥٤ . معاداة العلوم العالية ارتياحاً للجهالة والسفالة (ا).

٥٥ . التباعد عن المكاشفات والمفاوضات في الشؤون العامّة (ا).

٥٦ . الذهول عن تطرّق الشِّرك وشآمته (ا).

ثم قال السيّد الفراتي : هذه هي خلاصات أسباب الفتور التي أوردها إخوان الجمعيّة، وليس فيها مكرّرات كما يُظَنّ. وحيث كان للخلل الموجود في أصول إدارة الحكومات الإسلاميّة دخل مهمّ في توليد الفتور العامّ، فإني أضيف إلى الأسباب التي سبق البحث فيها من قبل الإخوان الكرام الأسباب الآتية، أُعدّدها من قبيل رؤوس مسائل فقط، حيث لو أردتُ تفصيلها وتشريحها لطال الأمر، ولخرجنا عن صدد محفلنا هذا.

والأسباب التي سأذكرها هي أصول موارد الخلل في السياسة والإدارة الجاريتين في المملكة العثمانيّة، التي هي أعظم دولة يهمّ شأنها عامّة المسلمين. وقد جاء أكثر هذا الخلل في الستّين سنة الأخيرة. أي بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها، فعطّلت أصولها القديمة، ولم تحسن التقليد ولا الإبداع، فتشتّت حالها ولاسيّما في العشرين سنة الأخيرة التي ضاع فيها ثلثا المملكة؛ وخرب الثلث الباقي، وأشرف على الضياع لفقد الرجال وصَرْفِ السلطان قوّة سلطنته كلّها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الإصرار على سياسة الانفراد[1].

وأمّا سائر الممالك والإمارات الإسلاميّة فلا تخلو أيضاً من بعض هذه الأصول كما أنّ فيها أحوالاً أخرى أضرّ وأمرّ يطول بيانها واستقصاؤها.

(١) الاستبداد.

والأسباب المراد إلحاقها ملخّصة هي :

الأسباب السياسيّة والإداريّة العثمانيتين :

٥٧ . توحيد قوانين الإدارة[١] والعقوبات، مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي في الأجناس والعادات[٢] (ا).

٥٨ . تنويع القوانين الحقوقيّة، وتشويش القضاء في الأحوال المتماثلة (ا).

٥٩ . التمسّك بأصول الإدارة المركزيّة مع بُعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكّانها (ف).

٦٠ . التزام أصول عدم توجيه المسؤولية على رؤساء الإدارة والولاة عن أعمالهم مطلقاً [٣] (ف).

٦١ . تشويش الإدارة بعدم الالتفات لتوحيد الأخلاق والمسالك في الوزراء والولاة والقوّاد مع اضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الأجناس والأقوام الموجودين في المملكة بقصد استرضاء الكُلّ. (ف).

٦٢ . التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمال بقصد تعسّر التفاهم بين العمال والأهالي، وتعذّر الامتزاج بينهم لتأمن الإدارة غائلة الاتفاق عليها (ف).

٦٣ . التزام تفويض الإمارات المختصّة عادة ببعض البيوت، كإمارة مكة وإمارات العشائر الضخمة في الحجاز والعراق والفرات لمن لا يُحسِنُ إدارتها، لأجل أن يكون الأمير منفوراً مِمَّنْ وُلِّيَ عليهم مكروهاً عندهم، فلا يتفقون معه ضدّ الدولة.

٦٤ . التزام تولية بعض المناصب المختصّة ببعض الأصناف كالمشيخة

(١) أي مركزيّة الحكم.

(٢) من أهم الضروريات أن يحصل كلّ من أهالي تركيا على استقلال نوعيّ إداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم، كما هي الحالة في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشماليّة، وكما يفعله الإنكليز في مستعمراتهم والروس في أملاكهم. (ك). أ. هـ.

(٣) ولذلك، كانت الحالة في الدولة قبل التنظيمات الخيرية خيراً منها بعدها، حيث كان العمّال مسؤولين لدى حضرة السلطان، ثم أطلق سراحهم في عهدنا من كلّ مسؤوليّة، إلاّ في الأفعال بل الأقوال، بل الخواطر التي تتعلّق بحقوق السلطنة (ك). أ. هـ.

الإسلامية والسرّ عسكرية لمن يكون منفوراً في صنفه من العلماء أو الجند، لأجل أنْ لا يتفق الرئيس والمرؤوس على أمر مهم[1] (ف).

٦٥ . التمييز الفاحش بين أجناس الرعية في الغنم والغرم[2].

٦٦ . التساهل في انتخاب العمال والمأمورين، والإكثار منهم بغير لزوم، وإنما بقصد إعاشة العشيرة والمحاسيب والمتملّقين الملحّين.

٦٧ . التسامح في المكافأة والمجازاة تهاوناً بشؤون الإدارة حَسُنَتْ أم سَاءَتْ، كأنْ ليس للملك صاحب.

٦٨ . عدم الالتفاف لرعاية المقتضيات الدينيّة كوضع أنظمة مصادمة للشرع بدون لزوم سياسيّ مهمّ، أو مع اللزوم، ولكنْ بدون اعتناء بتفهيمه للأمّة والاعتذار لها جلباً للقناعة والرضا[3].

٦٩ . تضييع حرمة الشرع وقوة القوانين بالتزام عدم اتباعها وتنفيذها، والإصرار على أن تكون الإدارة نظاميّة اسماً إرادية فعلاً [4].

٧٠ . التهاون في مجاراة عادات الأهالي وأخلاقهم ومصالحهم استجلاباً لمحبتهم القلبيّة فوق طاعتهم الظاهريّة.

٧١ . الغفلة أو التغافل عن مقتضيات الزمان ومباراة الجيران وترقية السكّان بسبب عدم الاهتمام بالمستقبل.

٧٢ . الضَّغط على الأفكار المتنبّهة بقصد منع نموّها وسموّها واطلاعها

---

(١) هكذا تكون احتياطات الحكومات العاجزة. (ك).

(٢) كهضم الدولة العثمانية حقوق العرب في المناصب والارتزاق من بيت المال هضماً لا نسبة فيه، لأنها مميّزة عليهم حال كونهم ثلثي رعيّتها وكُلاًّ من الجركس والبشناق والأكراد والأرناؤوط والروم والأرمن والخروات [=الكروات] والبلغار والعربكير. (ك) في ط. ق الغربكير. وكاستثناء أهل العاصمة وغيرهم حتى بعض البيوت من الخدمة العسكرية والتكاليف الشرعية والعرفية. وكاستثناء غير المسلمين من الخدمة العسكرية لمجّرد كونهم لا يتحمّلون حالة الضَّنْكِ التي عليها الجيش. (ك).

(٣) كاستخدام اليهود قابضي مال أي أُمناء صناديق، وقابضي أعشار السوائم، وفي ذلك عدم رعاية المذاهب التي تستوجب أن لا تسقط الزكاة عن المدافعين، وكاستخدام قضاة بالرسوم أو برواتب جزئية جدّاً. (ك).

(٤) تعطيل بعض أحكام الشرع كافٍ لخرق حرمته، وأما الأحكام النظاميّة، فمع كثرتها البالغة عشرات ألوف القضايا، لم يتفق إلى الآن إجراء شيء منها إلاّ بعض ما يتعلّق بسلب الأموال. (ك). أ. هـ. ويقصد بعبارة (إراديّة فعلاً) : تابعة لمشيئة مالكها.

على مجاري الإدارة، محاسنها، ومعايبها، وإنْ كان الضغط على النموّ الطبيعيّ عبثاً محضاً، ويتأتّى منه الإغراء والتحفّز، وينتج عنه الحقد على الإدارة.

٧٣ . تمييز الأسافل أصلاً وأخلاقاً وعلماً، وتحكيمهم في الرقاب الحرّة وتسليطهم على أصحاب المزايا، وهذا التهاون بشأن ذوي الشؤون يستلزم تسفّل الإدارة.

٧٤ . إدارة بيت المال إدارة إطلاق بدون مراقبة، وجزاف بدون موازنة، وإسراف بدون عتاب، وإتلاف بدون حساب، حتّى صارت المملكة مديونة للأجانب بديون ثقيلة تُوفَّى بلاداً ورقاباً ودماءً وحقوقاً.

٧٥ . إدارة المصالح المهمّة السياسيّة والملكيّة بدون استشارة الرعيّة ولا قبول مناقشة فيها. وإن كانت إدارة مشهودة المضرّة في كُلّ حركة وسكون.

٧٦ . إدارة الملك إدارة مداراة وإسكات للمطّلعين على معايبها حذراً من أن ينفثوا ما في الصدور فتعلم العامّة حقائق الأمور، والعامّة مَنْ إذا علموا قالوا، وإذا قالوا فعلوا، وهناك الطّامة الكبرى.

٧٧ . إدارة السياسة الخارجيّة بالتزلّف والإرضاء والمحاباة بالحقوق والرشوة بالامتيازات والنقود، تبذل الإدارة ذلك للجيران بمقابلة تعاميهم عن المشاهد المؤلمة التخريبيّة، وصبرهم على الروائح المنتنة الإداريّة، ولولا تلك المشاهد والروائح لما وجد الجيران وسيلة للضغط، مع ما ألقاه الله بينهم من العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

ثم قال السيّد الفراتي : إن بعض هذه الأسباب التي ذكرتها، هي أمراض قديمة ملازمة لإدارة الحكومة العثمانيّة منذ نشأتها أو منذ قرون، وبعضها أعراض وقتيّة تزول بزوال محدثها، وربّما كان يمكن الصبر عليها لولا أنّ الخطر قرب . والعياذ بالله – من القلب كما أشار إليه الأستاذ الرئيس في

خطابه الأوّل[1].

ثم قال : ويلتحق بهذه الأسباب بعض أسباب شتّى أفصّلها بعد تعدادها إلحاقاً بالخلاصات. وهي :

أسباب شتّى :

٧٨ . عدم تطابق الأخلاق بين الرعيّة والرعاة.

٧٩ . الغرارة، أي الغفلة عن ترتيب شؤون الحياة.

٨٠ . الغرارة عن لزوم توزيع الأعمال والأوقات.

٨١ . الغرارة عن الإذعان للإتقان.

٨٢ . الغرارة عن موازنة القوة والاستعداد.

٨٣ . ترك الاعتناء بتعليم النساء.

٨٤ . عدم الالتفات للكفاءة في الزوجات.

٨٥ . الخور في الطبيعة، أي سقوط الهمّة.

٨٦ . الاعتزال في الحياة والتواكل.

أمّا عدم التطابق في الأخلاق بين الرعاة والرعيّة، فله شأن عظيم كما يظهر للمتأمّل المدقّق في تواريخ الأمم من أعاظم الملوك الموفّقين والقوّاد الفاتحين كالإسكندرَيْن[2] وعمر[3] وصلاح الدين[1] رضي الله عنهما،

---

(١)أشار حضرة الرئيس وهو الأستاذ المكّي في خطابه الأوّل للحالة السيئة في الحجاز من فقد الأمن في بلد الله الأمين، والجور الفظيع الذي يقع على أهل الحرمين وزوّارهما من تنازع السلطات الثلاث الإمارة؛ والولاية والعسكريّة، وغير ذلك من الأحوال التي لا تُطاق وصار يشتكي منها عامّة الحجاج، ولا سيّما الداخلين تحت سلطة الأجانب وهم السَّواد الأعظم من المسلمين. ولا غرو أنّ هذه الحال تستدعيهم لأن يدعوا حكوماتهم للمداخلة في شؤون إدارة الحجاز، لأجل حصولهم على الأمن والراحة، وحينئذ– لا قدّر الله – يتفانى العرب دون حفظ بيضة الإسلام كما تفانوا قبلاً وحدهم في دفع الصليبيّين عن المسجد الأقصى. (ك).

(٢) الإسكندرَيْن : الإسكندر الكبير (٣٥٦–٣٢٤ ق.م) المُلَقَّب بذي القرنين. وُلد في مقدونية، وتُوفي في بابل. تعلّم على أرسطو. من أعظم الغزاة وأشجعهم. إسكندر ساويرُس (٢٠٥–٢٣٥) إمبراطور روماني. أبعدَ خطر الفرس، وحارب الجرمان. شجّع الأدب والفنون، واتخذ أولبيانُس الفقيه مستشاراً له. اغتيل.

(٣) عمر بن الخطاب.

وجنكيز[٢] والفاتح وشرلكان الألماني[٣] وبطرس الكبير وبونابرت، لم يفوزوا في تلك العظائم إلاّ بالعزائم الصادقة مع مصادقة تطابقهم مع رعاياهم وجيوشهم في الأخلاق والمشارب تطابقاً تاماً، بحيث كانوا رؤوساً حقّاً لتلك الأجسام لا كرأس جمل على جسم ثور أو بالعكس. وهذا التطابق وحده يجعل الأمّة تعتبر رئيسها رأسها، فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها، حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبداً كما قال الحكيم المتنبي :

إنما الناسُ بالملوكِ وهلْ   يُفلحُ عربٌ ملوكُها عجمُ [٤]

ومما لا خلاف فيه أنّ من أهم حكمة الحكومات أن تتخلّق بأخلاق الرعيّة، وتتّحد معها في عوائدها ومشاربها، ولو في العوائد غير المستحسنة في ذاتها. ولا أقلّ من أن تجاري الحكومة الأجنبية أخلاق الرعيّة ولو تكلّفاً وقتيّاً، إلى أن تُوفّق لاجتذابهم إلى لغتها فأخلاقها فجنسيتها، كما فعل الأمويّون[٥] والعباسيون[٦] والموحّدون[٧] وكما تهتم به الدول المستعمرة الإفرنجية في هذا العهد، وكما فعل جميع الأعاجم الذين قامت لهم دول في الإسلامية كآل

---

(١) صلاح الدِّين الأيوبي هو يوسف بن أيوب (٥٣٢-٥٨٩ هـ = ١١٣٨-١١٩٣ م) ولد في تكريت بالعراق، وُتوفي في دمشق. مؤسس الدولة الأيوبيّة. هزم الإفرنج قرب حطين ١١٨٧ م. أسر ملك القدس، وفتح بيت المقدس، ثم هادن الصليبيين.

(٢) جنكيز خان : ابن يشوكي، اسمه الأصلي تيموجين (١١٦٧-١٢٢٧ م) مُنشئ الإمبراطورية المغوليّة التي انتشرت في العالم.

(٣) شارلكان (١٥٠٠-١٥٥٨ م) شارل الخامس، ملك إسبانيا وألمانيا (١٥٥٦) تنازل عن الملك، واعتزل في الدير حتّى وفاته.

(٤) كذا في الأصل، والصَّواب : وإنما الناس بالملوك وما   تُفْلحُ عرْبٌ ملوكها عجمُ

والبيت من البحر المنسرح. ينظر : شرح ديوان المتنبي. وضعه البرقوقي، مج ٢، ج٤، ص ١٧٩.

(٥) بنو أمية، هم سلالة تولّت الحكم (٤٠-١٣٢ هـ = ٦٦٠-٧٥٠م) وكان عددهم /١٦ خليفة، عاصمتهم دمشق. ولمّا قضى العباسيون عليهم في المشرق انتقلوا إلى الأندلس.

(٦) سلالة حكمت بغداد (١٣٢-٦٥٦ هـ = ٧٥٠-١٢٥٨ م) وهم /٣٧ خليفة. ويتحدّرون من العباس بن عبد المطّلب عم الرسول (ص).

(٧) سلالة مغربية (٤٧١-٥٢٥ هـ = ١٠٧٨ - ١١٣٠ م) أسَّسها المهدي بن تومرت على قواعد شيعية في المغرب. قضت على دولة المرابطين عام ١١٤٦، ومدّت نفوذها إلى الأندلس. قضى عليها بنو مرين.

بويه[١] والسلجوقيين[٢] والأيوبيين[٣] والغوريين[٤] والأمراء الجراكسة وآل محمد علي، فإنهم مالبثوا أن استعربوا، وتخلّقوا بأخلاق العرب، وامتزجوا بهم، وصاروا جزءاً منهم. وكذلك المغول[٥] التاتار[٦] صاروا فرساً وهنوداً، فلم يشذّ في هذا الباب غير المغول الأتراك، أي العثمانيين، فإنهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيريّة رعاياهم لهم، فلم يسعوا باستتراكهم[٧] كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا، والمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا، أو يتألمنوا [٨]. ولا يُعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب، كما يُستدلُّ عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثال في حق العرب :

كإطلاقهم على عرب الحجاز (ديلنجي عرب) أي العرب الشحّاذين.

و إطلاقهم على المصريين (كور فلاح) بمعنى الفلاحين الأجلاف.

و (عرب جنكنه سي) أي نَوَرْ العرب. و(قبطي عرب) أي النَّوَر المصريين.

و قولهم عن عرب سوريا : (نه شامك شكري، ونه عربك يوزي) أي دع

---

(١) آل بويه : البويهيون : دولة إسلامية (٣٣٤ – ٤٤٧ هـ – ٩٤٥ – ١٠٥٥ م) تُنسب إلى أبي شجاع بن بويه من الديلم. تحكّم مع أبنائه في فارس وبغداد. لقّبه الخليفة بمعز الدولة. لم يكن للخليفة إبان حكمهم كلمة نافذة. غلبهم السلطان السلجوقي طغرل بك عام ١٠٥٥ م.

(٢) السلجوقيون : سلالة تُنسب إلى سلجوق، مُقدَّم عشيرة الغز التركية. سيطر السلاجقة على خوارزم وإيران، وقضوا على الدولة البويهية في فارس، ثم تجزّأت الدولة البويهية في القرن الثاني عشر الميلادي.

(٣) الأيوبيون : أسرة كردية الأصل، حكمت مصر والشام واليمن، أنشأها صلاح الدِّين الأيوبي (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م).

(٤) الغوريون : أسرة إسلامية تنتسب إلى شرقي أفغانستان، نشأت ببلادغور خلفت الغزنويين في الهند، يرجع ازدهارها إلى السلطان محمد الغوري.

(٥) المغول : شعب آسيوي منتشر في منغوليا ومنشوريا وسيبيريا، وهم رعاة يتبعون البوذية اللامبة، وهي أحد أشكال البوذية، ذات طقوس محكمة وتنظيم سلمي. تزعمهم جنكيزخان وخلفاؤه.

(٦) التتار : فئة من المغول اكتسحت أجزاء من آسيا وأوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد عُرفت سيبيريا ببلاد التتار. يعتنق معظمهم الإسلام.

(٧) جعلهم أتراكاً وهذا الكلام بل سياسة التتريك ولكن الحركة الطورانية فعلت ذلك فيما بعد بإيعاز من مصطفى كمال (أتاتورك).

(٨) يندمجون مع العرب أو الفرنسيين أو الألمان.

الشام وسُكّريّاتها ولا ترَ وجوه العرب.

و تعبيرهم بلفظة (عرب) عن الرقيق وعن كل حيوان أسود.

و قولهم (بِسْ عرب) أي عربيّ قذر.

و (عرب عقلي) أي عقل عربيّ، أي صغير. و(عرب طبيعتي) أي ذوق عربي أي فاسد. و(عرب جكه سي) أي حنك[١] عربي، أي كثير الهزر.

و قولهم (بوني يبارسه م عرب اوله يم) أي إنْ فعلتُ هذا أكون من العرب.

و قولهم (نرده عرب نرده طنبوره) أي أين العرب من الطنبور؟[٢]

هذا، والعرب لا يقابلونهم على كل ذلك سوى بكلمتين، الأولى هي قول العرب فيهم : (ثلاث خُلِقْنَ للجور والفساد : القمل والترك والجراد).

و الكلمة الثانية تسميتهم بالأورام[٣] كناية عن الريبة في إسلاميتهم، وسبب الريبة أن الأتراك لم يخدموا الإسلامية بغير إقامة بعض الجوامع لولا حظّ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم.

و أنهم أتوا الإسلام بالطاعة العمياء للكبراء، وبخشية الفلك أبي المصائب، وباحترام مواقد النيران (أوجاقات) فزادوا بذلك بلاّت في طين الخرافات.

ثم قال السيد الفراتي : أرجو المعذرة من المولى الرومي لأنه يعلم أني ما أفرطتُ، ولولا الضرورة الدينية التي يعلمها لما صرَّحتُ، والناصح الغيور مَنْ يُبكيكَ لا مَنْ يُضحككَ.

قال الأستاذ الرئيس : إنّ أخانا السيد الفراتي خطيب قوّال وفارس جوّال،

---

(١) فك.

(٢) الطنبور : آلة موسيقية وترية ترجع إلى أصل فرعوني. شائعة الاستعمال في سورية والعراق وتركيا، وهو على عدة أصناف أكبرها الطنبور التركي، والصغير منها يُسمّى (بزق).

(٣) نسبة إلى الروم.

والأبحاث التي أشار إليها ذات ذيول طوال مع أنّ اليوم قد قرب وقت الزوال، فموعدنا غداً إن شاء المولى المتعال.

الاجتماع الثامن

(غرارة المسلمين وأنواعها)

يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ

في صباح ذلك اليوم انتظمت الجمعية، وقرأ البليغ[١] الإسكندري ضبط اليوم السابق على العادة المألوفة، وأذن الأستاذ الرئيس للسيّد الفراتي بإتمام بحثه.

فقال السيد الفراتي : إنّ من أعظم أسباب الفتور في المسلمين غرارتهم[٢]، أي عدم معرفتهم كيف يحصل انتظام المعيشة، لأنّه ليس فيهم مَنْ يرشدهم إلى شيء من ذلك بخلاف الأمم السائرة فإنّ من وظائف خدمة الأديان عندهم رفع الغرارة، أي الإرشاد إلى الحكمة في شؤون الحياة. وأمّا الأقوام الذين ليس عندهم خدمة دين، أو الشراذم الذين لا ينتمون لخدمة دينهم، فمستغنون عن ذلك بوسائل أخرى من نحو : التربية المدرسيّة، والأخذ من كتب الأخلاق، وكتب تدبير المنزل، ومفصّلات فن الاقتصاد، والتواريخ المتقنة، والرومانات[٣] الأخلاقية والتمثيلية، أي كتب الحكايات الوضعية، ونحو ذلك مما هو مفقود بالكليّة عند غير بعض خاصّة المسلمين.

على أن الخاصّة السالمين من الغرارة علماً، لا يقوون غالباً على العمل بما يعملون لأسباب شتّى، منها، بل أعظمها جهالة النساء المفسدة للنشاة الأولى وقت الطفولة والصبوة، ومنها عدم التمرّن والألفة[٤] ومنها عدم مساعدة الظروف المحيطة بهم للاستمرار على نظام مخصوص في معيشتهم.

---

(١) كذا وردت، والمراد : الكامل الإسكندري.

(٢) الغرارة : الغفلة.

(٣) المسرحيات والروايات.

(٤) كما يتربى أولاد أكثر أمرائنا على أيدي اللالات أو الخادمات، وما أدراك ما تلك الحيوانات!. (ك).

ثم قال : لا أرى لزوماً للاستدلال على استيلاء الغرارة علينا لأنّها مُدرَكة مسلّمة عند الكافّة، وهي ما ينطوي تحت أجوبتنا عند التساؤل عن هذه الحال بقولنا : إنَّ المسلمَ مصابٌ، وإنّ الله إذا أَحَبَّ عبداً ابتلاه، وإنّ أكثر أهل الجنّة البُلْهُ، وإنّ حسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه[1]، وإنّ غيرنا مستدرجون، وإنهم كلاب الدنيا، وإنّهم أُعطوا ظاهراً من الحياة الدنيا، وإنّهم في غفلة الموت، وغفلة عن أنّ الدنيا شاخت.

ثم قال : فمن الغرارة في طبقاتنا كافّة من الملوك إلى الصعاليك أنّنا لا نرى ضرورة للإتقان في الأمور وقاعدتنا أنّ بعض الشيء يغني عن كلّه. والحقّ أنّ الإتقان ضروري للنجاح في أي أمر كان، يلزم، ويتحتّم ترك ذلك الأمر كليّاً والتحوّل عنه إلى غيره من المستطاع فيه إيفاء حقّ الاتقان.

ومن الغرارة توهّمنا أن شؤون الحياة سهلة بسيطة، فنظنّ أنّ العلم بالشيء إجمالاً ونظرياً بدون تمرّن عليه يكفي للعمل به، فيقدّم أحدنا مثلاً على الإمارة بمجرد نظره في نفسه أنّه عاقل مدبّر قبل أن يعرف ما هي الإدارة علماً، ويتمرّن عليها عملاً، ويكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها.

ويقدّم الآخر منّا على الاحتراف مثلاً ببيع الماء للشرب، بمجرّد ظنّه أنّ هذه الحرفة عبارة عن حملة قربة وقدحاً وتعرّضه للناس في مجتمعاتهم، ولا يرى لزوماً لتلقّي وسائل إتقان ذلك عمّن يرشده مثلاً إلى ضرورة النظافة له في قربته وقدحه وظواهر هيئته ولباسه، وكيف يحفظ برودة مائه، وكيف يستبرقه ويوهم بصفائه ليشهّي به، ومتى يغلب العطش ليقصد المجتمعات، ويتحرّى منها الخالية عن المزاحمين، وكيف يتزلّف للناس، ويوهم بلسان حاله أنّه محترف بالإسقاء كفّاً لنفسه عن السؤال. إلى نحو هذا من دقائق إتقان الصنعة المتوقّفة عليها نجاحه فيها، وإنْ كانت صنعته بسيطة حقيرة.

(١) إشارة إلى بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

ومن (الغرارة) ظنّنَا أن الكياسة في "أدري وأقدر " جواباً للنفس في مقاصد كثيرة شتى. والحقيقة أن الكياسة لا تتحقق في الإنسان إلا في فنّ واحد فقط يتولّع فيه فيتقنه حقَّ الإتقان كما قال تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[1].

فالعاقل مَنْ يتخصّص بعمل واحد، ثم يجاوب نفسه عن كل شيء غيره " لا أدري ولا أقدر " لأن الأول يتكلّف أعمالاً لا يحسنها فتنتظم أموره، ويهنأ عيشه.

فالملك مثلاً وظيفته النظارة العامة وانتخاب وزير يثق بأخلاقه، ويعتمد على خبرته في انتخاب بقية الوزراء والسيطرة عليهم في الكلّيّات. فالملك مهما كان عاقلاً حكيماً لا يقدر على إتقان أكثر من وظيفته المذكورة.

فالملك إذا تغرّر وتنزّل للتداخل في أمور السياسة أو الإدارة الملكية أو الأمور الحربية أو القضاء، فلا شك أنه يكون كرّب بيت يُداخل طبّاخه في مهنته، ويشارك بستانيّه في صنعته، فيفسد طعامه، ويبور بستانه، فيشتكي، ولا يدري أن آفته من نفسه.

و من (الغرارة) اللوث في الأمور، أي تركها بلا ترتيب؛ والحكمة قاضية على كُلّ إنسان، ولو كان زاهداً منفرداً في كهف جبل، فضلاً عن سائس رعية أو صاحب عائلة، أن يتخذ له ترتيباً في شؤونه، وذلك بأن يرتب:

أولاً – أوقاته حسب أشغاله، ويرتّب أشغاله حسب أوقاته. والشغل الذي لا يجد له وقتاً كافياً يهمله بالكليّة، أو يفوّضه لمن يفي حقّ القيام به عنه.

ثانياً – يرتّب نفقاته على نسبة المضمون من كسبه، فإن ضاق دخله عن المبرم من خرجه يغير طراز معيشته، ولو بالتحوّل مثلاً من بلده الغالية

(١) الأحزاب :٤.

الأسعار أو التي مظهره فيها يمنعه من الاقتصاد إلى حيث يمكنه ترتيبها على نسبة كسبه.

ثالثاً – يرتّب تقليل غائلة عائلته عند أوّل فرصة ملاحظاً إراحة نفسه من الكدّ في دور العجز من حياته، فيربي أولاده ذكوراً وإناثاً على صورة أن كلاً منهم متى بلغ أشدّه يمكنه أن يستغني عنه بنفسه، معتمداً على كسبه الذاتي ولو في غير وطنه.

رابعاً – يرتّب أموره الأدبية على نسبة حالته المادية، أعني يرتّب أموره الدينية ولذّاته الفكريّة وشهواته الجسمية ترتيباً حسناً، فلا يُحمّل نفسه منها ما لاتطيق الاستمرار عليه.

خامساً – يرتّب ميله الطبيعي للمجد والتعالي على حسب استعداده الحقيقي. فلا يترك نفسه تتطاول إلى مقامات ليس من شأن قوّته المادية أن يبلغها إلاّ بمحض الحظّ، أي الصدف.

و خلاصة البحث أن الغرارة من أقوى أسباب الفتور، وقد أطلتُ في وصفها وإيضاحها ليتأكد عند السادة الإخوان أن إزالة أسباب الفتور الشخصي ليس من عقيمات الأمور.

ثم قال : إنّ لانحلال أخلاقنا سبباً مهمّاً آخر أيضاً يتعلق بالنساء، وهو تَرْكَهُنَّ جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا، حيث كان يوجد في نسائنا كأم المؤمنين عائشة[1] رضي الله عنها التي أخذنا عنها نصف علوم ديننا، وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث والمتفقّهات، فضلاً عن ألوف من العالمات والشاعرات اللاتي في وجودهن في العهد الأوّل بدون إنكار، حجّة دامغة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون أن جهل النساء أَحفَظُ لعفّتهنّ؛ فضلاً عن أنّه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهّمون، حتى يصحّ الحكم

(١) عائشة بنت أبي بكر الصديق (ت: ٥٨ هـ = ٦٧٨ م) أم المؤمنين، هي صاحبة الجمل في وقعة الجمل. وكانت مرجعاً في الرواية والحديث الشريف.

بأن العلم يدعو للفجور وأن الجهل يدعو للعفة، نعم، ربّما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة، ولكنَّ الجاهلةَ أجسرُ عليه من العالمة.

ثم إنّ ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنيّ عن البيان. إنما سوء تأثيره على أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث فأقول :

إن الرجال ميّالون بالطبع إلى زوجاتهم، والمرأة أقدر مطلقاً من الرجل في ميدان التجاذب للأخلاق، ولا يتوهّم عكس ذلك إلاّ مَن استحكم فيه تغرير زوجته له بأنها ضعيفة مسكينة مسخّرة لإرادته حال كون حقيقة الأمر أنها قابضة على زمامه تسوقه كيف شاءت، وبتعبير آخر يغرّه أنه أمامها، وهي تتبعه، فيظنُّ أنّه قائد لها، والحقيقة التي يراها كل الناس من حولهما دونه أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق لا تابع.

و ما قَدَّرَ قدرَ دهاء النساء مثل الشريعة الإسلامية، حيث أمرت بالحجب والحجر الشرعيين حصراً لسلطتهن وتفرّغهن لتدبير المنزل، فأمرت باحتجابهن احتجاباً محدوداً بعدم إبداء الزينة للرجال الأجانب، وعدم الاجتماع بهم في خلوة أو لغير لزوم. وأمرت باستقرارهن في البيوت إلا لحاجة. ولاشك أنه ماوراء هذه الحدود إلاّ فتح باب الفجور، وماهذا التحديد إلاّ مرحمة للرجال وتوزيعاً لوظائف الحياة.

و الصينيون . وهم أقدم البشر مدنيةً . التزموا تصغير أرجل البنات بالضغط عليها لأجل أن يعسرَ عليهنَّ المشي والسعي في إفساد الحياة الشريفة[١]. ذاك الشرف الذي هو من أهم مقاصد الشرقيين، بخلاف الغربيين الذين لا يهمهم غير التوسع في الماديات والملذّات.

و قد أمرت الشريعة برعاية الكفاءة في الزوج وذلك أيضاً مرحمة بالرجال.

---

(١) ولكن هدف الصينيين في ذلك جماليٌّ بحتٌ.

وأكثر الأئمة المجتهدين أغفلوا لزوم تحرّي الكفاءة في جانب المرأة للرجل. وأوجبوا أن يكون هو فقط كفؤاً لها كي لا تهلكه بفخارها وتحكّمها. على أنّ لرعاية الكفاءة في المرأة للرجل أيضاً موجبات عائلية مهمة منها : التخيير للاستسلام والتخيير لتربية النسل، وللتساهل في ذلك دخل عظيم في انحلال الأخلاق في المدن. لأن التزّوج بمجهولات الأصول أو الأخلاق، أو بسافلات الطباع والعادات، أو بالغريبات جنساً أو الرقيقات، مفاسد شتى. لأن الرجل ينجرُّ طوعاً أو كرهاً لأخلاق زوجته، فإنْ كانت سافلة يتسفّل لا محالة، وإنْ كانت غريبة بَغَّضَتْهُ في أهله وقومه، وجَرَّتْهُ إلى موالاة قومها والتخلق بأخلاقهم. ولاشكّ أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد أكثر من الأزواج.

و ربّما كان أكبر مُسَبَّبٍ لانحلال أخلاق الأمراء من المسلمين أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات، إذْ كيف يُرجى من امرأة نشأت سافلة رقيقة ذليلة[١] أن تترك بعلها . وهو في الغالب أَطوَعُ لها من خلخالها . أن يجيب داعي شهامة أو مروءة ؟ أو أن تغرس في رؤوس صبيتها أميالاً سامية، أو تحمّسهم على أعمال خطرة ؟ كلاّ، لا تفعل ذلك أبداً، إنما تفعله الشريفات اللاتي تجدن في أنفسهن عزّة وشهامة[٢] وهذا هو سرّ أن أعاظم الرجال لا يوجدون غالباً إلاّمن أبناء وبعول نسوة شريفات أو بيوت قرويّة. وهذا هوسبب حرص الأمراء العرب والإفرنج على شرف الزوجات.

ثم قال السيد الفراتي أيضاً : وإني أرى أنّ هذا الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العلية من الأمة ولاسيّما في الشيوخ، مرتبة (الخور في الطبيعة) لأننا نجدهم: ينتقصون أنفسهم في كل شيء، ويتقاصرون عن كُلّ عمل، ويحجمون عن كُلّ إقدام، ويتوقّعون الخيبة في كُلّ أمل.

و من أقبح آثار هذا الخور نظرهم الكمال في الأجانب كما ينظر الصبيان

---

(١) كالكرجيات والأرمنيات والرقيقات الجركسيات أمهات أكثر الأمراء وزوجاتهم.(ك).

(٢) كبنات بيوت المجد الحريصات على الفخر، وبنات أهل البادية والقرى الأبيّات النفوس.(ك).

الكمال في آبائهم ومعلميهم، فيندفعون لتقليد الأجانب واتّباعهم فيما يظنونه رقّة وظرافة وتمدّناً. وينخدعون لهم فيما يغشونهم به : كاستحسان ترك التصلّب في الدِّين والافتخار به، فمنهنّ مَنْ يستحيي من الصلاة في غير الخلوات. وكإهمال التمسُّك بالعادات القومية، فمنهم مَنْ يستحيي من عمامته. وكالبعد عن الاعتزاز بالعشيرة كأنّ قومهم من سقط البشر. وكنبذ التحزّب للرأي كأنهم خُلقوا قاصرين. وكالغفلة عن إيثار الأقربين في المنافع. وكالقعود عن التناصر والتراحم بينهم كي لا يُشمّ من ذلك رائحة التعصّب الديني، وإنْ كان على الحقّ. إلى نحو ذلك من الخصال الذميمة في أهل الخور من المسلمين، الحميدة في الأجانب، لأن الأجانب يُموِّهون عليهم بأنهم يُحسنون التحلّي بها دونهم.

و هؤلاء الواهنة يحقّ لهم أن تُشقَّ عليهم مفارقةُ حالات ألفوها عمرهم، كما قد يألف الجسمُ السَّقمَ، فلا تلذّ له العافية. فإنهم منذ نعومة أظفارهم تعلّموا الأدب مع الكبير، يُقَبِّلُون يده أو ذيله أو رجله، وألفو الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم، وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق، وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك، وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات، ذاك يتطاول وهم يتقاصرون، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض كأنهم للموت مشتاقون.

و هكذا طول الألفة على هذه الخصال قَلَبَ في فكرهم الحقائق، وجعل عندهم المخازي مفاخر؛ فصاروا يسمّون التصاغر أدباً، والتذلّلَ لطفاً، والتملّقَ فصاحةً، واللكنة رزانةً، وتركَ الحقوقَ سماحةً، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضاءَ بالظلم طاعةً. كما يسمّون دعوى الاستحقاق غروراً، والخروجَ عن الشأن الذاتي فضولاً، ومدّ النظر إلى الغد أملاً، والإقدام تهوّراً، والحميةَ حماقةً، والشهامةَ شراسةً، وحريةَ القول وقاحةً، وحُبّ الوطن جنوناً.

ثم قال : ولِيُعلم أنّ الناشئة الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء، وتتعلّق الأوطان بحبال همّتهم عساهم يأتون فعلاً مذكوراً، هم أولئك الشباب ومَنْ في حكمهم المحمّديون المهذّبون، الذين يُقال فيهم إنّ شباب

رأي القوم عند شبابهم الذين يفتخرون بدينهم فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم، ويتجنّبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات. الذين لا يقصرون بناء قصور الفخر على عظام نخرها الدهر، ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف، الذين يعلمون أنهم خُلقوا أحراراً فيأبون الذلّ والإسار. الذين يودّون أن يموتوا كراماً، ولا يحيون لئاماً، الذين يجهدون أن ينالوا حياة رضيّة، حياة قوم كُلّ فرد منهم سلطان مستقلّ في شؤونه لا يحكمه غير الدِّين، وشريك أمين لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء، وولد بارّ بوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله. الذين يحبّون وطنهم حُبَّ مَنْ يعلم أنه خُلق من ترابه. الذين يعشقون الإنسانية ويعلمون أنَّ البشرية هي العلم، والبهيمية هي الجهالة. الذين يعتبرون أنّ خير الناس أنفعهم للناس. الذين يعرفون أن القنوط وباء الآمال، والتردُّدَ وباء الأعمال. الذين يفقهون أن القضاء والقدر هما السعي والعمل. الذين يوقنون أنّ كُلَّ ما في الأرض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر، فلا يتخيّلون إلا المقدرة ولا يتوقّعون من الأقدار إلا خيراً.

و أما الناشئة المتفرنجة فلا خير فيهم لأنفسهم فضلاً عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئاً، وذلك لأنهم لاخلاق لهم، تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت، لا يتّبعون مسلكاً ولا يسيرون على ناموس مطّرد، لأنهم يحكّمون الحكمة، فيفتخرون بدينهم، ولكنْ، لا يعملون به تهاوناً وكسلاً [١] ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم، ويستحسنون عاداتهم ومميزاتهم فيميلون لمناظرتهم،

(١) أكبر ما يشقُّ عليهم ويتكاسلون عن الصلاة التي هي عماد الدِّين، ولنخاطبهم بلسانهم فنقول إنَّ الطهارة والوضوء هما عين (التواليت) أو بعضه، ويتمّان بدقيقتين أو ثلاث، وأفعال الصلاة هي عين (الجمنستيك) وأكمل منه لأنها موزّعة، ولا تستغرق الركعة منها أكثر من دقيقة، فأطول صلاة تطول عشر دقائق. بناءً عليه، فليبكِ على نفسه مَنْ يقصر نشاطه عن الصلاة والصوم، اللذين لو لم يكن فيهما حكمة غير أنهما شعار يعرف بهما المسلم أخاه لكفى.(ك).

ولكنْ، لا يقوون على تَرْكَ التَّفَرْنُجِ كأنهم خُلقوا أتباعاً [١] ويجدون الناس يعشقون أوطانهم، فيندفعون للتشبُّهِ بهم في التشبيب والإحساس فقط، دون التشبث بالأعمال التي يستوجبها الحبُّ الصادق.

و الحاصل، أن شؤون الناشئة المتفرنجة أيضاً لا تخرج عن تذبذب وتلوّن ونفاق، يجمعها وصف " لاخلاقَ لهم " والواهنة خير منهم، متمسّكون بالدِّين ولو رياء، وبالطاعة ولو عمياء، على أنه يوجد في المتفرنجة أفراد غيورون كالراسخين من أحرار الأتراك، الملتهبين غيرة تقتضي احترام مزيّتهم.

ثم قال السيد الفراتي : إن الخور المبحوث فيه علّة معدية تسري من الشيوخ إلى الشباب ومن الطبقة العليا إلى العامة. وليت الشيوخ والكبراء يرضون بما كَتَبَهُ الله عليهم من الذلّة والمسكنة، والخمول وسقوط الهمّة، والدناءة والاستسلام، فيتركوا أهل النشأة الجديدة وشأنهم، لا يستهزؤون ولا يعطلون، ولا يسفهون ولا يثبطون. وما أظنهم بفاعلين ذلك أبداً إلا أنْ تتصدى لهم جرائد مخصوصة تقابلهم باللَّوم والتبكيت، وتُسلّط عليهم أقلام الأدباء وألسنة الشعراء، بوضع أهاجي وأناشيد بعبائر[٢] بسيطة محلاّة بنكت مضحكة لكي تنتشر حتى على ألسنة العامّة. وبمثل هذا التدبير تثور حرب أدبية بين الناشئة والواهنة، لا تلبث أن تنتهي بانكسار الفئة الثانية : أولئك البائسين الفاشلين، المتواكلين، المتقاعسين، المتخاذلين، المتشاكسين، العاجزين عن كل شئ إلا التعطيل.

و مَنْ راجع تواريخ الأمم التي استرجعت نشأتها والدول التي جدّدت عصبيتها، يجد من حكمائها ونجبائها مثل حسان قريش[٣] وكميت[١] العباسيين

---

(١) هذه حكمة الشرع في حظره تَرْكَ سنّة الأسلاف وتقليد الأغيار ولو في اللباس. وهذه الأمم الإفرنجية تنفر من التقليد حتى في القياس والموازين (ك).

(٢) بعبارات.

(٣) حسان : هو حسان بن ثابت الأنصاري. شاعر مخضرم وُلد في يثرب. أسلم، وغدا من أنصار النبي صلى الله عليه وسلم. هجا القرشيين. ولُقِّبَ بشاعر النبي. له ديوان شعر.

ولوثر[٢] الألمانيين وفولتر[٣] الفرنساويين، قد تغلّبوا على الفكر الواهن وأنصاره من الأشراف والشيوخ وأهل العناد والفساد، بحمل لواء الناشئة وإثارة حرب أدبية حماسية بين الفئتين. على أننا نحن تكفينا الضوضاء ولا نحتاج قطّ للفوضى، لأن واهنتنا أضعف من أن تحوجنا أن ننتظر أم حسان تلد حسّاناً. ورُبَّ حيلة أنفع من قبيلة.

(٣٩٣٤٢٣٣٤٣٥٤٢٩٣٤٨٤٧٢٢٦٤٢٥٥٤٢٤٢٨٢٢١٣٠٧١٩٢٣٤١٧٤١٦٨٢٤٢١٣١١٢٤١١١٨٤٩٩٨٤٧٧٤٢٤٠٤٣٣٣٢١

٢٥٩٤١٤١٠٢٦١١١١٨١٠١٤٩٧٧٥٥٥٨٧٥٣٢٢٨٨٩٣٥٧٤٥١٩٠٥٠٥٣٣٤٧٧٦٦٢٤٥٥٢٤٣٨٩٢٤٢٤٤٢٢٩٤١٧٧٦٦٨٧٥)[٤]

وهذا أنجع دواء، والله ولي النيات.

ثم ختم السيد الفراتي كلامه بقوله : هذا ما سنح لي في هذا المرام، وقام وتبادل مع الفاضل الشامي والبليغ الإسكندري[٥] المقام.

قال الأستاذ الرئيس : إنّ مباحث الجمعيّة قد استوفت حقّها، وكفانا السيّد الفراتي تلخيص أسباب الفتور منها، ولا أرى لزوماً لتلخيص بقية المباحث الدينية.

و قد أعطاني أخونا المدقِّق التركي رئيس لجنة القانون (السانحة) التي وضعتها اللجنة، مطبوعة في نسخ على عدد الإخوان لِتُوزَّع عليهم، فيطالعها كُلٌّ منهم، ويدقّقها قبل وضعها في اجتماعنا غداً في موقع المذاكرات حيث يُبحث فيها قضية قضية بدون جزاف، و أما اليوم فقد حلَّ أوان الانصراف.

بادر السيّد الفراتي، وفرّق على كُلّ واحد من أعضاء الجمعية نسخة من

---

(١) الكُميت : هو الكُميت بن زيد الأسدي (٦٧٩-٧٤٣ م) شاعر وخطيب من الكوفة. اشتهر في العصر الأموي. ناصر المضريين ضدّ القحطانيين. وكان شيعياً. له ديوان "الهاشميات " يمدح فيه بني هاشم.

(٢) لوثر : مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦ م) زعيم الإصلاح البروتستانتي. درّس القانون، ثم تحوّل عنه. ساءه الانحلال الروحي المتفشي في الأوساط الكنسية العليا فبدأ خطاً لإصلاح عقيدة الكنيسة وطرق العبادة فيها.

(٣) فولتير : فرانسوا فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨ م) فيلسوف ومُفكّر فرنسي. أعاد كتابة مسرحية أوديب. له كُتُبٌ كثيرة. كرَّس حياته للدفاع عن ضحايا الدِّين والسياسة. تميز بنقد لاذع. والأفغاني يَعُدُّ فولتير مارقاً بعكس نظرة الكواكبي إليه.

(٤) الشيفرة التي اعتمدها المؤلف، ولم يتمكن من أحد من حلّها بعد.

(٥) المقصود : الكامل الإسكندري. والكواكبي يُخطئ بالاسم أكثر من مرة في النسخ كلها.

سانحة القانون فأخذوها، وتفرّقوا.

الاجتماع التاسع

(مناقشة قانون الجمعية)

ويتبعه الاجتماع العاشر والحادي عشر

يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ

في صباح اليوم المذكور انعقدت الجمعية، وقرأ كاتبها السيّد الفراتي ضبط مفاوضات اليوم السابق حسب الأصول المرعّية.

قال الأستاذ الرئيس : إننا نقرأ قانون الجمعية، وقد علم الإخوان . من مطالعة السانحة التي وضعتها اللجنة . أن هذا القانون هو الآن في حكم قانون مؤقت، إلى أن تتشكّل الجمعية الدائمة . إنْ شاء الله . وتزاول وظائفها. فهي تعيد النظر فيه، وتعتني بتطبيقه على الموجبات والتجربات، ثم تعرضه على الجمعية العامة التي سيأتي ذكرها فيه، فإذا أمضته صار حينئذ قانوناً راسخاً.

فلنقرأ الآن قضايا القانون[1] فقرة فقرة، حتى إذا كان لأحد الإخوان ملاحظة على بعض الفقرات فليبدِها عند قراءتها، وبعد المناقشة إمّا تقبل أو تردّ أو تُعدَّل بالأكثرية. وعلى كُلّ حال تُضبَطُ المناقشة في سجل مخصوص كشرح للقضايا[2] يُرجع إليه عند اللزوم.

ثم أمر الأستاذ الرئيس بقراءة سانحة القانون، فَقُرئت، وجرت على بعض القضايا وبعض الفقرات منها مناقشات، وتولّى المدقِّق التركي رئيس اللجنة إعطاء الإيضاحات اللازمة عن المقاصد التي لاحظتها اللجنة فيه، فقبل أكثر قضاياه، وعدَّل بعضها، وضُبطت المناقشات على حدة.

و قد استغرقت مباحث القانون جلسة ذلك اليوم، وكذلك جلسة الاجتماع العاشر المنعقد يوم الأحد الثامن والعشرين من الشهر، وجلسة الاجتماع الحادي

---

(١) موادّه.

(٢) تفسير المواد.

عشر المنعقد مساء الأحد أي ليلة الاثنين.

الاجتماع الثاني عشر

(قانون الجمعية)

يوم الاثنين التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ

في صباح اليوم المذكور انتظمت الجمعية حسب معتادها.

أمر الأستاذ الرئيس بقراءة القانون الذي تقرّر في الاجتماعات الثلاثة السابقة متناً مجرّداً فَقُرِئ، وهذه صورته :

قانون جمعية تعليم الموحِّدين

المقدمة

قد تقرّر في الجمعية المنعقدة في مكّة المكرّمة في ذي القعدة، سنة ست عشرة وثلاثمأة وألف، المسمّاة (جمعية أمّ القرى) النتائج الآتية :

١ . المسلمون في حالة فتور مستحكم عام.

٢ . يجب تدارك هذا الفتور سريعاً وإلا فتنحل عصبيّتهم كلياً.

٣ . سبب الفتور تهاون الحكّام، ثم العلماء ثم الأمراء.

٤ . جرثومة الداء الجهل المطلق.

٥ . أضرّ فروع الجهل : الجهل بالدِّين.

٦ . الدواء هو : أولاً: تنوير الأفكار بالتعليم.

ثانياً: إيجاد شوق للترقّي في رؤوس الناشئة.

٧ . وسيلة المداواة عقد الجمعيات التعليمية القانونية.

٨ . المكّلفون بالتدبير هم حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء.

٩ . الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة في العرب خاصّة.

١٠ . يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ في دائرة القانون الآتي البيان باسم: (جمعية تعليم الموحِّدين).

الفصل الأول :
في تشكيل الجمعية

قضية (١)

تتشكّل الجمعية من مائة عضو، منهم عشرة عاملون، وعشرة مستشارون، وثمانون فخريّون، ويرتبط بالجمعية أعضاء محتسبون لا يتعيَّن عددهم.

قضية (٢)

يجب أن يكون الأعضاء كلهم مُتّصفين بستّ صفات عامة، وهي :

سلامة الحواسّ؛ وكون السِّنّ بين الثلاثين والستين ابتداءً.

٢ . الإسلاميّة؛ من أي مذهب كان من مذاهب أهل القبلة.

٣ . العدالة؛ بحيث يكون غير متجاهر بمعصية شرعية إجماعية، ولا متلبّس أو معروف بخلّة منافية للمروءة.

٤ . المزيّة بعلم أو جاه أو ثروة[١].

٥ . الكتابة بإتقان؛ في لغة ما ولو عاميّة.

٦ . النشاط؛ بأن يكون ذا همّة ونجدة وحميّة.

قضية (٣)

يُشترط في الأعضاء العاملين والمستشارين زيادة أربع صفات على ماسبق، وهي :

١ . القدرة على التكلّم والكتابة بالعربيّة.

٢ . إمكان الإقامة ثمانية أشهر في مركز الجمعيّة، وهي ما عدا ذي الحجّة ومحرّماً وصفراً وشهر ربيع الأوّل.

---

(١) ليس المقصود من الثروة ذاتها، بل إعانتها صاحبها على بعض الأخلاق الشريفة (ك).

٣ ـ تفرّغ العاملين للحضور في نادي الجمعية أربع ساعات في كلّ يوم ماعدا الجمعة والأعياد.

٤ ـ تفرّغ المستشارين لحضور جلسة يوم واحد في كلّ أسبوع.

قضية (٤)

يُشترط في الأعضاء الفخريّين زيادة ثلاثة صفات، وهي :

١ ـ القدرة على الكتابة في إحدى اللغات الأربع؛ وهي العربيّة والتركيّة والفارسيّة والأورديّة.

٢ ـ الاستعداد لمراسلة الجمعيّة بإحدى هذه اللغات في كلّ شهر مرّة بمقالة أو رسالة أو فصل من تأليف يُقترح موضوعه من قبل الجمعيّة أو هو يتخيّره، والجمعية تستصوبه، وتقرّره.

٣ ـ الإذعان لانتقادات وتنقيحات الجمعية وتصحيحها[١].

قضية (٥)

تتشكّل جمعية عامّة في كل سنة مرة في أوائل ذي القعدة يُدعى إليها الأعضاء حتى المحتسبون، فيحضرها العاملون مطلقاً ومَنْ شاء من الباقين.

قضية (٦)

الجمعية العامّة، بالمذاكرة والانتخاب الخفي[٢] والأكثرية المطلقة، تميّز أولاً[٣] المترشحين للهيئة العاملة، ثم المترشحين للهيئة، المستشارة.

---

(١) قضية مؤقتة : يبتدئ تشكيل الجمعية حسبما يتسهل للمؤسّس، وهو يرأسها مؤقتاً، وله أن ينيب عنه مَنْ يشاء. وعندما يبلغ عدد الأعضاء المكتتبين قدراً كافياً يجمعهم لينتخبوا الهيئة العامة والهيئة المستشارة. (ك).

(٢) الاقتراع السرّي.

(٣) تنتخب.

قضية (٧)

الهيئتان العاملة والمستشارة تجتمعان، وبالمذاكرة وأكثرية الثلثين تُميِّزان أولاً المترشحين منها للرياسة، ولنيابة الرياسة، وللكتابة الأولى، وللكتابة الثانية[١] ولأمانة المال. ثم تنتخبان من المترشحين رئيساً لأَجَل[٢] سنة، ونائب رئيس لأجل سنتين، وكاتباً أولاً لأجل ثلاث سنين، وكاتباً ثانياً، وأمين مال لأجل أربع سنين.

قضية (٨)

الهيئتان العاملة والمستشارة يُدقِّقون صفات الذين يُراد أن يكونوا من الأعضاء الفخريين أو المحتسبين، ثم بالانتخاب الخفي والأكثرية المطلقة يقبلون، أو يردون.

قضية (٩)

للهيئتين العامة والمستشارة أن يرفعوا صفة العضوية عمَّن يُعلَمُ وقوع حالة منه تستوجب ذلك، وتتحقَّقُ خفياً، وتُصدق بأكثرية الثلثين.

قضية (١٠)

الجمعية العامة تقوم بأربع وظائف، وهي :

١ . تدقيق إجمالي في جميع الأعمال التي أجرتها الجمعية في السنة الماضية.

---

(١) سكرتير أول، سكرتير ثان.

(٢) لمدة.

٢ . تدقيق حساباتها الماضية.

٣ . تقرير ما يلزم التشبث به من الأعمال الكبيرة في السنة المستقبلة.

٤ . تقرير نفقات السنة القابلة.

قضية (١١)

المركز الرسمي للجمعية مكّة المكرمة، ولها شعبات في القسطنطينية ومصر وعدن وحائل والشام وتفليس وطهران وخيوه وكابل وكلكتة ودهلي[١] وسناكابور[٢] وتونس ومراكش وغيرها من المواقع المناسبة.

قضية (١٢)

يكون تشكيل الشعبات على نمط تشكيل الجمعية المركزية مصغراً. وتكون مرتبطة تماماً بالجمعية فيما عدا ماليتها وجزئيات أمورها، فإنّ لها الخيار أن تكون مستقلة المالية والإدارة.

قضية (١٣)

تتشكل الشعبات على التراخي، ويُعطى للبعض المناسب الموقع منها هيئة تصلح معها لأن تُتَّخَذَ عند مسيس الحاجة هي المركز الأصلي.[٣]

الفصل الثاني:

---

(١) دلهي.

(٢) سنغافورة. وهي مدينة في جزيرة سنغافورة. أعظم قاعدة بحرية بريطانية في الشرق الأقصى. غالبية سكانها من الصينيين.

(٣) قضية مؤقتة : المركز يكون في السني الأولى للجمعية في بور سعيد أو الكويت. ثم ينتقل إلى مكّة بعد الرسوخ أو عند إقامة مراكش وأفغان وإيران وغيرها وكالات سياسية لها في مكة. وعلى كل حال يكون للجمعية يد قوية في مكّة ولو خفية. (ك)

في مباني الجمعية

قضية (١٤)

الجمعية لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقاً، فيما عدا إرشادات وإخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه.

قضية (١٥)

ليس من شأن الجمعية أن تكون تابعة أو مرتبطة بحكومة مخصوصة، على أنها تقبل المعاونة أو المعاضدة من قبل السلاطين العظام والأمراء الفخام المستقلّين والتابعين بصفة حماة فخريين.

قضية (١٦)

لا تنتسب الجمعية إلى مذهب أو شيعة مخصوصة من مذاهب وشيع الإسلام مطلقاً.

قضية (١٧)

توفق الجمعية مسلكها الديني على المشرب السلفي المعتدل، وعلى نبذ كل زيادة وبدعة في الدِّين، وعلى عدم الجدال فيه إلاّ بالتي هي أحسن.

قضية (١٨)

يكون شعار الجمعية القولي : (لا نعبد إلاّ الله). وشعارها الفعلي التزام (المصافحة) على وجه السنّة. ووجهتها : (الغيرة على الدِّين قبل الشفقة على المسلمين). وأهم أعمالها (تعليم الأحداث وتهذيبهم) تُراجع قضية ٤٦ و٤٧

و ٤٨.

قضية (١٩)

أعضاء الجمعية لا يتكلّفون التناصر والتعاون فيما هو ليس من مقاصد الجمعية، أي التعاون بالمال أو الجاه فيما بينهم إلاّ لمن يُصاب ويتضرّر بسبب الجمعية.

قضية (٢٠)

تتكفل الجمعية بإعاشة عدد مخصوص من أصحاب المزايا العلمية الخاصة، أو العزائم الخارقة العادة، بشرط أن يكونوا مجرّدين لا عيال لهم، أو شبيهين بالمجردين.

الفصل الثالث :

في مالية الجمعية

قضية (٢١)

نفقات الجمعية تُبنى على غاية من البساطة والاقتصاد، وهي تسعة أنواع:

١ . إكمال كفاية الهيئة العاملة بما لا يزيد على ستين ذهباً إنكليزياً لكل واحد في السنة.

٢ . رواتب الكُتّاب والمترجمين والخدم.

٣ . أجرة محلاّت المراكز والشعب غير المستقلّة مالياً.

٤ . مصاريف البعوث المتجوّلة.

٥ . مصاريف المطبوعات.

٦ . مصاريف التحرير والتأليف.

٧ . مصاريف البريد والمخابرات.

٨ . كفاية المكفول أعاشتهم المذكورين في القضية (٢٠).

٩ . المصاريف المتفرقة.

قضية (٢٢)

تعتمد الجمعية على نفقاتها على جهتين فقط : النصف من ربح مطبوعات الجمعية، أي طبع المؤلفات الآتي ذكرها في الفصل التالي من نحو طبع المصحف الشريف بصورة متقنة للغاية تستوجب الاختصاص بطبعه، والنصف الآخر من إعانات أصحاب الحميّة والنجدة من الأمراء وأغنياء الأمة وبعض الأعضاء المحتسبين.

قضية (٢٣)

أمين المال يكون من أغنياء التجّار المشاهير المقيمين في مركز الجمعية، ويكون من جملة الأعضاء المستشارين، ويقوم بهذه الخدمة حسبة لربّه ودينه، ويكون المال في يده بوجه مضمون.

قضية (٢٤)

أمين المال يعطي وصولات بمقبوضاته تكون مطبوعة مرقوماً عليها عدد متسلسل، ومرقماً في جانب منها مجموع الوارد ومجموع المصروف في تلك السنة باعتبار غاية الشهر العربي المنصرم.

قضية (٢٥)

أمين المال لا يصرف شيئاً إلاّ بورقة صرف مطبوعة مرقّماً عليها عدد

متسلسل وموقّعاً عليها من القابض وكاتب الجمعية ورئيسها.[١]

الفصل الرابع:
في وظائف الجمعية

قضية (٢٦)

الهيئتان العاملة والمستشارة بالاتفاق أو أكثرية الثلثين تعيدان النظر في قانون الجمعية مرة ابتداء، ثم كل ثلاث سنين مرّة، وتنظمان القوانين التي تلزم؛ ويجب مطلقاً أن يكون ترتيب القوانين تابعاً لقواعد التروّي والتدقيق والتأمين. وترتبط كل قضية بشرح مفصّل مسجل يرجع إليه.

ولا يصير القانون دستوراً للعمل إلاّ بعد قراءته في الجمعية العامة السنوية وقبوله. ويجوز للهيئتين عند الضرورة تقرير إجراء البعض من أحكام تلك القوانين مؤقتاً، ثم تعرض على الجمعية العامة الأسباب المجبرة على التعجيل.

قضية (٢٧)

إيقاظ فكر علماء الدِّين إلى الأمور الخمسة الآتية، وتنشيطهم للسعي في حصولها ومساعدتهم بإرادة أسهل الوسائل وأقربها، وهي :

١ . تعميم القراءة والكتابة مع تسهيل تعليمهما.

٢ . الترغيب في العلوم والفنون النافعة التي هي من قبيل الصنائع مع تسهيل تعليمها وتلقّيها.

٣ . تخصيص كُلٍّ من المدارس والمدرِّسين لنوع واحد أو نوعين من العلوم والفنون ليوجد في الأمة أفراداً نابغون متخصِّصون.

---

(١) ملاحظة مؤقتة : يكفي الجمعية في السنين الأولى مقدار خمسة آلاف جنيه ذهب إنكليزي فقط، وحصول ذلك ليس بذي بال. (ك).

٤ . إصلاح أصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدِّينية وتسهيل تحصيلها، بحيث يبقى في عمر الطالب بقية يصرفها في تحصيل الفنون النافعة.

٥ . الجدُّ وراء توحيد أصول التعليم وكُتُبِ التدريس.

قضية (٢٨)

السعي في تأليف متون مختصرة بسيطة واضحة على ثلاث مراتب :

١ . لتعليم المبتدئين أو المكتفين بالمبادئ.

٢ . لتعليم المنتهين الطالبين الإتقان.

٣ . لتعليم النابغين الراغبين في الاختصاص.

قضية (٢٩)

الاهتمام في جعل المتعلّمين والمعلّمين على أربع مراتب :

١ . العامّة ومعلّموه أئمة المساجد والجوامع الصغيرة.

٢ . المهذبون ومعلّموهم مدرّسو المدارس العمومية والجوامع الكبيرة.

٣ . العلماء ومعلّموهم مدرّسو المدارس المختصة بالعلوم العالية.

٤ . النابغون ومعلّموهم الأفاضل المتخصِّصون.

قضية (٣٠)

السعي لدى أمراء الأمة بمعاملة كافة طبقات العلماء معاملة الأطباء، أي بالحجر رسماً على مَنْ يتصدَّر للتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد ما لم يكن مجازاً من قبل هيئة امتحانية رسمية وموثوق بها تُقام في العواصم.

قضية (٣١)

التوسّل لدى الأمراء أن يُعطوا لأحد العلماء الغيورين في كُلّ بلدة صفة

محتسب ديني على جماعة المسلمين في تلك البلدة، ويجعلوا له مستشارين منتخبين من عقلاء الأهالي، وتكليف هذه الجمعية الاحتسابية بأن تقوم بالنصيحة للمسلمين بدون عنف، وبتسهيل تعميم المعارف والمحافظة على الأخلاق الدِّينية.

قضية (٣٢)

التوسّل لنيل العلماء ما يستحقون من رزق وحرمة، ومنعهم عن كل ما يخلّ بصفتهم وشرفهم[١].

قضية (٣٣)

التوسّل لحمل أهل الطرائق على الرجوع إلى الأصول الملائمة للشرع والحكمة في الإرشاد وتربية المريدين. وتكليف كُلّ فرقة منهم بوظيفة مخصوصة يخدمون بها الأمة الإسلامية من نحو اختصاص فرقة كالقادرية مثلاً بإعاشة وتعليم الأيتام، وأخرى بمواساة المساكين وأبناء السبيل، وجماعة بتمريض الفقراء والبائسين، وفئة بالتشويق إلى الصلاة، وغيرها بالتنفير عن المسكرات. ونحو ذلك من المقاصد الخيرية الشرعيّة، فيكون عملهم هذا عوضاً عن العطل والتعطيل.

قضية (٣٤)

حمل العلماء والمرشدين وجمعيات الاحتساب على السعي لإرشاد أفراد الأمة، خصوصاً أحداثها، إلى قواعد معاشية وأخلاقية متحدة الأصول تلائم الإسلامية والحرية الدِّينية، وتفيد تريّض الأجسام وتقوية المدارك، وتثمر النشاط

---

(١) كالقعود في محلات القهوة والتجوّل في المجتمعات وركوب الحمير ونحو ذلك مما لا يقدم عليه أمثالهم في الملل الأخرى. (ك).

والطريف أن الكواكبي نفسه كان كثير الجلوس في المقهى، حتى إنه شرب قهوته ـ التي يُقال إنها سبب موته ـ فيه.

للسعي والعمل، وتولد الحميّة والأخلاق الشريفة.

قضية (٣٥)

تعتني الجمعية بصورة مخصوصة بوضع مؤلفات أخلاقية ملائمة للدِّين والزمان، وتكون على مراتب من بسيطة ومتوسطة وعالية، بحيث تقوم هذه المؤلفات مقام مطوّلات الصوفية.

ونقوم بوضع مؤلّفات اللغة، وسطى عربية لا مضرية ولا علميّة، وجعلها لغة لبعض الجرائد ولمؤلفات الأخلاق ونحوها مما يهم نشره بين العوام فقط[١].

قضية (٣٦)

تعتني الجمعية في حمل العلماء وجمعيات الاحتساب على تعليم الأمة ما يجب عليها شرعاً من المجاملة في المعاملة مع غير المسلمين، وما تقتضيه الإنسانية والمزايا الإسلامية من حسن معاشرتهم ومقابلة معروفهم بخير منه، ورعاية الذمة والتأمين والمساواة في الحقوق، وتجنّب التعصّب الديني أو الجنسي بغير حقّ.

قضية (٣٧)

تنشر الجمعية رسالة دينية عربية في كل شهر يكون حجمها نحو مائة صفحة بحيث يتألف منها كتاب في كُلّ عام، وتكون مباحثها ثمانية أنواع يُخصَّص لكل بحث قسمٌ منها، وهي :

١ . مقرّرات الجمعية وأعمالها وخلاصة المهم من مخابراتها مع شعباتها.

---

(١) كالاكتفاء بالسين على الثاء، وبالزاي عن الذال، والاقتصار على التثنية بالياء، والجمع بالواو والنون، والقصر بالألف، وكقبول الوضع العامي المشهور. (ك) تعليق المنار : (هذا خطأ لا حاجة إليه، إذْ يمكن الوصول إلى المقصود باللغة الصحيحة السهلة) أ.هـ.

٢ . مباحث دينية في موضوع سماحة الدِّين ومزاياه السامية، ودفع ما يُرمى به من منافاته للحكمة المدنية.

٣ . قواعد أخلاقية ونصائح معاشية.

٤ . فصولها في العلوم والفنون النافعة والترغيب فيها وإراءة طرائق تلقينها وتلقّيها.

٥ . المقالات المفيدة التي يحرّرها الأعضاء الفخريون وغيرهم من فضلاء الأمة.

٦ . الأخبار والإعلانات المتعلّقة بالنهضة العلمية الإسلامية.

٧ . الأسئلة والأجوبة المهمّة.

٨ . مباحث وفوائد شتّى.

قضية (٣٨)

تكون الأبحاث والمقالات الدِّينية في الرسالة الشهرية ملاحظاً فيها إجماع السلف أو الموافقة لمذهبين فأكثر من المذاهب المدوّنة المتّبعة، ويتعيّن في المسائل المهمة الخلافية أن يقرَّها بعض مشاهير علماء الهداية من المذاهب المختلفة.

قضية (٣٩)

تكون قيمة الرسالة معتدلة قريبة من مصروف تحريرها وطبعها فقط، وتُرسل لكافة المدارس ومشاهير العلماء بدون عوض على حساب الأمراء والمحتسبين.

قضية (٤٠)

تعتني الجمعية غاية الاعتناء في إيصال الرسالة إلى المرسَلة إليهم بصورة منتظمة، وفي إدخالها لكافة البلاد المأهولة بالمسلمين رغماً عن كل مانع، فَتُرسَل ولو برّاً مع روّاد على نجائب تخترق آسيا وأفريقيا إلى أقاصيهما، ولا تعدم الجمعية وسائل كثيرة للإيصال.

قضية (٤١)

تخصّص الجمعية لمنشوراتها وإعلاناتها أربع جرائد من أشهر الجرائد الإسلامية السياسية. (١) عربية في مصر (٢) تركية في القسطنطينية (٣) فارسية في طهران (٤) أوردية في كلكته.

قضية (٤٢)

تسعى الجمعية في تأسيس مدرسة جغرافية تاريخيّة دينيّة في مركز الجمعية لأجل تثقيف تلامذتها وتأهيلهم للسياحة والبعوث.

قضية (٤٣)

ترسل الجمعية بعوثاً جغرافية وعلمية تتجوّل في البلاد الإسلامية القريبة والبعيدة للاطِّلاع على أحوال البلاد وأهلها من حيث الدِّين والمعارف، ولإرشادهم إلى ما يلزم إليه في ذلك حسبما تقتضيه الأخوّة الدينية بدون تعرّض للأحوال السياسيّة قطعياً.

قضية (٤٤)

تسعى الجمعيّة بعد مضيّ ثلاث سنين من انعقادها في إقناع ملوك

المسلمين وأمرائهم لعقد مؤتمر رسميّ في مكّة المكرّمة، يحضره وفد من قبلهم، ويترأسهم مندوب أصغر أولئك الأمراء، ويكون موضوع المذاكرات في المؤتمر السياسة الدِّينية.[١]

قضية (٤٥)

إذا صادفت الجمعية معارضة في بعض أعمالها من حكومة بعض البلاد، ولا سيّما البلاد التي هي تحت استيلاء الأجانب. فالجمعية تتذرّع أوّلاً بالوسائل اللاّزمة لمراجعة تلك الحكومة وإقناعها بحسن نيّة الجمعية، فإذا وُفّقت لرفع التعنّت فيها، وإلاّ فلتلجأ الجمعية إلى الله القادر الذي لا يعجزه شيء.

خاتمة

قضية (٤٦)

سياسة الجمعية : جلب قلوب مَنْ تتخيّر جلبهم ببذل المعروف محاباة فتتحرّى مواساة الإنسان عند مصابه، وتُنَقِّبُ عن أهم حاجاته أو غاياته فتعينه عليها.

قضية (٤٧)

مظهر الجمعية : العجز والمسكنة، فلا تقاوم ولا تقابل إلاّ بأساليب النصيحة والموعظة الحسنة، وتلاطف وتجامل جهدها مَنْ يعادي مقاصدها، ولا تلجأ إلى الإلجاء[٢] إلاّ في الضروريات.

---

(١) راجع ما ورد في أواخر محاورة الصاحب الهندي والأمير المذكورة بعد هذا القانون. (ك).

(٢) الإجبار.

قضية (٤٨)

قوة الجمعية : الإخلاص في النيّة، وعمدتها الثبات على العمل. ومسلكها تذليل العقبات واحدة فواحدة. وحصنها الدّين الحنيف. وسلاحها العلم والتعليم. وجيشها الأحداث والضعفاء[١].وقوّادها حكماء العلماء والأمراء. ورايتها القدوة الحسنة. وغنيمتها بث الحياة في الموحّدين. وغايتها خدمة المدنية والإنسانية. وثمرة أعضائها وأنصارها لذة الفكر والفخر ونيل الأجر من الله . تَمَّ القانون ..

قال الأستاذ الرئيس : ها نحن أولاء قد استوفينا قراءة القانون للمرة الثانية أيضاً، ولم يستدرك عليه أحد من الإخوان شيئاً، فهل أنتم مقرّوه ؟ فأجاب جميع الأعضاء : نعم، نُقره.

قال العلاّمة المصري : إنّي . بالنيابة عن هيئة الجمعية . أشكر لحضرة الأستاذ المكّي براعته في حسن إدارة الجمعيّة، كما أنني أقدّر للمدقّق التركي ورفقائه وواضعي سانحة القانون قدر فضلهم وحسن إحاطتهم.

وإنّي لأرى في هذا القانون أشعة نور بين القضايا والسطور، نور يشرق على المنارات فيغشي ببدره الأهلّة، ويُبهر النسور. نورٌ معقود اللواء لنشأةٍ جديدةٍ وحياةٍ حمديدةٍ وعاقبةٍ سعيدةٍ. نورٌ يمزّق ديجور[٢] الفتور، ويُحيي ميتَ الشعور، وما ذلك على الله بعزيز.

قال المحقِّق المدني : بمناسبة أني جار للنبي صلى الله عليه وسلم أرى كأن رسول الله مسرور بكم أيها الإخوان الكرام، يتضرّع إلى ربّه أن يوفّقكم في مشروعكم خدمة لدينه وأمّته، خدمة تُلحِقُكُم بالمجاهدين الصدّيقين الأولين.

(١) الشباب الفقراء.

(٢) ظلام.

قال الأستاذ الرئيس : حيث تقرَّر أن يكون تأسيس الجمعية الدائمة ابتداء في بور سعيد أو الكويت بصورة غير علنية في الأوّل، فأرى أن تُفَوِّضَ تعاطي أسباب هذه المهمة للعلاّمة المصري والسيّد الفراتيّ، فهما بعد ستة أشهر يجتمعان في مصر، وبعد تهيئة الأسباب وترتيب ما يلزم ترتيبه يسعيان أولاً بطبع هذه المذكرات مع القانون، ثم يهتمّان بترجمة ذلك إلى بقيّة أمّهات اللّغات الإسلامية التركية والفارسية والأوردية فيطبعانها، وينشرانها ذكرى وبشرى للمؤمنين.

ثم بعد استطلاعهما ما يلزم استطلاعه من آراء ذوي الهمم السامية، يباشران تعاطي أسباب تشكيل الجمعية مع التروّي والتأنّي اللازمين حكمة. وربما لا يساعدهما الزمان فيحتاجان لترقب الفرصة ولو تأخر الأمر إلى اجتماعنا الثاني. وأخونا السيد الفراتي يعدنا بأنه لا يقطع عنا رسائله وإعلامنا بسير المسألة. والأمل بعنايته تعالى أن نجد في اجتماعنا الثاني بعد ثلاث سنين الجمعية الدَّائمة متشكّلة على أحسن نظام.

ثم قال الأستاذ الرئيس : وإني على أمل أن الجمعية الدائمة ستلحقنا بأعضائها الفخريّين، فنخدم مقاصدها الجليلة بإعزاز ديننا وإخواننا وأنفسنا، فننال بذلك أجر المحسنين وشرفاً عظيماً نفتخر به نحن وأحقابنا من بعدنا إلى يوم الدِّين.

ثم قال : وإن جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت في مصر دار العلم والحرية، فلها أمل قوي في أنّ حضرة العزيز (عباس الثاني)[1] يكون عضداً للقائمين بإعزاز الدِّين وحامياً فخرياً للجمعية. ولا بدع فإنه خير أمير شاب نشأ على الغيرة الدِّينية والحمية العربية. خصوصاً جنابه السامي من آل

---

(1) عباس الثاني : (١٢٩١ – ١٣٦٤ هـ = ١٨٧٤ – ١٩٤٤ م) خديوي مصر (١٨٩٢ – ١٩١٤ م) الابن الكبير للخديوي توفيق. حاول مقاومة الاحتلال البريطاني لمصر. خلعه البريطانيون في ديسمبر ١٩١٤ م، بعد أن فرضوا حمايتهم على مصر، ونُفي إلى سويسرا.

بيت حازوا بين سائر ملوك الإسلام وأمرائها قصب السّبق في الاطّلاع على أحوال الدنيا، فاجتهدوا في الترقيات السياسيّة والعمرانيّة والعلميّة والتنظيميّة والمدنيّة.

حتى أن النهضة العثمانية بكلّ فروعها مسبوقة في مصر ومقتبسة عنها. بل ـ كما يعلم العارفون ـ إنما تقدّمت الدولة العليّا العثمانية بعض خطوات في ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد علي وإبراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى الأميرات المصريات، فما كان رشيد وعالي وفؤاد وكمال ومدحت وعوني وبقية أحرار الأتراك إلاّ وأكثرهم آلات أوجدها، ومدّها بالقوة هؤلاء العظام. ولا غرو فقد يحمل الابن أباه على الرشد وإن أباه.

ولولا تهاون سعيد[١] وتطاول إسماعيل[٢]، وسقوط نفوذ الفرنسيس بحرب السبعين[٣]، وانفراد الإنكليز ويأسهم من قبول المريض التمريض[٤]، وتهاتر قوّات الدول بتوازنها، لبقيت تلك الحركة مستمرّة، ولما رجع الشيخ[٥] إلى دور الانحلال، ولا وقع الابن[٦] في دور الاحتلال.

ولهذا، لا تفرط الجمعية إذا عقدت الأمل في مؤازرة هذا الأمر السهل الخطير بذاك العزيز الشاب الكبير[٧]، إجابة لداعي الحميّة وسمو الفكر واغتناماً للثواب وفخر الذكر، والله الملهم الموفق، ونسأله حُسْنَ الختام.

---

(١) سعيد باشا (محمد). (١٢٣٨ – ١٢٨٠ هـ = ١٨٢٢ – ١٨٦٣ م). وُلد وتوفي بالإسكندرية. ابن محمد علي. صار خديوي مصر (١٨٥٤ – ١٨٦٣ م).

(٢) إسماعيل باشا (١٢٤٦ – ١٣١٣ هـ = ١٨٣٠ – ١٨٩٥ م) ابن إبراهيم باشا. وُلد في القاهرة. تولّى حكم مصر (١٨٦٣) ونال لقب الخديوي من السلطان عبد العزيز. دَشَّنَ قناة السويس (١٨٦٩) غالى في إسراف المال، فوقعت مصر في عجز الدِّيون مما أدى إلى تدخُّل الدول في شؤونها، وإلى ثورة عرابي باشا. عُزل إسماعيل عام (١٨٧٩).

(٣) حرب السبعين : الحرب الفرنسية البروسية أو الحرب الفرنسية الألمانية : (١٨٧٠ – ١٨٧١ م) ومن نتائج هذه الحرب إنشاء الامبراطورية الألمانية، ونزول فرنسا عن الإلزاس واللورين لألمانيا، وقيام الجمهورية الثالثة بفرنسا.

(٤) التمريض : المعالجة.

(٥) الدولة العثمانية.

(٦) مصر.

(٧) يقصد العباس الثاني.

ثم خاطب السيّد الفراتي هيئة الجمعية فقال : أيها السادة، لا غرو أن أكون أكثر الإخوان سروراً بإنتاج سعيي وسياحتي، هذه الخطوة الكبيرة في هذا السبيل. وإني مستبشر من تسهيل المولى تعالى البداية أنّ يُسهّل السير إلى النهاية. ولا يعزُّ على الله شيء، والعزائم لا شكّ تُذلّل العظائم.

وإني . أيها السادة . سأراسلكم إنْ شاء الله بمهمّات ما يحصل ويتم، ولا أستغني أن ترفدوني[1] بآرائكم ولو عن بعد، وتسعفوني بأدعيتكم بالتوفيق. هذا، وليس اليوم آخر عهد جمعيتنا، بل يلزم أن تجتمع أيضاً في هذا المحفل رابع أيام التشريق[2] فتكون تلك جمعية الوداع، وفيها يكاشفكم حضرة الأستاذ الرئيس عن بعض تدابير وبشائر يجب إسرارها فتوقر في الصدور لا تُسجَّل ولا تُذاع. وإلى ذاك اليوم يتم . بتسهيل الله . طبع سجلّ مذاكرات جمعيتنا إلى هذه الساعة (بمطبعة الجلاتين) فيوزّع عليكم نسخ منها كما يعطي لكم نسخ من ضبط المناقشات على القانون، ونسخ جديدة من مفتاح الكتابة الرمزية تبديلاً للمفتاح المختصر الأول، مذيّلاً بتراجم الإخوان بصورة أكثر تفصيلاً من الأولى، وعلى الله التيسير.

ثم قال السيد الفراتي : أخبركم . أيها السادة . بأني أخذتُ بالأمس رسالة من أخينا الأديب البيروتي الذي لم يمكّنه القدر من موافاة الجمعية كما بيّنتُ ذلك قبلاً، فهو يُقرئكم السلام، ويدعو للجمعية بالتوفيق، ويطلب أن أتلو عليكم قصيدة له يخاطب بها المسلمين.

فقال الأستاذ الرئيس : وعليه السلام، وأمر بقراءة القصيدة، فَقُرِئَتْ وأثبت منها بإشارة الأستاذ الرئيس بعض أبيات وهي :

غيّرتمـــو ياجيـــارى مـــا بأنفســـكم   فغيَّـــر الله عـــنكم سابـــغَ الـــنعمِ[3]

(١) توافوني وتساعدوني.

(٢) عيد الأضحى المبارك.

(٣) الأبيات من البحر البسيط، ولا يخلو وزنها من الخلل. ويبدو أن القصيدة للكواكبي نفسه.

الله لا يهلـــك القـــرى إذا كفـــرت وأهلهـــا مصــــلحون فـــي شـــؤونهمِ
تـــركُ التـــآمر بـــالمعروف أورثكـــم مـــا حـــاق مـــن نـــذرٍ يـــا زلَّـــة القـــدمِ

إلى أن يقول :

يـــا قومنـــا صـــحّحوا توحيـــد بارئكـــم بـــدون إشــــراك أحيــــاء ولا رمــــمِ
ونقّحـــوا الشـــرع مـــن حشـــوٍ ومختـــرع رُجعـــى إلـــى ديـــن أســـلاف ذوي ذمـــمِ
خـــذوا بمحـــكم آيــــات منزَّلــــةٍ وسُــــنَّة جاءتــــا بأفصــــح الكَلــــمِ
دعـــوا البـــدائع فـــي الـــدِّين،وإنْ حسُـــنت ولا يغــــرَّنكم تأويــــل محــــتكمِ
سمـــاحة الـــدِّين فـــي فكـــرٍ وفـــي عمـــلٍ خيـــرٌ مـــن الإصـــرارِ والأغـــلالِ والسَّـــقمِ
سمــــاحة الــــدِّين مــــنَّ الله خالقكــــم بهـــا علـــيكم، دعـــوا الكفـــران بالنعـــمِ
وحــــافظوا ملّــــة بيضـــــاء ســـــاطعة ســـــمحاء جــــاءتكمو بكــــلّ مغتــــنمِ
راقـــت فضـــائلُها فـــي كُـــلّ فلســـفةٍ قوامهـــا حكمـــة تقضـــي إلـــى شـــممِ

حتى يقول :

هـــذي وســـيلتُكم لا غيرهـــا أبـــداً فاســـعوا لنهضـــتكم يـــاخيرة الأمـــمِ
فـــي غيـــر جامعـــةِ التوحيـــد لـــن تجـــدوا مـــن جـــامع لكمـــو لســـتم ذوي رحـــمِ
سياســـة الـــدِّين أولـــى مـــا تُســـاس بـــه شتّى الخلائق من عربٍ ومن عجمِ
فيهـــا الحيـــاة، وفيهـــا حفـــظُ رايتكـــم خضـــراء ســـوداء حـــول الـــركن والحـــرامِ

ذيل

قرّرت الجمعية في اجتماع الوداع المنعقد في رابع أيّام العيد بعض أمور ينبغي أن تُسَرّ، ولا تذاع. غير أنها رأت أن يلحق منها بهذا السجل ما يأتي فقط :

قرار عدد (٦)

إنّ الجمعية، بعد البحث الدقيق والنظر في أحوال وخصال جميع الأقوام المسلمين الموجودين، وخصائص مواقعهم، والظروف المحيطة بهم، واستعداداتهم، وجدتُ أن لجزيرة العرب ولأهلها . بالنظر إلى السياسة الدِّينية . مجموعة خصائص وخصال لم تتوفّر في غيرهم. بناءً عليه، رأت الجمعية أن حفظ الحياة الدِّينية متعيّنة عليهم، لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً، وأنّ انتظار ذلك من غيرهم عبث محض.

على أن لبقيّة الأقوام أيضاً خصائص ومزايا تجعل لكلّ منهم مقاماً مهمّاً في بعض وظائف الجامعة الإسلامية، مثل : إن معاناة حفظ الحياة السياسية ولا سيّما الخارجية متعيّنة على الترك العثمانيين(١). ومراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية يليق أن تُناطَ بالمصريّين. والقيام بالحياة الجنديّة يتناسب أن يتكفَّل بها الأفغان وتركستان والخزر والقوقاس يميناً ومرّاكش وإمارات أفريقيا شمالاً. وتدبير حفظ الحياة العلمية والاقتصادية خير مَنْ يتولاها أهل إيران وأواسط آسيا والهند وما يليها.

وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدِّينية، بناءً عليه رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها وأهلها ومَنْ يجاريها. وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً؛ وذلك لأجل رفع التعصّب السياسي أو الجنسي، ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب، فنقول :

١ . الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي.

٢ . الجزيرة فيها الكعبة المعظمة.

٣ . الجزيرة فيها المسجد النبوي، وفيه الروضة المطهّرة.

٤ . الجزيرة أنسب الموقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدِّينية لتوسّطها بين

---

(١) لأنهم متقنون فن (الديبلوماتيك) أي المراوغة في المقال، والتلوّن في الأحوال. (ك). والديبلوماتيك : الدبلوماسية.

أقصى آسيا وأقصى أفريقيا غرباً.

٥ . الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسيّة وأدياناً ومذاهب.

٦ . الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

٧ . الجزيرة أفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار لِبُعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعي.

٨ . عرب الجزيرة هم مُؤسِّسو الجامعة الإسلامية لظهور الدِّين فيهم[١].

٩ . عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلُّق بالدِّين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم.

١٠ . عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدِّين لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان.

١١ . عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدِّين وتأييده والفخار به، خصوصاً والعصبية النبويّة لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا.

١٢ . عرب الجزيرة لم يزل الدِّين عندهم حنيفاً سلفياً بعيداً عن التشديد والتشويش.

١٣ . عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية وأشدّهم أنفةً لما فيهم من خصائص البدويّة[٢].

١٤ . عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمّهات والزوجات فلم تختلّ عزتهم.

١٥ . عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنيّة مهذّبة بدليليّ : سعة لغتهم، وسموّ حكمتهم وأدبياتهم.

١٦ . عرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمّل قشف المعيشة في سبيل

---

(١) وكذلك مَنْ يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى أفريقيا. (ك)

(٢) وبقوة ذلك لم يزالوا يأخذون خراجاً مِمَّنْ يأخذون باسم هدية. (ك)

مقاصدهم، وأنشطهم على التغرّب والسياحات، وذلك لِبُعدهم عن الترف المذلّ أهله.

١٧ . عرب الجزيرة أحفظ الأقوام على جنسيّتهم وعاداتهم، فهم يُخالِطُون، ولا يختلطون.

١٨ . عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحريّة والاستقلال وإباء الضيم[١].

١٩ . العرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

٢٠ . العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون[٢].

٢١ . العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمئة مليون من المسلمين وغير المسلمين.

٢٢ . العرب أقدم الأمم اتّباعاً لأصول تساوي الحقوق، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية.

٢٣ . العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية[٣].

٢٤ . العرب أهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية.

٢٥ . العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزّة، واحترام الذمّة

---

(١) هذا سبب عدم انقياد أهل اليمن ومَنْ يليهم للعثمانيين. (ك)

(٢) كان ذلك عام (١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م). أما عدد المسلمين اليوم (١٩٩٤ م) فيبلغ أكثر من ٩٥٠مليون نسمة، والعرب أكثر من /٢٥٠ مليون نسمة.

(٣) يشهد لهم بذلك القرآن في قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام حيث قالت تخاطب الملأ، أي المستشارين الأشراف : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . (ك).أ.هـ. والآيات من سورة النمل ٣٢- ٣٤.

إنسانيّة، واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة[١].

٢٦ . العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدِّين وقدوة للمسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتّبعوا هديهم ابتداءً، فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً.

فهذه هي الأسباب التي جعلت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينيّة، بل الكلمة الشرقيّة. والجمعية تسأل الله تعالى أن يُوفّق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلّب في الدِّين وللحزم والعزم عساهم يحفظون عزّهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وأن يحميهم من التعصّب السّيئ للسياسات والجنسيّات، ومن الكبر والأنفة، ومن التخاذل والانقسام، ومن الانقياد إلى وساوس الأجانب الأضداد، وإلاّ فينتابهم الخطر القريب المحدق بهم، وتتخاطفهم النسور المحلّقة في سمائهم، والله الموفق، وإليه ترجع الأمور.

وهكذا تمّت الاجتماعات، وخُتِمت المذاكرات، وانفضّ الجمع على وعد التلاقي.

لاحقة

يقول السيد الفراتي : إنه . بعد تفرّق الجمعية بنحو شهرين . ورد إليّ من الصّاحب الهنديّ كتاب يذكر فيه أنه . بعد مفارقته مكّة المكرّمة . اجتمع بأمير جليل فاضل من أعظم نبلاء الأمّة ورجال السياسة. فاستطلع رأي الأمير في خصوص النهضة الإسلامية. وبعد أن دار بينهم حديث طويل تحقّق من خلاله سموّ فكر الأمير والتهاب غيرته، ذكر له اطّلاعه على سجلّ جمعية أم القرى

(١) يكفي برهاناً على ذلك مجاملة أهل الجزيرة لسوّاح الإفرنج ما عدا تلك الفعلة التي اندفع إليها ابن صباح، ونال عليها بعد عامين رتبة باشا. وترجيح اليهود الهجرة للبلاد العربية. وعدم اشتراك البلاد العربية العثمانية في حوادث الأرمن الأخيرة كالموصل وماردين وسعرد ونصيبين والمدن العربية من ولاية حلب. وأمّا حوادث لبنان والشام وحلب في القرن السابق فما كانت مُتولِّدة عن تعصّب ديني أو جنسي، بل عن غرور جماعة من الدروز بالإنكليز وجماعة من المسيحيين بنابليون الثالث. (ك).أ.هـ. ويقصد بحوادث لبنان والشام وحلب، الحرب الأهلية بين الدروز والموارنة ١٨٦٠ م.

وأشياء من مذاكراتها ومقرّراتها، فأظهر الأمير سروره من الخبر وشديد شوقه للاطّلاع على السجلّ الذي ذكره له، فعندئذٍ وعده بإعارته نسخة من السِّجلِّ ثم أرسله له. وبعد أيام تلاقيا، فدارت بينهم المحاورة الآتية :

قال الأمير : أشكرك أيها المولى الصاحب على هذه الهديّة العزيزة، ويالذّة ليلة أحييتُهَا في مطالعة تلك المذاكرات النفيسة التي لم أتمالك أن أتركها تلك الليلة حتى أتيتُ على آخرها، ثمّ في الأيام التالية أعدتُ النظر فيها بالتدقيق.

قال الصاحب : يظهر من عبارة مولاي الأمير استحسانه كيفيّة تشكيل الجمعية وامتنانه من مجرى مذاكراتها.

قال الأمير : كيف لا أعجب بذلك ؟ وطالما كنتُ أتمنى انعقاد جمعية يتضافر أعضاؤها على مثل هذا المقصد، وتكون فيهم المزية التي ظهرت على رجال هذه الجمعية الذين حلّوا المشكلة حلاً سياسياً ودينيّاً معاً، وكنتُ أستبعد وجود أكفاء كهؤلاء ! أعظم إعجابي هو في هذا الرجل الملَّقب بالسيد الفراتي كيف اهتدى في رحلة قصيرة، مع إقامته أيام قلائل في مكّة، لانتخاب هؤلاء الأعضاء الأجلاّء ؟

قال الصاحب : لا بدّ أن يكون هذا الرّجل مخلصاً في قصده، فأعانه الله عليه، كما ورد في الخبر : إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه، فلعلّ في الأقدار شيئاً آن أوانه.

قال الأمير : نعم، للأقدار دلائل، ولَنِعْمَ البشائر.

قال الصاحب : أودّ أن أستفيد من مولاي الأمير وجوه إعجابه بهذه الجمعيّة ومذاكراتها لأصحّح رأيي في بعض انتقادات تختلج في فكري القاصر، فإنْ أَذِنَ لي أعرضها عليه مسألة مسألة.

قال الأمير : قل، ولعلّي أقف على ما لم أنتبه إليه.

قال الصاحب : يظهر أن أعضاء الجمعية ليس بينهم بعضٌ من السياسيين المحنّكين، فلو وُجِدَ ربّما كانت تأتي المقرّرات أكثر إحكاماً.

قال الأمير : لا أظنُّ أنَّ في الأمراء والوزراء المسلمين المعاصرين مَنْ هم أعلى كعباً في السياسة من بعض هؤلاء الأعضاء، الذين تشفُّ آراؤهم عن سعة اطّلاع، وسموّ فكر، وبُعد نظر، مع ملاحظات السياسة الدينيّة والحالة العلمية والتدقيقات الأخلاقيّة.

قال الصاحب : أرى أن الجمعية أعطت لمباحث السياسة الدينية الموقعَ الأول، وقد أصابتْ على أنَّ السياسة الإدارية أيضاً جديرة بالاهتمام، فَتُركت بدون تدبير كافٍ.

قال الأمير : لا شكّ أنّ السياسة الإدارية مهمة أيضاً، وقد ابتدأت الجمعية بها، ولكنْ، رأت أفضل وسيلة لحصول المطلوب هي رفع علّة الفتور حيث أنتجت مباحثاتها : أن علّة الفتور هي الخلل الدينيّ. بناءً عليه، حوّلت اهتمامها لجهة العلّة حتى إذا زالت العلّة زال المعلول. ومع ذلك، لم يترك السيّد الفراتي في فصل الأسباب الإدارية شيئاً من أمَّهات أصول الإدارة إلاّ وأشار إليه بما يُغني عن تفصيله.

قال الصاحب : أليس بعض الأعضاء . كالعالم النجدي والمجتهد التبريزي . قد أسهب كثيراً بما كان بعضه يكفي عن باقيه ؟

قال الأمير : إنّ مسألتي التوحيد والاستهداء ركنان مهمّان في الدِّين، وقد تطرّق إليهما الخلل منذ قرون كثيرة، فصار إصلاحهما وردّهما إلى أصلهما من أصعب الأمور. وفي مثل ذلك لا بدّ من الإسهاب في البحث والتعمّق فيه، أو لا يرى، ولله المثل الأعلى، كيف جاء القرآن الكريم بألف أسلوب في تأييد التنزيه والتوحيد والحثّ على اتّباع الكتاب والنبي دون التقليد.

قال الصاحب : إنّي أرى أيضاً بعض مكرّرات في المذاكرات خلافاً لما قاله السيد الفراتي، ولذلك، أرى أنّه لو اهتمّ ذو غيرة في اختصارها يكون حسناً.

قال الأمير : إنّي لا أوافقك على هذا أيضاً، لأنك إذا دقّقتَ النظر لا تجد مكرّرات، إنما هي آراء فلابُدَّ أنْ يُعادَ فيها بعض ماسبق، وعلى كل حال، هذا

سجلٌّ قد ضبط فيه ماوقع، فلا يجوز اختصاره والتصرّف فيه. وإنّي أرى من أكبر محاسن هذه المذاكرات أنْ جاءت مباحثها متسلسلة مترقية، فكلّ موضوع فيها يتلوه ما هو أهمّ منه، فلا يملّ منها سامع ولا مطالع.

قال الصاحب : ما هو رأي مولانا الأمير في القانون الموضوع لأجل تشكيل جمعية تعليم الموحّدين، هل هو قانون محكم الترتيب ؟ وهل هو قابل الإجراء والتطبيق على الأحوال الحاضرة والمنتظرة.

قال الأمير : القانون هو أهمّ ما أثمرته الجمعية، وقابل الإجراء مع الصعوبة.

قال الصاحب : لا أدري، هل أصابت الجمعية أم أخطأت في تعليق أكبر أملها في إعزاز الدِّين بالعرب دون دولة آل عثمان وملوكها العظام ؟

قال الأمير : لا يفوتك أن مطمح نظر الجمعية منحصر في النهضة الدِّينية فقط، وتؤمل أن يأتي الانتظام السياسي تبعاً للدِّين، ولا شكّ أنه لا يقوم بالهدي الديني ويغار على الدِّين أمة مثل العرب.

قال الصاحب : أليس دولة راسخة الملك إدارة وعسكرية وسياسة، وافرة القوى مالاً وعدّة ورجالاً، تكون أقدر على تمحيص الدِّين وإعزازه من العرب الضعفاء من كلّ وجه ؟ وحيث قد ألفت الأمة سماع لقب خدمة الحرمين قديماً ولقب الخلافة وتأييد مَنْ يقوم بذلك يأتون بفضل عظيم.

قال الصاحب : قد وُجِدَ في هذا البيت الكريم بعض أعاظم خدموا إعزاز الدِّين خدمات كبيرة، كالسّلطان محمد الفاتح والسّلطان ياوز سليم والسّلطان سليمان والسّلطان محمود والسّلطان الحالي المعظّم، فهم أولى وأجدر بالخلافة من غيرهم.

قال الأمير : أرجوكَ أنْ لا تنظر للمسألة بنظر العوام، بل بنظر حكيم سياسي. فَأَبْعِدِ النظرَ ماضياً مستقبلاً، وقَلِّبْ صفحات التاريخ بدقّة تجدْ أنَّ إدارة الدّين وإدارة الملك لم تتّحدا في الإسلام تماماً إلاّ في عهد الخلفاء الراشدين

وعمر ابن عبد العزيز فقط، رضي الله عنهم. واتخذتا نوعاً في الأمويين والعباسيين، ثم افترقت الخلافة عن الملك.

وأمّا سلاطين آل عثمان الفخام، فإنّي أذكر لك أنموذجاً من أعمال لهم أتوها رعاية للملك، وإن كانت مصادمةً للدِّين، فأقول : هذا السّلطان محمد الفاتح[1] وهو أفضل آل عثمان قد قدّم المُلك على الدِّين، فاتفق سراً مع (فرديناند)[2] ملك (الأراغون)[3] الإسبانيولي، ثم مع زوجته (إيزابيلا)[4] على تمكينهما من إزالة ملك بني الأحمر، آخر الدولة العربية في الأندلس، ورضي بالقتل العام والإكراه على التنصّر بالإحراق، وضياع خمسة عشر مليوناً من المسلمين، بإعانتهما بإشغاله أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين. وقد فعل ذلك بمقابلة ما قامت به روما من خذلان الإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مكدونيا، ثم القسطنطينية.

وهذا السّلطان سليم[5] غدر بآل العبّاس واستأصلهم، حتى أنه قتل الأمّهات لأجل الأجنّة. وبينما كان هو يقتل العرب في الشرق كان الإسبانيون يحرقون بقيتهم في الأندلس. وهذا السّلطان سليمان ضايق إيران حتى ألجأهم

---

(١) محمد الفاتح : محمد الثاني (الفاتح). (١٤٢٩ – ١٤٨١ م) حكم (١٤١٥ – ١٤٨١ م) ابن مراد وخليفته، أتم فتح الإمبراطورية البيزنطية باستيلائه على القسطنطينية (١٤٥٣). ثم استولى على اليونان والبوسنة. كان نصيراً للشعر والعلوم واللغة. ويُعَدُّ المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية.

(٢) فرديناند الإسبانيولي (ملك الأراغوان) : فرديناند الخامس أو فرديناند الكاثوليكي (١٤٥٢ – ١٥١٦ م) ملك قشتالة وليون (١٤٧٤ – ١٥٠٤) وملك أراغون باسم فرديناند الثاني (١٤٧٩ – ١٥١٦) وملك صقلية ونابلي (١٤٦٨ – ١٥١٦) وفي عام ١٤٦٩، تزوج إيزابيلا ملكة قشتالة. وفي عام ١٤٧٤، تولّى وإيزابيلا ملك قشتالة بالاشتراك، وهكذا توحّدت إسبانيا، وطَرد اليهود والمسلمين، وأُقيمت (محاكم التفتيش).

(٣) الأراغون : مملكة قديمة شمال شرق إسبانيا.

(٤) إيزابيلا : هي إيزابيلا الأولى أو إيزابيلا الكاثوليكية (١٤٥١ – ١٥٠٤ م) كانت ملكة على قشتالة وليون وزوجة فرديناند الثاني ملك الأراغون.

(٥) السلطان سليم هو سليم الأول (٨٧٢ – ٩٢٧ هـ = ١٤٦٧ – ١٥٢٠ م) سلطان تركيا (١٥١٢ – ١٥٢١ م) خلع أباه بايزيد وقتل إخوته. بدأ حكمه بقتل أربعين ألفاً من الشيعة، انتصر على السلطان المملوكي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق (١٥١٦ م) أعدم بقايا نسل العباسيين.

إلى إعلان الرفض المكفر[١].ثم لم يقبل العثمانيون تكليف نادر شاه[٢] لرفع التفرقة بمجرد تصديق مذهب الإمام جعفر. كما لم يقبلوا من أشرف خان الأفغاني اقتسام فارس كي لا يجاورهم ملك سنّي.

وقد سعوا في انقراض خمس عشرة دولة وحكومة إسلامية. ومنها أنهم أغرّوا، وأعانوا الروس التاتار على المسلمين، وهولاندة على الجاوة[٣] والهنديين. وتعاقبوا على تدويخ اليمن، فأهلكوا إلى الآن عشرات ملايين من المسلمين يقتلون بعضهم بعضاً، لا يحترمون فيما بينهم ديناً ولا أخوة ولا مروءة ولا إنسانية، حتى أن العسكر العثماني باغت المسلمين مرّة في صنعاء والزبيد[٤]، وهم في صلاة العيد.

وهذا السلطان محمود اقتبس عن الإفرانج كسوتهم، وألزم رجال دولته وحاشيته بلبسها حتى عمّت أو كادت، ولم يشأ الأتراك أن يغيّروا منها الأكمام رعاية للدِّين لأنّها مانعة من الوضوء أو معسرة له. وهذا السلطان عبد المجيد رأى من مؤيّدات إدارة ملكه إباحة الربا والخمور وإبطال الحدود. ورأى مصلحة في قهر الأشراف وإذلال السادات بإلغاء نفوذ النقابات، ففعل.

وفي هذا المقدار كفاية إيضاح لقاعدة : أنّ مؤيدات الملك عند السلاطين مقدّمة على الدِّين. أمّا صفة خدمة الحرمين وألفة مسامع العثمانيين للقب الخلافة، فهذا كذلك لا يفيد الدِّين وأهله شيئاً، وليس له ما يتوّهم البعض من الإجلال عند الأجانب[٥].

---

(١) رفض الاعتراف بالخلفاء الثلاثة الأُوَّل، وهي فرقة شيعية لُقِّبَتْ بالرافضة، تُقَدِّس آل البيت.

(٢) نادر شاه : (١٦٨٨ – ١٧٤٧ م) شاه إيران (١٧٣٦ – ١٧٤٧) مؤسس أسرة أفغار. انتصر على الأفغانيين والترك في عهد الأسرة الصفوية، جعل نفسه شاه فارس، غزا الهند، ثم انقلب إلى القسوة والاستبداد حتى إنه أمر بأن تُفقأ عينا أحد أولاده.

(٣) جاوة : جزيرة في شرق المحيط الهندي، هي اليوم ضمن الجمهورية الأندونيسية.

(٤) زبيد : من أهم مدن تهامة باليمن.

(٥) الأجانب لا يتفوَّهون بأن السلطان خليفة إلاّ عندما يريدون أن يُقيموا الحجَّة على المسلمين المحكومين لهم ببعض أعماله في ملكه.(ك).

ولو أنّ حضرة السلطان المعظّم أخذ عليه تأييد الدِّين بما أمدّه الله به من القوة المادية بدون استناد إلى صبغة معنوية، لتمكّن من أن يخدم دينه وملكه حقاً خدماتٍ مقبولةً عند الله ورسوله مشكورة عند المؤمنين كافّة، ولَرُفعت له رايةُ الحمد في شرق الأرض وغربها، واحترمه الأبيض والأحمر، وعظَّمه المسلمُ والكافرُ. وأظنه قد قرب اليوم الذي ينتبه فيه، فيتروّى في الأمر، فيعدل عن الاعتماد على غير المادّيات، ويضرب على فم بعض الغشاشين المتملّقين الخائنين، الذين ينسبون حضرته إلى ما لم ينتسب هو إليه : ويشيعون عنه دعوى ما ادّعاها قطّ أحد من أجداده العظام بوجه رسمي.

وهؤلاء الغشّاشون يغرون السلطان على هذه الدعوى بما يهرفون به عليه، وبما يؤلّفونه هم وأعوانهم من الكتب والرسائل التي يعزون بعضها لأنفسهم، وبعضها لغيرهم من المنافقين أو لأسماء يسمّونها، أو كتب يختلقونها، فيجعلون تارة آل عثمان العظام يتّصلون نسباً لعثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وأخرى يرفعون نسبهم إلى أعالي قريش، ويعطونهم حقّ الخلافة، مرة بالتنازل من العباسيين، وأخرى بالاستحقاق والوراثة، وآونة بالعهد، وأخرى بالبيعة العامّة، وحيناً بخدمة الحرمين الشريفين. ووقتاً بحفظ المخلّفات النبويّة.

وكأنّ هؤلاء الغشّاشين يريدون بهذه الدسائس أن يجعلوا حضرة السّلطان نظيرهم : دعي نسب كاذب كدعواهم لأنفسهم السيادة، ومتسنّم مقام موهوم كدعواهم الولاية والقطبانيّة في أنفسهم وآبائهم وأجدادهم؛ فيحشون في تلك المؤلّفات أنساباً انتحلوها لأنفسهم مقرونة بنسب حضرة السلطان؛ ويستطردون لحكايات كرامات لأجدادهم ملفّقة مخترعة لا يعترف بها لهم أحد من المسلمين، يدسّونها بين حكايات ووقائع الخلفاء والسلاطين[1].

ومن المعلوم عند أهل الوقوف، أنَّ التلقّب بالخلافة والإمامة الكبرى أو

(١) إشارة إلى أبي الهدى الصيادي (١٢٦٦ – ١٣٢٧ هـ = ١٨٤٩ – ١٩٠٩ م) الذي بلغ مرتبة عليا في بلاط السلطان عبد الحميد الثاني حتى لُقّب بشيخ الإسلام، نُسبت إليه بعض الكتب. كانت بينه وبين الأفغاني والكواكبي خصومة.

إمارة المؤمنين في آل عثمان العظام حدث في عهد المرحوم السلطان محمود، حيث صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحياناً تفنّناً في الإجلال وغلواً في التعظيم، ثم توسّع استعمال هذه الألقاب في عهد ابنيه وحفيديه إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعي أولئك الغشّاشين، الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحالي للتنازل عن حقوق راسخة سلطانيّة لأجل عنوان خلافة وهميّة مقيّدة في وضعها بشرائط ثقيلة، لا تلائم أحوال الملك، ومعرّضة بطبعها للقلقلة والانتزاع والخطر العظيم.

ولذلك، حضرات السلاطين أنفسهم لم يزالوا إلى الآن متحفّظين عن التلقّب بالخلافة رسمياً في منشوراتهم ومسكوكاتهم، إنّما تمضغها أفواه البعض، فيلوكها التركيّ تعظيماً لقومه، والعربيّ نفاقاً لسلطانه، والمصري اتّباعاً للمرائين، والهنديّ اعتزازاً بالوهم، والأجنبيّ هزؤاً ومكراً، بخلاف حضرات سلطان مرّاكش وأمير عمان وإمام اليمن، المتنازعين في هذا المقام رسماً، المتقاطعين لأجله، على أنهم قد شعروا أو كادوا يشعرون بضررهم السياسيّ في ذلك. ولا نعلم متى يخلق الله مَنْ يسعى في إقناعهم جميعاً بترك هذه الدعوى الدّاعية للانفراد والتخاذل، ويرتّب بينهم قواعد محافظة الاستقلال السياسي، ومراسم التشريفات والمخاطبات، وروابط التعاون والاتحاد بصفة سلاطين وأمراء، كما آل إليه الأمر على عهد الخلفاء العباسيين مع السلاطين الخارزميّة والديلم والأيوبيين وغيرهم.

ثم قال الأمير : وقد حملتني إشارات السيد الفراتي في كلامه على الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة وأن أفتكر في القواعد الأساسية التي ينبغي أنْ يُبنى عليها ذلك. فلاح لي ما قيّدته في هذه المفكرة، وأخرج من جيبه ورقة قرأها، وعند ختام مجلسنا استنسختها منه، وصوّرتها:

١ . إقامة خليفة عربيّ قرشيّ مستجمع للشرائط في مكّة.

٢ . يكون حكم الخليفة سياسة مقصوراً على الخطّة الحجازيّة، ومربوطاً

بشورى خاصّة حجازية.

٣ . الخليفة ينيب عنه مَنْ يترأس هيئة شورى عامّة إسلاميّة.

٤ . تتشكّل هيئة الشورى العامّة من نحو مائة عضو منتخبين، مندوبين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون وظائفها منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينيّة فقط.

٥ . تجتمع الشورى العامّة مدة شهرين في كل سنة قبيل موسم الحج.

٦ . مركز الشورى العامّة يكون مكّة عندما يصادف الحجّ موسم الشتاء، والطائف في موسم الصيف.

٧ . تقترع الشورى يوم افتتاح كل اجتماع على انتخاب نائب الرئيس، ويعينه الخليفة.

٨ . تتعيّن وظائف الشورى العامّة بقانون مخصوص تضعه هي، ويصدّق عليه من قبل السلطنات والإمارات.

٩ . ترتبط بيعة الخليفة بشرائط مخصوصة ملائمة للشرع، بناء على أنّه إذا تعدّى شرطاً منه ترتفع بيعته، وفي كل ثلاث سنين يُعاد تجديد البيعة.

١٠ . انتخاب الخليفة يكون منوطاً بهيئة الشورى، العامّة.

١١ . الخليفة يبلغ قرارات الشورى ويراقب تنفيذها.

١٢ . الخليفة لا يتدخل في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً.

١٣ . الخليفة يصدّق على تولّيات السلاطين والأمراء التي تجري احتراماً للشرع على حسب أصولهم القديمة في وراثاتهم للولاية.

١٤ . الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكريّة مطلقاً، ويُذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين، ولا يُذكر في المسكوكات.

١٥ . يُناط حفظ الأمن في الخطّة الحجازيّة بقوّة عسكرية تتألف من ألفين إلى ثلاثة آلاف من جنود مختلطة، تُرسل من قِبَل جميع السلطنات والإمارات.

١٦ . تكون القيادة العامة للجنود الحجازية منوطة بقائد من قِبل إحدى الإمارات الصغيرة.

١٧ . يكون القائد تحت أمر هيئة الشورى مدّة انعقادها.

١٨ . هيئة الشورى تكون تحت حماية الجنود المختلطة.

((أمّا وظائف الشورى العامة فيقتضي أن لا تخرج عن تمحيص أمّهات المسائل الدينيّة التي لها تعلّق مهمّ في سياسة الأمّة، وتأثير قوي في أخلاقها ونشاطها، وذلك : مثل فتح باب النظر والاجتهاد تمحيصاً للتشريعات، وتيسيراً للدين، وسد أبواب الحروب والغارات والاسترقاق اتّباعاً لمقتضيات الحكمة الزمنية.

وكفتح أبواب حسن الطّاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها، وإنْ كانت غير مسلمة، وسدّ أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكفتح باب أخذ العلوم والفنون النافعة ولو عن المجوس، وسدّ باب إضاعة الأوقات بالعبث، ونحو ذلك من أمّهات المنجّيات والمهالك.))

ثم قال الأمير : وبمثل هذا الترتيب تنحلّ مشكلة الخلافة، ويتسهّل عقد اتحاد إسلاميّ تضامنيّ تعاونيّ يقتبس ترتيبه من قواعد اتحاد الألمانيين والأمريكيين مع الملاحظات الخاصّة.وبذلك، تأمن الحكومات الإسلامية الموجودة على حياتها السياسية من الغوائل الداخلية والخارجية، فتتفرغ للترقّي في المعارف والعمران والثروة والقوة، ممّا لابُدّ منه للنجاة من الممات. وما أجدر إمارات الجزيرة بالسبق إلى مثل هذا الاتّحاد.

قال الصاحب : يُستَشَفُّ من ظاهر فكر مولاي الأمير، أنّه لا يجوز الاتكال على الملوك العثمانيين العظام في أمر الخلافة، علاوة على السلطنة.

قال الأمير : إنّي أحبّ العثمانيين للطف شمائلهم، وتعظيمهم الشعائر الدينيّة، ولكنّ النصيحة للدّين تستلزم قول الحقّ. وعندي أنّ حضرات آل عثمان

العظام أنفسهم، إذا تدبّروا، لا يجدون وسيلة لتجديد حياتهم السياسية أفضل من اجتماعهم مع غيرهم على خليفة قرشيّ.

قال الصاحب : أخبرَني، أيها الأمير، أحدُ أعضاء الجمعية أنه لمّا رأى السيّد الفراتي يميل للتنقيب عن سياسة العثمانيين، واستمالة الجمعية عليهم لا لهم، ذكر له ذلك مرَّة متلوِّماً، وقال : ألا ينبغي ستر أحوالهم والمدافعة عنهم، لأنّهم أعظم دولة إسلامية موجودة ؟

فأجابه :

بأنّ ذلك كذلك لولا أنّ فيه تغرير المسلمين، وتركهم متّكلين على دولةٍ ما توقّفت لنفع الإسلامية بشيء في عزّ شبابها، بل أضرّتها بمحو الخلافة العباسيّة المجمع عليها، وتخريب ما بناه العرب، وإفناء الأمّة بفتوحاتها شرقيّ أوربا ومدافعاتها، وأنّه لا يقصد بكشف الحقيقة وإظهارها غير إزالة الغرور والاتّكال المستوليين على جماهير المسلمين بسبب عدم التأمّل. ثم قال له :

أليس الترك قد تركوا الأمّة أربعة قرون ولا خليفة، وتركوا الدِّين تعبث به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صمّاً بكماً عمياً ولا مرشد ؟ **!**

أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة، وتركوا الهند مساهلة، وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسيين، وتركوا قارة إفريقيا الإسلامية للطامعين، وتركوا المدخلة في الصين كأنّهم الأبعدون ؟ **!**

أليس الترك قد تركوا وفود الملتجئين يعودون خائبين، وتركوا المستنصِرين بهم عرضة للمنتقِمين، وتركوا ثلثي ملكهم طعمة للمتغلّبين ؟**!**

أفما آن لهم أن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على ما فّرطوا في القرون الخالية، فيتركون الخلافة لأهلها والدّين لحماته؛ وهم يحتفظون على بقيّة سلطنتهم، ويكتفون بشرف خدمة نفس الحرمين، وبذلك يتّقون الله في الإسلام والمسلمين ؟ **!**

وقال أيضاً : إنه غير متعصّب للعرب، وإنما يرى ما لابدّ أنْ يراه كلُّ حرّ يتفحّص الأمر : من أنّ الغيرة على الدِّين وأهله والاستعداد لتجديد عزّ الإسلام

منحصران في أهل المعيشة البدويّة من العرب. إذ يرى أنّ المشيئة الإلهية حفظتهم من تلك الأمراض الأخلاقية التي لا دواء لها : كفالج الحريّة في الحواضر ،باعتقاد أهلها أنّهم خُلقوا أنعاماً للأمراء. وكجذام التربية في المدن بوضعهم النساء في مقام ربائط للاستمتاع. وكطاعون الحياء في بعض الأقوام بألفتهم اللّواط المميت للأخلاق الشريفة دفعة الذي جزى الله أهله بخسف الأرض بهم تطهيراً لها منهم. وكَوباء النشاط في أهل الأراضي الخصبة، حيث يسهل أن يغنوا، فيبطروا، فتفسد أخلاقهم، فيخسرون الدنيا والآخرة.

قال الأمير : نِعْمَ الرأي، ونِعْمَ التدقيق.

قال الصاحب : إنّ ماذكر من حصر صفة الخلافة في خليفة قرشيّ في مكّة، ترتبط به جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ارتباطاً دينياً؛ وما وصف من تشكيل الشورى العامّة المؤيّدة لهذا الارتباط الديني، لأمر عظيم جداً. والغالب أن الدول المسيحية التي لها رعايا من المسلمين، أو المجاورة للمسلمين، تتحذّر من أن يجرّ جمع الكلمة الدينية إلى رابطة سياسيّة تولد حروباً دينية، فَتَعْمَد هذه الدول إلى عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول هذا الارتباط أساساً. فما هو التدبير الذي يقتضي اتّخاذه أمام تحذر الدول من ذلك؟

قال الأمير : لا يفكّر هذا الفكر غير الفاتيكان[1] وأحزابه الجزويت[2] وأمثالهم، أمّا رجال السياسة في إنكلترا ورسيا وفرانسا، وهي الدول العظام التي يهمّها التفكير في هذا الشأن، فقد علّمتهم التجارب النتائج الآتية وهي :

١ . إنّ المسلمين لا يتنصّرون أبداً، لاسيّما في زمان يبتعد فيه النصارى عن نصرانيّتهم.

٢ . إنّ المسلمين المتنوّرين، أفراداً وجموعاً، أَبعدُ عن الفتن من الجاهلين.

---

(١) مقام الباباوات في روما، يتألف من البلاط والمعابد والمتاحف والمكتبة التي تُعَدُّ إحدى أهم مكتبات العالم. ودولة الفاتيكان اعترفت بها إيطاليا (١٩٢٩ م).

(٢) فرقة كاثوليكية متعصّبة.

٣ . إنّ العرب من المسلمين أقرب من غيرهم للألفة وحسن المعاملة والثبات على العهد.

فإذا أُرشد أولئك السياسيون لأن يضمّوا إلى معرفتهم هذه، علمهم أيضاً بالأحكام الإسلامية في مسألة الجهاد التي يتهيّبونها، علماً يستخرجونه من عندهم من تراجم القرآن الكريم، لا من مؤلفات متعصبيّ الطرفين، حيث يجدون نحواً من خمسين آية بأساليب شتىّ، كلّها تنهى عن الإلحاح في الهداية إلى الدِّين، فضلاً عن التشديد والإلزام بالقتال، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾[1]،﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ [2] و﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾[3]. ويجدون آيتين في التشديد إحداهما :﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [4] والأخرى ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [5]؛ وبمراجعة أسباب نزول هاتين الآيتين يعلمون أنهما نزلتا في حقّ المشركين والكتابيين من العرب، ولا يوجد في القرآن ملزم لاعتبار عموميّة حكمهما.

وإذا دقّقوا البحث، يجدون أنْ ليس في علماء الإسلام مطلقاً مَنْ يحصر معنى الجهاد في سبيل الله في مجرد محاربة غير المسلمين، بل كُلّ عمل شاقٍّ نافعٍ للدِّين والدنيا، حتى الكسب لأجل العيال، يُسمّى جهاداً.

(١) القصص : ٥٦.

(٢) النحل : ١٢٥.

(٣) الغاشية : ٢٢.

(٤) الحجر : ٩٤.

(٥) البقرة ٢١٨، الأنفال : ٧٤، التوبة : ٢٠.

وبذلك يعلمون أنّ قصر معنى الجهاد على الحروب كان مبنيّاً على إرادة الفتوحات، والتوسّل للتشجيع حين كان مجال للفتوحات، كما أُعطي اسم الجهاد مقابلة لاسم الحروب الصليبية التي أصلى نارها المسيحيون.

ثم بعطف نظرهم إلى التاريخ، يجدون أنّ العرب منذ سبعة قرون لم يأتوا حرباً باسم الجهاد. وما كانت تعديات أساطيل إمارات الغرب إلاّ من قبيل (القرصان) الذي كان مألوفاً عند جميع إمارات الأرخبيلين والصقلي واليوناني وكلّهم نصارى. أمّا غارات التاتار على شمالي أوروبا وغارات الترك على شرقها، فكذلك ليست من نوع الجهاد ولا من الحرب الدينية، وإنما هي من ملحقات غارات البرابرة الشماليين على أوروبا. ويجدون أنّهم كما أغاروا على أوروبا أغاروا على البلاد الإسلامية، ثم أسلم التاتار، وحَسُنَتْ أخلاقهم.

أمّا التُّرْكُ، فإذا دقّق الأوروبيون سياستهم، يجدونهم لا يقصدون بالاستناد للدين غير التلاعب السياسيّ وقيادة الناس إلى سياستهم بسهولة، وإرهاب أوروبا باسم الخلافة واسم الرأي العام. وعدم اشتراك البلاد العربيّة في المذابح الأرمنية الأخيرة، برهانٌ كافٍ على أنّ الإسلامية بمعزل عن المجافاة، لأنّ العرب يفهمون معنى القرآن، فيدينون به. وقد يندهش الأوروبيون إذا علموا أنّ السياسة التركيّة لم يوافقها أن تترجم القرآن إلى اللغة التركية إلى الآن.

ولدى رجال السياسة دليل مهم آخر على أنّ أصل الإسلامية لا يستلزم الوحشية بين المسلمين وغيرهم، بل يستلزم الإلفة؛ وذلك أنّ العرب أينما حلّوا من البلاد، جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم، كما أنّهم لم ينفروا من الأمم التي حلّت بلادهم، وحكمتهم، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك، بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنّهم يذعنون لكلمة ربّهم تعالى شأنه : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ

﴾[1].

فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يحذّرون من الخلافة العربية، بل يرون من صولحهم الخصوصيّة، وصوالح النصرانية، وصوالح الإنسانية، أنْ يويّدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة السطوة، مربوطة بالشورى على النسق الذي قرأته عليك.

ثمّ على فرض أن بعض الدول ولو المسلمة أرادت عرقلة هذا الأمر، فهي لا تقوى عليه، لأنّ أفكار الأمم لا تُقَاوَم، ولا تُصَادَم، على أنّي لا أظنّ بمثل فرانسا أنْ تنخدع لرأي أنصار الجزويت، لا سيّما بعد أنْ تعلّمت من الإنكليز كيف تُسوّس المسلمين، فأبقت لتونس أميرها، فاستراحت مما عانته قبلاً مع الجزائر بسبب السياسة التعصّبية الخرقاء.

قال الصاحب : أستشفّ من كلام مولاي أنّ أمله ضعيف في تشكيل جمعيّة تعليم الموحّدين، مع أنّه معجب بإتقان التدبير.

قال الأمير : إنَّ دون تشكيل الجمعية بعض عوائق ماليّة شتى، وأرجو الله تعالى أن يزيلها.

قال الصاحب : إنّني جاهد الوقوف على خبر السيد الفراتي، ولعلّي أظفر بمعرفته فأجتمع به، أو أكاتبه، فهل لمولاي رأي أو أمر أُبلغه إيّاه إذا ظفرتُ به ؟

قال الأمير : نعم، إذا ظفرتَ بمعرفته فَأَقْرِئْهُ مني السلام، وبَلّغه عني هذه الجمل : وهي أنّي أثني على صدق عزيمته، وعلى حسن انتخابه ورفقائه، وأوصيه بالثبات والإقدام ولو طال المطال، وأن يحرص على إبقاء علاقته مع أعضاء جمعيّة أم القرى باستمراره على مكاتبتهم، وأنْ لا يقنط من مساعدة القسطنطينية أو مصر أو مراكش أو طهران أو كابل أو حائل أو عمان، لا

(١) آل عمران : ١٤٠.

سيّما بعد انعقاد جمعية تعليم الموحّدين ورسوخها.

قال الصاحب : إذا ظفرتُ به إنْ شاء الله أُبَشِّره بتحية مولاي الأمير، وأُبلغه كلّ ما أمر به.

(انتهت المحاورة)

يقول السيد الفراتي : قد ألحقتُ هذه المحاورة بسجل المذاكرات، وكتبتُ بها إلى باقي الإخوان، وذلك تنويهاً بشأن حضرة الأمير المشار إليه، وشكراً على غيرته وتبصيراته، وافتخاراً بحسن ظنّه ونظره في هذا العاجز، وتبشيراً لجنابه وللمسلمين، بأن جمعية أمّ القرى قد أُحكم تصوُّرها وتأسيسها، فهي بعناية الحيّ القيّوم الأبدي حيّة قائمة أبداً.

(تذكرة)

ربّما يتأخر تشكيل جمعية الموحّدين مدّة، فالمأمول من الجمعيات الإسلامية الموجودة في الهند وقازان والقرم ومصر وغيرها أنْ لا تأنف من تنوير أفكارها بمباحث هذا السِّجلّ، فتقتبس منه ما يناسبها، وتتخذ القانون والوظائف مثالاً وذكرى.

(رجاء)

مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وعنده شمة حمية ومروءة، فلا يتجسس على جمعية أم القرى وأعضائها بقصد إيصال سوء إليهم. وليعلم أن يده . وإنْ طاولت الأفلاك . لأَقصر من الإضرار بها، لأن الجمعية في أمان الإخلاص.

ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله.

(تهوين)

ليعلم أُسراء التقاليد، وَوَرَثَةُ الأوهام، ومعظّمو ومؤلّهو الطغام؛ أن تألّمهم من صدمة بعض هذه المباحث لما ألفوه عمرهم هو تألّم مباغت، لا يلبث أن يزول متى خلوا بعقولهم، وحكّموا الحكمة والإنصاف، وتأملوا حقّ الإيمان وناطق القرآن، وحينئذ يتجلّى لهم الحقّ، ويندمون كما ندم قبلهم الأوّلون، فيتوبون ويتوب الله عليهم، والله يهدي مَنْ يشاء.

(إعلان)

مَنْ أحبَّ أنْ ينجد مقاصد جمعية أم القرى برأي فائق أو عمل مهمّ، أو راغب في تعضيدها بجاه أو مال، وأراد مراسلة الجمعية، أمكنه أن يراسل وكالة الجمعية بدون اسم، بل بإرسال كتاب مُعَنْوَنٍ إلى مدينة ..... إلى صندوق بوسته عدد ..... وإذا أراد التخفّي يمكنه أن يخابرها أولاً باسم له مُختلَق[1]، ثم بعد أخذه الجواب الأول يستعمل الكتابة الجفرية[2] الموضَّحة في الجدول المذيّل به هذا السِّجل.

والذين يُرجى منهم تعضيد مهمّ كحضرات الأمراء العظام والأغنياء الكرام، فلهم أن يطلبوا رسولاً من قبل الجمعية ليُوضِّحَ لهم ما يستوضحون[3].

---

(١) مستعار.

(٢) الرمزية. الجفر = الشَّفْرَة : رموز يستعملها الناس للتفاهم السّري فيما بينهم.

(٣) هنا تُعلّق المنار : (قد انتهى كتاب سجل جمعية أم القرى، وما أُلحق به. وقد كنا اتفقنا مع جامعه السيد الفراتي (تغمّده الله برحمته) على نشره في المنار بتصرّف يختصُّ بتصحيح عبارته وحذف مساوئ الدولة العلية (أيّدها الله تعالى) منه. ثم استحسن



فضلاء القراء عدم حذف شيء منه، فللمطّلعين ما نشرناه من أول سنة المنار الخامسة إلى الآن أن يثقوا بأنهم اطّلعوا على هذا السجل كله، بعبارة أصح : (إلا جملة واحدة ذكر فيها خديوي مصر بأنه مرجو لمساعدة الجمعية، وإلا جدول المخاطبة الرمزية المذكور آنفاً في الإعلان) ط. م.

(بيان يكشفه الزمن) [1]

ق ث ذ ط س ظ س ا ظ غ ع ط ب ط ت ر ك ط ط ر ق ب د س ى ض ر ذ ث
ب ر ا ون ت و و ل د ج ي ض ى غ وق ب ج م ر ي ط ب س ق ج ق ك د
ث ل ص ظ ج ب ت ث س غ ١٣١٦ ق ك ا ب ق ب ذ ن خ ذ وص ن ت ث
ل ع ت س ي ش ر ز ز ل ج ر ل ظ ث ك ذ ق د س ي س د م ك ق ب ر
ز ض د ج غ ف ج ع ي ق ب ج هـ ف ح وهـ ت ض س ظ ض خ خ ي ك ن
م ل ق ذ وك ط ح ر ذ ف و ذ ن ا د ر ك ح د ذ ل ل ا ح وق ذ ر ك
ك ث خ ظ ي ض و غ ي ل خ د ي ث ر و م ل ك ر ظ خ و ث غ خ ب ر ى
س خ س ى ص خ د ل ب ت ا ق ب ث ع ل ب ظ ب د ذ ب ق ب ث ب
س ج ذ ك ز ر ز ك ن ت و و ل ن ث و ح د غ ب خ ر ج س م ث م س غ ذ
ج ش ح ض ك خ هـ ل ط ص ل ل ج د ك ق س ح ي ض د ض د ن د ص ج
ف ر ك ق س ص ق ك ع و ض ر خ ا ع ط ر ى ض د د ي ظ

صالح ج

(١) خلت (ط.م) من هذا البيان، ومضاف بخط اليد إلى النسخة التي لديَّ منها.

(الجدول الأفقي)[1]

حيث أن بعض البوستات مأذونة رسماً بفتح المكاتيب التي يشتبه منها، فالحاجة ملجئة لاستعمال كتابة جفرية مأمونة، بناءً عليه، صار وضع هذا الجدول تسهيلاً للمخابرة السرية بجفرة لا يمكن كشف سرها بدون معرفة حروف المفتاح المتفق عليها بين كل متخابرين.

طريقة الكتابة

هي أن يتفق المتخابران على كلمة، ولو ساذجة، تسمّى المفتاح، ولا حاجة لأن تكون أكثر من ثلاثية أو رباعية، وعندما يريد أحدهما أن يكتب عبارة فعلية يحررها بحروف مقطعة على ورقة يضعها أمامه، ويضع بين يديه هذا الجدول، فينظر ما هو الحرف الأول من المفتاح، فيضع أصبع يده اليمنى على الحرف المماثل له المرسوم في الجدول الأول العامودي الأيمن الأسود. ثم ينظر ما هو الحرف الأول من العبارة المراد كتابتها فيضع أصبع يده اليسرى على الحرف المماثل له من الجدول الأفقي الأسود، ثم يمشي أصبعيه يساراً ونازلاً حتى يلتقيا في نقطة زاويتهما، فحينئذ ينظر ما هو الحرف المرسوم في نقطة الملتقى فيكتبه. ثم ينظر ماهو الحرف الثاني من المفتاح وماهو الحرف الثاني من العبارة فيعمل كما عمل أولاً، ويكتب حرف نقطة الملتقى، وهكذا حتى تنتهي حروف المفتاح، فيعيد الأخذ بأول حرف من المفتاح، ويستمر في الأخذ من حروف العبارة، بحيث كلما انتهت حروف المفتاح يعيد الكرة من أولها، ويبقى مستمراً في موالدة حروف العبارة إلى أن تنتهي، وعندئذ يجد أنه قد تسطَّر معه حروف مبدلة عوضاً عن الحروف الأصلية للعبارة، ومَنْ يريد الاختصار يمكنه أن يحرر بعض العبارة كتابة عادية، ويكتب بعض كلمات أو

(١) التفصيلات اللاحقة عن طريقتي الحل والكتابة غير موجودة إلا في طبعة (ط.ط) التي صدرت في القاهرة عام ١٩٢٣.

جمل من خلالها بهذه الطريقة، ولا بأس أن يُحَرِّر إمضاءه أيضاً جفراً.

طريقة الحل

هي أنَّ مَنْ يأخذ الرسالة الجفرية يحلّها بأن يضع أصبع يده اليمنى على مثل الحرف الأول من المفتاح في الجدول العامودي الأيمن الأسود، ثم يسري بأصبعه يساراً حتى يقف على مثل الحرف الأول في الرسالة الجفرية، ثم يصعد بأصبعه حتى ينتهي للجدول الأفقي الأعلى الأسود، فيأخذ الحرف الذي يجده فيه، فيسطّر ويكون هذا هو الحرف الأصلي المستبدل، ثم يعمل مثل ذلك باعتبار الحرف الثاني من المفتاح والحرف الثاني من الرسالة وهكذا، ثم يعيد الكرة على حروف المفتاح المرة بعد الأخرى إلى أن يستبدل حروف الجفرة بالحروف الأصلية.

تنبيه :

قد وُضع هذا الجدول لكتابة العربية، كما أنه تُكتب به التركية والفارسية باعتبار تفريق حروف (ب ج ز ك) من أخواتها العربية بالقرينة، وكذلك يُستغنى عن حروف الحركات في الأوردية ببعض الحروف العربية التي لا دخل لها فيها. ومَنْ يريد استكمال ذلك يمكنه أن يضيف لهذا الجدول على نسق ترتيبه ما يشاء من الحروف والأرقام والرموز والأشكال :

الجدول الأفقي

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي
ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا
ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب
ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت
ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث
ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج
خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح
د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ
ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د
ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ
ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر
س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز
ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س
ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش
ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص
ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض
ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط
ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ
غ ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع
ف ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ
ق ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف
ك ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق
ل م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك
م ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل
ن ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م
ه و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن
و ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه
ي ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و

(مَنْ يريد أنْ يُجهل خطَّهُ أيضاً يمكنه أنْ يلتقط مفردات الحروف اللازمة نحو الجرائد فيقتطعها مربعة، ويلصقها متتابعة)

فهرس

أكثر المباحث المهمة الواردة في سجل المذاكرات

ما هي الحرية ؟ ما هي أهميتها ؟	المولى الرومي
سبب الإخلاد للخمول والملهيات	المولى الرومي
عدم شعور الهندي والمصري بآلام غيره	المولى الرومي
تَرْكُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	المجتهد التبريزي
سهولة إزالة المنكر	
فَقْدُ الاحتساب باستيلاء الدخلاء	المجتهد التبريزي
ما هي الطاعة لأولي الأمر	
السلطان الكافر العادل أم المسلم الظالم ؟	المرشد الفاسي
انحلال الرابطة بفقد الرؤساء	المرشد الفاسي
العلماء المدلّسون وإفسادهم الدين	المحقق المدني
مآخذ البدع الدينية من النصرانية وغيرها	المحقق المدني
الميل العام للبدع والتصوف	المحقق المدني
تمكن الأوهام في الأمراء والعواصم وما هو السحر ؟	المحقق المدني
فَقْدُ العلماء وضياع الدين	المولى الرومي
العلماء الرسميون	المولى الرومي
الاجتماع الثالث : (الداء أو الفتور العام)	
اختصاص القضاء بالجهلاء. الألقاب العلمية والسلطانية	المولى الرومي
مجاهرة العلماء بمخالفة الدِّين. تولية الخدم الدينية للجهلاء	المولى الرومي
هدم قواعد الدِّين على يد العلماء	المولى الرومي
الأمراء والشورى وفقر العلماء	المولى الرومي
اقتصار التعليم على بعض العلوم	الرياضي الكردي

البروتستانت والزنادقة	السعيد الإنكليزي
ما الكتاب ؟ وما السنة ؟	العالم النجدي
أسباب الاختلافات الاجتهادية	العالم النجدي
أسباب نسخ بعض الأحكام	العالم النجدي
هل من وسيلة لرفع التفرق ؟	السعيد الإنكليزي
تسهيل تعليم الأحكام	العلامة المصري
الدين في اليمن وما يليه	المحدث اليمني
العلم الكافي للاجتهاد	المحدث اليمني
طريقة الاستهداء في اليمن	المحدث اليمني
الإفتاء في اليمن	المحدث اليمني
ليس في المتجهدين مَنْ جَوَّزَ التقليد	المحدث اليمني
تسهيل المتقدمين الاستهداء	المحدث اليمني
جواز تقليد الغير	المحدث اليمني
الاجتماع السادس :	
(الطريقة النقشبندية وتشديد الفقهاء)	
الطريقة النقشبندية	الشيخ السندي
دواعي الميل إلى الطرائق. تشديدات الفقهاء	الشيخ السندي
التصوف الباطل والعرفان	الشيخ السندي
تاريخ التصوف	الأستاذ المكي
المفتي والمستشرق في الاستهداء	الخطيب القازاني
التقليد والوثوق بالمتقدمين	الخطيب القازاني
تأثيرات التشديد والتشويش	الخطيب القازاني
مزايا السماحة في الدِّين وسمو حكمة القرآن	الخطيب القازاني
سمو الحكمة النبوية	الخطيب القازاني

قيام المستشرقين بتعليم الدين	الخطيب القازاني
الجدل في العقائد والفقه	المجتهد التبريزي
التفريق في الدين	المجتهد التبريزي
الاجتهاد عند علماء فارس	المجتهد التبريزي
التلفيق والتوفيق في الاجتهادات	المجتهد التبريزي
الحيل الشرعية وسقامتها	المجتهد التبريزي
توفيق الأحكام على مقتضيات الزمان	المجتهد التبريزي
الاجتماع السابع: (مجمل أسباب الفتور)	
تلخيص أسباب الفتور	السيد الفراتي
الأسباب الدينية	السيد الفراتي
الأسباب السياسية	السيد الفراتي
الأسباب الأخلاقية	السيد الفراتي
الأسباب السياسية الإدارية الجاريّة في المملكة العثمانية	السيد الفراتي
الاستقلال النوعي والإداري	السيد الفراتي
بخس العرب حقوقهم	السيد الفراتي
إهمال رعاية الشرع	السيد الفراتي
حالة الإدارة في الحجاز	السيد الفراتي
أسباب شتى للفتور	السيد الفراتي
تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة	السيد الفراتي
نفور الترك من العرب	السيد الفراتي
الاجتماع الثامن : (غرارة المسلمين وأنواعها)	
الغرارة بفقد المرشدين	السيد الفراتي
الغرارة عن الإتقان	السيد الفراتي

طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد

طبعات طبائع الاستبداد

عنوانه الكامل طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، محررها هو الرحالة (كاف).

نشر لأوّل مرة في المؤيد المصرية لصاحبها علي يوسف، وذلك بين سنتي ١٣١٨ و ١٣٢٠ هـ، ١٩٠٠ و ١٩٠٢ م، ثم وسَع الكواكبي تلك الأبحاث ونشرها في كتاب. وقد عثرنا على طبعة أنجزتها مطبعة الجمالية بمصر، من دون تاريخ، وتتألف من ١٢٦ صفحة من القطع لاصغير، محررها هو الرحالة (ك). وهناك طبعة مشابهة، عليها تاريخ ٩٣١.

وثمّة طبعة قديمة، من دون تاريخ، مطبوعة في مطبعة الدستور العثماني في شارع محمد علي، على نفقته إبراهيم فارس صاحب المكتبة الشرقية في مصر، وتقع هذه الطبعة في ١٥٢ صفحة من القطع الصغير.

كما أن هناك طبعة أنجزتها المكتبة التجارية في مصر في مجلد واحد مع أم القرى عام ١٩٣١، وطبعة الدار القومية للطباعة والنشر في القاهرة، ضمن سلسلة ((كتب ثقافية)) برقم ٢٧، ومؤرخة في ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٩، وتقع في صفحتين ومئة. وطبعة على نفقة محمد عطية الكتبي في مطبعة الأمة في درب الشعلان، وتقع في ١٢٧ صفحة من القطع الصغير، وصدرت بأنها ((لفيلسوف الإسلام وعلاّمة الشرق المرحوم المبرور السيد عبد الرحمن الكواكبي الملقب بالسيف الفراتي)). كما أن هناك طبعات كثيرة متشابهة وهي من القطع الصغير، وتتراوح بين ١٢٦ و ١٤٨ صفحة، من دون تواريخ. ويمكننا أن نعدّ تلك الطبعات كلّها طبعة أولى وسنرمز إليها بالحرفين (ط.ق)، وهي تخلو – جمعها – من فهرس الأبحاث. ويقول الكواكبي في مقدمة تلك الطبعات: ((إنني في سنة ثماني عشر وثلاثمئة ألف، وُجدتُ زائراً في مصر [...] فنشرت في بعض الصحف الغرّاء أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منها ما درسته، ومنها ما اقتبسته [...].

ثم كلفني بعض الأعزاء بجمع شمل تلك الأبحاث، تعميماً للفائدة، فأضفت غليها بعض زيادات وحوّلتها إلى هيئة هذا الكاب[1].

أما الطبعة الثانية فقد صدرت عن المطبعة العصرية في حلب، وفيها زيادات على سابقتها، ومذكور فيها أنها طبعة منقحة، إلا أنها مليئة بالأخطاء، وخصوصاً في صيغ الشواهد القرآنية. وهي طبعة مشابهة لطبعة صدرت عن دار المعارف في مصر في أول شارع الفجالة، ومنشورة على أنها الطبعة الأولى. ولكننا نجد الكواكبي يقول في مقدمتها: ((... ثم في زيارتي مصر ثانية، أجبت تكليف بعض الشبيبة فوسّعت تلك المباحث وأضفت إليها طرائق التخلّص من الاستبداد، ونشرت ذلك في كتاب سمّيته طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد...))، مما يدل على أن هذه الطبعة هي الثانية، ففيها يتحدث الكواكبي عن زياداته. وقد لاحظنا في بحث ((ماهو الاستبداد)) وفي بحث ((الاستبداد والدين)) إضافات غير قليلة، وهناك فِقرات مضافة تحت عنوان ((ما طبيعة الاستبداد، ولماذا يكون المستبد شديد الخوف، ولماذا استولى الجبن على رعية المستبد؟)). وسنرمز إلى هذه الطبعة بالحرفين (ط.م)، أي طبعة معدلة.

أما الطبعة التي يمكن أن تعد ثالثة فهي صادرة عن المطبعة الرحمانية في مصر، ومدوّن على الكتاب: يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر، لصاحبها مصطفى محمد، (١٣٥٠ هـ، ١٩٣١ م)، ومحررها هو الرحالة (ك). وتقع هذه الطبعة في ١٣٦ صفحة من القطع الصغير، وفيها زيادات بخط المؤلف نفسه، وقد ضمنت غليها صفحات إضافية تعادل ضعف المطبوع، وقد كُتبت في راس الصفحة بخط المؤلف عبارة: محررها هو ٤٦٥، عبد الرحمن الكواكبي ٤٦٥. وتتصدرها مقدمة معدّلة بخط

(١) في طبعات طبائع الاستبداد القيدمة كلها، ص ٢ – ٣.

يد المؤلف، جاء فيها: ((إنني في سنة ثماني عشر وثلاثمئة وألف هجرية، هجرت دياري سرحاً في الشرق، فزرت مصر، واتخذتها لي مركزاً أرجع إليه [...] في زيارتي هذه لمصر، نشرت في أشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوانات: الاستبداد، ما هو الاستبداد؟ وما تأثيره على الدين؟ على العلم؟ على التربية؟ على الأخلاق؟ على المجد؟ على المال؟ .. على غير ذلك. ثم في زيارتي مصر ثانية أحببت تكليف بعض الشبيبة، فوسعت تلك المباحث، خصوصاً في الاجتماعيات، كالتربية والأخلاق، وأضفت إليها طرائق التخلص من الاستبداد، ونشرت ذلك في كتاب سمّيته طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد [...] ثم في زيارتي هذه، وهي الثالثة، وجدت الكتاب قد نفد في برهة قليلة، فأحببت أن أعيد النظر فيه وأزيده زيداً مما درسته فبطته، أو ما اقتبسته وطبقته. وقد صرفت في هذا السبيل عمراً عزيزاً وعناءً غير قليل)) [1]. وفي هذه النسخة إضافة كثيرة في أبحاث ((الاستبداد والمجد)) و ((الاستبداد)) و ((الاستبداد والأخلاق)) وسواها. وسنضرب بعض الأمثلة على اختلا الطبعات في حينه، رامزين إلى هذه النسخة بالحرفين (ط.مخ)، أي طبعة مخطوطة.

وعلى هذه الطبعة اعتمد حفيد الكواكبي (د. عبد الرحمن) حين أشرف على طباعة الكتاب سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م، حيث اعتُمدت تلك الطبعة على أنها الأولى، لأن فيها تنقيحاً بخط المؤلف نفسه، ومؤرّخة سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م.

ثم طبعت ثانية في سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م في درا القرآن الكريم في بيروت، وتقع في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط، وهي مطابقة للطبعة الأولى الموثّقة.

وقد استُهلت هذه الطبعة الجديدة بكلمة توضيحية للدكتور عبد الرحمن

---

(١) الصفحات (١ و ٢) من المقدمة في النسخة المودعة بدار الوثائق التاريخية بدمشق، وثيقة رقم (١)، ولديّ نسخة مصوّرة منها.

الكواكبي يقول فيها عن الكتاب: ((ظهر هذا الكتاب إلى النور مطبوعاً منذ أكثر من سبعين عاماً، وأعيد طبعه مرات ومرات وفق الأصل الذي بدا به أول مرة، حتى ظهرت بين أوراق المؤلف نسخة من الطبعة الأولى منقحة بخط يده [...] وتوليت نشر النسخة المنقحة لأول مرة في عام (١٩٥٧)، وحفظت المخطوط الأصلي في مديرية الوثائق التاريخية التابعة لوزارة الثقافة بدمشق)) [١]. تلي ذلك صورتان لورقتين من الأصل بخط المؤلف وتعديلاته. لكنّنا، دفعاً للالتباس، قمنا بتعديل هذه الطبعة بشكل يتوافق والمخطوطة. وسنرمز إلى طبعة ١٩٧٣، حين استخدامها، بالحروف (ط.ح).

وقامت مؤخراً مؤسسة ناصر للثقافة في بيروت بنشر الكتاب عام ١٩٨٠ تحت سلسلة الاجتماع برقم ٣٢ وتحت عنوان فرعي هو ((خزانة الفكر العربي))، وجاء في ١٢٧ صفحة من القطع الصغير، مع فهرس للأبحاث، لكننا، من خلال المقارنة، وجدنا أنها تخلط بين الطبعات القديمة والجديدة، ولم نعثر لها على منهج في نشر طبعتها تلك.

ثم طبع الكتاب في دار الشرق العربي حلب/بيروت، طبعة ثالثة، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، جاءت في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط، وقد أحصيت في هذه الطبعة أكثر من ستين خطأً طباعياً.

وعثرت، مؤخّراً، على طبعات كثيرة لكنها اعتمدت على نسخة قديمة وغير منقحة أو مزيدة من الكتاب، مما يسيء إلى فكر الكواكبي ويجعل اعتماد الدارسين على تلك الطبعات غير مجدٍ لفهمه.

---

(١) يشير د. عبد الرحمن الكواكبي إلى ((أن بعض دور النشر العربي دأبت على طباعته دون الأخذ بالتنقيح الذي أشرنا إليه)). عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ط٢ (بيروت: نشر رياض كيالي، دار القرآن الكريم، ١٩٧٣)، ص ٧.

الرحالة ك

عبد الرحمن الكواكبي

طبائع الاستبداد

و

مصارع الاستعباد

وهي كلمة حق و صرخة في واد

إن ذهبت اليوم مع الريح

لقد تذهب غداً بالأوتاد

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

الحمد للّه، خالق الكون على نظامٍ محكمٍ متين، والصّلاة والسّلام على أنبيائه العظام، هداة الأمم إلى الحقّ المبين، لاسيما منهم على النبيّ العربيّ الذي أرسله رحمةً للعالمين ليرقى بهم معاشاً ومعاداً على سلّم الحكمة إلى علّيين.

أقولُ وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام[1] شأن الضّعيف الصّادع بالأمر، المعلن رأيه تحت سماء الشرق، الرّاجي اكتفاء المطالعين بالقول عمَّن قال: وتعرف الحقّ في ذاته لا بالرجال، إنني في سنة ثماني عشر وثلاثمائة وألف هجرية[2] هجرتُ دياري سرحاً في الشّرق، فزرتُ مصر، واتخذتها لي مركزاً أرجع إليه مغتنماً عهد الحرّيّة فيها على عهد عزيزها[3] حضرة سميًّ عم النّبي (العباس الثاني) [4] النّاشر لواء الأمن على أكناف ملكه[5]، فوجدتُ أفكار سراة القوم في مصر كما هي في سائر الشّرق خائضةٌ عباب البحث في المسألة الكبرى، أعني المسألة الاجتماعية في الشّرق عموماً وفي المسلمين خصوصاً، إنما هم كسائر الباحثين، كلٌّ يذهب مذهباً في سبب الانحطاط وفي ما هو الدواء. وحيثُ إني قد تمحّص عندي أنّ أصل الدّاء هو الاستبداد السّياسي ودواؤه دفعه بالشّورى الدّستورية. وقد استقرَّ فكري على ذلك كما

---

(١) إشارة إلى استخدامه الاسم المستعار (الرحالة ك) في هذا الكتاب.

(٢) تقابل عام (١٩٠٠ م).

(٣) في (ط.ق): ((عزيزها ومعزّها)).

(٤) عباس حلمي بن توفيق، خديو مصر (١٨٩٢ – ١٩١٤). حاول مقاومة الاحتلال البريطاني لمصر، خلعه البريطانيون، بعد أنْ فرضوا حمايتهم على مصر، ونفوه إلى سويسرا.

(٥) في (ط.ق): كان النّصّ كالآتي: ((النّاشر لواء الحرية على أكناف ملكه)) والتعديلان السّابقان يشيران إلى تراجع علاقة الكواكبي بالخديوي الذي بدأت تتحسَّن علاقته بالسّلطان عبد الحميد الثّاني.

أنّ لكُلّ نبأ مستقراًـ بعد بحث ثلاثين عاماً... بحثاً أظنّهُ يكاد يشمل كلّ ما يخطرُ على البال من سبب يتوهّمُ فيه الباحث عند النظرةِ الأولى، أنهُ ظفر بأصل الدّاء أو بأهمّ أصوله، ولكنْ؛ لا يلبث أنْ يكشف له التّدقيق أنّه لم يظفر بشيء، أو أنّ ذلك فرعٌ لا أصل، أو هو نتيجة لا وسيلة .

فالقائلُ مثلاً: إنّ أصل الدّاء التّهاون في الدّين، لا يلبث أنْ يقف حائراً عندما يسأل نفسه لماذا تهاون النّاس في الدّين؟ والقائل: إنّ الدّاء اختلاف الآراء، يقف مبهوتاً عند تعليل سبب الاختلاف. فإن قال: سببه الجهل، يَشْكُلُ عليه وجود الاختلاف بين العلماء بصورة أقوى وأشدّ... وهكذا؛ يجد نفسه في حلقة مُفرغة لا مبدأ لها، فيرجع إلى القول: هذا ما يريده الله بخلقه، غير مكترث بمنازعة عقله ودينه له بأنّ الله حكيمٌ عادلٌ رحيمٌ...

وإنّي، إراحةً لفكر المطالعين، أعدّد لهم المباحث التي طالما أتعبتُ نفسي في تحليلها، وخاطرتُ حتّى بحياتي في درسها وتدقيقها، وبذلك يعلمون أنّي ما وافقتُ على الرّأي القائل بأنّ أصل الدّاء هو الاستبداد السّياسي إلا بعد عناءٍ طويل يرجحُ قد أصبتُ الغرض. وأرجو الله أنْ يجعل حُسنَ نيَّتي شفيع سيئاتي، وهاهي المباحث:

في زيارتي هذه لمصر، نشرتُ في أشهر جرائدها[1] بعض مقالات سياسية تحت عنوانات الاستبداد: ما هو الاستبداد وما تأثيره على الدّين[2]، على العلم، على التّربية على الأخلاق، على المجد، على المال... إلى غير ذلك.

ثم في زيارتي إلى مصر ثانيةً أجبتُ تكليف بعض الشبيبة، فوسّعتُ تلك المباحث خصوصاً في الاجتماعيات كالتربية والأخلاق، وأضفت إليها

(١) المؤيّد والعمران. وقد بَيَّنّا تفاصيل ذلك في مُقدَّمتنا للأعمال الكاملة للكواكبي التي صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، عام ١٩٩٥.

(٢) كذا في الأصل، والصّواب: تأثيره في الدّين..

طرائق التخلُّص من الاستبداد، ونشرتُ ذلك في كتاب سمَّيته (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) [1] وجعلته هديةً مني للنّاشئة العربية المباركة الأبية المعقودة آمال الأمة بيُمْنِ نواصيهم. ولا غروَ، فلا شباب إلا بالشباب.

ثمّ في زيارتي هذه، وهي الثالثة، وجدتُ الكتاب قد نفد في برهةٍ قليلة، فأحببتُ أن أعيد النّظر فيه، وأزيده زيداً مما درستُهُ فضبطتُه، أو ما اقتبستُه وطبَّقتُه، وقد صرفتُ في هذا السبيل عمراً عزيزاً وعناءً غير قليل... وأنا لا أقصد في مباحثي ظالماً بعينه ولا حكومةً وأمَّة مخصصة، وإنما أردتُ بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه... ولي هناك قصدٌ آخر؛ وهو التنبيه لموردِ الداء الدّفين، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم، أنهم هم المتسببون لما حلَّ بهم، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار، إنما يعتبون على الجهل وفَقْدِ الهمم والتّواكل.. وعسى الذين فيهم بقية رمقٍ من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات...

وقد تخيّرتُ في الإنشاء أسلوب الاقتضاب، وهو الأسلوب السّهل المفيد الذي يختاره كُتَّاب سائر اللغات، ابتعاداً عن قيود التعقيد وسلاسل التّأصيل والتّفريغ. هذا وإنّي أخالف أولئك المؤلّفين، فلا أتمنى العفو عن الزلل؛ إنما أقول:

هذا جهدي، وللناقد الفاضل أن يأتي قومه بخير منه. فما أنا إلا فاتح باب صغير من أسوار الاستبداد. عسى الزمان يوسِّعه، والله وليُّ المهتدين.

١٣٢٠هـ- ١٩٠٢م

مقدّمة

(١) حدث ذلك في سنة ١٣١٩ هـ، ١٩٠١ م.

لا خفاء أنّ السّياسة علمٌ واسعٌ جدّاً، يتفرّعُ إلى فنون كثيرة ومباحثَ دقيقة شتّى. وقلّما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم، كما أنّه قلّما يوجد إنسان لا يحتكُّ فيه.

وقد وُجد في كلِّ الأمم المترقية علماءُ سياسيون، تكلّموا في فنون السّياسة و مباحثها استطراداً في مدوّنات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب. ولا تُعرف للأقدمين كتبٌ مخصوصة في السّياسة لغير مؤسِّسي الجمهوريات في الرّومان واليونان، وإنّما لبعضهم مُؤلّفات سياسية أخلاقية ككليلة ودمنة[١] ورسائل غوريغوريوس[٢]، ومحرّرات سياسية دينية كنهج البلاغة[٣] وكتاب الخراج[٤].

وأما في القرون المتوسطة فلا تؤثر أبحاث مُفصّلة في هذا الفن لغير علماء الإسلام؛ فهم ألّفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرّازي[٥]، والطّوسي[٦]، والغزالي[٧]، والعلائي[٨]، وهي طريقة الفُرْسِ، وممزوجاً بالأدب كالمعرّي[٩]، والمتنبّي[١٠]، وهي طريقة العرب، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون[١]، وابن

(١) مجموعة من قصص الحيوان، تُمَثِّل حكمة الهند. ترجمه عبد الله بن المقفع من الفهلوية على العربية..

(٢) غريغوريوس النّازيانزي (٣٢٩ – ٣٩٠) بطريك القسطنطينية. كان شاعراً وخطيباً، وله رسائل شهيرة في السياسة..

(٣) كتاب شهير من كلام علي بن أبي طالب، جمعه الشريف الرضيّ.

(٤) فرع من فروع التّأليف الفقهي، صنَّف فيه كثيرون، منهم: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، ويحيى بن آدم، وقدامة بن جعفر، وابن رجب، وغيرهم.

(٥) أبو بكر محمد بن زكريا (٨٦٤ – ٩٣٢ م) من أشهر أطباء العرب، من أشهر مُؤلَّفاته (الحاوي).

(٦) نصير الدّين الطّوسي (٥٩٨ – ٦٧٣ هـ، ١٢٠١ – ١٢٧٤ م) فيلسوف فارسي، له شأن في العلوم العقلية والرّياضيات والفلك. ولد في طوس قرب نيسابور. كَتب بالعربية وله مصنفات كثيرة، منها في الفلسفة وفي المنطق وفي التّصوّف وسواها..

(٧) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ، ١٠٥٨ – ١١١١ م) فيلسوف ومُتكلّم صوفي. لُقِّب بحجة الإسلام. من مؤلّفاته: تهافت الفلاسفة، إحياء علوم الدّين، المنقذ من الضّلال..

(٨) علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي العلائي (٨٦٨ – ٩٤٠ هـ، ١٤٦٣ – ١٥٣٤ م) فارسي الأصل، وُلد في سورية، وعمل مستشاراً للشاه طهماس بن إسماعيل الصّفوي، يُلقَّب بالمحقّق الثّاني..

(٩) أبو العلاء المعري (٣٦٣ – ٤٥٠ هـ، ٩٧٣ – ١٠٥٨ م) شاعر ذو نزعة فلسفية، وُلد في معرة النّعمان..

(١٠) أبو الطّيب أحمد بن الحسين المتنبي (٣٠٣ – ٣٥٤ هـ، ٩١٥ – ٩٦٥ م) شاعر مُتكبِّر طموح، امتدح سيف الدّولة، ثمَّ كافوراً. قُتل قرب دير العاقول في عودته من فارس إلى بغداد. له ديوان شرحه كثيرون، كَتَب أفضل قصائده في حلب الي عاش فيها عشر سنوات..

بطوطة[٢]، وهي طريقة المغاربة.

أمّا المتأخِّرون من أهل أوروبا، ثمَّ أمريكا، فقد توسَّعوا في هذا العلم وألّفوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلاً، حتَّى إنّهم أفردوا بعض مباحثه في التّأليف بمجلّدات ضخمة، وقد ميّزوا مباحثه إلى سياسة عمومية، وسياسة خارجية، وسياسة إدارية، وسياسة اقتصادية، وسياسة حقوقية، إلخ. وقسّموا كلاً منها إلى أبواب شتَّى وأصول وفروع.

وأمّا المتأخِّرون من الشرقيين، فقد وُجد من التّرك كثيرون ألّفوا في أكثر مباحثه تآليف مستقلّة وممزوجة مثل: أحمد جودة باشا[٣]، وكمال بك[٤]، وسليمان باشا[٥]، وحسن فهمي باشا[٦]، والمؤلّفون من العرب قليلون ومقِلُّون، والذين يستحقّون الذكر منهم فيما نعلم: رفاعة بك[٧]، وخير الدّين باشا التّونسي[٨]، وأحمد فارس[٩]، وسليم البستاني[١٠]،والمبعوث المدني[١].

---

(١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٩ هـ، ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) واضع علم الاجتماع ومنهج التأريخ والعمران. صاحب مُقدّمة كتاب العبر.

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي(٧٠٤ – ٧٨٠ هـ، ١٣٠٤ – ١٣٧٨ م) رَحَّالة مغربي وُلد في طنجة، وطاف العالم في تسع وعشرين سنة. له: تحفة النُّظَّار في غراءب الأمصار وعجائب الأسفار.

(٣) أحمد جودت باشا (١٢٣٨ – ١٣١٣هـ، ١٨٢٢ – ١٨٩٥ م) مُؤرّخ وسياسي عثماني، بلغاري الأصل. ساهم في (التنظيمات) وحرَّر مجلة (إقدام). من مؤلّفاته: تاريخ جودت، ١٢مج. وترأس لجنة تأليف (مجلة الأحكام العدلية).

(٤) كمال محمد نامق (١٢٥٦ – ١٣٠٦ هـ، ١٨٤٠ – ١٨٨٨ م). أديب تركي من الأحرار، كان لأدبه دورٌ بارز في القومية التّركية، وخاصة في روايته (الوطن).

(٥) سليمان بن عبد الله بن يحيى الطّرابلسي الباروني (١٨٢٧ – ١٣٥٩ هـ، ١٨٧٠ – ١٩٤٠ م). زعيم مجاهد، انتقد السياسة العثمانية. وحين أُعلن الدستور أختير نائباً عن طرابلس في ((مجلس المبعوثان)).

(٦) من المناضلين الأتراك ضدّ السّلطة العثمانية..

(٧) رفاعة رافع الطّهطاوي (١٢١٦ – ١٢٩٠ هـ، ١٨٠١ – ١٨٧٣ م) أزهري مصري. من روَّاد النهضة العربية الحديثة. أدار مدسرة الألسن. عَرَّبَ وألّف كُتُباً كثيرة منها: تخليص الإبريز.. ومناهج الألباب....

(٨) نهضوي ومصلح سياسي تونسي (١٢٣٧ – ١٣٠٨ هـ، ١٨٢١ – ١٨٩٠ م) نشأ رقيقاً، ثمَّ تسلَّم مناصب عديدة في الحكومة العثمانية، وحاول أنْ يُطبّق آراءه النهضوية فيها. له: أقوم المسالك...

(٩) أحمد فارس الشّدياق (١٢١٩ – ١٣٠٦ هـ، ١٨٠٤ – ١٨٨٨ م) صحفي وأديب، أنشأ صحيفة (الجوائب). له: كنز الرّغائب في منتخبات الجوائب. (ج٧) والسّاق على السّاق...

(١٠) أديب وصحفي لبناني (١٢٥٦ – ١٣٠٢ هـ، ١٨٤٨ – ١٨٨٤ م) كان أحد محرري دائرة المعارف. اشترك مع والده في تحرير صحيفة الجنان و (الجننية) و(الجنة). له: تاريخ فرنسا الحديث وتاريخ نابليون...

ولكنْ؛ يظهر لنا أنّ المحرِّرين السّياسيين من العرب قد كثروا، بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضع كثيرة. ولهذا، لاح لهذا العاجز أنْ أُذكّر حضراتهم على لسان بعض الجرائد العربية بموضوع هو أهمّ المباحث السّياسية، وقلَّ من طرق بابه منهم إلى الآن، فأدعوهم إلى ميدان المسابقة في خير خدمة ينيرون بها أفكار إخوانهم الشرقيين وينبِّهونهم . لاسيما العرب منهم . لما هم عنه غافلون، فيفيدونهم بالبحث والتّعليل وضرب الأمثال والتّحليل (ما هو داء الشّرق وما هو دواؤه؟). ولمّا كان تعريف علم السّياسة بأنّه هو «إدارة الشّؤون المشتركة بمقتضى الحكمة» يكون بالطّبع أوّل مباحث السّياسة وأهمّها بحث (الاستبداد)؛ أي التّصرُّف في الشّؤون المشتركة بمقتضى الهوى.

وإنّي أرى أنّ المتكلّم في الاستبداد عليه أن يلاحظ تعريف وتشخيص ((ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما سيره؟ ما إنذاره؟ ما دواؤه؟)) وكلُّ موضوع من ذلك يتحمّل تفصيلات كثيرة، وينطوي على مباحث شتّى من أمهاتها: ما هي طبائع الاستبداد؟ لماذا يكون المستبدُّ شديد الخوف؟ لماذا يستولي الجبن على رعية المستبدّ؟ ما تأثير الاستبداد على الدّين؟ على العلم؟ على المجد؟ على المال؟ على الأخلاق؟ على التَّرقِّي؟ على التّربية؟ على العمران؟ مَنْ هم أعوان المستبدّ؟ هل يُتحمّل الاستبداد؟ كيف يكون التّخلص من الاستبداد؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟

قبل الخوض في هذه المسائل يمكننا أن نشير إلى النّتائج التي تستقرُّ عندها أفكار الباحثين في هذا الموضوع، وهي نتائج متَّحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والأنظار في الباحثين، وهي:

---

(١) ربما يكون أحد المشاركين في مؤتمر (أم القرى) الذي تخيَّله الكواكبي في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه. وَوَضْعُ الاسم هنا يدلُّ على طرافة الكواكبي ونزعته إلى السخرية التي توضَّحت في أسلوبه الصحفي، كما لاحظنا سابقاً، وقد حرَّف اسم المُحقّق المدني إلى المبعوث. وهذه الملاحظة تُعَزّز القول إنَّ كتاب طبائع الاستبداد جاء بعد كتاب أم القرى.

يقول المادي: الدّاء: القوة، والدّواء: المقاومة.

ويقول السّياسي: الدّاء: استعباد البرية، والدّواء: استرداد الحرّيّة.

ويقول الحكيم: الدّاء: القدرة على الاعتساف، والدّواء: الاقتدار على الاستنصاف.

ويقول الحقوقي: الدّاء: تغلّب السّلطة على الشّريعة، والدّواء: تغليب الشّريعة على السّلطة[١].

ويقول الرّبّاني: الدّاء: مشاركة الله في الجبروت، والدّواء: توحيد الله حقّاً.

وهذه أقوال أهل النظر، و أمّا أهل العزائم[٢]:

فيقول الأبيُّ: الدّاء: مدُّ الرّقاب للسلاسل، والدّواء: الشّموخ عن الذّل.

ويقول المتين: الدّاء: وجود الرّؤساء بلا زمام، والدّواء: ربطهم بالقيود الثّقال[٣].

ويقول الحرّ: الدّاء: التّعالي على النّاس باطلاً، والدّواء: تذليل المتكبّرين.

ويقول المفادي[٤]: الدّاء: حبُّ الحياة، والدّواء: حبُّ الموت.

ما هو الاستبداد

الاستبدادُ لغةً هو: غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرّأي وفي الحقوق المشتركة.

---

(١) نلاحظ – هنا – أن الكواكبي يريد أنْ تكون الشريعة (القانون) هي الإطار العام الذي يُراقَب من خلاله عملُ السلطة (الحكومة).

(٢) أهل النّظر: المفكّرون والمنظّرون والمُقَوننُون.

أهل العزائم: أهل العمل، أو المُنَفِّذون والمُمَارِسون.

(٣) بلا زمام: أي بلا قانون مُلزِم.

القيود الثّقال: أي، جعل سلطة الرّؤساء مُقيَّدة بالقوانين.

(٤) وقد أحسن الكواكبي باختيار كلمة (المفادي) على وزن مجاهد ومقاتل، بدلاً من (الفدائي) التي ينصرف معناها إلى وصف التكتيك القتالي، وصفاً للفعل. أما المفادي فهو الذي يفتدي بنفسه مبادئه أو وطنه...

ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصّةً؛ لأنّها أعظم مظاهر أضراره التي جعلتْ الإنسان أشقى ذوي الحياة. وأما تحكّم النّفس على العقل، وتحكُّم الأب والأستاذ والزّوج، ورؤساء بعض الأديان[١]، وبعض الشركات، وبعض الطّبقات؛ فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة.

الاستبداد في اصطلاح السّياسيين هو: تَصَرُّف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة، وقد تَطرُق[٢] مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات: استعباد، واعتساف، وتسلُّط، وتحكُّم. وفي مقابلتها كلمات: مساواة، وحسّ مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة. ويستعملون في مقام صفة (مستبدّ) كلمات: جبّار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة(حكومة مستبدّة) كلمات: عادلة، ومسؤولة، ومقيّدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرّعية (المستَبَدّ عليهم) كلمات: أسرى، ومستصغرين، وبؤساء، ومستنبتين[٣]، وفي مقابلتها: أحرار، وأباة، وأحياء، وأعزّاء.

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات، وأمّا تعريفه بالوصف فهو: أنّ الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً، التي تتصرّف في شؤون الرّعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محقَّقَين. وتفسير ذلك هو كون الحكومة إمّا هي غير مُكلّفة بتطبيق تصرُّفها على شّريعة، أو على أمثلة تقليدية، أو على إرادة الأمّة، وهذه حالة الحكومات المُطلقة. أو هي مقيّدة بنوع من ذلك، ولكنّها تملك بنفوذها إبطال قوّة القيد بما تهوى، وهذه حالة أكثر الحكومات التي تُسمّي نفسها بالمقيّدة أو بالجمهورية.

وأشكال الحكومة المستبدّة كثيرة ليس هذا البحث محلُّ تفصيلها.

---

(١) كذا في الأصل، ونرى أنّه يريد: بعض رؤساء الأديان.

(٢) بمعنى: تطرأ.

(٣) الاستنبات أو التّنبُّت من اصطلاحات الفرنج، يريدون به الحياة الشّبيهة بحياة النّبات (ك).

ويكفـي هنـا الإشـارة إلـى أنّ صـفة الاسـتبداد، كمـا تشـمل حكومـة الحـاكم الفـرد المطلق الذي تولّى الحكم بالغلبة[1] أو الوراثة، تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيَّد المنتخـب متـى كـان غيـر مسـؤول، وتشـمل حكومـة الجمـع ولـو منتخبـاً؛ لأنَّ الاشتراك في الرّأي لا يدفع الاستبداد، وإنَّما قد يعدّله الاختلاف نوعاً، وقد يكون عند الاتّفاق أضرّ من استبداد الفرد. ويشمل أيضاً الحكومة الدّستورية المُفرَّقة فيها بالكُلِّيَّة قوَّة التشريع عن قوَّة التَّنفيذ وعن قوَّة المراقِبة[2]؛ لأنَّ الاستبداد لا يرتفـع مـا لـم يكـن هنـاك ارتبـاط فـي المسـؤولية، فيكـون المُنَفِّذُون مسـؤولين لـدى المُشَرِّعين، وهؤلاء مسؤولين لدى الأمَّة، تلك الأمَّة التي تعرف أنَّها صاحبة الشّأن كلّه، وتعرف أنْ تراقب وأنْ تتقاضى الحساب.

وأشدّ مراتب الاستبداد التي يُتعوَّذ بها من الشّيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية. ولنا أنْ نقول كلّمـا قـلَّ وَصْـفٌ مـنْ هـذه الأوصـاف؛ خـفَّ الاسـتبداد إلـى أنْ ينتهـي بالحـاكم المنتخب الموقت المسؤول فعلاً. وكذلك يخفُّ الاستبداد ـ طبعاًـ كلّما قلَّ عدد نفوس الرَّعية، وقلَّ الارتباط بالأملاك الثّابتة، وقلَّ التّفاوت في الثّروة وكلّما ترقَّى الشّعب في المعارف.

إنَّ الحكومة من أيّ نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشَّديدة والاحتساب الّذي لا تسامح فيه، كما جرى في صدر الإسلام في ما نُقِم على عثمان، ثمَّ على عليّ رضي الله عنهما، وكما جرى في عهـد هـذه الجمهوريـة الحاضـرة[3] فـي فرنسـا فـي مسـائل النّياشـين وبنامـا

(١) بالعنف والقوّة من غير وجه حقّ.

(٢) أي، التي لا تتكامل فيها السلطات.

(٣) المقصود هو حكومة فرنسا في أواخر القرن التّاسع عشر وأول العشرين، والمسائل هي قضايا استطاع أصحابها – بسبب الحرية السائدة في فرنسا – إثارة الرأي العام، ورفع الظّلم عنهم وتحقيق العدالة. (ك).

ودريفوس[١].

ومن الأمور المقرَّرة طبيعةً وتاريخاً أنَّه؛ ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمّة أو التَّمكُّن من إغفالها إلاّ وتسارع إلى التَّلبُّس بصفة الاستبداد، وبعد أنْ تتمكَّن فيه لا تتركه وفي خدمتها إحدى الوسيلتين العظيمتين: جهالة الأمَّة، والجنود المنظَّمة. وهما أكبر مصائب الأمم وأهمّ معائب الإنسانية، وقد تخلَّصت الأمم المتمدُّنة ـ نوعاً ما ـ من الجهالة، ولكنْ؛ بُليت بشدة الجندية الجبرية العمومية؛ تلك الشّدة التي جعلتها أشقى حياةً من الأمم الجاهلة، وألصق عاراً بالإنسانية من أقبح أشكال الاستبداد، حتَّى ربَّما يصحّ أن يقال: إنَّ مخترع هذه الجندية إذا كان هو الشّيطان؛ فقد انتقم من آدم في أولاده أعظم ما يمكنه أنْ ينتقم! نعم؛ إذا ما دامت هذه الجندية التي مضى عليها نحو قرنَيْن إلى قرن آخر أيضاً تنهك تجلُّد الأمم، وتجعلها تسقط دفعة واحدة. ومن يدري كم يتعجب رجال الاستقبال من تَرَقِّي العلوم في هذا العصر ترقِّياً مقروناً باشتداد هذه المصيبة التي لا تترك محلاً لاستغراب إطاعة المصريين للفراعنة في بناء الأهرامات سخرة؛ لأنَّ تلك لا تتجاوز التّعب وضياع الأوقات، وأمّا الجندية فتُفسد أخلاق الأمّة؛ حيثُ تُعلِّمها الشّراسة والطّاعة العمياء والاتّكال، وتُميت النّشاط وفكرة الاستقلال، وتُكلِّف الأمّة الإنفاق الذي لا يطاق؛ وكُلُّ ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم: استبداد الحكومات القائدة لتلك القوَّة من جهة، واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى.

ولنرجع لأصل[١] البحث فأقول: لا يُعهد في تاريخ الحكومات المدنية

(١) والإشارة – هنا – إلى الأحداث التي رافقت منح امتياز قناة (بنما) الملاحية. وقضية ديرفوس التي بدأت عام (١٨٩٤ م) حينما كُشف عن برنامج أُرسل على الماجور شفارتزكوبن، الملحق العسكري الألماني بباريس، ومعه قائمة بالوثائق السرية الفرنسية التي وَعَدَ كاتب البرنامج بتقديمها. وأدانت المحكمة العسكرية الكابتن ألفرد دريفوس (١٨٥٩ – ١٩٣٥) وهو ضابط فرنسي يهودي، اتُّهم بالخيانة العظمى، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة عام (١٨٩٤) بجزيرة الشيطان، ثمَّ أعيدت محاكمته، بضغط من الجماهير (١٨٩٦)، فبُرّئ، ورُدَّ إليه اعتباره (١٩٠٦).

استمرار حكومة مسؤولة مدَّة أكثر من نصف قرن إلى غاية قرن ونصف[٢]، وما شذَّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في إنكلترا، والسّبب يقظة الإنكليز الذين لا يُسكرهم انتصار، ولا يُخملهم انكسار، فلا يغفلون لحظة عن مراقبة ملوكهم، حتَّى أنَّ الوزارة هي تنتخب للملك خَدَمَهُ وحَشَمَهُ فضلاً عن الزّوجة والصّهر، وملوك الإنكليز الذين فقدوا منذ قرون كلَّ شيء ما عدا التّاج، لو تسنّى الآن لأحدهم الاستبداد لَغَنِمَهُ حالاً، ولكنْ؛ هيهات أنْ يظفر بغرة من قومه يستلم فيها زمام الجيش.

أمّا الحكومات البدويّة التي تتألَّف رعيتها كلّها أو أكثرها من عشائر يقطنون البادية، يسهل عليهم الرّحيل والتَّفرّق متى مسَّتْ حكومتُهم حرّيّتهم الشّخصية، وسامتْهم ضيماً، ولم يقووا على الاستنصاف؛ فهذه الحكومات قلّما اندفعت إلى الاستبداد. وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب، فإنَّهم لا يكادون يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبّع وحُميْر وغسان[٣] إلى الآن إلاّ فترات قليلة. وأصل الحكمة في أنَّ الحالة البدوية بعيدة بالجملة عن الوقوع تحت نير الاستبداد، وهو أنَّ نشأة البدويّ نشأة استقلالية؛ بحيث كلُّ فرد يمكنه أنْ يعتمد في معيشته على نفسه فقط، خلافاً لقاعدة الإنسان المدنيّ الطبع، تلك القاعدة التي أصبحت سخرية عند علماء الاجتماع المتأخِّرين، القائلين بأنَّ الإنسان من الحيوانات التي تعيش أسراباً في كهوف ومسارح مخصوصة، وأمّا الآن فقد صار من الحيوان الذي متى انتهت حضانته؛ عليه أنْ يعيش مستقلاً بذاته، غير متعلّق بأقاربه وقومه كلّ الارتباط، ولا مرتبط ببيته وبلده كلّ التّعلُّق، كما هي معيشة أكثر الإنكليز والأمريكان الذين يفتكر الفرد منهم أنَّ تعلُّقه بقومه وحكومته ليس بأكثر من رابطة شريك في شركة اختيارية، خلافاً للأمم التي

(١) كذا في الأصل، والصّواب: ولنرجع على أصل البحث. لأنَّ فعل (نرجع) يتعدى بـ (إلى).

(٢) هذه الفكرة تدلُّ على اطّلاع الكواكبي على أفكار ابن خلدون وأعمار الدولة لديه.

(٣) دُوَلٌ نشأت قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

تتبع حكوماتها حتى فيما تدين.

النّاظر في أحوال الأمم يرى أنَّ الأُسراء يعيشون متلاصقين متراكمين، يتحفَّظُ بعضهم ببعض من سطوة الاستبداد، كالغنم تلتفُّ حول بعضها إذا ذعرها الذّئب، أمّا العشائر والأمم الحرّة المالك أفرادها الاستقلالَ النّاجز فيعيشون مُتَفَرِّقين.

وقد تكلَّم بعض الحكماء . لا سيَّما المتأخِّرون منهم . في وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تُصوِّر في الأذهان شقاء الإنسان، كأنَّها تقول له هذا عدوَّك فانظر ماذا تصنع، ومن هذه الجمل قولهم:

«المستبدّ: يتحكَّم في شؤون النّاس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنَّه الغاصب المتعدِّي[1] فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من النَّاس يسدُّها عن النّطق بالحقّ والتّداعي لمطالبته».

«المستبدّ: عدوّ الحقّ، عدوّ الحّيّة وقاتلهما، والحق أبو البشر، والحرّيّة أمّهم، والعوام صبية أيتام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم إخوتهم الرّاشدون، إنْ أيقظوهم هبّوا، وإنْ دعوهم لبّوا، وإلا فيتَّصل نومهم بالموت».

«المستبدّ: يتجاوز الحدّ ما لم يرَ حاجزاً من حديد، فلو رأى الظّالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظّلم، كما يقال: الاستعداد للحرب يمنع الحرب».

«المستبدّ: إنسانٌ مستعدٌّ بالطّبع للشّر وبالإلجاء للخير[2]، فعلى الرّعية أنْ تعرف ما هو الخير وما هو الشّر فتلجئ حاكمها للخير رغم طبعه، وقد يكفي للإلجاء مجرَّد الطَّلب إذا علم الحاكم أنَّ وراء القول فعلاً. ومن المعلوم أنَّ

(١) المعتدي.

(٢) في (ط.ق): (المستبدّ إنسان مستعدٌّ بالفطرة للخير والشّر) وما هذا إلاّ أنموذج للتّغييرات الكثيرة التي أدخلها المؤلّف على النّسخة القديمة المطبوعة، حتّى إنَّ هذا الفصل (ما هو الاستبداد؟) بعد التّنقيحات، يعادل ضعف مثيله في الطّبعات القديمة. وتحمل الشّيء نفسه على طول كتاب (طبائع الاستبداد).

مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شرَّ الاستبداد».

«المستبدّ: يودُّ أنْ تكون رعيته كالغنم درّاً وطاعةً، وكالكلاب تذلُّلاً وتملُّقاً، وعلى الرَّعية أنْ تكون كالخيل إنْ خُدِمَت خَدمتْ، وإنْ ضُرِبت شَرست، وعليها أن تكون كالصقور لا تُلاعب ولا يُستأثر عليها بالصّيد كلِّه، خلافاً للكلاب التي لا فرق عندها أَطُعِمت أو حُرِمت حتَّى من العظام. نعم؛ على الرّعية أن تعرف مقامها: هل خُلِقت خادمة لحاكمها، تطيعه إنْ عدل أو جار، وخُلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف؟ أم هي جاءت به ليخدمها لا يستخدمها؟.. والرَّعية العاقلة تقيِّد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها؛ لتأمن من بطشه، فإن شمخ هزَّت به الزّمام وإنْ صال ربطتْه».

من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النّفس على العقل، ويُسمّى استبداد المرء على نفسه، وذلك أنَّ الله جلّتْ نعمه خَلَقَ الإنسان حرّاً، قائده العقل، فكفَرَ وأبى إلا أنْ يكون عبداً قائده الجهل. خَلَقَه وسخَّر له أمَّاً وأباً يقومان بأوده إلى أن يبلغ أشدّه، ثمَّ جعل له الأرض أمّاً والعمل أباً، فَكَفَر وما رضي إلا أن تكون أمَّتُه أمّه وحاكمه أباه. خَلَقَ له إدراكاً ليهتدي إلى معاشه ويتّقي مهلكه، وعيْنَيْن ليبصر، ورجليْن ليسعى، ويديْن ليعمل، ولساناً ليكون ترجماناً عن ضميره، فكَفَرَ وما أحبَّ إلا أنْ يكون كالأبله الأعمى، المقعد، الأشلّ، الكذوب، ينتظر كُلَّ شيْ من غيره، وقلَّما يطبق لسانه جنانه. خَلَقَهُ منفرداً غير متَّصل بغيره ليملك اختياره في حركته وسكونه، فكَفَرَ وما استطاب إلا الارتباط في أرض محدودة سمَّاها الوطن، وتشابك بالنّاس ما استطاع اشتباك تظالُم لا اشتباك تعاون... خَلَقَه ليشكره على جعله عنصراً حيّاً بعد أن كان تراباً، وليلجأ إليه عند الفزع تثبيتاً للجنان، وليستند عليه عند العزم دفعاً للتردُّد، وليثق بمكافأته أو مجازاته على الأعمال، فكَفَرَ وأبى شُكْرَه وخَلَطَ في دين الفطرة الصّحيح بالباطل ليغالط نفسه وغيره. خَلَقَه يطلب منفعته جاعلاً رائده الوجدان، فكَفَرَ، واستحلَّ المنفعة بأي وجه كان، فلا يتعفّف عن محظور

صغير إلا توصُّلاً لمُحرَّم كبير. خلقه وبذل له مواد الحياة، من نور ونسيم ونبات وحيوان ومعادن وعناصر مكنوزة في خزائن الطّبيعة، بمقادير ناطقة بلسان الحال، بأنَّ واهب الحياة حكيم خبير جعل مواد الحياة أكثر لزوماً في ذاته، أكثر وجوداً وابتذالاً، فكَفَرَ الإنسانُ نعمةَ الله وأبى أن يعتمد كفالة رزقه، فوكَّلهُ ربُّه إلى نفسه، وابتلاه بظلم نفسه وظُلْم جنسه، وهكذا كان الإنسان ظلوماً كفوراً.

الاستبداد: يَدُ الله القويّة الخفيّة يصفعُ بها رقاب الآبقين من جنّة عبوديَّته إلى جهنَّم عبودية المستبدِّين الذين يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهاراً، وقد ورد في الخبر: «الظّالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه»، كما جاء في أثرٍ آخر: «مَنْ أعان ظالماً على ظلمه سَلَّطَه الله عليه»، ولا شكَّ في أنَّ إعانة الظّالم تبتدئ من مجرَّد الإقامة على أرضه.

الاستبداد: هو نار غضب الله في الدّنيا، والجحيم هو نار غضبه في الآخرة، وقد خلق الله النّار أقوى المطهِّرات، فَيُطَهِّر بها في الدّنيا دَنَسَ مَنْ خلقهم أحراراً، وبَسَطَ لهم الأرض واسعة، وبذلَ فيها رزقهم، فكَفَروا بنعمته، ورضخوا للاستعباد والتَّظالم.

الاستبداد: أعظم بلاء، يتعجَّل الله به الانتقام من عباده الخاملين، ولا يرفعه عنهم حتَّى يتوبوا توبة الأنفة. نعم؛ الاستبداد أعظم بلاء؛ لأنَّه وباء دائم بالفتن وجَدْبٌ مستمرٌّ بتعطيل الأعمال، وحريقٌ متواصلٌ بالسَّلب والغصْب، وسيْلٌ جارفٌ للعمران، وخوفٌ يقطع القلوب، وظلامٌ يعمي الأبصار، وألمٌ لا يفتر، وصائلٌ لا يرحم، وقصة سوء لا تنتهي. وإذا سأل سائلٌ: لماذا يبتلي الله عبادَه بالمستبدِّين؟ فأبلغُ جواب مُسْكِت هو: إنَّ الله عادلٌ مطلقٌ لا يظلم أحداً، فلا يُولَّى المستبدّ إلا على المستبدِّين. ولو نظر السّائل نظرة الحكيم المدقِّق لوجد كُلَّ فرد من أُسراء الاستبداد مُستبدّاً في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كُلَّهم، حتَّى وربَّه الذي خلقَهُ تابعين لرأيه وأمره.

فالمستبدُّون يتولاهم مستبدّ، والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى: «كما تكونوا يُولَّى عليكم»[1].

ما أليقَ بالأسير في أرضٍ أن يتحوَّل عنها إلى حيثُ يملك حرّيّته، فإنَّ الكلب الطّليق خيرُ حياةً من الأسد المربوط.

(١) العجلوني، كشف الخفاء...،ج ٢/ص ١٦٦، رقمه١٩٩٧.

السيوطي، الجامع الصغير، ص ٢٤٨، رمه٦٤٠٦.

وقيل ((يؤمَّر عليكم)) ورُمز للحديث بالضّعف. والحديث مرسوم في الأصل ((يُولِّى)) من دون حذف الألف المقصورة، ونرى إما أن تثبت ((نون)) يكونوا أو أن تجزم ((يولى)).

وبالرغم من ضعف هذا الحديث، يظنُّ كثير من النّاس أنّه من القرآن الكريم.

الاستبداد والدّين

تضافرت آراء أكثر العلماء النّاظرين في التّاريخ الطّبيعي للأديان، على أنَّ الاستبداد السّياسي مُتَوَلِّد من الاستبداد الدِّيني، والبعض يقول: إنْ لم يكنْ هناك توليد فهما أخوان؛ أبوهما التَّغلب وأمّهما الرّياسة، أو هما صنوان قويّان؛ بينهما رابطة الحاجة على التّعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنَّهما حاكمان؛ أحدهما في مملكة الأجسام والآخر في عالم القلوب. والفريقان مصيبان بحكمهما بالنّظر إلى مغزى أساطير الأوّلين، والقسم التّاريخي من التّوراة، والرّسائل المضافة إلى الإنجيل. ومخطئون في حقّ الأقسام التّعليمية الأخلاقية فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أنَّ القرآن جاء مؤيّداً للاستبداد السّياسي. وليس من العذر شيء[1] أنْ يقولوا: نحن لا ندرك دقائق القرآن نظراً لخفائها علينا في طيِّ بلاغته، ووراء العلم بأسباب نزول آياته؛ وإنَّما نبني نتيجتنا على مقدِّمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مُستبدِّيهم بالدِّين.

يقول هؤلاء المحرِّرون: إنَّ التَّعاليم الدّينية، ومنها الكتب السَّماويّة تدعو البشر إلى خشية قوّة عظيمة لا تُدرك العقول كُنْهَها، قوّة تتهدَّد الإنسان بكلّ مصيبة في الحياة فقط، كما عند البوذية واليهودية، أو في الحياة وبعد الممات، كما عند النّصارى والإسلام، تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى، وتنذهل منه العقول فتستسلم للخبل والخمول، ثمَّ تفتح هذه التَّعاليم أبواباً للنّجاة من تلك المخاوف نجاة وراءها نعيم مقيم، ولكنْ؛ على تلك الأبواب حجّاب من البراهمة والكهنة والقسوس وأمثالهم الذين لا يأذنون للنّاس بالدّخول ما لم يعظِّموهم مع

---

(١) نُفَضّل أن تكون الجملة: وليس من العذر شيء في أنْ يقولوا..

أو: ليس من العذر في شيء أنْ يقولوا..

التّذلّلِ والصّغار، ويرزقوهم باسم نذر أو ثمن غفران، حتَّى إنَّ أولئك الحجَّاب في بعض الأديان يحجزون فيما يزعمون لقاء الأرواح بربِّها ما لم يأخذوا عنها مكوس المرور إلى القبور وفدية الخلاص من مطهر الأعراف. وهؤلاء المهيمنون على الأديان كم يرهِّبون النّاس من غضب الله وينذرونهم بحلول مصائبه وعذابه عليهم، ثمَّ يرشدونهم إلى أنْ لا خلاص ولا مناص لهم إلا بالالتجاء إلى سكان القبور الذين لهم دالة، بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه.

ويقولون: إنَّ السّياسيين يبنون كذلك استبدادهم على أساسٍ من هذا القبيل، فهم يسترهبون النّاس بالتّعالي الشّخصي والتّشامخ الحسّي، ويُذلِّلونهم بالقهر والقوّة وسلبِ الأموال حتَّى يجعلونهم خاضعين لهم، عاملين لأجلهم، يتمتَّعون بهم كأنَّهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، ويركبون ظهورها، وبها يتفاخرون.

ويرون أنَّ هذا التَّشاكل في بناء ونتائج الاستبدادَيْن؛ الدِّيني والسّياسي، جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركَيْن في العمل، كأنَّهما يدان متعاونتان، وجعلهما في مثل روسيا مشتبكَيْنِ في الوظيفة، كأنَّهما اللوح والقلم يُسجِّلان الشقاء على الأمم.

ويُقرِّرون أنَّ هذا التَّشاكل بين القوّتَيْن ينجرُّ بعوام البشر - وهم السواد الأعظم - إلى نقطة أنْ يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحقّ وبين المستبدّ المُطاع بالقهر، فيختلطان في مضايق أذهانهم من حيث التَّشابه في استحقاق مزيد التَّعظيم، والرِّفعة عن السّؤال وعدم المؤاخذة على الأفعال؛ بناءً عليه؛ لا يرون لأنفسهم حقّاً في مراقبة المستبدّ لانتفاء النّسبة بين عظمته ودناءتهم؛ وبعبارة أخرى: يجد العوام معبودهم وجبَّارهم مشتركَيْنِ في كثيرٍ من الحالات والأسماء والصِّفات، وهم ليس من شأنهم أنْ يُفرِّقوا مثلاً بين (الفعَّال المطلق)، والحاكم بأمره، وبين (لا يُسأل عمّا يفعل) وغير مسؤول، وبين (المنعم) ووليّ

النعم، وبين (جلَّ شأنه) وجليل الشَّأن. بناءً عليه؛ يُعظِّمون الجبابرة تعظيمهم لله، ويزيدون تعظيمهم على التَّعظيم لله؛ لأنَّه حليمٌ كريم، ولأنَّ عذابه آجلٌ غائبٌ، وأمَّا انتقام الجبَّار فعاجلٌ حاضر. والعوام . كما يقال . عقولهم في عيونهم، يكاد لا يتجاوز فعلهم المحسوس المُشاهَد، حتَّى يصحّ أنْ يُقال فيهم: لولا رجاؤهم بالله، وخوفهم منه فيما يتعلَّق بحياتهم الدّنيا، لما صلّوا ولا صاموا، ولولا أملهم العاجل، لما رجَّحوا قراءة الدّلائل والأوراد على قراءة القرآن، ولا رجَّحوا اليمين بالأولياء . المقرَّبين كما يعتقدون . على اليمين بالله.

وهذه الحال؛ هي التي سهَّلت في الأمم الغابرة المنحطَّة دعوى بعض المستبدِّين الألوهية على مراتب مختلفة، حسب استعداد أذهان الرَّعية، حتَّى يُقال: إنَّه ما من مستبدٍّ سياسيّ إلى الآن إلا ويتَّخذ له صفة قدسيّة يشارك بها الله، أو تعطيه مقامَ ذي علاقة مع الله. ولا أقلَّ من أنْ يتَّخذ بطانة من خَدَمَةِ الدِّين يعينونه على ظلم النَّاس باسم الله، وأقلُّ ما يعينون به الاستبداد، تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضاً، فتتهاتر قوَّة الأمّة ويذهب ريحها، فيخلو الجوّ للاستبداد ليبيض ويُفرِّخ، وهذه سياسة الإنكليز في المستعمرات، لا يُؤيِّدها شيء مثل انقسام الأهالي على أنفسهم، وإفنائهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الأديان والمذاهب.

ويُعَلِّلُون أنَّ قيام المستبدِّين من أمثال (أبناء داود) [1] و (قسطنطين) [2] في نشر الدِّين بين رعاياهم، وانتصار مثل (فيليب الثّاني) [3] الأسباني و

(١) الذين خلفوه في حكم الدّولة.

(٢) اسم عدد من أباطرة رومان وبيزنطيين.

(٣) (١٥٢٧ – ١٥٩٨) أصبح ملكاً لإسبانيا ونابلي وصقلية عقب نزول أبيه عن العرش. واصل حرب أبيه ضدَّ فرنسا، وكان مُتعصّباً للمذهب الكاثوليكي. بلغت (محاكم التّفتيش) ذروة نفوذها إبّان حُكْمه. قَمَعَ المسلمين في بلاده، وفَرَضَ ضرائب باهظة على المواطنين.

(١٤٩١ – ١٥٤٧) حكم (١٥٠٩ – ١٥٤٧) منح البابا هنري لقب (حامي الدّين) من أجل مقاله ضد لوثر. كان ينساق وراء رغباته الشخصية.

(هنري الثّامن) الإنكليزي للدِّين، حتَّى بتشكيل مجالس (انكيزيسيون)[1] وقيام الحاكم الفاطميّ[2] والسَّلاطين الأعاجم في الإسلام بالانتصار لغلاة الصُّوفيّة، وبنائهم لهم التّكايا، لم يكنْ إلا بقصد الاستعانة بممسوخ الدِّين وببعض أهله المغفَّلين على ظلم المساكين، وأعظم ما يلائم مصلحة المستبدّ ويُؤيّدها أنَّ النّاس يتلقّون قواعده وأحكامه بإذعان بدون بحث وجدال، فيودّون تأليف الأمّة على تلقّي أوامرهم بمثل ذلك، ولهذا القصد عيْنه، كثيراً ما يحاولون بناء أوامرهم أو تفريعها على شيءٍ من قواعد الدِّين.

ويحكمون بأنَّ بين الاستبدادَيْن: السّياسيّ والدّينيّ مقارنة لا تنفكُّ متى وُجِد أحدهما في أمّة جرَّ الآخر إليه، أو متى زال، زال رفيقه، وإنْ صلح، أي ضعف الأوّل، صلح، أي ضعف الثّاني. ويقولون: إنَّ شواهد ذلك كثيرةٌ جدّاً لا يخلو منها زمانٌ ولا مكان. ويُبرهنون على أنَّ الدّين أقوى تأثيراً من السّياسة إصلاحاً وإفساداً، ويُمثّلون بالسّكسون؛ أي الإنكليز والهولنديين والأميركان والألمان الذين قبلوا البروتستنتيّة، فأثر التّحرّر الدّيني في الإصلاح السّياسي والأخلاق أكثر من تأثير الحرّيّة المطلقة السّياسيّة في جمهور اللاتين؛ أي الفرنسيين والطّليان والاسبانيول والبرتغال. وقد أجمع الكتّاب السّياسيون المُدقّقون، بالاستناد على[3] التّاريخ والاستقراء، من[4] أنَّ ما من أمّة أو عائلة أو شخص تَنَطَّعَ في الدّين أي تشدَّد فيه إلا واختلَّ نظام دنياه وخسر أولاده وعقباه.

والحاصل أنَّ كل المدقِّقين السّياسيين يرون أنَّ السّياسة والدّين يمشيان متكاتفَيْن، ويعتبرون أنَّ إصلاح الدّين هو أسهل وأقوى وأقرب طريق للإصلاح

(١) محاكم لمعاقبة المتَّهمين بالزّندقة أو مخالفة بعض أحكام الدّين، وفيها أنواع العذاب (محاكم التفتيش) (ك).

(٢) الحاكم بأمر الله، ابن العزيز (٩٨٥ – ١٠٢١) سادس الخلفاء الفاطميين في مصر. مال إلى آراء الإسماعيلية والتنجيم، وفي سيرته متناقضات كثيرة.

(٣) إلى.

(٤) علماً أنَّه.

السّياسي.

وربما كان أوّل من سلك هذا المسلك؛ أي استخدم الدِّين في الإصلاح السّياسي؛ هم حكماء اليونان، حيث تحيَّلوا على ملوكهم المستبدِّين في حملهم على قبول الاشتراك في السّياسة بإحيائهم عقيدة الاشتراك في الألوهية، أخذوها عن الآشوريين، ومزجوها بأساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بإله، والحرب بإله، والأمطار بإله، إلى غير ذلك من التّوزيع، وجعلوا لإله الآلهة حقّ النّظارة عليهم، وحقّ التّرجيح عند وقوع الاختلاف بينهم. ثمَّ بعد تمكُّن هذه العقيدة في الأذهان بما أُلبست من جلالة المظاهر وسحر البيان سَهُلَ على أولئك الحكماء دفعهم النّاس إلى مطالبة جبابرتهم بالنّزول من مقام الانفراد، وبأنْ تكون إدارة الأرض كإدارة السّماء، فانصاع ملوكهم إلى ذلك مُكْرهين. وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكَّنت اليونان أخيراً من إقامة جمهوريات أثينا وإسبارطة، وكذلك فعل الرّومان. وهذا الأصل لم يزل المثال القديم لأصول توزيع الإدارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها إلى هذا العهد.

إنَّما هذه الوسيلة؛ أي التَّشريك، فضلاً عن كونها باطلة في ذاتها، نَتَجَ عنها ردُّ فعلٍ أضرَّ كثيراً، وذلك أنَّها فتحتْ للمشعوذين من سائر طبقات النّاس باباً واسعاً لدعوى شيء من خصائص الألوهية، كالصّفات القُدْسيّة والتّصرُّفات الرُّوحيّة، وكان قبل ذلك لا يتهجّم على مثلها غير أفراد من الجبابرة، كنمرود وإبراهيم وفرعون وموسى، ثمَّ صار يدَّعيها البرهميّ والبادريّ والصُّوفيّ. ولملائمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة. ليس بحثنا هذا محلّها. انتشرت وعمّت وجنَّدت جيشاً عرمرماً يخدم المستبدِّين.

وقد جاءت التّوراة بالنَّشاط، فخلَّصتهم من خمول الاتِّكال بعد أن بلغ فيهم أنْ يُكلِّفوا الله ونبيّه يقاتلان عنهم، وجاءتهم بالنّظام بعد فوضى الأحلام، ورفعت عقيدة التّشريك، مُستبدلةً مثلاً أسماء الآلهة المتعدِّدة بالملائكة، ولكنْ؛ لم يرضَ ملوك آل كوهين بالتَّوحيد فأفسدوه. ثمَّ جاء الإنجيل بسلسبيل الدّعة

والحِلْم، فصادف أفئدةً محروقةً بنار القساوة والاستبداد، وكان أيضاً مؤيّداً لناموس التّوحيد، ولكنْ؛ لم يقْوَ دُعاته الأوَّلون على تفهيم تلك الأقوام المنحطَّة، الذين بادروا لقبول النَّصرانيّة قبل الأمم المترقِّية، أنَّ الأبوّة والبنوّة صفتان مجازيَّتان يُعبَّر بهما عن معنى لا يقبله العقل إلا تسليماً؛ كمسألة القدر التي ورثت الإسلامية التّفلسف فيها عن أديان اليهود وأوهام اليونان. ولهذا؛ تلقَّت تلك الأمم الأبوّة والبنوّة بمعنى توالد حقيقيّ؛ لأنّه أقرب إلى مداركهم البسيطة التي يصعب عليها تناول ما فوق المحسوسات، ولأنّهم كانوا قد ألفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم الأوّلين أنَّهم أبناء الله، فكَبُرَ عليهم أنْ يعتقدوا في موسى عليه السّلام صفة هي دون مقام أولئك الملوك. ثمَّ لمّا انتشرت النّصرانية ودخلها أقوام مختلفون، تلبَّست ثوباً غير ثوبها، كما سائر الأديان التي سلفتها، فتوسَّعت برسائل بولس ونحوها، فامتزجت بأزياء وشعائر وثنية للرُّومان والمصريين مُضافة على شعائر الإسرائيليين وأشياء من الأساطير وغيرها، وأشياء من مظاهر الملوك ونحوها. وهكذا صارت النّصرانية تُعظِّم رجال الكهنوت إلى درجة اعتقاد النّيابة عن الله والعصمة عن الخطأ وقوَّة التَّشريع، ونحو ذلك ممّا رفضه أخيراً البروتستان؛ أي الرّاجعون في الأحكام لأصل الإنجيل.

ثمَّ جاء الإسلام مهذِّباً لليهوديّة والنّصرانيّة، مُؤسَّساً على الحكمة والعزم، هادماً للتّشريك بالكُلِّية، ومُحكِماً لقواعد الحرّيّة السّياسية المتوسّطة بين الدِّيموقراطية والأرستقراطية، فأسَّس التّوحيد، ونزعَ كلَّ سلطة دينية أو تغلّبيّة تتحكَّم في النّفوس أو في الأجسام، ووضع شريعة حكمة إجمالية صالحة لكلِّ زمان وقوم ومكان، وأوجد مدنيّة فطريّة سامية، وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الرّاشدين التي لم يسمح الزّمان بمثال لها بين البشر حتَّى ولم يخلفهم

فيها بين المسلمين أنفسهم خلف؛ إلا بعض شواذ؛ كعمر بن عبد العزيز[١] والمهتدي العبّاسيّ[٢] ونور الدّين الشّهيد[٣]. فإنَّ هؤلاء الخلفاء الرّاشدين فهموا معنى ومغزى القرآن النّازل بلغتهم، وعملوا به واتَّخذوه إماماً، فأنشؤوا حكومة قضَتْ بالتّساوي حتَّى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمّة في نعيم الحياة وشظفها، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أبٍ واحد وفي حضانة أمٍّ واحدة، لكُلٍّ منهم وظيفة شخصية، ووظيفة عائلية، ووظيفة قومية. على أنَّ هذا الطّراز السّامي من الرّياسة هو الطِّراز النّبوي المُحمَّدي الذي لم يخلفه فيه حقّاً غير أبي بكر وعمر، ثمَّ أخذ بالتّناقص، وصارت الأمّة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى الآن، وسيدوم بكاؤها إلى يوم الدِّين إذا لم تنتبه لاستعواضه بطراز سياسيّ شوريّ؛ ذلك الطّراز الذي اهتدت إليه بعض أمم الغرب؛ تلك الأمم التي، لربّما يصحُّ أنْ نقول، قد استفادت من الإسلام أكثر ممّا استفاده المسلمون.

وهذا القرآن الكريم مشحونٌ بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتّساوي حتّى في القصص منه؛ ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تُبَّع تخاطبُ أشراف قومها: ﴿يا أيُّها الملأُ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تَشهَدون * قالوا نحن أولوا قوةٍ وأُولوا بأسٍ شديدٍ والأمر إليكِ فانظري ماذا تأمرين * قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذِلةً وكذلك يفعلون﴾[٤].

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١ – ١٠١ هـ، ٦٨١ – ٧٢٠ م) ثامن خلفاء بني أمية (٩٩ هـ، ٧١٧ م) اشتهر بتقواه وتسامحه وعدله. لُقّبَ بخامس الخلفاء الرّاشدين..

(٢) المهتدي بالله، محمد بن عارون الواثق، وُلد في سامراء (٢٢٢ هـ، ٨٣٧ م) الخليفة العباس الرابع عشر (٢٥٥ – ٢٥٦ هـ، ٨٦٩ – ٨٧٠ م) سعى عبثاً إلى إصلاح مقام الخلافة، قُتل.

(٣) أبو القاسم، نور الدّين محمود بن عماد الدّين أتابك، أبو سعيد الزّنكي (٥١١ – ٥٧٠ هـ، ١١١٧ – ١١٧٤ م) أتابك حلب بعد اغتيال والده. حارب الصليبيين. شَيَّدَ الحصون والمساجد. ودفن في مدرسة دمشق.

(٤) النّمل: ٣٢ – ٣٤.

فهذه القصة تُعلِّم كيف ينبغي أن يستشير الملوك الملأ؛ أي أشراف الرَّعية، وأن لا يقطعوا أمراً إلا برأيهم، وتشير إلى لزوم أن تُحفظ القوّة والبأس في يد الرّعية، وأن يخصص الملوك بالتّنفيذ فقط، وأن يكرموا بنسبة الأمر إليهم توقيراً، وتقبّح شأن الملوك المستبدين.

ومن هذا الباب أيضاً ما ورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إنَّ هذا لساحرٌ عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾[1]؛ أي قال الأشراف بعضهم لبعض: ماذا رأيكم؟ (قالوا) خطاباً لفرعون وهو قرارهم: ﴿أَرجِه وأخاه وأرسِل في المدائن حاشرين * يأتوك بكلِّ ساحرٍ[2] عليم﴾[3]؛ ثمّ وصف مذاكراتهم بقوله تعالى: ﴿فتنازعوا أمرهم[4]﴾؛ أي رأيهم ﴿بينهم وأسرُّوا النجوى﴾[5]؛ أي أفضت مذاكراتهم العلنية إلى النّزاع فأجروا مذاكرة سرية طبق ما يجري إلى الآن في مجالس الشورى العمومية.

بناءً على ما تقدّم؛ لا مجال لرمي الإسلامية بتأييد الاستبداد مع تأسيسها على مئات الآيات البيِّنات التي منها قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾[6]؛ أي في الشأن، ومن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[7]؛ أي أصحاب الرأي والشأن منكم، وهم العلماء والرؤساء على ما اتَّفق عليه أكثر المفسِّرين، وهم الأشراف[8] في اصطلاح السياسيين. ومما يؤيِّد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿وما أمرُ

(١) الأعراف ١٠٩ – ١١٠.

(٢) الساحر: هو الداهية المقتدر على التمويه والخداع. (ك).

(٣) الأعراف ١١١ – ١١٢.

(٤) طه: ٦٢.

(٥) طه: ٦٢.

(٦) آل عمران: ١٥٩.

(٧) النّساء: ٥٩.

(٨) أهل الحلّ والعقد.

فرعـون﴾[١]؛ أي مـا شـأنه، وحـديث «أميـري مـن الملائكـة جبريـل»[٢]؛ أي مشاوري.

ولـيس بـالأمر الغريـب ضـياع معنـى ﴿وأُولـي الأمـر﴾ علـى كثيـر مـن الأفهام بتضليل علماء الاستبداد الذي يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، وقد أغفلوا معنى قيد ﴿منكم﴾؛ أي المؤمنين منعاً لتطرُّق أفكار المسلمين إلى التفكير بأنّ الظـالمين لا يحكمـونهم بمـا أنـزل الله، ثـمَّ التـدرُّج إلـى معنـى آيـة ﴿إن الله يـأمر بالعدل﴾[٣]، أي بالتساوي؛ ﴿وإذا حكمتم بين النـاس أن تحكموا بالعدل﴾[٤]، أي التسـاوي؛ ثـمّ ينتقل إلـى معنـى آيـة:﴿ومـن لـم يحكـم بمـا أنـزل الله فأولئـك هـم الكافرون﴾[٥]. ثمَّ يستنتج عدم وجوب طاعة الظالمين وإن قال بوجوبها بعض الفقهـاء الممـالئين دفعـاً للفتنـة التـي تحصـد أمثـالهم حصـداً. والأغـرب مـن هـذا جسارتهم علـى تضـليل الأفهـام فـي معنـى (أمـر) فـي آيـة: ﴿وإذا أردنـا أن نـهلك قريـةً أمرنـا مترفيهـا ففسقوا فيهـا فحقَّ عليهـا القول فدمَّرنـاها تدميراً﴾[٦]؛ فإنهم لم يبـالوا أن ينسـبوا إلـى الله الأمـر بالفسـق... تعـالى الله عـن ذلـك علـوّاً كبيـراً، والحقيقة فـي معنـى (أمرنـا) هنـا أنَّـه بمعنـى أمِرنـا – بكسـر الميم أو تشـديدها–؛ أي جعلنـا أمراءهـا مترفيهـا ففسقوا فيهـا (أي ظلمـوا أهلهـا) فحقّ علـيهم العذاب؛ أي (نزل بهم العذاب).

والأغـرب مـن هـذا وذاك؛ أنَّـهم جعلـوا للفظـة العدل معنـىً عُرفيـاً؛ وهـو الحكم بمقتضـى مـا قالـه الفقهـاء؛ حتـى أصبحت لفظـة العدل لا تدلُّ علـى غيـر هذا المعنـى، مـع أنّ العدل لغةً للتسوية؛ فالعدل بين النّاس هو التسوية بينهم،

---

(١) هود: ٩٧.

(٢) لم نعثر عليه في كُتُب الحديث الشريف.

(٣) النّحل: ٩٠.

(٤) النساء: ٥٨.

(٥) المائدة: ٤٤.

(٦) الإسراء: ١٦.

وهذا هو المراد في آية: ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾[1]، وكذلك القصاص في آية: ﴿ولكم في القصاص حياةٌ﴾[2]، المتواردة مطلقاً، لا المعاقبة بالمثل فقط على ما يتبادر إلى أذهان الأُسراء، الذين لا يعرفون للتّساوي موقعاً في الدِّين غير الوقوف بين يدي القضاة.

وقد عدّد الفقهاء من لا تُقبَل شهادتهم لسقوط عدالتهم، فذكروا حتّى من يأكل ماشياً في الأسواق؛ ولكنّ شيطان الاستبداد أنساهم أن يُفسِّقوا الأمراء الظالمين فيردّوا شهادتهم. ولعلّ الفقهاء يُعذَرون بسكوتهم هنا مع تشنيعهم على الظالمين في مواقع أخرى؛ ولكن، ما عذرهم في تحويل معنى الآية: ﴿ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[3]، إلى أنّ هذا الفرض هو فرض كفاية لا فرض عين؟ والمراد منه سيطرة أفراد المسلمين بعضهم على بعض؛ لا إقامة فئة تسيطر على حكامهم كما اهتدت إلى ذلك الأمم الموفقة للخير؛ فخصّصت منها جماعات باسم مجالس نّواب، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية: السياسية والمالية والتشريعية، فتخلّصوا بذلك من شآمة الاستبداد. أليست هذه السيطرة وهذا الاحتساب بأهم من السيطرة على الأفراد؟ ومن يدري من أين جاء فقهاء الاستبداد بتقديس الحكّام عن المسؤولية حتى أوجبوا لهم الحمد إذا عدلوا، وأوجبوا الصّبر عليهم إذا ظلموا، وعدّوا كلّ معارضة لهم بغياً يبيح دماء المعارضين؟!

اللهم؛ إنّ المستبدِّين وشركاءهم قد جعلوا دينك غير الدِّين الذي أنزلت، فلا حول ولا قوّة إلا بك!

كذلك ما عُذر الصوفية الذين جعلتهم الإنعامات على زاوياتهم أن

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) آل عمران: ١٠٤.

يقولوا: لا يكون الأمير الأعظم إلا وليّاً من أولياء الله، ولا يأتي أمراً إلا بإلهام من الله، وإنه يتصرَّف في الأمور ظاهراً، ويتصرَّف قطب الغوث باطناً! ألا سبحان الله ما أحلمه!

نعم؛ لولا حُلم الله لخسف الأرض بالعرب؛ حيثُ أرسل لهم رسولاً من أنفسهم أسّس لهم أفضل حكومة أُسِّسَت في النّاس، جعل قاعدتها قوله: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته»[1]؛ أي كلٌّ منكم سلطانٌ عام ومسؤول عن الأمة. وهذه الجملة التي هي أسمى وأبلغ ما قاله مشرِّع سياسي من الأولين والآخرين، فجاء من المنافقين من حرَّف المعنى عن ظاهره وعموميته؛ إلى أنَّ المسلم راعٍ على عائلته ومسؤول عنها فقط. كما حرَّفوا معنى الآية: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعض﴾[2]، على ولاية الشهادة دون الولاية العامة. وهكذا غيّروا مفهوم اللغة، وبدَّلوا الدِّين، وطمسوا على العقول حتى جعلوا النّاس ينسون لغة الاستقلال، وعزّة الحريّة؛ بل جعلوهم لا يعقلون كيف تحكم أمّةٌ نفسها بنفسها دون سلطانٍ قاهر.

وكأنّ المسلمين لم يسمعوا بقول النّبي عليه السلام: «النّاس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربيٍّ على أعجمي إلا بالتّقوى»[3]. وهذا الحديث أصحُّ الأحاديث لمطابقته للحكمة ومجيئه مفسِّراً الآية ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[4]، فإنَّ الله جلَّ شأنه ساوى بين عباده مؤمنين وكافرين في المكرمة بقوله: ﴿ولقد كرَّمنا بنيَ آدم﴾[5]، ثمَّ جعل الأفضلية في الكرامة للمتَّقين فقط. ومعنى التَّقوى لغةً ليس كثرة العبادة، كما صار إلى ذلك حقيقة عُرفية غرسها علماء الاستبداد القائلين في تفسير (عند الله)؛ أي في الآخرة دون الدنيا؛ بل

---

(١) رواه البخاري في مواضع كثيرة، ومسلم وأبو داود في لاإمارة، والترمذي: الجهاد، وابن حنبل: ٢/٥٤،٥، إلخ.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) العجلوني، كشف الخفاء...ج٢، ص ٤٣٣. و((سواسية)) مضافة. تُنظر أيضاً: خطبة حجَّة الوداع.

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) الإسراء: ٧٠.

التَّقوى لغةً هي الاتِّقاء؛ أي الابتعاد عن رذائل الأعمال احترازاً من عقوبة الله. فقوله: ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ كقوله: إنَّ أفضل النّاس أكثرهم ابتعاداً عن الآثام وسوء عواقبها.

وقد ظهر مما تقدَّم أنَّ الإسلامية مؤسسة على أصول الحرّية برفعها كلّ سيطرة وتحكُّم، بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء، وبحضِّها على الإحسان والتحابب. وقد جعلت أصول حكومتها: الشّورى الأريستوقراطية؛ أي شورى أهل الحلِّ والعقد في الأمة بعقولهم لا بسيوفهم. وجعل أصول إدارة الأمة: التشريع الديمقراطي؛ أي الاشتراكي حسبما يأتي فيما بعد. وقد مضى عهد النبي (عليه السلام) وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الأصول بأتمّ وأكمل صورها. ومن المعلوم أنّه لا يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة شعائر الدين، ومنها القواعد العامة التشريعية التي لا تبلغ مائة قاعدة وحُكم، كلُّها من أجَلّ وأحسن ما اهتدى إليه المشرِّعون من قبل ومن بعد. ولكن؛ وأسفاه على هذا الدين الحرّ، الحكيم، السهل، السمح، الظاهر فيه آثار الرقي على غيره من سوابقه، الدين الذي رفع الإصر والأغلال، وأباد الميزة[١] والاستبداد. الدين الذي ظلمه الجاهلون، فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان. الدّين الذي فقد الأنصار الأبرار والحكماء الأخيار، فسطا عليه المستبدون والمترشحون للاستبداد، واتَّخذوا وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيَعاً، وجعلوه آلهة لأهوائهم السياسية، فضيّعوا مزاياه، وحيّروا أهله بالتقريع والتوسيع، والتشديد والتشويش، وإدخال ما ليس منه فيه كما فعل قبلهم أصحاب الأديان السائرة، حتى جعلوه ديناً حرجاً يتوهّم الناس فيه أنَّ كلَّ ما دوَّنه المتفنون بين دفَّتي كتاب يُنسَب لاسم إسلامي هو من الدين، وبمقتضاها أن لا يقوى على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته، إلا من لا علاقة له بالحياة الدنيا؛

(١) أي: التمايز والتفاوت.

بل أصبحت بمقتضاها حياة الإنسان الطويل العمر، العاطل عن كلِّ عمل، لا تفي بتعلُّم ما هي الإسلامية عجزاً عن تمييز الصحيح من الباطل من تلك الآراء المتشعبة التي أطال أهلها فيها الجدال والمناظرة؛ وما افترقوا إلا وكلٌّ منهم في موقفه الأول يظهر أنه ألزم خصمه الحجّة وأسكته بالبرهان؛ والحقيقة إنَّ كلاً منهم قد سكت تعباً وكلالاً من المشاغبة.

وبهذا التّشديد الذي أدخله على الدّين منافسو المجوس؛ انفتح على الأمّة باب التلوّم على النفس فضلاً عن محاسبة الحكام المنوط بهم قيام العدل والنِّظام. وهذا الإهمال للمراقبة، هو إهمال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وقد أوسع لأمراء الإسلام مجال الاستبداد وتجاوزَ الحدود. وبهذا وذاك ظهر حُكم حديث: «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليستعملنّ الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب»[١]، وإذا تتبعنا سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مع الأمّة، نجد أنّهما مع كونهما مفطورَين خير فطرة، ونائلين التربية النبوية، لم تترك الأمة معهما المراقبة والمحاسبة، ولم تطعهما طاعةً عمياء.

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم، وليس هو من دينهم بالنّظر إلى القرآن والمتواترات من الحديث وإجماع السلف الأول فقال:[٢]

---

(١) رواه أبو داود: الملاحم، الترمذي: الفتن، ابن حنبل: ٣٨٨/٥، ٣٩٠، ٣٩١..

(٢) الإشارة – هنا – إلى ما ورد على لسان (المُحَقّق المدني) في الاجتماع الثّاني من (أم القرى)، إذ نلاحظ تشابهاً كبيراً في وصف المقتبسات بين ما ورد هنا، وما ورد في (أم القرى)، وهذا دليلٌ آخر علم أن (طبائع الاستبداد) كُتب بعد (أم القرى)، وفيما يلي نثبت نصّ (أم القرى) للمقارنة: -----

---- وذلك أن هؤلاء المدّسين اقتبسوا ما هنالك كله أو جلّه عن أصحاب التلمود وتفاسيرهم، ومن المجامع المسكونية ومقرراتها، ومن البابوية ووراثة السر، ومن مضاهاة مقامات البطاركة والكردينابية والشهداء وأسقفية كل بلد، ومظاهر القدّيسين وعجائبهم، والدعاة المبشرين وصبرهم، والرهبنات ورؤسائها، وحالة الأديرة وبادريتها، والرهبنة، أي التظاهر بالفقر ورسومها، والحمية وتوقيتها، ورجال الكَهَنوت ومراتبهم وتميزهم في ألبستهم وشعورهم، ومن مراسم الكنائس وزينتها، والبِيَع واحتفالاتها، والتّرنَحات ووزنها، والتّرنّمات وأصولها، وإقامة الكنائس على القبور وشدّ الرحال لزيارتها والإسراج عليها، والخضوع لديها وتعليق الآمال بسكّنها. وأخذوا التّبرُّك بالآثار كالقدح والحربة والدّستار من احترام الذخيرة وقدسية العكاز. وكذلك إمرار اليد على الصدر عند ذكر بعض الصالحين من إمرارها على الصدر لإشارة التّصلُّب، وانتزعوا الحقيقة من السر، ووحدة الوجود من

(اقتبسوا) من النصرانية مقام البابوية باسم الغوثية، و(ضاهوا) في الأوصاف والأعداد أوصاف وأعداد البطارقة، والكردينالية والشهداء والأساقفة، و(حاكوا) مظاهر القديسين وعجائبهم، والدعاة المبشّرين وصبرهم، والرّهبنات ورؤسائها، وحالة الأديرة وبادريتها. والرهبنات ورسومها والحميَّة وتوقيتها، و(قلّدوا) الوثنيين الرومانيين في الرّقص على أنغام الناي والتغالي في تطييب الموتى والاحتفال الزائد في الجنائز وتسريح الذبائح معها، وتكليلها وتكليل القبور بالزهور. و(شاكلوا) مراسم الكنائس وزينتها، والبِيَع واحتفالاتها، والترنّحات ووزنها، والترنُّمات وأصولها، وإقامة الكنائس على القبور، وشدّ الرِّحال لزيارتها، والإسراج عليها، والخضوع لديها، وتعليق الآمال بسكانها. و(أخذوا) التبرّك بالآثار: كالقدح والحربة والدستار، من احترام الذخيرة وقدسية العكاز، وكذلك إمرار اليد على الصّدر عند ذكر الصالحين، من إمرارها على الصدر لإشارة الصليب. و(انتزعوا) الحقيقة من السرّ، ووحدة الوجود من الحلول، والخلافة من الرّسم، والسّقيا من تناول القربان، والمولد من الميلاد، وحفلته من الأعياد، ورفع الأعلام من حمل الصلبان، وتعليق ألواح الأسماء المصدَّرة بالنّداء على الجدران من تعليق الصّور والتماثيل، والاستفاضة والمراقبة من التوجّه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام. و(منعوا) الاستهداء من نصوص الكتاب والسُنَّة كحظر الكاثوليك التفهّم من الإنجيل، وامتناع أحبار اليهود عن إقامة الدّليل من التوراة في الأحكام[1]. و(جاءوا) من المجوسية

الحلول، والخلافة من الرسم، والسقيا من تناول القربان، والمولد من الميلاد، وحفلته من الأعياد، ورفع الأعلام من حمل الصلبان، وتعليق ألواح الأسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل، والاستفاضة والمراقبة من التوجه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام. ومنع الاستهداء من نصوص الكتاب والسُّنَّة من حظر الكَهَنة الكاثوليك قراءة الإنجيل على غيرهم، وسدّ اليهود باب الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود، إلى غير ذلك مما جاء به المدلسون تقليداً لهؤلاء شبراً شبراً، واقتفاء لأثرهم حجراً حجراً، وهكذا إذا تتبَّعنا البدَعَ الطّرئة نجد أكثرها مقتبساً وقليلها مُختَرَعاً.

(١) في (ط.ق): ((ومنعوا الاستهداء من نصوص الكتاب والسُّنَّة، من حظر الكَهَنة والكاثوليك التفهُّم من الإنجيل على غيرهم، وسد اليهود باب الأخذ من التوراة وتمسُّكهم بالتّلمود)) أ.هـ.

باستطلاع الغيب من الفلك، وبخشية أوضاع الكواكب وباتِّخاذ أشكالها شعاراً للملك، وباحترام النار ومواقدها. و(قلّدوا) البوذيين حرفاً بحرف في الطريق والرياضة وتعذيب الجسم بالنار والسلاح، واللعب بالحيّات والعقارب وشرب السموم، ودقّ الطبول والصنوج وجعل رواتب من الأدعية والأناشيد والأحزاب، واعتقاد تأثير العزائم ونداء الأسماء وحمل التمائم، إلى غير ذلك مما هو مُشاهد في بوذيي الهند ومجوس فارس والسّند إلى يومنا هذا. وقد قيل إنّه نقله إلى الإسلامية: جون وست، وسلطان علي منلا، والبغدادي، وحاشية فلان الشيخ وفلان الفارسي، على أنّ إسناد ذلك إلى أشخاص معينين يحتاج إلى تثبيت. و(لفَّقوا) من الأساطير والإسرائيليات أنواعاً من القربات، وعلوماً سمّوها لدنيات.

كذلك يُقال عن مبتدعي النصارى، من أنّ أكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية- حتى مشكلة التثليث- لا أصل له فيما ورد عن نفس[١] المسيح عليه السلام؛ إنما هو مزيدات وترتيبات قليلها مُبتدَع وكثيرها مُتَّبَعٌ[٢]. وقد اكتشف العلماء الآثاريون من الصفائح الحفرية الهندية والآشورية ومن الصّحف التي وُجدت في نواويس المصريين الأقدمين[٣]، على مآخذ أكثرها. وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود[٤] وبدع الأحبار أصولاً في الأساطير والآثار والألواح الآشورية[٥]، وترقّوا في التطبيق والتدقيق إلى أن وجدوا معظم الخرافات المضافة إلى أصول عامة الأديان في الشرق الأدنى مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لنحل الشرق الأقصى، وقد كشفت الآثار أنّ الاستبداد أخفى تاريخ الأديان وجعل أخبار منشئها في ظلام مطبق، حتّى إنَّ أعداء

---

(١) الصّواب: عن المسيح نفسه.

(٢) في (ط.ق): قليلها مُتَّبَعٌ وكثيرها مُبْتَدَعٌ.

(٣) الأهرامات.

(٤) شروح الموسوية، والمقصود تلمود بابل الذي وُضع عام (٥٠٠ م).

(٥) نصوص حمورابي وسواها.

الأديان المتأخرين أمكنهم أن ينكروا أساساً وجود موسى وعيسى عليهما السلام، كما شوّش الاستبداد في المسلمين تاريخ آل البيت عليهم الرضوان؛ الأمر الذي تولّد عنه ظهور الفِرَق التي تشيَّعت لهم كالإمامية[١] والإسماعيلية[٢] والزيدية والحاكمية وغيرهم.

والخلاصة أنّ البِدَع التي شوَّشت الإيمان وشوَّهت الأديان تكاد كُلُّها تتسلسل بعضها من بعض، وتتولّد جميعها من غرض واحد هو المراد، ألا وهو الاستعباد.

والنّاظر المدقّق في تاريخ الإسلام يجد للمستبدّين من الخلفاء والملوك الأولين، وبعض العلماء الأعاجم، وبعض مقلّديهم من العرب المتأخرين أقوالاً افتروها على الله ورسوله تضليلاً للأمة عن سبيل الحكمة، يريدون بها إطفاء نور العلم وإطفاء نور الله، ولكن؛ أبى الله إلا أن يتمّ نوره، فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم من أن تمسّه يد التحريف؛ وهي إحدى معجزاته لأنَّه قال فيها: ﴿إنّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾[٣]، فما مسّه المنافقون إلا بالتأويل، وهذا أيضاً من معجزاته، لأنه أخبر عن ذلك في قوله: ﴿فأما الَّذين في قُلُوبهم زَيغٌ فيتَّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾[٤].

وإني أُمثِّل للمطالعين ما فعله الاستبداد في الإسلام، بما حجر على العلماء الحكماء من أن يفسِّروا قسمَي الآلاء والأخلاق تفسيراً مدقَّقاً، لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض الغُفَّل السالفين أو بعض المنافقين المقرَّبين

---

(١) إحدى شعبتَيْ الشيعة الكبيرتَيْن، تقابل الزيدية التي عَرَّفنا بها في حواشي (الشهباء). وسُمّيت الإمامية كذلك لأنها تعتدّ بالإمامة وتجعلها صلب مذهبها. وتنقسم إلى شعبتين: إثني عشرية وإسماعيلية.

(٢) فرقة من الشيعة الباطنية، تُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. ومُؤَدَّى فلسفة الإسماعيلية أن العقل لا يستطيع إدراك حقيقة الذّات الإلهية.

(٣) الحجر: ٩.

(٤) آل عمران: ٧.

المعاصرين، فيُكفَّرون فيُقتَلون. وهذه مسألة إعجاز القرآن، وهي أهم مسألة في الدِّين لم يقدروا أن يوفوها حقّها من البحث، واقتصروا على ما قاله فيها بعض السّلف قولاً مجملاً من أنَّها قصور الطاقة عن الإتيان بمثله في فصاحته وبلاغته، وأنّه أخبر عن أنّ الرّوم بعد غلبهم سيغلبون. مع أنه لو فُتح للعلماء ميدان التدقيق وحرية الرأي والتأليف، كما أُطلق عنان التخريف لأهل التأويل والحُكم، لأظهروا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات الإعجاز، ولرأوا فيه كلّ يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن إعجازه بصدق قوله: ﴿ولا رَطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبين﴾[١]، ولجعلوا الأمة تؤمن بإعجازه عن برهان وعيان لا مجرد تسليم وإذعان.

ومثال ذلك: أنَّ العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تُعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وأمريكا؛ والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد به التّصريح أو التلميح في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً؛ وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنّه كلام ربٍّ لا يعلم الغيب سواه؛ ومن ذلك أنّهم قد كشفوا أنّ مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال: ﴿ثمَّ استوى إلى السماء وهي دخان﴾[٢]، وكشفوا أنّ الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول:﴿وآيةٌ لهم الأرض الميتةُ أحييناها﴾[٣]، إلى أن يقول:﴿وكلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾[٤].

وحققوا أنَّ الأرض منفتقةً في النظام الشمسي، والقرآن يقول: ﴿أنَّ السّموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[٥].

وحققوا أنَّ القمر منشقٌّ من الأرض، والقرآن يقول: ﴿أفلا يرون أنّا نأتي

(١) الأنعام: ٥٩.
(٢) فصلت: ١١.
(٣) يس: ٣٣.
(٤) يس: ٤٠.
(٥) الأنبياء: ٣٠.

الأرض ننقصها من أطرافها﴾[١]. ويقول: ﴿اقتربتِ السّاعة وانشقَّ القمر﴾[٢].

وحققوا أنَّ طبقات الأرض سبع، والقرآن يقول: ﴿الله الذي خلق سبع سمواتٍ ومن الأرض مثلهن﴾[٣].

وحققوا أنّه لولا الجبال لاقتضى الثّقل النوعي أن تميد الأرض؛ أي ترتجّ في دورتها، والقرآن يقول: ﴿وألقى في الأرض رواسيَ أن تميد بكم﴾[٤].

وكشفوا أنَّ سر التركيب الكيماوي- بل والمعنوي- هو تخالف نسبة المقادير وضبطها[٥]، والقرآن يقول: ﴿وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار﴾[٦].

وكشفوا أنَّ للجمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول:﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حي﴾[٧].

وحققوا أنّ العالم العضوي، ومنه الإنسان، ترقّى من الجماد، والقرآن يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين﴾[٨].

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات، والقرآن يقول: ﴿خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض﴾[٩] ويقول: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى﴾[١٠]، ويقول: ﴿اهتزّت وربَت من كلِّ زوجٍ بهيج﴾[١١]. ويقول: ﴿ومن كلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾[١٢].

---

(١) الأنبياء: ٤٤.

(٢) القمر: ١.

(٣) الطلاق: ١٢.

(٤) النحل: ١٥.

(٥) إشارة إلى قانون: التّغيُّرات الكمّية تُؤدّي إلى تغيُّرات كيفية.

(٦) الرعد: ٨.

(٧) الأنبياء: ٣٠.

(٨) المؤمنون: ١٢.

(٩) يس: ٣٦.

(١٠) طه: ٥٣.

(١١) الحج: ٥.

(١٢) الرعد: ٣.

وكشفوا طريقة إمساك الظِّل؛ أي التصوير الشمسي، والقرآن يقول: ﴿ألم تَرَ إلى ربِّك كيف مدَّ الظِّلَّ ولو شاء لجعله ساكناً ثمَّ جعلنا الشّمسَ عليه دليلاً﴾[1].

وكشفوا تسيير السّفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول، بعد ذكره الدواب والجواري بالريح: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾[2].

وكشفوا وجود الميكروب، وتأثيره وغيره من الأمراض، والقرآن يقول:﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾[3]؛ أي متتابعة متجمعة ﴿ترميهم بحجارةٍ من سجّيل﴾[4]؛ أي من طين المستنقعات اليابس. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية. وبالقياس على ما تقدَّم ذكره؛ يقتضي أنَّ كثيراً من آياته سينكشف سرُّها في المستقبل في وقتها المرهون، تجديداً لإعجازه عمّا في الغيب مادام الزمان وما كرَّ الجديدان؛ فلا بُدَّ أن يأتي يوم يكشف العلم فيه أنَّ الجمادات أيضاً تنمو باللقاح كما تشير إلى ذلك آية ﴿ومن كلِّ شيءٍ خلقنا زوجين﴾[5].

---

(١) الفرقان: ٤٥.

(٢) يس: ٤٢.

(٣) الفيل: ٣.

(٤) الفيل: ٤.

(٥) الذّاريات: ٤٩.

الاستبداد والعلم

ما أشبه المستبدَّ في نسبته إلى رعيته بالوصيّ الخائن القوي، يتصرّف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافاً قاصرين؛ فكما أنّه ليس من صالح الوصيّ أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبدّ أن تتنوّر الرعية بالعلم.

لا يخفى على المستبدّ، مهما كان غبياً، أنْ لا استعباد ولا اعتساف إلا مادامت الرّعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبدُّ طيراً لكان خفّاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل، ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقّف دواجن الحواضر في غشاء الليل، ولكنّه هو الإنسان يصيد عالِمَه جاهلُهُ.

العلم قبسةٌ من نور الله، وقد خلق الله النّور كشّافاً مبصراً، يولّد في النفوس حرارةً وفي الرؤوس شهامةً، العلم نور والظلم ظلام، ومن طبيعة النّور تبديد الظّلام، والمتأمل في حالة كلِّ رئيس ومرؤوس يرى كلَّ سلطة الرئاسة تقوى وتضعف بنسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته.

المستبدُّ لا يخشى علوم اللغة، تلك العلوم التي بعضها يقوّم اللسان وأكثرها هزلٌ وهذيان يضيع به الزمان، نعم؛ لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يحلُّ عقد الجيوش؛ لأنه يعرف أنّ الزمان ضنينٌ بأن تلد الأمهات كثيراً من أمثال: الكميت وحسان أو مونتيسكيو[1] وشيللار[2].

وكذلك لا يخاف المستبدُّ من العلوم الدينية المتعلّقة بالمعاد، المختصة

---

(١) شارل لوي دي سكوندا مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥ م). مُؤَرِّخ واجتماعي وفيلسوف فرنسي، له (الرسائل الفارسية) وهو نقد للمجتمع الأوربي بأسلوب ساخر. وقد اشتهر بمؤلّفه السياسي(روح القوانين) الذي يُبَيّن فيه أشكال الحكومة.

(٢) فريدريج فون شيلر (١٧٥٩ – ١٨٢٥ م) شاعر وفيلسوف ومسرحي ألماني.

ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنّها لا ترفع غباوةً ولا تزيل غشاوة، إنما يتلهّى بها المتهوِّسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأتها[1] أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور، فصاروا لا يرون علماً غير علمهم، فحينئذٍ يأمن المستبدُّ منهم كما يُؤمن شرُّ السّكران إذا خمر. على أنّه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لا يعدم المستبدّ وسيلة لاستخدامها في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنّه يضحك عليهم بشيء من التعظيم، ويسدُّ أفواههم بلقيماتٍ من مائدة الاستبداد؛ وكذلك لا يخاف من العلوم الصناعية محضاً؛ لأنّ أهلها يكونون مسالمين صغار النّفوس، صغار الهمم، يشتريها المستبدُّ بقليل من المال والإعزاز، ولا يخاف من الماديين، لأنّ أكثرهم مبتلون بإيثار النّفس، ولا من الرياضيين؛ لأنّ غالبهم قصار النظر.

ترتعد فرائص المستبدُّ من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصّل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تُكبر النفوس، وتوسّع العقول، وتعرّف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف النّوال، وكيف الحفظ. وأخوف ما يخاف المستبدّ من أصحاب هذه العلوم، المندفعين منهم لتعليم النّاس الخطابة أو الكتابة وهم المعبَّر عنهم في القرآن بالصالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى[2]: ﴿أنّ الأرض يرثها عباديَ الصالحون﴾[3]، وفي قوله: ﴿وما كان ربُّك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون﴾[4]، وإنْ كان علماء الاستبداد يفسِّرون مادة الصلاح والإصلاح بكثرة التعبُّد كما حوّلوا معنى مادة الفساد والإفساد: من تخريب نظام الله إلى

---

(١) امتلأت بها.

(٢) في (ط.ق) لا توجد في هذا الموضع شواهد قرآنية. ومزيدة على (ط.ج) ستَّة أسطر إضافية..

(٣) الأنبياء: ١٠٥.

(٤) هود: ١١٧، ورد في لأاصل (وما كنا لنهلك القرى وأهلها مصلحون).

التشويش على المستبدين.

والخلاصة: أنَّ المستبدّ يخاف من هؤلاء العاملين الراشدين المرشدين، لا من العلماء المنافقين أو الذين حفر[1] رؤوسهم محفوظاتٌ كثيرة كأنّها مكتبات مقفلة!

كما يبغض المستبدُّ العلمَ ونتائجه؛ يبغضه أيضاً لذاته، لأن للعلم سلطاناً أقوى من كلِّ سلطان، فلا بدَّ للمستبدِّ من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علماً. ولذلك لا يحبُّ المستبدُّ أن يرى وجه عالمٍ عاقل يفوق عليه فكراً، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار الغبي المتصاغر المتملِّق. وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله: (فاز المتملقون)، وهذه طبيعة كلِّ المتكبرين، بل في غالب الناس، وعليها مبنى ثنائهم على كلِّ من يكون مسكيناً خاملاً لا يُرجى لخيرٍ ولا لشرٍّ.

وينتج مما تقدَّم أنَّ بين الاستبداد والعلم حرباً دائمةً وطراداً مستمراً: يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبدُّ في إطفاء نورها، والطرفان يتجاذبان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنَّهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا.

العوام هم قوة المستبدُّ وقُوْتُهُ. بهم عليهم يصول ويطول؛ يأسرهم فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويهينهم فيثنون على رفعته؛ ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف في أموالهم يقولون كريماً؛ وإذا قتل منهم لم يمثِّل يعتبرونه رحيماً؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بُغاة.

والحاصل أنَّ العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن

---

(١) بمعنى: حشت.

الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنوَّر العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لا بدَّ للمستبدِّ من الاعتزال أو الاعتدال. وكم أجبرت الأمم بترقّيها المستبدَّ اللئيم على الترقّي معها والانقلاب –رغم طبعه– إلى وكيلٍ أمين يهاب الحساب، ورئيسٍ عادل يخشى الانتقام، وأبٍ حليمٍ يتلذذ بالتحابب. وحينئذٍ تنال الأمة حياةً رضيّة هنية، حياة رخاء ونماء، حياة عزّ وسعادة، ويكون حظّ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ، بعد أن كان في دور الاستبداد أشقى العباد؛ لأنه على الدوام ملحوظاً بالبغضاء، محاطاً بالأخطار، غير أمين على رياسته، بل وعلى حياته طرفة عين؛ ولأنه لا يرى قطّ أمامه من يسترشده فيما يجهل؛ لأنَّ الواقف بين يديه مهما كان عاقلاً متيناً، لا بدَّ أن يهابه، فيضطرب باله، فيتشوش فكره، ويختلّ رأيه، فلا يهتدي على الصواب، وإن اهتدى فلا يجسر على التصريح به قبل استطلاع رأي المستبدّ، فإن رآه متصلِّباً فيما يراه فلا يسعه إلا تأييده راشداً كان أو غيّاً، وكلُّ مستشار غيره يدَّعي أنَّه غير هيّاب فهو كذَّاب؛ والقول الحقُّ: إنَّ الصدق لا يدخل قصور الملوك؛ بناءً عليه؛ لا يستفيد المستبدُّ قطُّ من رأي غيره، بل يعيش في ضلال وترددٍ وعذابٍ وخوف، وكفى بذلك انتقاماً منه على استعباده النّاس وقد خلقهم ربهم أحراراً.

إنَّ خوف المستبدّ من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه؛ لأنَّ خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقُّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجزٍ حقيقي فيه، وخوفهم عن توهّم التخاذل فقط؛ وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لقيمات من النّبات وعلى وطنٍ يألفون غيره في أيام؛ وخوفه على كلِّ شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياةٍ تعيسة فقط.

كلما زاد المستبدُّ ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيّته وحتّى من حاشيته، وحتى ومن هواجسه وخيالاته. وأكثر ما تُختم حياة المستبدِّ بالجنون التّام. قلت: (التام) لأنّ المستبدَّ لا يخلو من الحمق قطّ، لنفوره من البحث عن الحقائق،

وإذا صادف وجود مستبدٍّ غير أحمق فيسارعه الموت قهراً إذا لم يسارعه الجنون أو العته؛ وقلتُ: إنه يخاف من حاشيته؛ لأنَّ أكثر ما يبطش بالمستبدين حواشيهم؛ لأنَّ هؤلاء أشقى خلق الله حياةً، يرتكبون كلَّ جريمةٍ وفظيعة لحساب المستبدِّ الذي يجعلهم يمسون ويصبحون مخبولين مصروعين، يُجهدون الفكر في استطلاع ما يريد منهم فعله بدون أن يطلب أو يصرِّح. فكم ينقم عليهم ويهينهم لمجرَّد أنهم لا يعلمون الغيب، ومن ذا الذي يعلم الغيب، الأنبياء والأولياء؟ وما هؤلاء إلا أشقياء؛ أستغفرك اللهم! لا يعلم غيبك نبيٌّ ولا وليٌّ، ولا يدّعي ذلك إلاّ دجّال، ولا يظنُّ صدقه إلاّ مغفَّل، فإنَّك اللهم قلت وقولك الحقّ: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾[1]، وأفضل أنبيائك يقول: «لو علمتُ الخير لاستكثرت منه»[2].

من قواعد المؤرِّخين المدققين: إنَّ أحدهم إذا أراد الموازنة بين مستبدَّين كنيرون[3] وتيمور[4] مثلاً، يكتفي أن يوازن درجة ما كانا عليه من التحذُّر والتحفُّظ. وإذا أراد المفاضلة بين عادلين كأنو شروان وعمر الفاروق[5]، يوازن بين مرتبتي أمنهما في قوميهما[1].

---

(١) الجن: ٢٦.

(٢) لم نعثر عليه في كتب الحديث الشريف. لعلَّ الأمر التبس على الكواكبي في معنى الآية /١٨٨/ من سورة الأعراف على لسان النبي ﷺ: ((ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير)).

(٣) كلاوديوس قيصر (٣٧ – ٦٨ م) إمبراطور روماني (٥٤ – ٦٨ م) ابن دوميتيوس اهنو باربوس وأجريبينا الثانية. بعد زواج أجريبينا من كلاوديوس الأول أقنعته بتبنِّي نيرون، وعندما توفي كلاوديوس خلفه نيرون، قَتَلَ أمه، ثمَّ زوجته أوكتافيا، واضطهد المسيحيين. تُلقى عليه تبعة حريق روما الكبير (٦٤). أعاد بناء روما على نمط فاخر. ارتكب سلسلة من أعمال القتل الوحشية. قال وهو يحتضر: ((ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي)).

(٤) تيمور لنك (١٣٣٦ – ١٤٠٥ م) فاتح مغولي، وُلد قرب سمرقند. يُعرف بتيمور الأعرج ادّعى أنَّه من سلالة جنكيز خان. سيطر عام (١٦٣٩ م) على ما يُعرف حالياً بتركستان الرّوسية. غزا فارس والهند وبلاد الكرج، ثمَّ استولى على حلب واستباحها لمدَّة ثلاثة ايام، تعرضتْ خلالها لكثير من النّهب والتّخريب. تعجُّ سيرته بأعمال القسوة، لكنه أيضاً شَجَّعَ الفن والأدب والعلم، وعندما احتلَّ دمشق أخذ أفضل علمائها وفنانيها إلى سمرقند. أقام المنشآت العامة الضّخمة. وتوفي أثناء غزو الصّين..

(٥) في (ط.ق) صلاح الدّين بدل عمر الفاروق.

لما كانت أكثر الديانات مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام، والشمس وزحل، والعقل والشيطان، رأت بعض الأمم الغابرة أنَّ أضرَّ شيء على الإنسان هو الجهل، وأضرّ آثار الجهل هو الخوف[2]، فعملت هيكلاً مخصصاً للخوف يُعبد اتقاءً لشرِّه.

قال أحد المحررين السياسيين: إني أرى قصر المستبدِّ في كلِّ زمان هو هيكل الخوف عينه: فالملك الجبار هو المعبود، وأعوانه هم الكهنة، ومكتبته هي المذبح المقدَّس، والأقلام هي السكاكين، وعبارات التعظيم هي الصلوات، والناس هم الأسرى الذين يُقدَّمون قرابين الخوف، وهو أهم النواميس الطبيعية في الإنسان، والإنسان يقرب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف، ولا وسيلة لتخفيف الخوف أو نفيه غير العلم بحقيقة المخيف منه، وهكذا إذا زاد علم أفراد الرعية بأنّ المستبدَّ امرؤٌ عاجز مثلهم، زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم.

ويقول أهل النظر: إنَّ خير ما يستبدل به على درجة استبداد الحكومات؛ هو تغاليها في شنآن الملوك، وفخامة القصور، وعظمة الحفلات، ومراسيم التشريفات، وعلائم الأبَّهة، ونحو ذلك من التمويهات التي يسترهب بها الملوك رعاياهم عوضاً عن العقل والمفاداة، وهذه التمويهات يلجأ إليها المستبدُّ كما يلجأ قليل العزِّ للتكبُّر، وقليل العلم للتصوُّف، وقليل الصِّدق لليمين، وقليل المال لزينة اللباس.

ويقولون: إنَّه كذلك يُستدلُّ على عراقة الأمة في الاستعباد أو الحرية

---

(١) حول هذا المعنى دارت قصيدة حافظ إبراهيم التي يقول فيها:

وَرَاعَ صاحبُ كسرى أنْ راى عمراً	بين الرّعية عطلاً وهو راعيها
أمنت لما أقمتَ العدلَ بينهم	فَنِمْتَ فيهم قريرَ العين هانيها

(٢) كذا في الأصل، والصواب: أكثر ضرراً على الإنسان وهو الجهل، وأكثر آثار الجهل ضرراً هو الخوف.

باستنطاق لغتها؛ هل هي قليلة ألفاظ التعظيم كالعربية مثلاً؟ أم هي غنية في عبارات الخضوع كالفارسية، وكتلك اللغة التي ليس فيها بين المتخاطبين أنا وأنت، بل سيدي وعبدكم؟!

والخلاصة أنَّ الاستبداد والعلم ضدان متغالبان؛ فكلُّ إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم، وحصر الرعية في حالك الجهل. والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحياناً في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار النّاس، والغالب أنَّ رجال الاستبداد يُطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من يتمكّن من مهاجرة دياره، وهذا سبب أنَّ كلَّ الأنبياء العظام – عليهم الصلاة والسلام وأكثر العلماء الأعلام والأدباء والنبلاء– تقلّبوا في البلاد وماتوا غرباء.

إنَّ الإسلامية أولَّ دين حضَّ على العلم، وكفى شاهداً أنَّ أول كلمة أُنزلت من القرآن هي الأمر بالقراءة أمراً مكرراً، وأوَّل مِنَّةٍ أجلَّها الله وامتنَّ بها على الإنسان هي أنَّه علَّمه بالقلم. علَّمه به ما لم يعلم. وقد فهم السَّلف الأول من مغزى هذا الأمر وهذا الامتنان وجوب تعلُّم القراءة والكتابة على كلِّ مسلم، وبذلك عمَّت القراءة والكتابة في المسلمين أو كادت تعمُّ، وبذلك صار العلم في الأمة حراً مباحاً للكلِّ لا يختصُّ به رجال الدّين أو الأشراف كما كان في الأمم السابقة، وبذلك انتشر العلم في سائر الأمم أخذاً على المسلمين! ولكنْ؛ قاتل الله الاستبداد الذي استهان بالعلم حتى جعله كالسلعة يُعطى ويُمنح للأميين، ولا يجرؤ أحد على الاعتراض، أجل؛ قاتل الله الاستبداد الذي رجع بالأمة إلى الأمية، فالتقى آخرها بأولِّها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المدققون: إنَّ أخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم أن يعرف الناس حقيقة أنَّ الحرية أفضل من الحياة، وأن يعرفوا النفس وعزَّها، والشّرف وعظمته، والحقوق وكيف تُحفظ، والظلم وكيف يُرفع، والإنسانية وما هي وظائفها، والرّحمة وما هي لذّاتها.

أما المستبدون الشرقيون فأفئدتهم هواء ترتجف من صولة العلم، كأنّ العلم نار وأجسامهم من بارود. المستبدون يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا إله إلا الله)، ولماذا كانت أفضل الذكر، ولماذا بُني عليها الإسلام. بُني الإسلام، بل وكافة الأديان على (لا إله إلا الله)، ومعنى ذلك أنّه لا يُعبد حقاً سوى الصانع الأعظم، ومعنى العبادة الخضوع ومنها لفظة العبد، فيكون معنى لا إله إلا الله: "لا يستحق الخضوع شيءٌ غير الله". وما أفضل تكرار هذا المعنى على الذاكرة آناء الليل وأطراف النهار تحذُّراً من الوقوع في ورطة شيء من الخضوع لغير الله وحده. فهل –والحالة هذه– يناسب غرض المستبدين أن يعلم عبيدهم أنْ لا سيادة ولا عبودية في الإسلام ولا ولاية فيه ولا خضوع، إنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض؟ كلا؛ لا يلائم ذلك غرضهم، وربما عدّوا كلمة (لا إله إلا الله) شتماً لهم! ولهذا؛ كان المستبدون –ولا زالوا– من أنصار الشِّرك وأعداء العلم.

إنَّ العلم لا يناسب صغار المستبدين أيضاً كخَدَمَة الأديان المتكبِّرين وكالآباء الجُهَلاء، والأزواج الحمقى، وكرؤساء كلِّ الجمعيات الضعيفة. والحاصل: أنَّه ما انتشر نور العلم في أمةٍ قطّ إلا وتكسَّرت فيها قيود الأسر، وساء مصير المستبدّين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.

الاستبداد والمجد

من الحِكَم البالغة للمتأخرين قولهم: "الاستبداد أصلٌ لكلِّ داء"، ومبنى ذلك أنَّ الباحث المدقق في أحوال البشر وطبائع الاجتماع كشف أنَّ للاستبداد أثراً سيئاً في كلِّ واد، وقد سبق أنَّ الاستبداد يضغط على العقل فيفسده، وإني الآن أبحث في أنَّه كيف يُغالب الاستبداد المجد فيفسده، ويقيم مقامه التمجُّد.

المجد: هو إحراز المرء مقام حبٍّ واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي شريف لكلِّ إنسان، لا يترفَّع عنه نبيٌّ أو زاهد، ولا ينحطُّ عنه دنيٌّ أو خامل. للمجد لذَّةٌ روحية تقارب لذَّة العبادة عند الفانين في الله تعالى، وتعادل لذَّة العلم عند الحكماء، وتربو على لذَّة امتلاك الأرض مع قمرها[١] عند الأمراء، وتزيد على لذَّة مفاجأة الإثراء عند الفقراء. ولذا؛ يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة.

وقد أشكَلَ على بعض الباحثين أيّ الحرصين أقوى؟ حرص الحياة أم حرص المجد؟ والحقيقة التي عوَّل عليها المتأخِّرون وميَّزوا بها تخليط ابن خلدون هي التفضيل؛ وذلك أنَّ المجد مفضَّل على الحياة عند الملوك والقُوَّاد وظيفةً، وعند النُّجباء والأحرار حميّةً، وحبُّ الحياة ممتاز على المجد عند الأُسراء والأذِّلاء طبيعةً، وعند الجبناء والنساء ضرورةً. وعلى هذه القاعدة يكون أئمة آل البيت -عليهم السلام- معذورين في إلقاء أنفسهم في تلك المهالك؛ لأنَّهم لمّا كانوا نجباء أحراراً، فحميّتهم جعلتهم يفضِّلون الموت كراماً على حياة ذلٍّ مثل حياة ابن خلدون الذي خطّأ أمجاد البشر في إقدامهم على الخطر إذا هدَّد مجدهم[٢]، ذاهلاً على أنَّ بعض أنواع الحيوان، ومنها البلبل، وُجِدت فيها

(١) وردت في (ط.ق): (ثمرها) وهي الأولى.

(٢) إشارة إلى قول لابن خلدون في مُقدمته، حيث لامَ الحسينَ بن علي على خروجه لحرب يزيد بن معاوية.

طبيعة اختيار الانتحار أحياناً تخلُّصاً من قيود الذُّلِّ، وأنَّ أكثر سباع الطير والوحوش إذا أُسِرَت كبيرة تأبى الغذاء حتى تموت، وأنَّ الحُرَّة تموت ولا تأكل بعِرضِها، والماجدة تموت ولا تأكل بثدييها!

المجد لا يُنال إلا بنوعٍ من البذل في سبيل الجماعة، وبتعبير الشرقيين في سبيل الله أو سبيل الدِّين، وبتعبير الغربيين في سبيل المدنية أو سبيل الإنسانية. والمولى تعالى –المستحقُّ التّعظيم لذاته– ما طالب عبيده بتمجيده إلا وقرن الطلب بذكر نعمائه عليهم.

وهذا البذل إما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم؛ وهو أضعف المجد، أو بذل العلم النّافع المفيد للجماعة؛ ويسمّى مجد الفضيلة، أو بذل النّفس بالتعرُّض للمشاقّ والأخطار في سبيل نصرة الحقِّ وحفظ النِّظام؛ ويُسمى مجد النّبالة، وهذا أعلى المجد؛ وهو المراد عند الإطلاق، وهو المجد الذي تتوق إليه النفوس الكبيرة، وتحنُّ إليه أعناق النبلاء. وكم له من عشاق تلذُّ لهم في حبه المصاعب والمخاطرات، وأكثرهم يكون من مواليد بيوت نادرة حمتها الصُّدف من عيون الظالمين المذلّين، أو يكون من نجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين وما انقطعت عجائزها عن بكائهم. ومن أمثلة المجد قولهم: خلق الله للمجد رجالاً يستعذبون الموت في سبيله، ولا سبيل إليه إلا بعظيم الهمّة والإقدام والثّبات، تلك الخصال الثّلاث التي بها تقدَّر قيم الرجال.

وهذا (نيرون) الظالم سأل (أغربين) [١] الشاعر وهو تحت النَّطع: من أشقى الناس؟ فأجابه معرِّضاً به: من إذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالاً له في الخيال. وكان (ترايان) [٢] العادل إذا قلَّد سيفاً لقائد يقول له: "هذا سيف الأمة أرجو أن لا أتعدّى القانون فيكون له نصيبٌ في عنقي". وخرج قيس من مجلس

---

(١) أغلب الظّن أنَّ الكواكبي يُخطئ بالتّسمية، والمقصود أغريبينا، وأجريبينا أم نيرون التي تصدَّت له فَقَتَلَهَا.

(٢) في الأصل: ترابان. وترايان هو ترايانوس ماركوس أولبيوس (٥٣ – ١١٧ م) إمبراطور روماني (٩٨ – ١١٧ م) عرف بحُبِّ العدل.

الوليد مغضباً يقول: "أتريد أن تكون جباراً؟ والله؛ إنَّ نعال الصعاليك لأطول من سيفك!. وقيل لأحد الأباة: "ما فائدة سعيك غير جلب الشقاء على نفسك؟". فقال: "ما أحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين!". وقال آخر: "عليَّ أن أفي بوظيفتي وما عليَّ ضمان القضاء". وقيل لأحد النبلاء: "لماذا لا تبني لك داراً؟" فقال: "ما أصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد أو في السجن أو في القبر"، وهذه ذات النطاقين (أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها) وهي امرأة عجوز تودِّع ابنها بقولها: "إن كنت على الحقّ فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموتَ"[1]. وهذا مكماهون رئيس جمهورية فرنسا استبدَّ في أمر فدخل عليه صديقه غامبتا[2] وهو يقول: "الأمر للأمة لا إليك، فاعتدل، أو اعتزل، وإلا فأنت المخذول المهان الميت!!

والحاصل أنَّ المجد هو المجدُ محبَّبٌ للنفوس، لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه، وهو ميسَّرٌ في عهد العدل لكلِّ إنسان على حسب استعداده وهمَّته، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظّلم على حسب الإمكان.

يقابل المجد، من حيث مبتناه، التمجُّد. وما هو التمجّد؟ وماذا يكون التمجّد؟ التمجُّد لفظٌ هائل المعنى، ولهذا أراني أتعثَّر بالكلام وأتلعثم في الخطاب، ولا سيما من حيث أخشى مساس إحساس بعض المطالعين. إن لم يكن من جهة أنفسهم فمن جهة أجدادهم الأولين، فأناشدهم الوجدان والحقّ المهان، أن يتجرَّدوا دقيقتين من النّفس وهواها، ثمَّ هم مثلي ومثل سائر الجانين على الإنسانية لا يعدمون تأويلاً. وإنني أعلِّل النّفس بقبولهم تهويني هذا،

---

(١) أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق (ت ٧٣ هـ = ٦٩٢ م) أخت عائشة لأبيها، وأمّ عبد الله بن الزّبير (١ – ٧٣ هـ = ٦٢٢ – ٦٩٢ م) لقبها (ذات النّطاقَيْن) والحادثة التي يذكرها الكواكبي جرت بين الحَجَّاج وابنها عبد الله.

(٢) ليون غامبتا (١٨٣٨ – ١٨٨٢ م) سياسي فرنسي كان له دور في إقرار النّظام الجمهوري. قاد مقاومة الاحتلال الألماني بعد هزيمة (١٨٧٠ م).

فأنطلق وأقول:

التمجّد خاص بالإدارات المستبدَّة، وهو القربى من المستبدِّ بالفعل كالأعوان والعمال، أو بالقوة كالملقَّبين بنحو دوق وبارون، والمخاطبين بنحو ربِّ العزة وربّ الصولة، أو الموسومين بالنياشين، أو المطوَّقين بالحمائل، وبتعريفٍ آخر، التمجُّد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبدِّ ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية.

وبوصفٍ أجلى: هو أن يتقلّد الرّجل سيفاً من قِبَل الجبارين يبرهن به على أنَّه جلاد في دولة الاستبداد، أو يعلِّق على صدره وساماً مشعراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان، أو يتزين بسيور مزركشة تنبئ بأنّه صار مخنَّثاً أقرب إلى النساء منه إلى الرجال، وبعبارة أوضح وأخصر، هو أن يصير الإنسان مستبداً صغيراً في كنف المستبدِّ الأعظم.

قلتُ: إنَّ التمجُّد خاصٌّ بالإدارات الاستبدادية، وذلك لأنَّ الحكومة الحرة التي تمثِّل عواطف الأمة تأبى كلَّ الإباء إخلال التساوي بين الأفراد إلا لفضلٍ حقيقي، فلا ترفع قدر أحد منها إلا رفعاً صورياً أثناء قيامه في خدمتها؛ أي الخدمة العمومية، وذلك تشويقاً له على التفاني في الخدمة، كما أنَّها لا تميّز أحداً منها بوسام أو تشرِّفه بلقبٍ إلا ما كان علمياً أو ذكرى لخدمة مهمة وفَّقه الله إليها. وبمثل هذا يرفع اللهُ الناس بعضهم فوق بعضٍ درجات في القلوب لا في الحقوق.

وهذا لقب اللوردية مثلاً عند الإنكليز هو من بقايا عهد الاستبداد، ومع ذلك لا يناله عندهم غالباً إلا من يخدم أمَّته خدمة عظيمة، ويكون من حيث أخلاقه وثروته أهلاً لأن يخدمها خدمات مهمة غيرها، ومن المقرر أن لا اعتبار للورد في نظر الأمة إلا إذا كان مؤسساً أو وارثاً، أو كانت الأمة تقرأ في جبهته سطراً محرراً بقلم الوطنية وبمداد الشهامة ممضيٍّ بدمه يقسم فيه بشرفه أنه ضمين بثروته وحياته ناموس الأمة؛ أي قانونها الأساسي، حفيظ

على روحها؛ أي حريتها.

التمجُّد لا يكاد يوجد له أثر في الأمم القديمة إلا في دعوى الألوهية وما معناها من نفع الناس بالأنفاس، أو في دعوى النّجابة بالنسب التي يهول بها الأصلاء نسل الملوك والأمراء، وإنما نشأ التمجّد بالألقاب والشّارات في القرون الوسطى، وراج سوقه في القرون الأخيرة، ثمَّ قامت فتاة الحرية تتغنّى بالمساواة وتغسل أدرانه على حسب قوتها وطاقتها، ولم تبلغ غايتها إلى الآن في غير أمريكا.

المتمجِّدون يريدون أن يخدعوا العامة، وما يخدعون غير نسائهم اللاتي يتفحفحن بين عجائز الحي بأنهم كبار العقول؛ كبار النفوس؛ أحرار في شؤونهم لا يُزاح لهم نقاب، ولا تُصفع منهم رقاب، فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمُّل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قِبَل المستبدّ، بل تحوجهم للحرص على كتمها، بل على إظهار عكسها، بل على مقاومة من يدّعي خلافها، بل على تغليط أفكار النّاس في حقِّ المستبدِّ وإبعادهم عن اعتقاد أنَّ من شأنه الظلم.

وهكذا يكون المتمجّدين أعداء للعدل أنصاراً للجور، لا دين ولا وجدان ولا شرف ولا رحمة، وهذا ما يقصده المستبدُّ من إيجادهم والإكثار منهم ليتمكَّن بواسطتهم من أن يغرِّر الأمة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلاً لحرب اقتضاها محض التجبُّر والعدوان على الجيران، فيوهمها أنَّه يريد نصرة الدين، أو يُسرف بالملايين من أموال الأمة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة وأبهة المملكة، أو يستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء لها، أو يتصرَّف في حقوق المملكة والأمة كما يشاؤه هواه باسم أنَّ ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة.

والخلاصة: أنَّ المستبد يتّخذ المتمجّدين سماسرة لتغرير الأمة باسم خدمة الدين، أو حبّ الوطن، أو توسيع المملكة، أو تحصيل منافع عامة، أو

مسؤولية الدولة، أو الدفاع عن الاستقلال، والحقيقة أنَّ كلّ هذه الدواعي الفخيمة العنوان في الأسماع والأذهان ما هي إلا تخييل وإيهام يقصد بها رجال الحكومة تهييج الأمة وتضليلها، حتى إنَّه لا يُستثنى منها الدّفاع عن الاستقلال؛ لأنّه ما الفرق على أمةٍ مأسورة لزيد أن يأسرها عمرو؟ وما مثلها إلا الدّابة التي لا يرحمها راكب مطمئن، مالكاً كان أو غاصباً.

المستبدُّ لا يستغني عن أن يستمجد بعض أفراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا ينطحون ولا يرمحون، يتّخذهم كأنموذج البائع الغشاش، على أنّه لا يستعملهم في شيء من مهامه، فيكونون لديه كمصحف في خمّارة أو سبحة في يد زنديق، وربما لا يستخدم أحياناً بعضهم في بعض الشؤون تغليطاً لأذهان العامة في أنَّه لا يعتمد استخدام الأراذل والأسافل فقط، ولهذا يُقال: دولة الاستبداد دولة بُلهٍ وأوغاد.

المستبدُّ يجرِّب أحياناً في المناصب والمراتب بعض العقلاء الأذكياء أيضاً اغتراراً منه بأنّه يقوى على تليين طينتهم وتشكيلهم بالشّكل الذي يريد، فيكونوا له أعواناً خبثاء ينفعونه بدهائهم، ثمَّ هو بعد التجربة إذا خاب ويئس من إفسادهم يتبادر إبعادهم أو ينكّل بهم. ولهذا لا يستقرّ عنه المستبدّ إلا الجاهل العاجز الذي يعبده من دون الله، أو الخبيث الخائن الذي يرضيه ويغضب الله.

وهنا أنبِّه فكر المطالعين إلى أنَّ هذه الفئة من العقلاء الأمناء بالجملة، الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة ونيل مجد النّبالة، ثمَّ يضرب على يدهم لمجرَّد أنَّ بين أضلعهم قبسة من الإيمان وفي أعينهم بارقة من الإنسانية، هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الاستبداد وينادي أفرادها بالإصلاح. وهذا الانقلاب قد أعيا المستبدين؛ لأنهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المغبّة. ومن هنا نشأ اعتمادهم غالباً على العريقين في خدمة الاستبداد، الوارثين من آبائهم وأجدادهم الأخلاق المرضية للمستبدّين، ومن هنا ابتدأت في الأمم نغمة التمجّد بالأصالة والأنساب، والمستبدّون المحنّكون

يطيلون أمد التجربة بالمناصب الصغيرة فيستعملون قاعدة الترقّي مع التراخي، ويسمّون ذلك برعاية قاعدة القدم، ثمّ يختمون التجريب بإعطاء المتمرّن خدمة يكون فيها رئيساً مطلقاً ولو في قرية، فإن أظهر مهارة في الاستبداد، وذلك ما يسمونه حكمة الحكومة فبها نعمت، وإلا قالوا عنه: هذا حيوان، يا ضيعة الأمل فيه.

إنَّ للأصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجّد فلا بدَّ أن نبحث فيها قليلاً، ثمَّ نعود لموضوع المستبدّ وأعوانه المتمجّدين فأقول:

الأصالة صفة قد يكون لها بعض المزايا من حيث الأميال التي يرثها الأبناء من الآباء، ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت ولو رياءً، ومن حيث إنَّ الأصالة تكون مقرونة غالباً بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الشّهامة والرحمة، ومن حيث تقويتها العلاقة بالأمة والوطن خوف مذلّة الاغتراب، ومن حيث إنَّ أهلها يكونون منظورين دائماً فيتحاشون المعائب والنقائص بعض التحاشي.

وبيوت الأصالة تنقسم إلى ثلاثة أنواع: بيوت علم وفضيلة، وبيوت مال وكرم، وبيوت ظلم وإمارة. وهذا الأخير هو القسم الأكثر عدداً والأهمّ موقعاً، وهم -كما سبقت الإشارة إليه- مطمح نظر المستبدّ في الاستعانة وموضع ثقته، وهم الجند الذي تجتمع تحت لوائه بسهولة، وربما يكفيه أنْ يضحك في وجههم ضحكة. فلننظر ما هو نصيب أهل هذا القسم من تلك المزايا الموروثة:

هل يرث الابن عن جده المؤسس لمجده أميالَه في العدالة ولم توجد؟ أم يدبُّ ويشبُّ على غير التّرف المصغِّر للعقول، المميت للهمم؟ أم يتربّى على غير الوقار المضحك للباطل، السّائد فيما بين العائلة في بيتهم؟ أم يستخدم الثروة في غير الملاذ الجسمية الدنيئة البهيمية وتلك الأبّهة الطاووسية الباطلة؟ أم يتمثَّل بغير أقران السوء المتملقين المنافقين؟ أم لا يستحقر قومه لجهلهم قدر

النُّطفة الملعونة التي خُلق منها جنابه؟ أم لا يبغض العلماء الذين لا يقدِّرونه قدره حسبما هو قائم في مخيلة خيلائه؟ أم يرى لجنابه مقرّاً يليق به غير مقعد التحكُّم ومستراح التآمر؟ أم يستحي من النّاس؟ ومن هم النّاس؟ وما النّاس عند حضرته غير أشباح عندها أرواح خُلقت لخدمته!

وهذه حالة الأكثرين من الأصلاء، على أننا لا نبخس حقَّ من نال منهم حظاً من العلم وأوتي الحكمة وأراد الله به خيراً فأصابه بنصيب من القهر انخفض به شامخ أنفه، فإنَّ هؤلاء – وقليل ما هم– ينجبون نجابة عظيمة، فيصدق عليهم أنَّهم قد ورثوه قوّة القلب يستعملونها في الخير لا في الشّر، واستفادوا من أنفة الكبرياء كالجسارة على العظماء، وهكذا تتحول فيهم ميزة الشرِّ على فائض خير وحَسَبٍ شامخ من نحو الحنين إلى الوطن وأهله، والأنين لمصابه، والإقدام على العظائم في سبيل القوم، وأمثال هؤلاء النوابغ النُجَباء إذا كثروا في أمة يوشك أن يترقّى منهم آحاد إلى درجة الخوارق فيقودوا أممهم إلى درجة النجاح والفلاح، ولا غرو فإنَّ اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان ولا عجب شَبَهَ فعل المستبدِّ العادل[١] الذي ينشده الشرقيون، وخصوصاً المسلمون؛ وإن كان العقل لا يجوز أن يتَّصف بالاستبداد مع العدل غير الله وحده، ألا قاتل الله الهمّة السّاقطة التي قد تتسفّل بالإنسان إلى عدم إتعاب الفكر فيما يطلب هل هو ممكن أم هو محال؟!

الأصلاء، باعتبار أكثريتهم، هم جرثومة البلاء في كلِّ قبيلة ومن كلِّ قبيل. لأنَّ بني آدم داموا إخواناً متساوين إلى أنْ ميَّزت الصُّدفة بعض أفرادهم بكثرة النّسل، فنشأت منها القوات العصبية، ونشأ من تنازعها تميُّز أفراد على أفراد، وحِفْظُ هذه الميزة أوجد الأصلاء. فالأصلاء في عشيرة أو أمة إذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس وأسسوا حكومة أشراف، ومتى وُجد

(١) في (ط.ق): "المستبدُّ العادل، أي عنقاء مغرب" ولا وجود لما ورد بعدها حتَّى نهاية الفقرة التالية.

بيت من الأصلاء يتميز كثيراً في القوة على باقي البيوت يستبدُّ وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة إذا لباقي البيوت بقية بأس، أو المطلقة إذا لم يبقَ أمامه من يتَّقيه.

بناءً عليه، إذا لم يوجد في أمّة أصلاء بالكلية، أو وجد، ولكن؛ كان لسواد الناس صوتٌ غالب، أقامت تلك لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداءً؛ ولكن، لا يتوالى بعض متولين إلا ويصير أنسالهم أصلاء يتناظرون، كلٌّ فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمة استعداداً للمغالبة وإعادة التاريخ الأول.

ومن أكبر مضارّ الأصلاء أنهم ينهمكون أثناء المغالبة على إظهار الأبَّهة والعظمة، سترهبون أعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبّرون عليهم. ثمَّ إذا غلب غالبهم واستبدَّ بالأمر لا يتركها الباقون لألفتهم لذتها ولمضاهاة المستبدِّ في نظر الناس. والمستبدُّ نفسه لا يحملهم على تركها، بل يدرُّ عليهم المال ويعينهم عليها، ويعطيهم الألقاب والرُّتب وشيئاً من النّفوذ والتسلُّط على الناس ليتلهّوا بذلك عن مقاومة استبداده، ولأجل أن يألفوها مديداً، فتفسد أخلاقهم، فينفر منهم الناس، ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه، فيصيرون أعواناً له بعد أن كانوا أضداداً.

ويستعمل المستبدُّ أيضاً مع الأصلاء سياسة الشدّ والرّخاء، والمنع والإعطاء، والالتفات والإغضاء كي لا يبطروا، وسياسة إلقاء الفساد وإثارة الشحناء فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه، وتارة يعاقب عقاباً شديداً باسم العدالة إرضاءً للعوام، وأخرى يقرنهم بأفراد كانوا يقبِّلون أذيالهم استكباراً فيجعلهم سادة عليهم يفركون آذانهم استحقاراً، يقصد بذلك كسر شوكتهم أمام إمام الناس وعصر أنوفهم أمام عظمتهم. والحاصل أنَّ المستبدّ يذلل الأصلاء بكلِّ وسيلة حتى يجعلهم مترامين بين رجليه كي يتَّخذهم لجاماً لتذليل الرعية، ويستعمل عين هذه السياسة مع العلماء ورؤساء الأديان الذين متى شمَّ من أحدهم رائحة

الغرور بعقله أو علمه ينكل به أو يستبدله بالأحمق[١] الجاهل إيقاظاً له ولأمثاله من كلِّ ظانٍّ من أن إدارة الظلم محتاجة إلى شيء من العقل أو الاقتدار فوق مشيئة المستبدِّ. وبهذه السياسة ونحوها يخلو الجوّ[٢] فيعصف وينسف ويتصرَّف في الرعية كريشٍ يقلبه الصرصر[٣] في جوٍّ محرق.

المستبدُّ في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان إنساناً فصار إلهاً. ثم يُرجع النظر فيرى نفسه في نفس الأمر أعجز من كلِّ عاجز وأنَّه ما نال ما نال إلا بواسطة من حوله من العوان، فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له: ما العرش؟ وما التاج؟ وما الصولجان؟ ما هذه إلا أوهام في أوهام. هل يجعلك هذا الريش في رأسك طاووساً وأنت غراب؟ أم تظن الأحجار البراقة في تاجك نجوماً ورأسك سماء؟ أم تتوهم أنَّ زينة صدرك ومنكبيك أخرجتك عن كونك قطعة طينٍ من هذه الأرض؟ والله ما مكَّنك في هذا المقام وسلَّطك على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا، فانظر أيها الصغير المكبَّر الحقير الموقّر كيف تعيش معنا!

ثمَّ يلتفت إلى جماهير الرّعية المتفرجين[٤]، منهم الطائشين المهللين المسبِّحين بحمده، ومنهم المسحورين المبهوتين كأنهم أموات من حين، ولكن؛ يتجلّى في فكره أنَّ خلال الساكتين بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون؛ بأنَّ لنا معاشر الأمَّة شؤوناً عمومية وكَّلناك في قضائها على ما نريد ونبغي، لا على ما تريد فتبغي. فإنْ وفَّيت حقَّ الوكالة حُقَّ لك الاحترام، وإن مرت مكَرْنا وحاقت بك العاقبة، ألا إنَّ مكر الله عظيم.

---

(١) المعنى (يستبدل الأحمق به) لأنَّ الباء للمتروك.

(٢) في (ط.ق): "يخلو الجوُّ لهذا المستبدّ.

(٣) في (ط.ق): "الصّرصر والسموم على أديم من الجمر، ولله الأمر. نعم..لله جَلَّ شأنه الأمر، حيثُ قال: ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ الإسراء: ١٦.

(٤) نُفَضّل أنْ نضيف (فيرى)، لتصبح الجملة: ثم يلتفت إلى جماهير الرّعية المتفرجين، فيرى منهم الطّائشين...

وعندئذٍ يرجع المستبدُّ إلى نفسه قائلاً: الأعوان الأعوان، الحَمَلَة السَّدنة أسلمهم القياد وأردفهم بجيشٍ من الأوغاد أحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يدوم لي مُلْكٌ كيفما أكون، بل أبقى أسيراً للعدل معرِّضاً للمناقشة منغِّصاً في نعيم الملك، ومن العار أن يرضى بذلك من يمكنه أن يكون سلطاناً جباراً متفرِّداً قهّاراً.

الحكومة المستبدّة تكون طبعاً مستبدّة في كل فروعها من المستبدّ الأعظم إلى الشرطي، إلى الفرّاش، إلى كنائس الشوارع، ولا يكون كلُّ صنفٍ إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأن الأسافل لا يهمهم طبعاً الكرامة وحسن السمعة، إنما غاية مسعاهم أن يبرهنوا لمخدوهم بأنهم على شاكلته، وأنصار لدولته، وشرهون لأكل السقطات من أيٍّ كان ولو بشراً أم خنازير، آبائهم أم أعدائهم، وبهذا يأمنهم المستبدُّ ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه. وهذه الفئة المستخدمة يكثر عددها ويقلُّ حسب شدة الاستبداد وخفّته، فكلما كان المستبدُّ حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجّدين العاملين له المحافظين عليه، واحتاج إلى مزيد الدقّة في اتِّخاذهم من أسفل المجرمين الذين لا أثر عندهم لدينٍ أو ذمّة، واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة؛ وهي أن يكون أسفلهم طباعاً وخصالاً أعلاهم وظيفةً وقرباً، ولهذا، لا بدَّ أن يكون الوزير الأعظم للمستبدّ هو اللئيم الأعظم في الأمة، ثم من دونه لؤماً، وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعوان في لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات والقربى منه. وربما يغترُّ المطالع كما اغترَّ كثير من المؤرِّخين البسطاء بأن بعض وزراء المستبدّ يتأوهون من المستبدّ ويتشكّون من أعماله ويجهرون بملامه، ويظهرون لو أنّه ساعدهم الإمكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الأمة بأموالهم، بل وحياتهم، فكيف – والحالة هذه– يكون هؤلاء لؤماء؟ بل كيف ذلك وقد وُجِد منهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا فعلاً على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد أو بعضه أو هلكوا دونه؟

فجواب ذلك أنّ المستبدَّ لا يخرج قطّ عن أنّه خائنٌ خائفٌ محتاجٌ لعصابة تعينه وتحميه، فهو ووزراؤه كزمرة لصوص: رئيس وأعوان. فهل يجوِّز العقل أن يُنتخب رفاق من غير أهل الوفاق، وهو هو الذي لا يستوزر إلا بعد تجربة واختبار عمراً طويلاً؟!

هل يمكن أن يكون الوزير متخلِّقاً بالخير حقيقة، وبالشَّرِّ ظاهراً فيخدع المستبدّ بأعماله، ولا يخاف من أنَّه كما نصبه وأعزَّه بكلمة يعزله ويذلّه؟!

بناءً عليه، فالمستبدّ وهو من لا يجهل أنَّ الناس أعداؤه لظلمه، لا يأمن على بابه إلا من يثق به أنَّه أظلم منه للناس، وأبعد منه على أعدائه، وأما تلوُّم بعض الوزراء على لوم المستبدّ فهو إن لم يكن خداعاً للأمة فهو حنقٌ على المستبدّ؛ لأنه بخس ذلك المتلوّم حقه، فقدَّم عليه من هو دونه في خدمته بتضحية دينه ووجدانه. وكذلك لا يكون الوزير أميناً من صولة المستبدّ في صحبته ما لم يسبق بينهما وفاق واتِّفاق على خيرة الشيطان؛ لأن الوزير محسودٌ بالطبع، يتوقّع له المزاحمون كلَّ شرّ، ويبغضه الناس ولو تبعاً لظالمهم، وهو هدفٌ في كلِّ ساعةٍ للشكايات والوشايات. كيف يكون عند الوزير شيءٌ من التقّوى أو الحياء أو العدل أو الحكمة أو المروءة أو الشّفقة على الأمة، وهو العالم بأنَّ الأمة تبغضه وتمقته وتتوقّع له كلَّ سوء، وتشمت بمصائبه، فلا ترضى عنه ما لم يتّفق معها على المستبدّ، وما هو بفاعلٍ ذلك أبداً إلا إذا يئس من إقباله عنده، وإن يئس وفعل فلا يقصد نفع الأمة قطّ، إنما يريد فتح بابٍ لمستجدٍّ جديد عساه يستوزره فيؤازره على وزره.

والنتيجة أنَّ وزير المستبدّ هو وزير المستبدّ، لا وزير الأمّة كما في الحكومات الدستورية. كذلك القائد يحمل سيف المستبدّ ليغمده في الرقاب بأمر المستبدّ لا بأمر الأمة، بل هو يستعيذ أن تكون الأمة صاحبة أمر، لما يعلم من نفسه أنَّ الأمّة لا تقلّد القيادة لمثله.

بناءً عليه؛ لا يغترُّ العقلاء بما يتشدَّق به الوزراء والقوّاد من الإنكار

علـى الاسـتبداد والتفلسـف بالإصـلاح وإن تلهَّفـوا وإن تـأففوا، ولا ينخـدعون لمظـاهر غيـرتهم وإن نـاحوا وإن بكـوا، ولا يثقـون بهـم ولا بوجـدانهم مهمـا صـلّوا وسـبّحوا، لأنَّ ذلـك كلّـه ينـافي سـيرهم وسـيرتهم، ولا دليـل علـى أنّهـم أصـبحوا يخـالفون مـا شـبّوا وشـابوا عليـه، هـم أقـرب أن لا يقصـدوا بتلـك المظـاهر غيـر إقـلاق المستبدِّ وتهديد سلطته ليشاركهم فـي استدرار دمـاء الرّعيـة؛ أي أموالهـا. نعم، كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير الذي قد ألف عمراً كبيراً لذّة البذخ وعزّة الجبروت في أنَّه يرضى بالدخول تحت حكم الأمّة، ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحلّه أو تكسره تحت أرجلها. أليس هو عضواً ظاهر الفساد في جسم تلك الأمة التي قتل الاستبداد فيها كلَّ الأميال الشريفة العالية فأبعدها عن الأنس والإنسانية، حتّى صار الفلاح التعيس منها يؤخذ للجندية وهو يبكي، فلا يكـاد يلـبس كـمَّ السـترة العسـكرية إلا ويتلـبَّس بشـرِّ الأخـلاق، فيتنمّـر علـى أمـه وأبيه، ويتمرّد على أهل قريته وذويه، ويكظُّ أسنانه عطشاً للدماء لا يميّز بين أخٍ وعـدو؟! إنَّ أكـابر رجـال عهـد الاسـتبداد لا أخـلاق لهـم ولا ذمّـة، فكـلُّ مـا يتظـاهرون بـه أحيانـاً من التذمّر والتألّم يقصدون به غشَّ الأمـة المسكينة التي يطمعهم في انخداعها وانقيادها لهم علمهم بأنَّ الاستبداد القائم بهم والمستعمر بهمَّـتهم قـد أعمـى أبصـارها وبصـائرها، وخـدَّر أعصـابها، فجعلهـا كالمصـاب ببحران العمى، فهي لا ترى غير هول وظلام وشدة وآلام، فتئنُّ من البلاء ولا تـدري مـا هـو تداويـه، ولا مـن أيـن جاءهـا لتصـدَّه، فتواسـيها فئـة مـن أولئـك المتعـاظمين باسـم الـدين يقولـون: يـا بؤسـاء؛ هذا قضـاءٌ من السمـاء لا مردَّ لـه، فالواجـب تلقّيـه بالصـبر والرضـاء والالتجـاء إلـى الـدعاء، فـاربطوا ألسـنتكم عـن اللغو والفضول، واربطوا قلوبكم بأهل السكينة والخمول، وإياكم والتدبير فإن الله غيـور، ولـيكن وِرْدُكـم: اللهـم انصـر سـلطاننا، وآمنّـا فـي أوطاننـا، واكشـف عنـا الـبلاء، أنـت حسـبنا ونعـم الوكيـل. ويغـرر الأمـة آخـرون مـن المتكبـرين بـأنهم الأطبـاء الرحمـاء المهتمـون بمـداواة المـرض، إنَّمـا هـم يترقَّبـون سـنوح الفـرص،

وكـلا الفـريقين –والله– إمـا أدنيـاء جبنـاء، أو هـم خـائنون مخـادعون، يريـدون التثبيط والتلبيد والامتنان على الظالمين.

مـن دلائـل أن أولئـك الأكـابر مغـرِّرون مخـادعون يظهـرون مـا لا يُبطنون، أنَّهم لا يستصنعون إلا الأسافل الأراذل من النـاس، ولا يميلـون لغير المتملقين المنـافقين مـن أهل الـدين، كمـا هـو شـأن صـاحبهم المسـتبدّ الأكبـر، ومنها أنَّه قد يوجد فيهم من لا يتنزَّل لقليل الرشوة أو السرقة، ولكنْ؛ ليس فيهم العفيف عن الكثير، وكفى بما يتمتعون من الثروات الطائلة التي لا منبت لها غير المستبيح الفاخر بمشاركة المستبدَّ في امتصاصه دم الأمة، وذلك بأخذهم العطايا الكبيرة، والرواتب الباهظـة، التـي تعـادل أضـعاف مـا تسمح بـه الإدارة العادلة لأمثالهم؛ لأنها إدارة راشدة لا تدفع أجوراً زائدة. ومنها أنهم لا يصرفون شـيئاً ولـو سـراً مـن هـذا السـحت[١] الكثيـر فـي سـبيل مقاومـة الاسـتبداد الـذي يزعمون أنهم أعداؤه، إنما يصرف بعضهم منه شيئاً في الصدقات الطفيفة وبناء المعابد سمعةً ورياءً، وكأنهم يريدون أن يسرقوا أيضاً قلوب النـاس بعد سلب أموالهم أو أنهم يرشـون الله، ألا سـاء مـا يتوهمـون. ومنهـا أنَّ أكثرهم مسرفون مبذِّرون، فلا تكفي أحدهم الرواتب المعتدلة التي يمكن أن ينالها أجرة خدمة لا ثمن ذمة. ومنها أنه قد يكون أحدهم شحيحاً مقتِّراً في نفقاته؛ بحيث يخلُّ في شرف مقامه، فلا يصرف نصف أو ربع راتبه مع أنَّه يقبضه زائداً على أجر مثله لأجل حفظ شرف المقام، العائد لشرف الأمة، وبهذا الشُّحّ يكون خائناً ومهيناً. والحاصل أنَّ الأكابر حريصون على أن يبقى الاستبداد مطلقاً لتبقى أيديهم مطلقة في الأموال.

هذا ولا ينكر التاريخ أن الزمان أوجد نادراً بعض وزراء وازروا الاستبداد عمراً طـويلاً، ثـمَّ نـدموا علـى مـا فرَّطـوا فتـابوا وأنـابوا، ورجعـوا نصـف الأمـة

---

(١) السّحت: المال الحرام. (ك).

واستعدوا بأموالهم وأنفسهم لإنقاذها من داء الاستبداد. ولهذا؛ لا يجوز اليأس من وجود بعض أفراد من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة، فيظهر فيهم سرّ الوراثة ولو بعد بطون أو بعد الأربعين وربما السبعين من أعمارهم ظهوراً بيّناً تلألأ في محيا صاحبه ثريا صدق النجابة. ولا ينبغي لأمةٍ أن تتكل على أن يظهر فيها أمثال هؤلاء، لأنَّ وجودهم من الصُّدف التي لا تُبنى عليها آمال ولا أحلام.

والنتيجة أنَّ المستبد فردٌ عاجز لا حول له ولا وقوة إلا بالمتمجدين، والأمة؛ أي أمة كانت، ليس لها من يحكُّ جلدها غير ظفرها، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء والثبات، حتى إذا ما اكفهرَّت سماء عقول بينها قيَّض الله لها من جمعهم الكبير أفراداً كبار النفوس قادة أبرار يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم؛ حيث يكون الله جعل في ذلك لذتهم، ولمثل تلك الشهادة الشريفة خلقهم، كما خلق رجال عهد الاستبداد فسّاقاً فُجّاراً مهالكهم الشهوات والمثالب. فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء، وهو الخلاّق العظيم.

الاستبداد والمال

الاستبداد لو كان رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال: "أنا الشرُّ، وأبي الظلم، وأمّي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسْكَنة، وعمي الضُّرّ، وخالي الذُّلّ، وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي فالمال المال المال".

المال يصحُّ في وصفه أن يُقال: القوة مال، والوقت مال، والعقل مال، والعلم مال، والدِّين مال، والثّبات مال، والجاه مال، والجمال مال، والترتيب مال، والاقتصاد مال، والشُّهرة مال، والحاصل كلُّ ما يُنتَفَع به في الحياة هو مال.

وكلُّ ذلك يُباع ويُشترى؛ أي يستبدل بعضه ببعض، وموازين المعادلة هي: الحاجة والعزّة والوقت والتعب، ومحافظة اليد والفضة والذهب والذمة، وسوقه المجتمعات، وشيخ السوق السلطان... فانظر في سوق يتحكّم فيه مستبدٌّ؛ يأمر زيداً بالبيع، وينهى عمرواً عن الشراء، ويغصب بكراً ماله، ويحابي خالداً من مال الناس.

المال تعتوره الأحكام، فمنه الحلال ومنه الحرام وهما بيِّنان، ولَنِعْمَ الحاكم فيها الوجدان، فالحلال الطيب ما كان عوض أعيان، أو أجرة أعمال، أو بدل وقت، أو مقابل ضمان. والمال الخبيث الحرام هو ثمن الشّرف، ثمَّ المغصوب، ثمَّ المسروق، ثمَّ المأخوذ إلجاءً[1] ثمَّ المحتال فيه.

إنَّ النظام الطبيعي في كلِّ الحيوانات حتى في السّمك والهوام، إلا أنثى العنكبوت، إنَّ النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً، والإنسان يأكل الإنسان. ومن غريزة سائر الحيوان أن يلتمس الرّزق من الله؛ أي من مورده الطبيعي،

(١) الإلجاء: جَعْلُ المال لبعض الوَرَثَة دون الآخرين (ك).

وهذا الإنسان الظّالم نفسه حريصٌ على اختطافه من يد أخيه، بل من فيه، بل كم أكل الإنسان الإنسان!

الاستبداد والإنسان

عاش الإنسان دهراً طويلاً يتلذذ بلحم الإنسان ويتلمَّظ بدمائه، إلى أن تمكَّن الحكماء في الصّين، ثمَّ الهند من إبطال أكل اللحم كليّاً، سدَّاً للباب، كما هو دأبهم إلى الآن. ثمَّ جاءت الشرائع الدينية الأولى في غربي آسيا بتخصيص ما يؤكل من الإنسان بأسير الحرب، ثمَّ بالقربان يُنذَر للمعبود، ويُذبَح على يد الكهان. ثمَّ أُبطِل أكلُ لحم القربان، وجُعِل طعمة للنيران، وهكذا تدرَّج الإنسان إلى نسيان لذَّة لحم إخوانه، وما كان لينسى عبادة إهراق الدِّماء لولا إبراهيم شيخ الأنبياء استبدل قربان البشر بالحيوان، واتَّبعه موسى عليهما السلام، وبه جاء الإسلام. وهكذا بطل هذا العدوان بهذا الشكل إلا في أواسط أفريقيا عند (النامنام) [1].

الاستبداد المشؤوم لم يرضَ أن يقتل الإنسان الإنسان ذبحاً ليأكل لحمه أكلاً كما كان يفعل الهمج الأولون، بل تفنَّن في الظلم، فالمستبدّون يأسرون جماعتهم، ويذبحونهم فصداً بمبضع الظلم، ويمتصون دماء حياتهم بغصب أموالهم، ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم، أو بغصب ثمرات أتعابهم. وهكذا لا فرق بين الأولين والآخرين في نهب الأعمار وإزهاق الأرواح إلا في الشكل.

إنَّ بحث الاستبداد والمال بحثٌ قويُّ العلاقة بالظُّلم القائم في فطرة الإنسان، ولهذا؛ رأيت أن لا بأس في الاستطراد لمقدِّمات تتعلَّق نتائجها بالاستبداد السياسي، فمن ذلك:

إنَّ البشر المقدَّر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون[2] نصفهم كَلٌّ[3]

---

(١) قبائل إفريقية يُقال إنَّها من أَكَلَة لحوم البشر.

(٢) هذا تقدير يعود إلى أواخر القرن التّاسع عشر.

(٣) عالة.

علـى النّصـف الآخـر، ويشـكِّل أكثريـة هـذا النصـف الكَـلّ نسـاء المـدن. ومـن النّساء؟ النّساء هنَّ النّوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنَّه هو الحافظ لبقاء الجنس، وأنَّه يكفي للألف منه ملقح واحد، وإنَّ باقي الذكور حظهم أن يُساقوا للمخـاطر والمشـاقّ، أو هم يستحقّون مـا يستحقُّه ذكـر النحـل[١]، وبهذا النظـر اقتسمت النساء مع الذكور أعمال الحياة قسمةً ضيزى[٢]، وتحكَّمْن بسنٍّ قانونٍ عام؛ به جعلن نصيبهنَّ هيِّن الأشغال بدعوى الضّعف، وجعلن نوعهنَّ مطلوباً عزيزاً بإيهام العفّة، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهنَّ محمدتين في الرجال، وجعلن نوعهنَّ يُهين ولا يُهان، ويظلم أو يُظلَم فيُعان؛ وعلـى هذا القانون يربِّين البنـات والبنـين، ويتلاعبن بعقول الرِّجـال كمـا يشـأن حتـى أنهـن جعلـن الـذكور يتوهمـون أنَّهـن أجمـل مـنهم صـورةً. والحاصـل أنَّـه قـد أصـاب مـن سـمَّاهنَّ بالنصف المضرِّ! ومن المشاهد أنَّ ضـرر النساء بالرجال يترقّـى مـع الحضـارة والمدنيـة علـى نسـبة التَّرقـي المضـاعف. فالبدويـة تشـارك الرجـل مناصـفةً فـي الأعمال والثمرات، فتعيش كما يعيش، والحضرية تسلب الرّجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثـلاث. وتُعينـه فـي أعمـال البيت. والمدنيـة تسلب ثلاثـة من أربعـة، وتـودُّ أن لا تخـرج مـن الفـراش، وهكـذا تترقَّـى بنـات العواصـم فـي أسـر الرِّجـال. ومـا أصـدق بالمدنيـة الحاضـرة فـي أوروبـا؛ أن تسمّـى المدنيـة النسـائية، لأنَّ الرِّجال فيها صاروا أنعاماً للنِّسـاء.

ثـمَّ إنَّ الرِّجـال تقاسـموا مشـاقَّ الحيـاة قسـمةً ظالمـةً أيضـاً، فـإنَّ أهـل السياسـة والأديـان ومـن يلتحـق بهـم – وعـددهم لا يبلـغ الخمسـة فـي المائـة – يتمتعـون بنصـف مـا يتجمَّـد فـي دم البشـر أو زيـادة، يُنفقـون ذلـك فـي الرَّفـه والإسراف، مثال ذلك: أنَّهم يزيِّنون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحيانـاً متـراوحين بـين الملاهـي والمـواخير ولا يفكِّـرون فـي ملايـين مـن الفقـراء

---

(١) تقتله الإناث بعد التلقيح.

(٢) جائرة.

يعيشون في بيوتهم في ظلام.

ثمَّ أهل الصنائع النفيسة والكمالية، والتجار الشَّرهون المحتكرون وأمثال هذه الطبقة –ويقدَّرون كذلك بخمسة في المائة– يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصُّنّاع والزُّرّاع. وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظّالمة هي الاستبداد لا غيره. وهناك أصناف من النّاس لا يعملون إلا قليلاً، إنما يعيشون بالحيلة كالسماسرة والمشعوذين باسم الأدب أو الدين، وهؤلاء يُقدَّرون بخمسة عشر في المائة، أو يزيدون على أولئك.

نعم؛ لا يقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظلِّ الحائط، ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت، بل تقتضي الإنسانية أن يأخذ الراقي بيد السّافل، فيقرِّبه من منزلته، ويقاربه من منزلته، ويُقاربه في معيشته، ويعينه على الاستقلال في حياته.

لا! لا! لا يطلب الفقير معاونة الغني، إنما يرجوه أن لا يظلمه، ولا يلتمس منه الرّحمة، إنما يلتمس العدالة، لا يؤمِّل منه الإنصاف، إنما يسأله أن لا يُميته في ميدان مزاحمة الحياة.

بَسَطَ المولى –جلّت حكمته– سلطان الإنسان على الأكوان، فطغى، وبغى، ونسي ربَّه وعبد المال والجمال، وجعلهما منيته ومبتغاه، كأنَّه خُلق خادماً لبطنه وعضوه فقط، لا شأن له غير الغذاء والتّحاك. وبالنظر إلى أنَّ المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر أكبر همٍّ للإنسان في جمع المال، ولهذا يُكنَّى عنه بمعبود الأمم وبسرِّ الوجود، وروى كريسكوا المؤرِّخ الروسي: إنَّ كاترينا[1] شكت كسل رعيّتها، فأرشدها شيطانُها إلى حمل النِّساء

(١) في الغالب، الكواكبي يخلط بين اثنتين:

كاترينا الثانية (١٧٢٩ – ١٧٩٦ م) المعروفة بكاترينا الكبيرة. إمبراطورة روسيا (١٧٦٢ – ١٧٩٦ م) خلعت زوجها بطرس الثالث واستولت على الحكم، واشتهرت بانتصاراتها على الأتراك وبحمايتها الفلاسفة والعلماء.

على الخلاعة، ففعلت وأحدثت كسوة المراقص، فهبَّ الشبّان للعمل وكسب المال لصرفه على ربّات الجمال، وفي ظرف خمس سنين؛ تضاعف دخل خزينتها، فاتَّسع لها مجال الإسراف. وهكذا المستبدّون لا تهمهم الأخلاق، إنَّما يهمهم المال.

المال عند الاقتصاديين: ما ينتفع به الإنسان، وعند الحقوقيين: ما يجري فيه المنع والبذل؛ وعند السياسيين: ما تُستعاض به القوة؛ وعند الأخلاقيين: ما تُحفظ به الحياة الشريفة. المال يستمدُّ من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها، ولا يملك؛ أي لا يتخصص بإنسان، إلا بعمل فيه أو في مقابله.

والمقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما وهما: تحصيل لذّة أو دفع ألم، وفيهما تنحصر كلُّ مقاصد الإنسان، وعليهما مبنى أحكام الشرائع كلها، والحاكم المعتدل في طيّب المال وخبيثه؛ هو الوجدان الذي خلقه الله صبغةً للنّفس، وعبَّر عنه القرآن بإلهامها فجورها وتقواها[1]، فالوجدان خيَّر بين المال الحلال والمال الحرام.

ثمَّ إنَّ أعمال البشر في تحصيل المال ترجع إلى ثلاثة أصول: ١- استحضاره المواد الأصلية. ٢- تهيئته المواد للانتفاع. ٣- توزيعها على الناس. وهي الأصول التي تسمّى بالزراعة والصناعة والتجارة، وكلُّ وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية، فهي وسائل ظالمة لا خير فيها.

التموُّل؛ أي ادِّخار المال، طبيعة في بعض أنواع الحيوانات الدنيئة كالنمل والنحل، ولا أثر له في الحيوانات المرتقية غير الإنسان. الإنسان تطبَّع على التموُّل لدواعي الحاجة المحقَّقة أو الموهومة، ولا تحقُّق للحاجة إلا عند

كاترينا مديتشي (١٥١٩ – ١٥٨٩ م) ملكة فرنسا التي أتقنت السياسة ومارستها دون رادع أخلاقي، فكانت سبباً في اضطرام الحروب الدينية، وفي المذابح التي رافقتها.

(١) إشارة إلى الآية الكريم: ﴿ فألهمها فجورها وتقواها الشمس ﴾: ٨.

سكان الأراضي الضيّقة الثمرات على أهلها، أو الأراضي المعرَّضة للقحط في بعض السنين، ويلتحق بالحاجة المحقَّقة حاجة العاجزين جسماً عن الارتزاق في البلاد المبتلاة بجور الطبيعة أو جور الاستبداد، وربما يلتحق بها أيضاً الصرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام.

والمراد بالانتظام العام، معيشة الاشتراك العمومي التي أسسها الإنجيل بتخصيصه عشر الأموال للمساكين، ولكن؛ لم يكد يخرج ذلك من القوة إلى الفعل، ثمَّ أحدث الإسلام سُنَّة الاشتراك على أتمِّ نظام، ولكن؛ لم تدم أيضاً أكثر من قرنٍ واحد كان فيه المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفّارات، وذلك أنَّ الإسلامية – كما سبق بيانه– أسست حكومة أرستقراطية المبنى، ديمقراطية الإدارة، فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة: إنَّ المال هو قيمة الأعمال، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغَلَبة والخداع.

فالعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ قسمٌ من مال ويُردّ على الفقراء؛ بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل. وهذه القاعدة يتمنّى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجي، وتسعى وراءها الآن جمعيات منهم منتظمة مكوَّنة من ملايين كثيرة. وهذه الجمعيات تقصد حصول التساوي أو التقارب في الحقوق المعاشية بين البشر، وتسعى ضدَّ الاستبداد المالي، فتطلب أنْ تكون الأراضي والأملاك الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة، وأنَّ الأعمال والثمرات تكون موزعة بوجوهٍ متقاربة بين الجميع، وأنَّ الحكومة تضع قوانين لكافة الشؤون حتى الجزئيات، وتقوم بتنفيذها.

وهذه الأصول مع بعض التعديل قررتها الإسلامية ديناً، وذلك أنها قررت:

أولاً– أنواع العشور والزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة

وأنواع المحتاجين حتى المدينين. ولا يخفى على المدققين أنَّ جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال يقارب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنها خمسة بالمائة سنوياً، وبهذا النظر يكون الأغنياء مضاربين للجماعة مناصفةً. وهكذا يلحق فقراء الأمة بأغنيائها، ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولِّدة للاستبداد، والمضرَّة بأخلاق الأفراد.

ثانياً- قررت أحكامٌ محكمة تمنع محذور التواكل في الارتزاق، وتُلزِم كلَّ فرد من الأمة متى اشتدَّ ساعده، أو ملك قوت يومه، أو النَّصّاب على الأكثر؛ أن يسعى لرزقه بنفسه، أو يموت الفرد جوعاً؛ إذا لم تكن حكومته مستبدّة تضرب على يده وسعيه ونشاطه بمدافع استبدادها، وقد قيل: يبدأ الانقياد للعمل عند نهاية الخوف من الحكومة ونهاية الاتّكال على الغير.

ثالثاً- قررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة، يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال.

رابعاً- جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كليّة تصلح للإحاطة بأحكام كافة الشؤون حتى الجزئية الشخصية، وأناطت تنفيذها بالحكومة، كما تطلبه أغلب جمعيات الاشتراكيين. على أنَّ هذا النظام الذي جاء به الإسلام، صعب الإجراء جداً، لأنَّه منوط بسيطرة الكلّ ورضاء النفوس، ولأنَّ القانون الكثير الفروع يتعذَّر حفظه بسيطاً، ويكون معرَّضاً للتأويل حسب الأغراض، وللاختلاف في تطبيقه حسب الأهواء، كما وقع فعلاً في المسلمين، فلم يمكنهم إجراء شريعتهم ببساطة وأمان إلا عهداً قليلاً، ثمَّ تشعَّبت معهم الأمور بطبيعة اتِّساع الملك واختلاف طبائع الأمم، وفَقَدَ الرجال الذين يمكنهم أن يسوقوا مئات ملايين من أجناس الناس: الأبيض والأصفر، والحضري والبدوي، بعصا واحدة قروناً عديدة.

ولا غَرْوَ إذا كانت المعيشة الاشتراكية من أبدع ما يتصوَّره العقل،

ولكن؛ مع الأسف لم يبلغ البشر بعد الترقّي ما يكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكبيرة. وكم جرَّبت الأمم ذلك فلم تنجح فيها إلا الأمم الصغيرة مدة قليلة. والسبب كما تقدَّم هو مجرّد صعوبة التحليل والتركيب بين الصوالح والمصالح الكثيرة المختلفة. والمتأمِّل في عدم انتظام حالة العائلات الكبيرة، يقنع حالاً بأنَّ التكافل والتضامن غير ميسورين في الأمم الكبيرة؛ ولهذا يكون خير حلٍّ مقدور للمسألة الاجتماعية هو ما يأتي:

١- يكون الإنسان حرّاً مستقلاًّ في شؤونه، كأنه خُلِق وحده.

٢- تكون العائلة مستقلة، كأنها أمة وحدها.

٣- تكون القرية أو المدينة مستقلة كأنها قارّة واحدة لا علاقة لها بغيرها.

٤- تكون القبائل في الشعب أو الأقاليم في المملكة كأنها أفلاك؛ كلٌّ منها مستقلٌّ في ذاته، لا يربطها بمركز نظامها الاجتماعي؛ وهو الجنس أو الدين أو الملك غير محض التجاذب المانع من الوقوع في نظام آخر لا يلائم طبائع حياتها.

ثمَّ إنَّ التموُّل لأجل الحاجات السالفة الذِّكر وبقدرها فقط محمودة بثلاثة شروط، وإلاّ كان التموّل من أقبح الخصال:

الشرط الأول: أن يكون المال بوجه مشروع حلال؛ أي بإحرازه من بذل الطبيعة، أو بالمعاوضة، أي في مقابل عمل، أو في مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيله الشرائع المدنية.

والشرط الثاني: أن لا يكون في التموّل تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصنّاع والعمال الضعفاء، أو التغلُّب على المباحات؛ مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته، وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها، وتغذّيهم بثمراتها، وتأويهم في حضن أجزائها، فجاء المستبدّون الظالمون الأولون ووضعوا أصولاً لحمايتها من أبنائها

وحالوا بينهما. فهذه إيرلندة –مثلاً– قد حماها ألف مستبدّ مالي من الإنكليز، ليتمتعوا بثلثي أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خُلِقوا من تربة إيرلندة. وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مالاً، وكم من البشر في أوربا المتمدنة، وخصوصاً في لندرة وباريس، لا يجد أحدهم أرضاً ينام عليها متمدداً، بل ينامون في الطبقة السفلى من البيوت؛ حيث لا ينام البقر، وهم قاعدون صفوفاً يعتمدون بصدورهم على حبالٍ من مسد منصوبة أفقية يتلوون عليها يمنةً ويسرة.

وحكومة الصين المختلّة النظام في نظر المتمدنين، لا تجيز قوانينها أن يمتلك الشّخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلومتراً مربعاً؛ أي نحو خمسة أفدن مصرية أو ثلاثة عشر دونماً عثمانياً. وروسيا المستبدّة القاسية في عُرف أكثر الأوربيين وضعت –أخيراً– لولايتها البولونية الغربية قانوناً أشبه بقانون الصين، وزادت عليه أنَّها منعت سماع دعوى دينٍ مسجّل على فلاح، ولا تأذن لفلاحٍ أن يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك. وحكومات الشّرق إذا لم تستدرك الأمر فتضع قانوناً من قبيل قانون روسيا، تصبح الأراضي الزراعية بعد خمسين عاماً أو قرن على الأكثر كإيرلندة الإنكليزية المسكينة، التي وجدت لها في مدى ثلاثة قرون شخصاً واحداً حاول أن يرحمها فلم يُفلح؛ وأعني به غلادستون[1]، على أنَّ الشرق ربما لا يجد في ثلاثين قرناً من يلتمس له الرَّحمة.

والشرط الثالث لجواز التمّول، هو: ألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير، لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، وهذا معنى الآية: ﴿كلا إنَّ الإنسان ليطغى*أن رآه استغنى﴾[2]، والشرائع السماوية كلُّها، وكذلك

---

(١) وليم إيوارت غلادستون (١٨٠٩ – ١٨٩٨ م) سياسي بريطاني. استلم مناصب عديدة ووزارات كثيرة، ثم أصبح رئيساً للوزراء أربع مرَّات. اعتنق مبدأ حرية التجارة، وكان خطيباً. له عدد من الكتب..

(٢) العلق: ٦ – ٧.

الحكمة الأخلاقية والعمرانية حرَّمت الربا؛ صيانةً لأخلاق المرابين من الفساد، لأنَّ الربا: هو كسب بدون مقابل مادي؛ ففيه معنى الغصب، وبدون عمل؛ لأنَّ المرابي يكسب وهو نائم؛ ففيه الأُلفة على البطالة، ومن دون تعرُّض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك؛ ففيه النماء المطلق المؤدي لانحصار الثروات. ومن القواعد الاقتصادية المتَّفق عليها أنْ ليس من كسب لا عار ولا احتكار فيه أربح من الربا مهما كان معتدلاً، وأنَّ بالربا تربو الثروات فيختلُّ التساوي أو التقارب بين النّاس.

وقد نظر الماليّون وبعض الاقتصاديين من أنصار الاستبداد في أمر الرِّبا، فقالوا: إنَّ المعتدل منه نافع، بل لا بدَّ منه. أولاً: لأجل قيام المعاملات الكبيرة، وثانياً: لأجل أنَّ النقود الموجودة لا تكفي للتداول، فكيف إذا أمسك المكتنزون قسماً منها أيضاً؟! وثالثاً: لأجل أنَّ كثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرون عليها، كما أنَّ كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤوس أموال ولا شركاء عنان. فهذا النظر صحيح من وجه إنماء ثروات بعض الأفراد. أما السياسيون الاشتراكيو المبادئ والأخلاقيون، فينظرون إلى أنَّ ضرر الثروات الأفرادية في جمهور الأمم أكبر من نفعها. لأنها تمكِّن الاستبداد الداخلي، فتجعل الناس صنفين: عبيداً وأسياداً[١]، وتقوّي الاستبداد الخارجي، فتسهِّل للأمم التي تغنى بغناء أفرادها التعدّي على حرية استقلال الأمم الضعيفة. وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة؛ ولذلك يقتضي تحريم الرِّبا تحريماً مغلَّظاً.

حِرْص التموُّل، وهو الطمع القبيح، يخفُّ كثيراً عند أهالي الحكومات العادلة المنتظمة ما لم يكن فساد الأخلاق منغلباً على الأهالي، كأكثر الأمم المتمدِّنة في عهدنا؛ لأنَّ فساد الأخلاق يزيد في الميل إلى التموُّل في نسبة

(١) كذا في الأصل، والصواب: (سادة) لأنَّ (أسياد) تعني: ذئاب.

الحاجة الإسرافية، ولكنَّ تحصيل الثروة الطائلة في عهد الحكومة العادلة عسيرٌ جداً، وقد لا يتأتى إلا من طريق المراباة مع الأمم المنحطّة، أو التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار، أو الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات، على أنَّ هذه الصعوبة تكون مقرونة بلذّة عظيمة من نوع لذّة من يأكل ما طبخ، أو يسكن ما بنى.

وحِرْص التموّل القبيح يشتدُّ في رؤوس الناس في عهد الحكومات المستبدِّة؛ حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال، وبالتعدّي على الحقوق العامة، وبغصب ما في أيدي الضعفاء، ورأس مال ذلك هو أنْ يترك الإنسان الدِّين والوجدان والحياء جانباً وينحطَّ في أخلاقه إلى ملائمة المستبدّ الأعظم، أو أحد أعوانه وعماله، ويكفيه وسيلةً أن يتّصل بباب أحدهم ويتقرَّب من أعتابه، ويظهر له أنَّه في الأخلاق من أمثاله وعلى شاكلته، ويبرهن له ذلك بأشياء من التملُّق وشهادة الزور، وخدمة الشهوات، والتجسس، والدلالة على السّلب ونحو ذلك. ثمَّ قد يطلع هذا المنتسب على بعض الخفايا والأسرار التي يخاف رجال الاستبداد من ظهورها خوفاً حقيقياً أو وهمياً، فيكسب المنتسب رسوخ القدم ويصير هو باباً لغيره، وهكذا يحصل على الثروة الطائلة إذا ساعدته الظروف على الثّبات طويلاً. وهذا أعظم أبواب الثروة في الشرق والغرب، ويليه الاتِّجار بالدّين، ثمَّ الملاهي، ثمَّ الربا الفاحش، وهي بئس المكاسب وبئس ما تؤثِّر في إفساد أخلاق الأمم.

وقد ذكر المدققون أنَّ ثروة بعض الأفراد في الحكومات العادلة أضرّ كثيراً منها في الحكومات المستبدَّة؛ لأنَّ الأغنياء في الأولى يصرفون قوّتهم المالية في إفساد أخلاق الناس وإخلال المساواة وإيجاد الاستبداد، أمّا الأغنياء في الحكومات المستبدّة فيصرفون ثروتهم في الأبَّهة والتعاظم إرهاباً للناس، وتعويضاً للسّفالة المنصبّة عليهم بالتغالي الباطل، ويسرفون الأموال في الفسق والفجور.

بناءً عليه؛ ثروة هؤلاء يتعجّلها الزوال؛ حيث يغصبها الأقوى منهم من الأضعف، وقد يسلبها المستبدُّ الأعظم في لحظةٍ وبكلمة. وتزول أيضاً – والحمد لله– قبل أن يتعلّم أصحابها أو ورثتهم كيف تُحفظ الثروات، وكيف تنمو، وكيف يستعبدون بها الناس استعباداً أصولياً مستحكماً، كما هو الحال في أوربا المتمدنة المهدَّدة بشروط الفوضويين[1] بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالي فيها.

ومن طبائع الاستبداد أنَّه لا يظهر فيه أثرُ فقر الأمة ظهوراً بياناً إلا فجأةً قُرَيب قضاء الاستبداد نحبه. وأسباب ذلك أنَّ الناس يقتصدون في النسل، وتكثر وفياتهم، ويكثر تغرّبهم، ويبيعون أملاكهم من الأجانب، فتتقلّص الثروة، وتكثر النقود بين الأيدي. وبئست من ثروة ونقود تشبه نشوة المذبوح.

ولنرجع إلى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فأقول: إنَّ الاستبداد يجعل المال في أيدي الناس عرضةً لسلب المستبدّ وأعوانه وعمّاله غصباً، أو بحجةٍ باطلة، وعرضةً أيضاً لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظلِّ أمان الإدارة الاستبدادية. وحيث المال لا يُحصَل إلا بالمشقّة، فلا تختار النفوس الإقدام على المتاعب مع عدم المنِّ على الانتفاع بالثمرة.

حِفْظُ المال في عهد الإدارة المستبدّة أصعب من كسبه؛ لأنَّ ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه، ولذلك يُضطر الناس زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله والتّظاهر بالفقر والفاقة، ولهذا ورد في أمثال الأُسراء أنَّ حفظ درهم من الذهب يحتاج إلى قنطار من العقل، وأنَّ العاقل من يخفي ذهبه

(١) الفوضوية مذهب سياسي واقتصادي مُتطرّف، يرى دُعاته أنَّ الدولة هي أداة الاستبداد في كل نظام اجتماعي، وأن الملكية الفردية مبعث الظلم. من قادة هذا المذهب في القرن التاسع عشر: وليم جودون – برودون – باكونين –كروبوتكين.
ويرى بعض هؤلاء وجوب الرجوع إلى العقل والعلم في تنظيم العلاقات الاجتماعية. وربما يقصد الكواكبي: شرور بدلاً من شروط.

وذهابه ومذهبه، وأنَّ أسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكّام ولا يعرفونه.

ومن طبائع الاستبداد، أنَّ الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتاده عملاً، فهم ربائط المستبدِّ، يذلُّهم فيئنّون، ويستدرّهم فيحنّون، ولهذا يرسخ الذلُّ في الأمم التي يكثر أغنياؤها. أما الفقراء فيخافهم المستبدُّ خوف النعجة من الذئاب، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة، يقصد بذلك أن يغصب أيضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها. والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءةٍ ونذالة، خوف البغاث من العقاب، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلاً عن الإنكار، كأنهم يتوهَّمون أنَّ داخل رؤوسهم جواسيس عليهم. وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرّهم فعلاً رضاء المستبدِّ عنهم بأيِّ وجهٍ كان رضاؤه.

وقد خالف الأخلاقيون المتأخِّرون أسلافهم في قولهم، ليس الفقراء بعيب، فقالوا: الفقر أبو المعائب؛ لأنه مفتقرٌ للغير، والغناء استغناءٌ عن النّاس، ثمَّ قالوا: الفقر يذهب بعزّة النفس، ويفضي إلى خلع الحياء، وقالوا: إنَّ لحسن اللباس والأمتعة والتنعّم في المعيشة تأثيراً مهماً على نفوس البشر، خلافاً لمن يقول: ليس المرء بطيلسانه، وحديث (اخشوشنوا، فإن النعم لا تدوم) [1] هو لأنّه يحمل على التعوّد جسماً على المشاقّ في الحروب والأسفار وعند الحاجة. فقالوا: إنَّ رغد العيش ونعيمه لمن أعظم الحاجات، به تعلو الهمم، ولأجله تُقتَحم العظائم.

يُقال في مدح المال: إنَّ ما يحلُّ المشكلات الزمان والمال. القوة كانت للعصبية، ثمَّ صارت للعلم، ثمَّ صارت للمال. العلم والمال يُطيلان عمر الإنسان؛ حيث يجعلان شيخوخته كشبابه. لا يُصان الشّرف إلا بالدمّ، ولا يتأتى

(١) هذه الرواية هي المشهورة على الألسنة، ولكن المروي بكتب الحديث: تمعددوا واخشوشنوا رواه الطبراني وأبو نعيم الأصبهاني والبغوي وغيرهم. وفيه ضعف. ومعنى تمعددوا: اتبعوا معد بن عدنان في الفصاحة. ورواه أبو عبيد الغريب عن عمر موقوفاً "اخشوشنوا وتمعددوا، واجعلوا الرأس رأسين"

ينظر: العجلوني، كشف الخفاء..، ج١، ص ٥٢١، برقم (٣١٩٩).

العزُّ إلا بالمال. وقد مضى مجد الرجال وجاء مجد المال. وورد في الأثر: إنَّ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى[1]. وأنَّ الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر[2]. ولم يكن قديماً أهمية للثروة العمومية، أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبة وعلم ومال، فأصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لأجل حفظ الاستقلال، على أنَّ الأمم المأسورة لا نصيب لها من الثروة العمومية، بل منزلتها في المجتمع الإنساني كأنعام تتناقلها الأيدي، ولا تعارض هذه القاعدة ثروة اليهود؛ لأنها ثروة غير مزاحمين عليها، لأنها فيما يقوله أعداؤه فيها: ثروة رأسمالها الناموس، ومصرفها الملاهي والمقامرة والربا والغشّ والمضاربات، ولا يخلو هذا القول من التحامل عليهم حسداً ممن يقدمون إقدامهم ولا ينالون منالهم[3].

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والكمال، الذين يفضلون الكفاف من الرِّزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسّرف، وينظرون إلى المال الزائد عن الحاجة الكمالية أنّه بلاء في بلاء في بلاء؛ أي أنّه بلاءٌ من حيث الافتكار بإنمائه، وأما المكتفي فيعيش مطمئناً مستريحاً أميناً[4] بعض الأمن على دينه وشرفه وأخلاقه.

قرر الأخلاقيون أنَّ الإنسان لا يكون حراً تماماً ما لم تكن له صنعة مستقلٌّ فيها؛ أي غير مرؤوس لأحد، لأن حريته الشخصية تكون تابعة لارتباطه بالرؤساء. وعليه تكون أقبح الوظائف هي وظائف الحكومة. وقالوا: إنَّ للصنعة تأثيراً في الأخلاق والأميال، وهي من أصدق ما يُستَدلُّ به على

---

(١) رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن ابن عمر بزيادة (واليد العليا هي المنفقة، اليسد السفلى هي السائلة) والشيخان عن حكيم بن حزام بزيادة (وابدأ بمن تعول).

(٢) لمن نعثر عليه في كتب الحديث الشريف.

(٣) وهذا الكلام كان قبل تَوَضُّح معالم القضية الفلسطينية والأطماع الصهيونية في فلسطين.

(٤) آمناً.

أحوال الأفراد والأقوام. فالموظفون في الحكومة مثلاً يفقدون الشفقة والعواطف العالية تبعاً لصنعتهم التي من مقتضاها عدم الشعور بتبعة أعمالهم، وقال الحكماء: إنَّ العاجز يجمع المال بالتقتير، والكريم يجمعه بالكسب، وقالوا: إنَّ أقل كسب يرضى به العاقل ما يكفي معاشه باقتصاد، وقالوا: خير المال ما يكفي صاحبه ذلّ القلة وطغيان الكثرة. وهذا معنى الحديث (فاز المخففون) [1] وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرزق) [2]. ويُقال: الغنى غنى القلب، والغني من قلَّت حاجته، والغني من استغنى عن الناس. وقال بعض الحكماء: كلُّ إنسانٍ فقير بالطبع ينقصه مثل ما يملك، فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجاً لعشرة أخرى، ومن يملك ألفاً يرى نفسه محتاجاً لألفٍ أخرى. وهذا معنى الحديث: (لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان) [3].

ولا يقصد الأخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه، إنما يقصدون أن لا يتجاوز كسبه بالطرائق الطبيعية الشريفة. أما السياسيون فلا يهمهم إلا أن تستغني الرعية بأي وسيلة كانت، والغربيون منهم يُعينون الأمة على الكسب ليشاركوها، والشرقيون لا يفتكرون في غير سلب الموجود، وهذه من جملة الفروق بين الاستبدادين الغربي والشرقي، التي منها أنَّ الاستبداد الغربي يكون أحكم وأرسخ وأشدّ وطأةً، ولكنْ؛ مع اللّين، والشرقي يكون مقلقلاً سريع الزوال، ولكنّه يكون مزعجاً. ومنها أنَّ الاستبداد الغربي إذا زال تبدّل بحكومة عادلة تُقيم ما ساعدت الظروف أن تقيم، أما الشرقي فيزول ويخلفه

---

(١) هو بمعنى الحديث المروي عن الرسول ﷺ: "أمامكم عقبة كؤود لا يجوزها المثقلون، فأنا أريد أنْ أتخفَّفَ لتلك العَقَبة"، فهو جزء من حيدث رواه الحاكم، وصحح إسناده الطبراني وأبو نعيم في الحلية، بألفاظ متقاربة، وكلنه لم يثبت بلفظ (فاز المخفون) وانفرد القاري به. ينظر: العجلوني، كشف الخفاء..، ج٢، ص ٥٢١، برقم (١٨٢١).

(٢) ورد في صحيح مسلم: الزهد "اللهم ارزق محمداً ﷺ كفافاً".

(٣) رواه: مسلم: الزكاة، البخاري: الرقاق، الترمذي: الزهد.

وورد في كشف الخفاء: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على مَنْ تاب". رواه الشيخان والترمذي وأبو عوانة وغيرهم، بألفاظ متقاربة، عن أنس مرفوعاً، واتفقا عليه عن ابن عباس.

استبداد شرٌّ منه؛ لأنَّ من دأب الشرقيين أن لا يفتكروا في مستقبل قريب، كأنَّ أكبر همهم منصرف إلى ما بعد الموت فقط، أو أنهم مبتلون بقصر النظر.

وخلاصة القول: إنَّ الاستبداد داءٌ أشدُّ وطأةً من الوباء، أكثر هولاً من الحريق، أعظم تخريباً من السّيل، أذلُّ للنفوس من السؤال. داءٌ إذا نزل بقومٍ سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي القضاء القضاء، والأرض تناجي ربّها بكشف البلاء. الاستبداد عهدٌ؛ أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء، وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجّلون الموت فيحسدهم الأحياء.

الاستبداد والأخلاق

الاستبداد يتصرَّف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيُضعفها، أو يُفسدها، أو يمحوها، فيجعل الإنسان يكفر بنِعَم مولاه؛ لأنه لم يملكها حقّ الملك ليحمده عليها حقّ الحمد، ويجعله حاقداً على قومه؛ لأنهم عونٌ لبلاء الاستبداد عليه، وفاقداً حبّ وطنه؛ لأنَّه غير آمن على الاستقرار فيه، ويودُّ لو انتقل منه، وضعيف الحبِّ لعائلته؛ لأنه يعلم منهم أنَّهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يُضطرّون لإضرار صديقهم، بل وقتله وهم باكون. أسيرُ الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه؛ لأنَّه لا يملك مالاً غير معرَّض للسّلب ولا شرفاً غير معرَّض للإهانة. ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها.

وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذةً نعيم، غير بعض الملذّات البهيمية. بناءً عليه؛ يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإنْ كانت تعيسة، وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها؟! أين هو من الحياة الأدبية؟! أين هو من الحياة الاجتماعية؟! أمَّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم، أو كشف عن بصيرته.

ومثال الأسراء في حرصهم على حياتهم الشيوخ، فإنَّهم عندما تمسي حياتهم كلُّها أسقاماً وآلاماً ويقربون من أبواب القبور، يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب في مقتبل العمر، في مقتبل الملاذ، في مقتبل الآمال.

الاستبداد يسلب الرّاحة الفكرية، فيضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء، فتمرض العقول، ويختلُّ الشعور على درجات متفاوتة في الناس. والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر، في كلِّ ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية.

ويصل تسفُّل إدراكهم إلى أنَّ مجرّد آثار الأبَّهة والعظمة التي يرونها على المستبدّ وأعوانه تبهر أبصارهم، ومجرّد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم، فيرون ويفكرون أنَّ الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب؛ حيث هي تجري على قدميها جاهدةً إلى مقرِّ حتفها.

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة فضلاً عن الأجسام فيفسدها كما يريد، ويتغلّب على تلك الأذهان الضئيلة، فيشوش فيها الحقائق، بل البديهيات كما يهوى، فيكون مَثَلُهم في انقيادهم الأعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والإرشاد، مثل تلك الهوام التي تترامى على النار، وكم هي تغالب من يريد حجزها على الهلاك. ولا غرابة في تأثير ضعف الأجسام على الضعف في العقول، فإنَّ في المرضى وخفّة عقولهم، وذوي العاهات ونقص إدراكهم، شاهداً بيّناً كافياً يُقاس عليه نقص عقول الأُسراء البؤساء بالنسبة إلى الأحرار السعداء، كما يظهر الحال أيضاً بأقلّ فرق بين الفئتين، من الفرق البيّن في قوة الأجسام وغزارة الدّم واستحكام الصحة وجمال الهيئات.

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يُتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد، من أنَّ الاستبداد المشؤوم كيف يقوم على قلب الحقائق، مع أنَّه إذا دقّق النظر يتجلى له أنَّ الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان. يرى أنَّه كم مكّن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم فاتَّبعهم الناس. ويرى أنَّ الناس وضعوا الحكومات لأجل خدمتهم، والاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة، فقبلوا وقنعوا. ويرى أنَّ الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أنَّ طالب الحقِّ فاجرٌ، وتارك حقّه مطيع، والمشتكي المتظلِّم مفسد، والنّبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح أمين. وقد اتَّبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولاً، والغيرة عداوة، والشّهامة عتوّاً، والحمية حماقة، والرحمة مرضاً، كما جاروه على اعتبار أنَّ النِّفاق سياسة،

والتحيُّل كياسة، والدناءة لطف، والنذالة دماثة.

ولا غرابة في تحكُّم الاستبداد على الحقائق في أفكار البسطاء، إنما الغريب إغفاله كثيراً من العقلاء، ومنهم جمهور المؤرِّخين الذين يُسمّون الفاتحين الغالبين بالرِّجال العظام، وينظرون إليهم نظر الإجلال والاحترام لمجرّد أنَّهم كانوا أكثر في قتل الإنسان، وأسرفوا في تخريب العمران. ومن هذا القبيل في الغرابة إعلاء المؤرِّخين قدر من جاروا المستبدين، وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين. وكذلك افتخار الأخلاق بأسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الأعوان الأشرار.

وقد يظنُّ بعض الناس أنَّ للاستبداد حسناتٍ مفقودة في الإدارة الحرّة، فيقولون مثلاً: الاستبداد يليّن الطباع ويلطِّفها، والحقُّ أنَّ ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة. ويقولون: الاستبداد يُعلِّم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبر، والحقُّ أنَّ هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن اختيارٍ وإذعان. ويقولون: هو يربّي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحقُّ أنْ ليس هناك غير انكماشٍ وتقهقر. ويقولون: الاستبداد يقلل الفسق والفجور، والحقُّ أنَّه عن فقر وعجر، لا عن عفّةٍ أو دين. ويقولون: هو يقلل التعديات والجرائم، والحقُّ أنَّه يمنع ظهورها ويخفيها، فيقلُّ تعديدها لا عدادها.

الأخلاق أثمار بذرها الوراثة، وتربتها التربية، وسُقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناءً عليه؛ تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر.

نعم: الأقوام كالآجام، إن تُرِكت مهملة تزاحمت أشجارها وأفلاذها، وسقُم أكثرها، وتغلَّب قويّها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحِّشة. وإن صادفت بستانياً يهمه بقاؤها وزهوها فدبّرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسُنت ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة. وإذا بُليت ببستانيٍّ جدير

بأن يسمّى حطّاباً لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخرّبها، وهذا مثل الحكومة المستبدّة. ومتى كان الحطّاب غريباً لم يُخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار، إنّما همّه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطّامة وهناك البوار. فبناءً على هذا المثال، يكون فِعلُ الاستبداد في أخلاق الأمم فِعل ذلك الحطّاب الذي لا يُرجى منه غير الإفساد.

لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن ملكة مُطردة على قانون فطري تقتضيه أولاً وظيفة الإنسان نحو نفسه؛ وثانياً وظيفته نحو عائلته؛ وثالثاً وظيفته نحو قومه؛ ورابعاً وظيفته نحو الإنسانية؛ وهذا القانون هو ما يسمّى عند الناس بالناموس.

ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس، وهو كالحيوان المملوك العنان، يُقاد حيث يُراد، ويعيش كالريش، يهبُّ، حيث يهبُّ الريح، لا نظام ولا إرادة؟ وما هي الإرادة؟ هي أمُّ الأخلاق، هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها: لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة! هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النّبات في تعريفه بأنّه متحرك بالإرادة. فالأسير، إذن، دون الحيوان لأنّه يتحرّك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه. ولهذا قال الفقهاء: لا نيّة للرقيق في كثير من أحواله، إنما هو تابع لنيّة مولاه. وقد يُعذر الأسير على فساد أخلاقه؛ لأنَّ فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلاً وشرعاً.

أسير الاستبداد لا نظام في حياته، فلا نظام في أخلاقه، قد يصبح غنياً فيضحي شجاعاً كريماً، وقد يمسي فقيراً فيبيت جباناً خسيساً، وهكذا كلُّ شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة. أليس الأسير قد يُرهق، ويسيء كثيراً فيُعفى، وقليلاً فيُشنق، ويجوع يوماً فيضوى، ويخصب يوماً فيتخم، يريد أشياء فيُمنَع، ويأبى شيئاً فيُرغم؟! وهكذا يعيش كما تقتضيه الصُّدف أن يعيش، ومن كانت هذه حاله كيف يكون له أخلاق، وإنْ وجد ابتداء

يتعذر استمراره عليه؟! ولهذا لا تجوّز الحكمة الحُكمَ على الأسراء بخيرٍ أو شرّ.

أقلُّ ما يؤثّره الاستبداد في أخلاق الناس، أنَّه يرغم حتى الأخيار منهم على إلفة الرّياء والنفاق ولبئس السيّئتان، وإنه يعين الأشرار على إجراء غيّ نفوسهم آمنين من كلِّ تبعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح، لأنَّ أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شرّ وعقبى ذكر الفاجر بما فيه. ولهذا، شاعت بين الأسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وقولهم: البلاء موكولٌ بالمنطق. وقد تغالى وعّاظهم في سدِّ أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحِكَم النبوية، وكم هجوا لهم الهجو والغيبة بلا قيد، فهم يقرؤون: ﴿لا يحبُّ اللهُ الجهر بالسّوء من القول﴾ ويغفلون بقية الآية، وهي: ﴿إلاّ من ظُلِم﴾[1].

أقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ؛ أي بحرص الأفراد على حراسة نظام الاجتماع، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في عهد الاستبداد لغير ذوي المنعة وقليل ما هم، وقليلاً ما يفعلون، وقليلاً ما يفيد نهيهم؛ لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضرراً ولا نفعاً، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً، ولأنَّه ينحصر موضوع نهيهم فيما لا تخفى قباحته على أحدٍ من الرّذائل النفسية الشخصية فقط، ومع ذلك فالجسور لا يرى بُدّاً من الاستثناء المخلِّ للقواعد العامة كقوله: السّرقة قبيحة إلا إذا كانت استرداداً منها، والكذب حرام إلا للمظلوم. والموظَّفون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد يكونون –مطلقاً– ولا أقول غالباً، من المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتملّق، وما أبعد هؤلاء عن التأثير، لأنَّ النصح الذي لا إخلاص فيه

---

(١) النساء: ١٤٨.

هو بذر عقيم لا ينبت، وإنْ نبت كان رياءً كأصله، ثمَّ إنَّ النُّصح لا يفيد شيئاً إذا لم يصادف أذناً تتطلّب سماعه؛ لأنَّ النصيحة وإن كانت عن إخلاص فهي لا تتجاوز حُكْمَ البذر الحيّ: إنْ أُلقي في أرضٍ صالحة نبت، وإن أُلقي في أرضٍ قاحلة مات.

أمّا النهي عن المنكرات في الإدارة الحرة، فيمكن لكلِّ غيورٍ على نظام قومه أن يقوم به بأمانٍ وإخلاص، وأن يوجِّه سهام قوارصه على الضعفاء والأقوياء سواء، فلا يخصُّ بها الفقير المجروح الفؤاد، بل تستهدف أيضاً ذوي الشّوكة والعناد. وأنْ يخوض في كلِّ وادٍ حتى في مواضيع تخفيف الظُّلم ومؤاخذة الحُكّام، وهذا هو النصح الإنكاري الذي يُعدي ويُجدي، والذي أطلق عليه النّبي عليه السلام اسم (الدّين) تعظيماً لشأنه، فقال: "الدين النصيحة"[(١)].

لمّا كان ضبطُ أخلاق الطبقات العليا من النّاس أهم الأمور، أطلقت الأمم الحرّة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنيةً القذف فقط، ورأت أن تحمل مضرَّة الفوضى في ذلك خير التحديد؛ لأنَّه لا مانع للحكّام أنْ يجعلوا الشّعرة من التقييد سلسلة من حديد، ويخنقون بها عدوّتهم الطبيعة، أي الحريّة. وقد حمى القرآن قاعدة الإطلاق بقوله الكريم: ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيد﴾[(٢)].

الخصال تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الخصال الحسنة الطبيعية، كالصدق والأمانة والهمّة والمدافعة والرحمة، والقبيحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة، وهذا

---

(١) البخاري: الإيمان، مسلم: الإيمان، أبو داود: الأدب، الترمذي: البر، النسائي: البيعة، الدارمي: الرقاق، ابن حنبل: ١/٣٥١، ٢/٢٩٧، إلخ.

وورد في كشف الخفاء "الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" رواه مسلم عن تميم الداري مرفوعاً، وفي الباب عن جماعة، وعزاه في الجامع الصغير للبخاري في التاريخ عن ثوبان مقتصراً على صدره.

يُنظر: العجلوني، كشف الخفاء..، ج١، ص ٤٩٨، برقم ١٣٢٤.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

القسم تضافرت عليه كلُّ الطبائع والشرائع.

والنوع الثاني: الخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الإلهامية، كتحسين الإيثار والعفو وتقبيح الزنى والطمع؛ وهذا القسم يوجد فيه ما لا تدرك كلُّ العقول حكمته أو حكمة تعميمه، فيمثّله المنتسبون للدّين احتراماً أو خوفاً.

والنوع الثالث: الخصال الاعتيادية، وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو بالإلفة، فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله ما لم يُضطرّ إلى التحوّل عنها.

ثمَّ إنَّ التدقيق يفيد أنَّ الأقسام تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها في بعض، فيصير مجموعها تحت تأثير الإلفة المديدة، بحيث كلُّ خصلة منها ترسخ أو تتزلزل، حسبما يصادفها من استمرار الإلفة أو انقطاعها، فالقاتل –مثلاً– لا يستنكر شنيعته في المرّة الثانية كما استقبحها في نفسه في الأولى، وهكذا يخفُّ الجرم في وهمه، حتى يصل إلى درجة التلذذ بالقتل، كأنّه حقٌّ طبيعي له، كما هي حالة الجبّارين وغالب السياسيين، الذين لا ترتجُّ في أفئدتهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفراداً أو أمماً لغاياتهم السياسية، إهراقاً بالسيف أو إزهاقاً بالقلم، ولا فرق بين القتل بقطع الأوداج وبين الإماتة بإيراث الشقاء غير التسريع والإبطاء.

أسير الاستبداد العريق فيه يرث شرَّ الخصال، ويتربّى على أشرِّها، ولا بدَّ أن يصحبه بعضها مدى العمر. بناءً عليه؛ ما أبعده عن خصال الكمال! ويكفيه مفسدةً لكلِّ الخصال الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرّياء اضطراراً حتى لا يألفه ويصير مَلَكةً فيه، فيفقد بسبب ثقته نفسه بنفسه، لأنَّه لا يجد خُلُقاً مستقرّاً فيه، فلا يمكنه، مثلاً، أن يجزم بأمانته، أو يضمن ثباته على أمرٍ من الأمور، فيعيش سيئ الظنّ في حقِّ ذاته متردداً في أعماله، لوّاماً نفسه على إهماله شؤونه، شاعراً بفتور همَّته ونقص مروءته، ويبقى طول عمره جاهلاً مورد هذا الخلل، فيتَّهم الخالق،والخالقُ –جلَّ شأنه– لم يُنقصه شيئاً.

ويتَّهم تارةً دينه، وتارةً تربيته، وتارةً زمانه، وتارةً قومه، والحقيقة بعيدة عن كلِّ ذلك، وما الحقيقة غير أنّه خُلق حرّاً فأُسر.

أجمع الأخلاقيون على أنَّ المتلبِّس بشائبةٍ من أصول القبائح الخلقية لا يمكنه أن يقطع بسلامة غيره منها، وهذا معنى: "إذا ساءت فِعال المرء ساءت ظنونه"(١). فالمرائي –مثلاً– ليس من شأنه أن يظنَّ البراءة في غيره من شائبة الرياء، إلاّ إذا بَعُدَ تشابه النشأة بينهما بُعداً كبيراً، كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس أو الدّين أو تفاوت مهمٌّ في المنزلة كصعلوك وأمير كبير. ومثال ذلك الشرقيّ الخائن، يأمن الإفرنجي في معاملته، ويثق بوزنه وحسبانه، ولا يأمن ويثق بابن جلدته. وكذلك الإفرنجي الخائن قد يأمن الشرقي، ولا يأمن مطلقاً ابن جنسه. وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضاً؛ أي أنَّ الأمين يظنُّ الناس أمناء خصوصاً أشباهه في النشأة، وهذا معنى "الكريم يُخدَع"، وكم يذهل الأمين في نفسه عن اتِّباع حكمة الحزم في إساءة الظنِّ في مواقعه اللازمة.

إذا علمنا أنَّ من طبيعة الاستبداد ألفة الناس بعض الأخلاق الرديئة، وأنَّ منها ما يُضعف الثِّقة بالنفس، علمنا سبب قلة أهل العمل وأهل العزائم في السّراء، وعلمنا أيضاً حكمة فقد الأُسراء ثقتهم بعضهم ببعض. فينتج من ذلك أنَّ الأُسراء محرومون –طبعاً– من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة،يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين، والعاقل الحكيم لا يلومهم، بل يشفق عليهم، ويلتمس لهم مخرجاً. ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل: ربِّ ارحم قومي، فإنهم لا يعلمون"، "اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون"(٢).

وهنا أستوقف المطالع وأستلفته إلى التأمّل في ما هي ثمرة الاشتراك

---

(١) الجملة شطر من بيت من البحر الطويل، من قصيدة للمتنبي: والبيت هو:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدّق ما يعتاده من توهُّم

(٢) تُنظر: السيرة النبوية لابن هشام.

التي يحرمها الأسراء، فأذكره بأنَّ الاشتراك هو أعظم سرٍّ في الكائنات، به قيام كلِّ شيء ما عدا الله وحده. به قيام الأجرام السماوية؛ به قيام كلِّ حياة؛ به قيام المواليد؛ به قيام الأجناس والأنواع؛ به قيام الأمم والقبائل؛ به قيام العائلات؛ به تعاون الأعضاء. نعم، الاشتراك فيه سرٌّ تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع؛ فيه سرُّ الاستمرار على الأعمال التي لا تفي بها أعمار الأفراد. نعم؛ الاشتراك هو السرُّ كلُّ السرّ في نجاح الأمم المتمدنة. به أكملوا ناموس حياتهم القومية، به ضبطوا نظام حكوماتهم، به قاموا بعظائم الأمور، به نالوا كل ما يغبطهم عليه أُسراء الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوَّقون إليه، ولكن؛ كلٌّ منهم يُبطن لغبن شركائه باتِّكاله عليهم عملاً، واستبداده عليهم رأياً، حتى صار من أمثالهم قولهم: "ما من متَّفقين إلا واحدهما مغلوبٌ للآخر".

ورُبَّ قائلٍ يقول إنَّ سرَّ الاشتراك ليس بالأمر الخفيّ، وقد طالما كتب اليابانيين والبوير، فما السبب؟ فأجيبه بأنَّ الكُتَّاب كتبوا وأكثروا وأحسنوا فيما فصّلوا وصوّروا، ولكنْ؛ قاتل الله الاستبداد وشؤمه، جعل الكتّاب يحصرون أقوالهم في الدعوة إلى الاشتراك، وما بمعناه من التعاون والاتحاد والتحابب والاتِّفاق، ومنعهم من التعرُّض لذكر أسباب التفرّق والانحلال كليّاً، أو اضطرهم إلى الاقتصار على بيان الأسباب الأخيرة فقط. فمن قائلٍ مثلاً: الشرق مريضٌ وسببه الجهل، ومن قائلٍ: الجهل بلاء وسببه قلّة المدارس، ومن قائلٍ: قلّة المدارس عارٌ وسببه عدم التعاون على إنشائها من قبل الأفراد أو من قبل ذوي الشأن.

وهذا أعمق ما يخطُّه قلم الكاتب الشرقي كأنّه وصل إلى السبب المانع الطبيعي أو الاختياري. والحقيقة، أنَّ هناك سلسلة أسباب أخرى حلقتها الأولى الاستبداد.

وكاتب آخر يقول: الشرق مريض وسببه فقد التمسّك بالدين، ثمَّ يقف، مع أنَّه لو تتبَّع الأسباب لبلغ إلى الحكم بأنَّ التهاون في الدين أولاً وآخراً ناشئ

مـن الاسـتبداد. وآخـر يقـول: إنَّ السـبب فسـاد الأخـلاق، وغيـره يـرى أنّـه فقد التربيـة، وسـواء ظـنَّ أنَّـه الكسـل، والحقيقـة أنَّ المرجـع الأول فـي الكـلّ هـو الاستبداد، الذي يمنع حتى أولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيب[١].

وقد اتَّفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات، على أنَّ فساد الأخلاق يُخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب، وأنَّ معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة والعزم القوي، وذكروا أنَّ فساد الأخلاق يعمُّ المستبدَّ وأعوانه وعماله، ثمَّ يدخل بالعدوى إلى كلّ البيوت، ولا سيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثَّل بها السفلى. وهكذا يغشو الفساد، وتمسي الأمة يبكيها المحبُّ ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عياء يتعاصى على الدواء.

وقد سلك الأنبياء عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق، مسلك الابتداء أولاً بفكِّ العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه. وذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه وجدان كلُّ إنسان، ثمَّ جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته؛ أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدّوا منابع الفساد.

ثمَّ بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنَّه مكلَّف بقانون الإنسانية، ومطالب بحسن الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبثّ التربية التهذيبية.

والحكماء السياسيون الأقدمون اتَّبعوا الأنبياء -عليهم السلام- في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب؛ أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر، ثمَّ باتِّباع طريق التربية والتهذيب بدون فتورٍ ولا انقطاع.

أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب، فمنهم فئة سلكوا طريقة

---

(١) في الفقرات السابقة إشارة إلى آراء المؤتمرين في (أم القرى) مما يُعَزّز القول: إنَّ هذا الكتاب جاء بعد (أم القرى).

الخروج بأممهم من حظيرة الدين وآدابه النفسية، إلى فضاء الإطلاق وتربية الطبيعة، زاعمين أنَّ الفطرة في الإنسان أهدى سبيلاً، وحاجته إلى النظام تغنيه عن إعانة الدين، التي هي كالمخدرات سموم تعطِّل الحسَّ بالهموم، ثمّ تذهب بالحياة، فيكون ضررها أكبر من نفعها.

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك، أنَّهم وجدوا أممهم قد فشا فيها نور العلم، ذلك العلم الذي كان منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والآشوريين، ومحتَكَراً في أبناء الأشراف عند الغرناطيين والرومان، ومخصصاً في أعداد من الشّبان المنتخبين عند الهنديين واليونان، حتى جاء العرب بعد الإسلام، وأطلقوا حرية العلم، وأباحوا تناوله لكلِّ متعلم، فانتقل إلى أوربا حراً على رغم رجال الدين، فتنوَّرت به عقول الأمم على درجات، وفي نسبتها ترقَّت الأمم في النعيم، وانتشرت وتخالطت، وصار المتأخِّر منها يغبط المتقدِّم ويتنغَّص من حالته، ويتطلَّب اللحاق، ويبحث عن وسائله. فنشأ من ذلك حركة قوية في الأفكار، وحركة معرفة الخير والغيرة على نواله، حركة معرفة الشرّ والأَنَفَة من الصبر عليه، حركة السير إلى الأمام رغم كلِّ معارض. اغتنم زعماء الحرية في الغرب قوة هذه الحركة وأضافوا إليها قوات أدبية شتّى، كاستبدالهم ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية، حتى إنَّهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناء خليعة تختلب النفوس. وكاستبدالهم رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك في الشؤون العمومية، ذلك الاشتراك الذي يتولّد منه حبُّ الوطن. وهكذا جعلوا قوة حركة الأفكار تياراً سلّطوه على رؤوس الرؤوس من أهل السياسة والدين. ثمَّ إنَّ هؤلاء الزعماء استباحوا القساوة أيضاً، فأخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرر الواسطة) [1]، كجواز السرقة إذا كانت الغاية من صرف المال في سبيل الخير، وقاعدة (تثقيل الذمة يبيح الفعل

---

(١) وهي قاعدة بنى عليها ميكافيلي كتاب (الأمير).

القبيح) كشهادة الزور على ذمّة الكاهن التي يتحمَّل عنها خطيئتها، ودفعوا الناس بهما إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي تقشعرُّ منها الإنسانية، التي لا يستبيحها الحكيم الشرقي لما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق من التباين في الغرائز والأخلاق.

الغربي: ماديُّ الحياة، قويُّ النفس، شديد المعاملة، حريصٌ على الانتقام، كأنَّه لم يبقَ عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق. فالجرماني مثلاً: جاف الطبع، يرى أنَّ العضو الضعيف من البشر يستحق الموت، ويرى كلَّ فضيلة في القوة، وكلَّ القوة في المال، فهو يحبُّ العلم، ولكن، لأجل المال؛ ويحبُّ المجد، ولكن لأجل المال. وهذا اللاتيني مطبوع على العجب والطيش، يرى العقل في الإطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشّرف في التّرف، والكياسة في الكسب، والعزّ في الغلبة، واللذَّة في المائدة والفراش.

أما أهل الشرق فهم أدبيون، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحبِّ، والإصغاء للوجدان، والميل للرّحمة ولو في غير موقعها، واللُّطف ولو مع الخصم. ويرون العزَّ في الفتوة والمروءة، والغنى في القناعة والفضيلة، والراحة في الأنس والسّكينة، واللذة في الكرم والتحبب، وهم يغضبون، ولكن؛ للدين فقط، ويغارون، ولكن؛ على العِرْض فقط.

ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريقٍ واحدة، فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي، وإن تكلَّف تقليده في أمر فلا يُحسن التقليد، وإن أحسنه فلا يثبت، وإن ثبت فلا يعرف استثماره، حتى لو سقطت الثمرة في كفِّه تمنّى لو قفزت على فمه!.. فالشرقي مثلاً يهتمُّ في شأن ظالمه إلى أن يزول عنه ظلمه، ثمَّ لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه، فيقع في الظلم ثانيةً، فيعيد الكرّة ويعود الظلم إلى ما لا نهاية. وكأولئك الباطنة في الإسلام: فتكوا بمئات أمراء على غير طائل، كأنَّهم لم يسمعوا بالحكمة النبوية:

"لا يُلدَغ المرء من جُحرٍ مرتين"، ولا بالحكمة القرآنية" ﴿إنَّ الله يحبُّ المتَّقين﴾[1]. أما الغربي إذا أخذ على يد ظالمه فلا يفلته حتى يشلَّها، بل حتى يقطعها ويكوي مقطعها.

وهكذا بين الشرقيين والغربيين فروقٍ كثيرة، قد يفضل في الإفراديات الشرقي على الغربي، وفي الاجتماعيات يفضل الغربي على الشرقي مطلقاً. مثال ذلك: الغربيون يستحلفون أميرهم على الصداقة في خدمته لهم والتزام القانون. والسلطان الشرقي يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة! الغربيون يَمنّون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم، والأمراء الشرقيون يتكرَّمون على من شاؤوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات! الغربي يعتبر نفسه مالكاً لجزءٍ مشاع من وطنه، والشرقيّ يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكاً لأميره! الغربي له على أميره حقوق، وليس عليه حقوق؛ والشرقي عليه لأميره حقوق وليس له حقوق! الغربيون يضعون قانوناً لأميرهم يسري عليه، والشرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم! الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله؛ والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتي المستعبدين! الشرقي سريع التصديق، والغربي ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس. الشرقي أكثر ما يغار على الفروج كأنَّ شرفه كلّه مستودَعٌ فيها، والغربي أكثر ما يغار على حريته واستقلاله! الشرقي حريصٌ على الدين والرياء فيه، والغربي حريصٌ على القوة والعزّ والمزيد فيهما! والخلاصة: أنَّ الشرقي ابن الماضي والخيال، والغربي ابن المستقبل والجد!...

الحكماء المتأخرون الغربيون ساعدتهم ظروف الزمان والمكان، وخصوصية الأحوال، لاختصار الطريق فسلكوه، واستباحوا ما استباحوا، حتى إنَّهم استباحوا في التمهيد السياسي تشجيع أعوان المستبدَّ على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليه، وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا

---

(١) التوبة: ٤.

المراد أو بعضه، من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنساناً.

وقد سبق هؤلاء الغُلاة فئة اتَّبعت أثر النبيين، ولم تحفل بطول الطريق وتعبه، فنجحت ورسخت، وأعني بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدينٍ جديد، ولا تمسّكوا بمعاداة كلِّ دين، كمؤسسي جمهورية الفرنسيس، بل رتقوا فُتوق الدّهر في دينهم بما نقَّحوا، وهذَّبوا، وسهَّلوا، وقرَّبوا، حتى جدَّدوه، وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاق الأمة[1].

وما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين وغيرهم، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المرائين الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء. فيجددون النّظر في الدّين، نظر من لا يحفل بغير الحقِّ الصريح، نظر من لا يضيع النتائج بتشويش المقدمات، نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة، نظر من يريد وجه ربِّه لا استمالة الناس إليه، وبذلك يعيدون النواقص المعطَّلة في الدين، ويهذِّبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادةً على كلِّ دينٍ يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين البريء من حيث تمليك الإرادة ورفع البلادة من كل ما يشين، المخفِّف شقاء الاستبداد والاستعباد، المبصِّر بطرائق التعليم والتعلّم الصحيحين، المهيّئ قيام التربية الحسنة واستقرار الأخلاق المنتظمة مما به يصير الإنسان إنساناً، وبه لا بالكفر يعيش الناس إخواناً.

والشرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن المجد والعزم، مرتاحين للهو والهزل تسكيناً لآلام إسارة النفس، وإخلاداً إلى الخمول والتسفُّل، طلباً لراحة الفكر المضغوط عليه من كلِّ جانب، يتألمون من تذكيرهم بالحقائق، ومطالبتهم بالوظائف، ينتظرون زوال العناد بالتواكل، أو مجرد التمنّي والدعاء. أو يتربصون صدفة مثل التي نالتها بعض الأمم، فليتوقّعوا إذن

---

(١) ما يلي منها.

أن يفقدوا الدين كلياً، فيمسوا -وما مساؤهم ببعيد- دهريين[١]، لا يدرون أي الحياتين أشقى، فلينظروا ما حاق بالآشوريين[٢] والفينيقيين[٣] وغيرهم من الأمم المنقرضة المندمجة في غيرها خدماً وخَوَلاً[٤].

والأمر الغريب، أنَّ كلَّ الأمم المنحطّة من جميع الأديان تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسُّك بعروة الدين تمسكاً مكيناً، ويريدون بالدين العبادة، ولنِعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً، لكنه لا يفيد أبداً؛ لأنه قولٌ لا يمكن أن يكون وراءه فعل، وذلك أنَّ الدين بذرٌ جيد لا شبهة فيه، فإذا صدقت مغرساً طيباً نبت ونما، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات، أو أرضاً مغراقاً هاف الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حدِّهما المشروع أضرُّ على الأمة من نقصهما كما هو مشاهد في المتنسكين.

نعم! الدين يفيد الترقّي الاجتماعي إذا صادف أخلاقاً فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، تلك النهضة التي نتطلبها منذ ألف عام عبثاً.

وقد علَّمنا هذا الدهر الطويل -مع الأسف- أنَّ أكثر الناس لا يحفلون بالدين إلا إذا وافق أغراضهم، أو لهواً ورياءً، وعلمنا أنَّ الناس عبيد منافعهم وعبيد الزمان، وأنَّ العقل لا يفيد العزم عندهم، إنما العزم عندهم يتولّد من

(١) اسم يُطلق على الذين جحدوا الخالق، وقالوا بِقِدَم الدهر الذي يدور عليه مذهبهم.

(٢) شعب إمبراطورية آشور القديمة التي قامت بغربي آسيا حول مدينة آشور الواقعة في أعالي نهر جدلة. ثمَّ تدمرت على أيدي الميديين (٦١٢ ق.م) وآلت أملاك آشور إلى الإمبراطورية الفارسية.

(٣) قوم يتكلمون السامية، استقروا في فينيقيا، واتَّبعوا نظام دولة المدينة. كانت أكبر مدنهم صور وصيدا. امتدَّ استعمارهم إلى اسبانيا والبرتغال وقرطاجة. خضعوا للحكم المصري، ثم استقلوا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد حتى الفتح الآشوري (٨٧٦ ق.م). اخترعوا حروف الكتابة. ثم خضعوا للفرس في القرن السادس قبل الميلاد، وخدموهم كما خدموا الإغريق.

(٤) الخَوَل: العبيد. (ك).

الضرورة أو يحصل بالسائق المجبر. ولا يستحي الناس من أن يُلزموا أنفسهم باليمين أو النذر. بناءً عليه؛ ما أجدر بالأمم المنحطّة أن تلتمس دواءها من طريق إحياء العلم وإحياء الهمة مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل: ﴿إِنَّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1]، لا أن يتَّكِلوا على أنَّ الصلاة تمنع الناس عنهما بطبعها.

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

الاستبداد والتربية

خلـق اللهُ فـي الإنسـان اسـتعداداً للصـلاح واسـتعداداً للفسـاد، فـأبواه يصلحانه، وأبواه يفسدانه؛ أي إنَّ التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ. وقد سبق أنَّ الاستبداد المشؤوم يؤثِّر على الأجسام فيورثها الأسقام، ويسطو على النفوس، فيفسد الأخلاق، ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم. بناءً عليه؛ تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج، فكلُّ ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته، وهل يتمُّ بناءٌ وراءه هاد؟

الإنسـان لا حـدَّ لغايتيـه رقيّـاً وانحطاطـاً. وهـذا الإنسـان الـذي حـارت العقـول فيـه، الـذي تحمَّل أمانـة تربيـة الـنَّفس، وقـد أبتهـا العـوالم، فـأتمَّ خالقـه استعداده، ثمَّ أوكله لخيرته[1]، فهو إن يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة، وإن شاء تلبَّس بالرَّذائل حتى أحطّ من الشياطين، على أنَّ الإنسان أقرب للشرِّ منه للخير. وكفى أنَّ الله ما ذكر الإنسان في القرآن، إلا وقرن اسمه بوصفٍ قبيح كظلوم وغرور وكفّار وجبّار وجهول وأثيم. ما ذكر الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجاه، فقال: ﴿قُتِل الإنسانُ ما أكفره﴾[2]؛ ﴿إنَّ الإنسان لكفورٌ﴾[3]؛ ﴿إنَّ الإنسان لفي خُسرٍ﴾[4]؛ ﴿إنَّ الإنسان ليطغى﴾[5]؛ ﴿وكان الإنسان عَجولاً﴾[6]؛ ﴿خُلِق الإنسان من عَجَلٍ﴾[7]. ما وُجِد من

(١) اختياره.

(٢) عبس: ١٧.

(٣) الحج: ٦٦ . وردت في الأصل: (إنَّ الإنسان كان لربه كفوراً).

(٤) العصر: ٢.

(٥) العلق: ٦.

(٦) الإسراء: ١١. وردت في لاأصل: (خلق لاإنسان عجولاً).

(٧) الأنبياء: ٣٧.

مخلوقات الله من نازع الله في عظمته، والمستبدّون من الإنسان ينازعونه فيها، والمتناهون في الرّذالة قد يقبحون عبثاً لغير حاجة في النَّفس حتى وقد يتعمدون الإساءة لأنفسهم.

الإنسان في نشأته كالغصن الرَّطب، فهو مستقيمٌ لدِنٌ بطبعه، ولكنّها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشرّ، فإذا شبَّ يبس وبقي على أمياله ما دام حياً، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في نعيم السرور بإيفائه حقَّ وظيفة الحياة أو في جحيم الندم على تفريطه. وربما كان لا غرابة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالمرء الفرح الفخور إذا نام ولذَّت له الأحلام، أو بالمجرم الجاني إذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلُّها ملام وآلام.

التربية ملكةٌ تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس، فأهمُّ أصولها وجود المرابين، وأهمُّ فروعها وجود الدين. وجعلت الدين فرعاً لا أصلاً؛ لأنَّ الدين علمٌ لا يفيد العمل إذا لم يكن مقروناً بالتمرين. وهذا هو سبب اختلاف الأخلاف من علماء الدين عند الإسلام عن أمثالهم من البراهمة والنصارى، وهو سبب إقبال المسلمين في القرن الخامس، وفيما بعده، على قبول أصول الطرائق التي كانت لبّاً محضاً لما كانت تعليماً وتمريناً؛ أي تربية للمريدين، ثمَّ خالطها القشر، ثمَّ صارت قشراً محضاً، ثمَّ صار أكثرها لهواً أو كفراً.

ملكة التربية بعد حصولها إنْ كانت شراً تضافرت مع النّفس ووليها الشيطان الخنّاس[1] فرسخت، وإن كانت خيراً تبقى مقلقلة كالسفينة في بحر الأهواء، لا يرسو بها إلا فرعها الديني في السرِّ والعلانية، أو الوازع السياسي عند يقين العقاب.

والاستبداد ريحٌ صرصر فيه إعصار يجهل الإنسان كلّ ساعة شأنه، وهو مُفسِدٌ للدين في أهمِّ قسميه؛ أي الأخلاق، أما العبادات منه فلا يمسّها

(١) أحد ألقاب الشيطان، لأنَّه يخنس إذا ذُكر الله عَزَّ وجَلَّ، أي: ينقبض.

لأنها تلائمه أكثر. ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجرّدة صارت عادات، فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً، ولا تنهى عن فحشاء ولا منكر لفقد الإخلاص فيها تبعاً لفقده في النفوس، التي ألفت أن تتلجأ وتتلوّى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرّياء والخداع والنفاق، ولهذا لا يُستغرب في الأسير الأليف تلك الحال؛ أي الرّياء، أن يستعمله أيضاً مع ربِّه، ومع أبيه وأمِّه ومع قومه وجنسه، حتى ومع نفسه.

التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين، هي وظيفة الأم أو الحاضنة، ثمَّ تُضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معاً، ثمّ تُضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلِّمين والمدارس، ثمَّ تأتي تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزواج، وهي وظيفة الصُّدفة، ثمَّ تأتي تربية المقارنة، وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق.

ولا بدَّ أن تصحب التربية من بعد البلوغ، تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون أو سير السياسي، وتربية الإنسان نفسه.

الحكومات المنتظمة هي التي[1] تتولّى ملاحظة تسهيل تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء، وذلك بأن تسنّ قوانين النكاح، ثم تعتني بوجود القابلات والملقّحين[2] والأطباء، ثمَّ تفتح بيوت الأيتام اللقطاء، ثم تعدُّ المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب، ثمَّ تسهِّل الاجتماعات، وتمهِّد المسارح[3]، وتحمي المنتديات، وتجمع المكتبات والآثار، وتقيم النُّصب المذكرات، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق،

---

(١) على الأغلب، سقطت سهواً، لأنَّها مُثبتة في (ط.ق).

(٢) الممرضين.

(٣) في (ط.ق): المراسح.

وتسـهر علـى حفـظ العـادات القوميـة، وإنمـاء الإحساسـات المليـة[1]، وتقـوّي الآمال، وتيسِّر الأعمال، وتؤمِّن العاجزين فعلاً عن الكسب من الموت جوعاً، وتدفع سليمي الأجسام إلى الكسب ولو في أقصى الأرض، وتحمي الفضل وتقدِّر الفضيلة. وهكذا تلاحظ كلَّ شؤون المرء؛ ولكن، من بعيد، كي لا تخلّ بحريته واستقلاله الشخصي، فلا تقرب منه إلا إذا جنى جرماً لتعاقبه، أو مات لتواريه.

وهكذا، الأمة تحرص على أن يعيش ابنها راضياً بنصيبه من حياته لا يفتكر قطّ كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه، بل يموت مطمئناً راضياً مرضياً آخر دعائه: فلتحي الأمة، فلتحي الهمة.

أما المعيشة الفوضى في الإدارات المستبدّة فهي غنية عن التربية؛ لأنها محضٌ نماء يشبه الأشجار الطبيعية في الغابات والحراش، يسطو عليها الحرق والغرق. وتحطِّمها العواصف والأيدي القواصف، ويتصرَّف في فسائلها[2] وفروعها الفأس الأعمى، فتعيش ما شاءت رحمة الحطّابين أن تعيش، والخيار للصُّدفة تعوج أو تستقيم، تثمر أو تعقم.

يعيش الإنسان في ظلِّ العدالة والحرية نشيطاً على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله، إن طعم تلذَّذ، وإن تلهّى تروَّح وتريّض؛ لأنّه هكذا رأى أبويه وأقرباءه، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم. يراهم رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء، ملوكاً وصعاليك، كلُّهم دائبين على الأعمال، يفتخر منهم كاسب الدينار بكدِّه وجدّه، على مالك المليار إرثاً عن أبيه وجدِّه. نعم؛ يعيش العامل ناعم البال يسرُّه النجاح ولا تقبضه الخيبة، إنّما ينتقل من عملٍ إلى غيره، ومن فكرٍ إلى آخر، فيكون متلذذاً بآماله إنْ لم يسارعه السّعد في أعماله، وكيفما كان يبلغ العذر عن نفسه والناس بمجرد إيفائه وظيفة الحياة؛ أي العمل. ويكون

(١) في الأصل: المالية، وأثبتناها من (ط.ق).

(٢) مفردها: فسيلة: النّخلة الصغيرة تُقطع من الأم، أو تقلع من الأرض فتغرس، وجزء من النبات يفصل عنه ويغرس.

فرحاً فخوراً نجح أو لم ينجح، لأنَّه بريء من عار العجز والبطالة.

أما أسير الاستبداد، فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه، كأنَّه حريصٌ على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب. ويخطئ، والله من يظنُّ أنَّ أكثر الأسراء لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الأسر. مستدلاً بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا إلى إزالته، والحقيقة في ذلك أنهم يشعرون بأكثر الآلام ولكنهم لا يدركون ما هو سببها، ومن أين جاءتهم؟ فيرى أحدهم نفسه منقبضاً عن العمل، لأنه غير أمين على اختصاصه بالثمرة. وربما ظنَّ السّلب حقاً طبيعياً للأقوياء فيتمنّى أنْ لو كان منهم. ثمَّ يعمل تارةً، ولكن؛ بدون نشاط ولا إتقان، فيفشل ضرورةً، ولا يدري أيضاً ما السبب، فيغضب على ما يسمّيه سعداً أو حظاً أو طالعاً أو قدراً. والمسكين من أين له أن يعرف أنَّ النشاط والإتقان لا يتأتيان إلا مع لذة انتظار نجاح العمل، تلك اللذة التي قدَّر الحكماء أنَّها اللذة الكبرى، لاستمرار زمانها من حين العزم إلى تمام العمل، والأسير لا اطمئنان فيه على الاستمرار، ولا تشجيع له على الصبر والجلد.

الأسير المعذَّب المنتسب إلى دين يسلّي نفسه بالسعادة الأخروية، فيعدها بجنان ذات أفنان ونعيم مقيم أعدَّه له الرحمن، ويبعد عن فكره أنَّ الدنيا عنوان الآخرة، وأنَّ ربما كان خاسراً الصفقتين، بل ذلك هو الكائن غالباً. ولبسطاء الإسلام مسليات أظنُّها خاصّة بهم يعطفون مصائبهم عليها، وهي نحو قولهم: الدنيا سجن المؤمن، المؤمن مصاب، إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، هذا شأن آخر الزمان، حسب المرء لقيماتٍ يقمن صلبه. ويتناسون حديث: "إنَّ الله يكره العبد البطّال"(١)، والحديث المفيد معنى "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم

---

(١) حديث مشهور بهذا اللفظ، ويروى أيضاً: (يكره الرجل البطَّال). وهو حديث موضوع. قال الزّركشي: "لم أجده. ومعناه مروي في حديث آخر رواه الطبراني والبيهقي وغيرهما: "إنَّ الله يحبُّ العبد المؤمن المحترف".

يُنظر: العجلوني، كشف الخفاء..، ج١، ص ٢٩١، برقم ٧٦٣.

غرسةً فليغرسها"[1]، ويتغافلون عن النص القاطع المؤجّل قيام الساعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفتها وزينتها[2]. وأين ذلك بعد؟

وكلُّ هذه المسميات المثبطات تهون عند ذلك السمّ القاتل، الذي يحوّل الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء، فيرفع المسؤولية عن المستبدّين، ويلقيها على عاتق القضاء والقدر، بل على عاتق الأُسراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السمّ، فهم العوام، وبله[3] الخواص، لما ورد في التوراة من نحو: "اخضعوا للسلطان ولا سلطة إلا من الله"، و"الحاكم لا يتقلّد السيف جزافاً، إنه مقام للانتقام من أهل الشر"، ولما ورد في الرسائل[4] من نحو: فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله، وقد صاغ وعّاظ المسلمين ومحدِّثوهم من ذلك قولهم: "السلطان ظلُّ الله في الأرض"، و"الظالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه"، و"الملوك ملهمون". هذا وكلُّ ما ورد في هذا المعنى إنْ صحَّ فهو مقيّد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل، وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب، وهي: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾[5]، وآية ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾[6].

التربية علمٌ وعمل. وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها، أنْ يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها[7]. حتى إنَّ الباحث لا يرى عند الأسراء علماً في التربية مدفوناً في الكتب فضلاً عن الأذهان. أمّا العمل، فكيف يُتصوَّر وجوده بلا سبق عزم، وهو بلا سبق يقين، وهو بلا سبق علم. وقد ورد

---

(١) مسند ابن حنبل ٣/ص ١٨٤، ١٩١.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ يونس: ٢٤.

(٣) في (ط.ق): (بله الخواص) والمعنيان مختلفان، فهي بدون(و) تعني: ناهيك عن الخواص.

(٤) رسائل بولس الرسول، وعددها أربع عشرة رسالة، وهي من أسفار العهد الجديد.

(٥) هود: ١٨.

(٦) البقرة: ١٩٣. في الأصل:(ولا عدوان).

(٧) في (ط.ق): يعملها.

في الأثر "النيّة سابقة العمل". وورد في الحديث: "إنّما الأعمال بالنيّات"[١]. بناءً عليه؛ ما أبعد الناس المغصوبة إرادتهم، المغلولة أيديهم، عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية، أو توجيه الجسم إلى عملٍ نافع كتمرين الوجه على الحياء والقلب على الشفقة.

نعم؛ ما أبعد الأسراء عن الاستعداد لقبول التربية، وهي قصر النظر على المحاسن والعِبَر، وقصر السمع على الفوائد والحِكَم، وتعويد اللسان على قول الخير، وتعويد اليد على الإتقان، وتكبير النفس عن السفاسف، وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل، ورعاية الترتيب في الشؤون، ورعاية التوفير[٢] في الوقت والمال. والاندفاع بالكلّية لحفظ الشرف، لحفظ الحقوق، ولحماية الدين، لحماية الناموس، ولحبِّ الوطن، لحبِّ العائلة، ولإعانة العلم، لإعانة الضعيف، ولاحتقار الظالمين، لاحتقار الحياة. على غير ذلك مما لا ينبت إلا في أرض العدل، تحت سماء الحرية، في رياض التربيتين العائلية والقومية.

الاستبداد يُضطرُّ النّاس إلى استباحة الكذب والتحيُّل والخداع والنِّفاق والتذلل. وإلى مراغمة الحسِّ وإماتة النفس ونبذ الجدّ وترك العمل، إلى آخره. وينتج من ذلك أنَّ الاستبداد المشؤوم هو يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة. بناءً عليه، يرى الآباء أنَّ تعبهم في تربية الأبناء التربية الأولى على غير ذلك لا بدَّ أنْ يذهب عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد، كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم، أو تربية غيرهم لأبنائهم سدىً.

ثمَّ إنَّ عبيد السلطان التي لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم، ولا هم آمنون على أنَّهم يربّون أولادهم لهم. بل هم يربّون أنعاماً للمستبدّين، وأعواناً لهم عليهم. وفي الحقيقة، إنَّ الأولاد في عهد الاستبداد، هم سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف التضييق. فالتوالد من حيث

(١) مُتَّفق عليه.

(٢) في (ط.ق): الاقتصاد.

هو زمن الاستبداد حمق، والاعتناء بالتربية حمقٌ مضاعف! وقد قال الشاعر[1]:

إنْ دام هذا ولم تحدث له غِيَرٌ لم يُبكِ ميتٌ ولم يُفرح بمولودِ[2]

وغالب الأُسراء لا يدفعهم للزواج قصد التوالد، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم، وأنَّهم حتى الأغنياء منهم محرومون من كلِّ الملذّات الحقيقية: كلذّة العلم وتعليمه، ولذّة المجد والحماية، ولذّة الإيثار والبذل، ولذّة إحراز مقام في القلوب، ولذّة نفوذ الرأي الصائب، ولذّة كِبَر النفس عند السفاسف، إلى غير ذلك من الملذّات الروحية.

أما ملذّات هؤلاء التعساء فهي مقصورة على لذتين اثنتين؛ الأولى منها لذة الأكل، وهي جعلهم بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسَّرت، وإلا فمزابل للنباتات، أو بجعلهم أجسامهم في الوجود كما قيل: أنابيب بين المطبخ و(الكنيف) [3]، أو جعلها معامل لتجهيز الأخبثين. واللذّة الثانية هي الرّعشة باستفراغ الشهوة، كأن أجسامهم خلقت دمامل جرب على أديم الأرض، يطيب لها الحكّ ووظيفتها توليد الصديد ودفعه[4]. وهذا الشره البهيمي في البِعال[5] هو ما يعمي الأسراء ويرميهم بالزواج والتوالد.

العِرض - زمن الاستبداد - كسائر الحقوق غير مصون، بل هو معرَّض لهتك الفُسّاق من المستبدين والأشرار من أعوانهم، فإنهم، كما أخبر القرآن عن الفراعنة، يأسرون الأولاد ويستحيون النساء، خصوصاً في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعف أهلها. ومن الأمور المشاهدة أنَّ الأمم التي تقع

---

(١) شاعر: إضافة في: مخ. والشاعر مجهول.

(٢) البيت من البحر البسيط.

(٣) أي: المرحاض. (ك).

(٤) من أعراض مرض الجَرَب، الحكّ الدّائم.

(٥) الأزواج.

تحت أسر أمةٍ تغايرها في السيماء، لا يمضي عليها أجيال إلا وتغشو فيها سيماء الآسرين: كسواد العيون في الإسبانيول، وبياض البشرة في الأفريقيين. وعدم الاطمئنان على العِرض يُضعف الحبّ الذي لا يتمُّ إلا بالاختصاص، ويُضعف لصقة الأولاد بأزواج أمهاتهم، فتضعف الغَيرة على تحمّل مشاق التربية، تلك الغيرة التي لأجلها شرَّع الله النكاح، وحرَّم السِّفاح.

للسّعة والفقر أيضاً دخلٌ كبير في تسهيل التربية، وأين الأسراء من السّعة؟! كما أنَّ لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية، ومعيشة الأُسراء أغنياء كانوا أو معدمين، كلُّها خللٌ في خلل، وضيقٌ في ضيق، وذلك يجعل الأسير هيّن النفس، وهذا أول دركات الانحطاط، يرى ذاته لا يستحقُّ المزيد في النعيم مطعماً ومشرباً وملبساً ومسكناً، وهذا ثاني الدركات ويرى استعداده قاصراً عن الترقّي في العلم، وهذا ثالثها، ويرى حياته على بساطتها لا تقوى إلا بمعاونة غيره له، وهذا رابعها، وهلمَّ جرّا!.

بناءً عليه؛ ما أبعد الأُسراء عن النشاط للتربية، ثمَّ لماذا يتحمَّلون مشاقَّ التربية، وهم إنْ نوَّروا أولادهم بالعلم جنوا عليهم بتقوية إحساسهم، فيزيدونهم شقاءً، ويزيدونهم[1] بلاءً، ولهذا لا غرو أن يختار الأسراء الذين فيهم[2] بقية من الإدراك، ترك أولادهم هملاً تجرفهم البلاهة إلى حيث تشاء.

وإذا افتكرنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير، وكيف يتربَّى،نجد أنَّه يُلقَّح به، وفي الغالب أبواه متناكدان متشاكسان، ثمَّ إذا تحرَّك جنيناً حرَّك شراسة أمِّه فتشتمه، أو زاد آلام حياتها فتضربه، فإذا ما ضيَّقت عليه بطنها لإلفتها الانحناء[3] خمولاً والتصرُّر صغاراً، والتقلُّص لضيق فراش الفقر، ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً وجهلاً، فإذا تألَّم وبكى سدَّت فمه بثديها، أو

---

(١) في (ط.ح): ويزودونهم. (ط.ق): ويزيدونهم.

(٢) في (ط.ح): فيها. (ط.ق): فيهم.

(٣) في الأصل: الأنحاء.

قطعت[١] نفسه خضّاً أو بدوار السرير، أو سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب، فإذا ما فُطِم، يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته، ويفسد مزاجه، فإذا كان قوي البنية طويل العمر وترعرع، يُمنع من رياضة اللعب لضيق البيت، فإذا سأل واستفهم ماذا وما هذا ليتعلّم، يُزجَر ويلكم لضيق خُلُق أبويه، وإن جالسهما ليألف المعاشرة، وينتفي عنه التوجّس يبعدانه كي لا يقف على أسرارهما، فيسترقها منه الجيران الخلطاء، فتتمى أعوان الظالمين وما أكثرهم، فإذا قويت رجلاه يُدفع به إلى خارج الباب، إلى مدرسة الإلفة على القذارة، وتعلّم صيغ الشتائم والسباب، فإنْ عاش ونشأ وُضع في مكتب أو عند ذي صنعة، فيكون أكبر القصد ربطه عن السّراح والمراح. فإذا بلغ الشباب، ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يفرّ من مشاكلتهم في شقاء الحياة، ليجني هو على نسله كما جنى عليه أبواه، ثمَّ هو يتولى التضييق على نفسه بأطواق الجهل وقيود الخوف، ويتولى المستبدّون التضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله[٢].

وهكذا يعيش الأسير في حين يكون نسمة في ضيق وضغط، يهرول ما بين عتبة همٍّ ووادي غمٍّ، يودِّع سقماً ويستقبل سقماً إلى أن يفوز بنعمة الموت مضيعاً دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه.

وما أظلم من يؤاخذ الأُسَراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة. فالنظافة مثلاً: لماذا يهتم بها الأسير؟ هل لأجل صحَّته وهو في مرضٍ مستمرّ؟ أم لأجل لذَّته وهو المتألم كيفما تقلَّب جسمه أو نظره؟ أم لأجل ذوق من يجالس أو يؤاكل، وهو من عفَّت نفسه صحبة الحياة؟

ولا يظننَّ المطالع أنَّ حالة أغنياء الأُسَراء هي أقلُّ شراً من هذا؛ كلا، بل هم أشقى وأقلّ عافيةً، وأقصر عمراً من هذا، إذا نقصتهم بعض المنغِّصات، تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزّة والمنعة، تظاهراً إن صحَّ قليله

---

(١) قطعت: غير موجودة في (ط.ح).

(٢) نجد وصفاً مشابهاً عند كُلّ من: المعري، روسو، أديب إسحق.

فكثيره الكاذب حملٌ ثقيل على عواتقهم كالسكران يتصاحى فيُبتلى بالصداع، أو كالعاهرة البائسة تتضاحك لترضي الزاني.

حياة الأسير تشبه حياة النائم المزعوج بالأحلام، فهي حياة لا روح فيها، حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم فقط، ولا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية، وبناءً على هذا؛ كان فاقد الحرية لا أنانية[1] له لأنه ميتٌ بالنسبة لنفسه، حيٌّ بالنسبة لغيره؛ كأنَّه لا شيء في ذاته، إنَّما هو شيء بالإضافة. ومن كان وجوده في الوجود بهذه الصورة وهي الفناء في المستبدين، حقَّ له أن لا يشعر بوظيفة شخصية فضلاً عن وظيفة اجتماعية. ولولا أنْ ليس في الكون شيء غير تابع لنظام حتى الجماد، حتى فلتات الطبيعة والصُّدف التي هي مسببات لأسباب نادرة، لحكمنا بأنَّ معيشة الأسراء هي محض فوضى، لا شبه فوضى.

على أنَّ التدقيق العميق، يفيدنا بأنَّ للأسراء، قوانين غريبة في مقاومة الفناء يصعب ضبطها وتعريفها، إنما الأسير يرضعها مع لبن أمه، ويتربَى عليها، وقد يبدع فيها بسائق الحاجة، ويكون منهم الحاذق فيها علماً، الماهر في تطبيقها عملاً، هو الموفَّق في ميدان حرب الحياة مع الذل، كالهنود واليهود. والعاجز عنها، إمّا جاهل هذا القانون أو العاجز فطرةً عن اتِّباعه كالعرب مثلاً، فلا يخرج عن كونه كرة يلعب بها صبيان الاستبداد، تارةً يضربون بها الأرض أو الحيطان، وأما إذا كان عجزه كما يقال عن عرق هاشمي، أي عن شيءٍ من كرامة نفس أو قوة إحساس أو جسارة جنان، فيكون كالحجارة تتكسَّر ولا تلين.

قوانين حياة الأسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به، التي تضطره لأن يطبق إحساساته عليها، ويدبِّر نفسه على موجبها، وذلك نحو مقابلة التجبُّر

---

(١) لا يشعر بذات مُستقلَّة.

عليـه بالتـذلل والتّصــاغر، وتعـديل الشـدة عليـه بـالتلاين والمطاوعـة، وإعطـاء المطلوب منه بعد قليلٍ من التمنُّع، ولو أنَّ المطلوب هو ابنه لمجزرة الجندية أو ابنتـه لفراش شيخٍ شرير، والمطالبـة فـي الحقوق بصـفة استعطاف كأنَّـه طالـب صدقة، وكسب المعاش مع شكاية الحاجـة، وحِفظ المال بإخفائـه عن الأعين، والتعامي عن زلاّت المستبدين، والتصامم عن سماع ما يُهان به، والتظاهر بفقد الحسّ أو تعطيله بالمخدرات القوية كالأفيون والحشيش، وتعطيل العقل بالتّباله وستر العلم بالتجاهل، والارتداء بالتدين والرياء، وتعويد اللسان على الزّلاقة في عبائر التصـاغر والتملّق، وعزو كلّ خير إلـى فضـل المستبدين حتـى إذا كـان الخير طبيعياً نحو مطر السماء، فعزوه إلى يُمن الحكام أو دعاء الكهنة. ويسند كلَّ شرٍّ ولو من نوع التسلُّط على الأعراض، على الاستحقاق من جانب الله. إلـى غير ذلك من أحكام ذلك القانون، الذي رؤوس مسائله فقط تملّ القارئ فضلاً عن تفصيلاتها.

إنَّ أخوف ما يخافه الأسير هو أن يظهر عليه أثر نعمة الله في الجسم أو المال، فتصيبه عين الجواسيس (وهذا أصل عقيدة إصابة العين) [١]! أو أن يظهر له شأن في علمٍ أو جاهٍ أو نعمةٍ مهمة، فيسعى به حاسدوه إلى المستبدِّ (وهذا أصل شر الحسد الذي يُتعوَّذ منه)! وقد يتحيّل الأسير على حفظ ماله الـذي لا يمكنـه إخفـاؤه كالزوجـة الجميلـة، أو الدابـة الثمينـة، أو الـدار الكبيـرة، فيحميها بإسناد الشؤم، (وهذا أصل التشاؤم بالأقدام والنواصي والأعتاب).

ومـن غريـب الأحـوال أنَّ الأُسـراء يبغضـون المسـتبدَّ، ولا يقـوون علـى استعمالهم معـه البـأس الطبيعـي الموجـود فـي الإنسـان إذا غضـب، فيصـرفون بأسهم في وجهة أخرى ظلماً: فيُعادون من بينهم فئـةً مستضعفةً، أو الغربـاء، أو يظلمون نساءهم ونحو ذلك. ومَثَلُهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية، إذا أريد منها

(١) الحسد.

الحراسة والشراسة، فأصحابها يربطونها نهاراً ويطلقونها ليلاً فتصير شرسة عقورة، وبهذا التعليل تعلَّل جسارة الأسراء أحياناً في محارباتهم، لا أنها جسارة عن شجاعة. وأحياناً تكون جسارة الأسراء عن التناهي في الجبانة أمام المستبدِّ الذي يسوقهم إلى الموت، فيطيعونه انذعاراً كما تطيع الغنمة الذئب فتهرول بين يديه إلى حيث يأكلها.

وقد اتَّضح مما تقدَّم أنَّ التربية غير مقصودة، ولا مقدورة في ظلال الاستبداد إلا ما قد يكون بالتخويف من القوة القاهرة، وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس. وقد أجمع علماء الاجتماع والأخلاق والتربية على أنَّ الإقناع خير من الترغيب فضلاً عن الترهيب، وإنَّ التعليم مع الحرية بين المعلِّم والمتعلِّم أفضل من التعليم مع الوقار، وأنَّ التعليم عن رغبة في التكمُّل أرسخ من العلم الحاصل طمعاً في المكافأة، أو غيرة من الأقران. وعلى هذه القاعدة بنوا قولهم: إنَّ المدارس تقلل الجنايات لا السجون، وقولهم: إنَّ القصاص والمعاقبة قلَّما يفيدان في زجر النفس كما قال الحكيم العربي:

لا ترجع الأنفس عن غيّها … ما لم يكن منها لها زاجرُ[١]

ومن يتأمل جيداً في قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب﴾[٢]، ملاحظاً أنَّ معنى القصاص لغةً: هو التساوي مطلقاً، لا مقصوراً على المعاقبة بالمثل في الجنايات فقط، ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية، ويتَّبع مسالك الرُّسل العظام –عليهم الصلاة والسلام– يرى[٣] أنَّ الاعتناء في طريق الهداية فيها منصرفٌ إلى الإقناع، ثمَّ إلى الأطماع عاجلاً أو آجلاً، ثمَّ إلى الترهيب الآجل غالباً ومع ترك أبواب تُدلي إلى النجاة.

(١) البيت من البحر السريع. ولم يُعرف قائله.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) كذا في الأصل، ولاصواب: (يرَ) لأنَّها جواب الشرط الجازم (من).

ثمَّ إنَّ التربية التي هي ضالّة الأمم، وفقدها هي المصيبة العظيمة، التي هي المسألة الاجتماعية؛ حيث الإنسان يكون إنساناً بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمّة، والتربية المطلوبة هي التربية المرتَّبة على إعداد العقل للتمييز، ثمَّ على حسن التفهيم والإقناع، ثمَّ على تقوية الهمّة والعزيمة، ثمَّ على التمرين والتعويد، ثمَّ على حسن القدوة والمثال، ثمَّ على المواظبة والإتقان، ثمَّ على التوسّط والاعتدال، وأنْ تكون تربية العقل مصحوبةً بتربية الجسم، لأنهما متصاحبان صحة واعتلالاً، فإنه يقتضي تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمّل المشاقّ، والمهارة في الحركات، والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة. وأن تكون تلكما التربيتين[1] مصحوبتين أيضاً بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه. فإذا كان لا مطمع في التربية العامّة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد، فلا يكون لعقلاء المبتلين به إلا أن يسعوا أولاً وراء إزالة المانع الضاغط على هذه العقول، ثمَّ بعد ذلك يعتنوا بالتربية؛ حيث يمكنهم حينئذٍ أن ينالوها على توالي البطون، والله الموفق.

الاستبداد والترقّي

الحركة سُنَّةٌ دائبةٌ في الخليقة بين شخوصٍ وهبوط. فالترقّي هو الحركة الحيوية؛ أي حركة الشخوص، ويقابله الهبوط وهو الحركة إلى الموت أو الانحلال أو الاستحالة أو الانقلاب.

وهذه السُنّة كما هي عاملة في المادة وأعراضها، عاملة أيضاً في الكيفيات ومركَّباتها، والقول الشّارح لذلك آية: ﴿يُخرِج الحيَّ من الميّت ويُخرج

(١) كذا في الأصل، والصواب: التربيتان.

الميّت من الحيّ﴾[1]، وحديث: "ما تمَّ أمرٌ إلا وبدا نقصه"، وقولهم: "التاريخ يعيد نفسه". وحكمهم بأنَّ الحياة والموت حقّان طبيعيان.

وهذه الحركة الجسمية والنفسية والعقلية لا تقتضي السير إلى النهاية شخوصاً أو هبوطاً؛ بل هي أشبه بميزان الحرارة، كلُّ ساعة في شأن، والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة، فإذا رأينا آثار حركة الترقّي هي الغالبة على أفرادها، حكمنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت.

الأمّة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، كما أنَّ البناء مجموع أنقاض، فحسبما تكون الأنقاض جنساً وجمالاً وقوّةً يكون البناء، فإذا ترقَّت أو انحطَّت الأمة ترقَّت هيئتها الاجتماعية، حتى إنَّ حالة الفرد الواحد من الأمّة تؤثِّر في مجموع تلك الأمة. كما إذا لو اختلَّت حجرة من حصن يختلُّ مجموعه وإنْ كان لا يشعر بذلك، كما لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة أثقلتها وأمالتها وإنْ لم يُدرَك ذلك بالمشاعر. وبعض السياسيين بنى على هذه القاعدة: أنَّه يكفي الأمة رقيّاً أن يجتهد كلُّ فرد منها في ترقية نفسه بدون أن يفتكر في ترقّي مجموع الأمة.

الترقّي الحيوي الذي يجتهد فيه الإنسان بفطرته وهمّته هو أولاً: الترقّي في الجسم صحّةً وتلذُّذاً، ثانياً: الترقّي في القوّة بالعلم والمال، ثالثاً: الترقّي في النفس بالخصال والمفاخر، رابعاً: الترقّي بالعائلة استئناساً وتعاوناً، خامساً: الترقّي بالعشيرة تناصراً عند الطوارئ، سادساً: الترقّي بالإنسانية، وهذا منتهى الترقّي.

وهناك نوعٌ آخر من الترقّي ويتعلق بالروح وبالكمال، وهو أنَّ الإنسان يحمل نفساً ملهمة بأنَّ لها وراء حياتها هذه حياةً أخرى يترقّى بها على سلّم العدل والرحمة والحسنات. فأهل الأديان –ما عدا أهل التوراة– يؤمنون بالبعث

---

(١) الروم: ١٩. في الأصل: ويخرج.

أو التناسخ، فيأتون بالعدل والرحمة رجاء المكافأة أو خوف المجازاة، وهم من قبيل الطبيعيين يعتبرون أنفسهم مدينين للإنسانية بحفظها تاريخ الحياة الطبيعية، فيلتزمون بخدمتها اهتماماً بحياتهم التاريخية بحُسن الذّكر أو قبحه.

وهذه الترقّيات، على أنواعها الستّة، لا يزال الإنسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب إرادته، وهذا المانع إمَّا هو القدر المحتوم، المسمّى عند البعض بالعجز الطبيعي، أو هو الاستبداد المشؤوم. على أنَّ القدر يصدم سير الترقّي لمحةً، ثمَّ يطلقه فيكرُّ راقياً. وأما الاستبداد فإنَّه يقلب السير من الترقّي إلى الانحطاط، ومن التقدم إلى التأخر، من النماء إلى الفناء، ويلازم الأمة ملازمة الغريم الشحيح، ويفعل فيها دهراً طويلاً أفعاله التي تقدَّم وصف بعضها في الأبحاث السابقة، أفعاله التي تبلغ بالأمة حطّة العجماوات فلا يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط، بل قد تبيح حياتها هذه الدنيئة أيضاً الاستبداد إباحةً ظاهرة أو خفيّة. ولا عار على الإنسان أنْ يختار الموت على الذل، وهذه سباع الطير والوحوش إذا أُسِرَت كبيرة قد تأبى الغذاء حتى الموت.

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحوِّل ميلها الطبيعي من طلب الترقّي إلى التسفُّل، بحيث لو دُفِعَت إلى الرِّفعة لأبت وتألَّمت كما يتألَّم الأجهر من النور، وإذا أُلزِمَت بالحرية تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أُطلِق سراحها. عندئذٍ يصير الاستبداد كالعلق[1] يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفكُّ عنها حتى تموت ويموت هو بموتها.

وتوصف حركة الترقّي والانحطاط في الشؤون الحيوية للإنسان؛ أنها من نوع الحركة الدودية، التي تحصل بالاندفاع والانقباض، وذلك أنَّ الإنسان يولد وهو أعجز حراكاً وإدراكاً من كلِّ حيوان، ثمَّ يأخذ في السير، تدفعه الرغائب النفسية والعقلية وتقبضه الموانع الطبيعية والمزاحمة. وهذا سرُّ أن

---

(١) دود أسود يمتصُّ الدّم. يكون في الماء لاآسن، إذا شربَتْهُ الدابة علق بحلقها. مفرده علقة.

الإنسان ينتابه الخير والشر. وهو سرٌّ ما ورد في القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير والشر، وهو معنى ما ورد في الأثر بأنَّ الخير مربوط بذيل الشر، والشر مربوطٌ بذيل الخير، وهو المراد من أقوال الحكماء نحو: على قدر النّعمة تكون النقمة، على قدر الهمم تأتي العزائم، بين السعادة والشقاء حربٌ سِجال، العاقل من يستفيد من مصيبته، والكيِّس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره، والحكيم من يبتهج بالمصائب ليقطف منها الفوائد، ما كان في الحياة لذّة لو لم يتخللها آلام.

فإذا تقرر هذا فليعلم أيضاً أنَّ سبيل الإنسان هو الرقي، ما دام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازيين كتوازن الإيجابية والسلبية في الكهربائية، وسبيله القهقرى إن غلبته الطبيعة أو المزاحمة. ثمَّ إنَّ الاندفاع إذا غلب فيه العقل النفس، كانت الوجهة إلى الحكمة، وإنْ غلبت النفس العقل، كانت الوجهة إلى الزيغ. أما الانقباض؛ فالمعتدل منه هو السائق للعمل، والقوي منه مُهلِكٌ للحركة، والاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض ضاغط مسكن، والمبتلون به هم المساكين. نعم: أسراء الاستبداد أحقُّ بوصف المساكين من عجزة الفقراء.

ولو ملك الفقهاء حرية النظر لخرجوا من الاختلاف في تعريف المساكين الذين جعل لهم الله نصيباً من الزكاة فقالوا: هم عبيد الاستبداد، ولجعلوا كفَّارات فكِّ الرقاب تشمل هذا الرقّ الأكبر.

أُسراء الاستبداد حتى الأغنياء منهم كلُّهم مساكين لا حراك فيهم، يعيشون منحطّين في الإدراك، منحطِّين في الإحساس، منحطّين في الأخلاق. وما أظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الرأفة والإرشاد، وقد أبدع من شبَّه حالتهم بدود تحت صخرة، فما أليق باللائمين أن يكونوا مشفقين يسعون في رفع الصخرة ولو حتّاً بالأظافر ذرَّةً بعد ذرّة.

وقد أجمع الحكماء على أنَّ أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد

الأمَّة، الذين فيهم نسمة مروءة وشرار حمية، الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بإزاء الإنسانية، الملتمسين لإخوانهم العافية، أن يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النموِّ فتمزِّق غيوم الأوهام التي تمطر المخاوف، شأن الطبيب في اعتنائه أولاً بقوة جسم المريض، وأن يكون الإرشاد متناسباً مع الغفلة خفَّةً وقوة: كالساهي ينبِّهه الصوت الخفيف، والنّائم يحتاج إلى صوتٍ لأقوى، والغافل يلزمه صياحٌ وزجر. فالأشخاص من هذا النوع الأخير، يقتضي لإيقاظهم الآن بعد أن ناموا أجيالاً طويلة أن يسقيهم النطاسي البارع مرّاً من الزواجر والقوارس علَّهم يفيقون، وإلا فهم لا يفيقون، حتى يأتي القضاء من السماء: فتبرق السيوف، وترعد المدافع وتمطر البنادق، فحينئذٍ يصحون، ولكن؛ صحوة الموت!.

بعض الاجتماعيين في الغرب يرون أنَّ الدِّين يؤثِّر على الترقّي الإفرادي، ثمَّ الاجتماعي تأثيراً معطِّلاً كفعل الأفيون في الحسِّ، أو حاجباً كالغيم يغشى نور الشمس. وهناك بعض الغلاة يقولون: الدين والعقل ضدّان متزاحمان في الرؤوس، وإنَّ أول نقطة من الترقّي تبتدئ عند آخر نقطة من الدين. وإنَّ أصدق ما يُستدَلُّ به على مرتبة الرُّقي والانحطاط في الأفراد أو في الأمم الغابرة والحاضرة، هو مقياس الارتباط بالدين قوةً وضعفاً.

هذه الآراء كلُّها صحيحة لا مجال للردِّ عليها، ولكن؛ بالنظر إلى الأديان الخرافية أساساً أو التي لم تقف عند حدِّ الحكمة، كالدين المبني على تكليف العقل بتصوُّر أنَّ الواحد ثلاثة والثلاثة واحد. لأنَّ مجرَّد الإذعان لما يعقل برهان على فساد بعض مراكز العقل، ولهذا أصبح العالم المتمدن يعدُّ الانتساب إلى هذه العقيدة من العار؛ لأنه شعار الحُمق.

أما الأديان المبنية على العقل المحضّ كالإسلام الموصوف بدين الفطرة، ولا أعني بالإسلام ما يدين به أكثر المسلمين الآن، إنَّما أريد بالإسلام: دين القرآن؛ أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كلُّ إنسانٍ غير مقيَّد

الفكر بتفصُّح زيد أو تحكُّم عمرو.

فلا شك أنَّ الدِّين إذا كان مبنياً على العقل، يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المخرِّفين، وأنفع وازع بضبط النَّفس من الشطط، وأقوى مؤثِّر لتهذيب الأخلاق، وأكبر معين على تحمُّل مشاقّ الحياة، وأعظم منشِّط على الأعمال المهمَّة الخطرة. وأجلَّ مثبِّت على المبادئ الشريفة، وفي النتيجة يكون أصحَّ مقياس يُستدلُّ به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد رقيّاً وانحطاطاً.

هذا القرآن الكريم إذا أخذناه وقرأناه بالتّروي في معاني ألفاظه العربية وأسلوب تركيبه القرشي، مع تفهُّم أسباب نزول آياته وما أشارت إليه، ومع التبصُّر في مقاصده الدقيقة وتشريعه السامي، ومع أخذ بعض التوضيحات من السُّنَّة العملية النبوية أو الإجماع إن وجدا، وقلَّما يوجدان، فحينئذٍ لا نرى فيه من أولِّه إلى آخره غير حِكَمٍ يتلقّاها العقل بالإجلال والإعظام، إلى درجة انقياد العقل طوعاً أو كرهاً للإيمان إجمالاً بأنَّ تلك الحِكَم حِكَمٌ عزيزة إلهية، وأنَّ الذي أنزلها الله على قلبه هو افضل من أرسله الله مرشداً لعباده.

وتوضيح ذلك: أنَّ الناظر في القرآن حقّ النظر يرى أنَّه لا يكلِّف الإنسان قطّ بالإذعان لشيء فوق العقل، بل يحذِّره وينهاه من الإيمان اتِّباعاً لرأي الغير أو تقليداً للآباء. ويراه طافحاً بالتنبيه إلى أعمال الإنسان فكره ونظره في هذه الكائنات وعظيم انتظامها، ثمَّ الاستدلال بذلك إلى أنَّ لهذه الكائنات صانعاً أبدعها من العدم، ثمَّ الانتقال إلى معرفة الصِّفات التي يستلزم العقل أن يكون هذا الصانع متَّصِفاً بها، أو منزَّهاً عنها، ثمَّ يرى القرآن يعلِّم الإنسان بعض أعمال وأحكام وأوامر ونواهي كلّها لا تبلغ المائة عدداً، وكلُّها بسيطة معقولة، إلا قليلاً من الأمور التعبُّدية التي شُرِّعت لتكون شعاراً يعرف به المسلم أخاه، أو يستطلع من خلال قيامه بها أو تهاونه فيها أخلاقه، فيستدلُّ مثلاً بالتّكاسل عن الصلاة على فَقدِ النشاط، وبترك الصوم على عدم الصبر،

وبالسُّكر على غلبة النفس والعقل ونحو ذلك.

وكفى بالإسلامية رقيّاً في التشريع، رقيّها بالبشر إلى منزلة حصرها أسارة[1] الإنسان في جهة شريفة واحدة وهي (الله)، وعتقها عقل البشر عن توهُّم وجود قوة ما، في غير الله، من شأنها أن تأتي للإنسان بخيرٍ ما، أو تدفع عنه شرّاً ما. فالإسلامية تجعل الإنسان لا يرجو ولا يهاب من رسولٍ أو نبيّ، أو ملكٍ أو فلك، أو وليٍّ أو جنّي، أو ساحرٍ أو كاهن، أو شيطانٍ أو سلطان.

وأعظم بهذا التعليم الذي يرمي الإنسان عن عاتقه جبالاً من الخوف والأوهام والخيالات، جبالاً اعتقلها منذ كان يسرح مع الغيلان، أو ورثها من أبيه آدم الذي طغاه شيطان النفس. أو ليس العتيق[2] من الأوهام يصبح صحيح العقل، قوي الإرادة، ثابت العزيمة، قائده الحكمة، سائقه الوجدان، فيعيش حراً، فرحاً صبوراً فخوراً. لا يبالي حتى بالموت لعلمه بالسعادة التي يستقبلها، التي يمثِّلها له القرآن بالجنان، فيها الرّوح والريحان، والحور والغلمان، فيها كل مل تشتهي الأنفس وتقرُّ به العينان؟!

وأظنُّ أن هؤلاء المنكرين فائدة الدين، ما أنكروا ذلك إلا من عدم اطِّلاعهم على دينٍ صحيح مع يأسهم من إصلاح ما لديهم، عجزاً عن مقاومة أنصار الفساد. وإذا نظرنا في أنَّ هؤلاء أنفسهم هم في آنٍ واحد يشددون النَّكير على الدِّين من جهة، قائلين: إنَّ ضرره أكبر من نفعه، ويهيجون من جهةٍ أخرى مؤثِّرات أدبية وهمية محضاً يرون أنه لا بدَّ منه في بناء الأمم، وذلك مثل حبِّ الوطن وخيانته، وحبِّ الإنسانية والإساءة إليها والسُّمعة الحسنة وعكسها، والذِّكر التاريخي بالخير أو الشَّر ونحو ذلك مما هو لا شيء في ذاته، ولا شيء أيضاً بالنسبة إلى تأثير طاعة الله والخوف منه، لأنَّ (الله) حقيقة لا ريب فيها، بل ولا خلاف إلا في الأسماء بين (الله) وبين (مادة) أو

---

(١) عبودية.

(٢) الذي يُعتق.

(طبيعة). ولولا أنَّ الماديين والطبيعيين يأبون الاسترسال في البحث في صفات ما يسمونه مادة أو طبيعة، لالتقوا –ولا شك– مع الإسلام في نقطة واحدة، فارتفع الخلاف العلمي وأسلم الكلُّ لله.

وعلى ذكر اللوم الإرشادي لاح لي أنْ أصوِّر الرقي والانحطاط في النَّفس، وكيف ينبغي للإنسان العاقل أن يعاني إيقاظ قومه، وكيف يرشدهم إلى أنهم خُلِقوا لغير ما هم عليه من الصَّبر على الذُّلِّ والسَّفالة، فيذكِّرهم، ويحرِّك قلوبهم، ويناجيهم، وينذرهم بنحو الخطابات الآتية:

"يا قومُ: ينازعني والله الشعور، هل موقفي هذا في جمع حيٍّ فأحيّيه بالسلام؟ أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة؟ يا هؤلاء، لستم بأحياء عاملين، ولا أموات مستريحين، بل أنتم بين بين: في برزخٍ يسمّى التنبُّت، ويصرح تشبيهه بالنّوم! يا ربّاه: إني أرى أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة، وهم في الحقيقة موتى لا يشعرون، بل هم موتى؛ لأنهم لا يشعرون".

"يا قوم: هداكم الله، إلى متى هذا الشقاء المديد والنّاس في نعيمٍ مقيم، وعزٍّ كريم، أفلا تنظرون؟ وما هذا التأخُّر، وقد سبقتكم الأقوام ألوف مراحل، حتى صار ما بعد ورائكم أماماً[١]! أفلا تتبعون؟ وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرّفعة، أفلا تغارون؟ أناشدكم الله؛ هل طابت لكم طول غيبة الصواب عنكم؟ أم أنتم كأهل ذلك الكهف ناموا ألف عام ثمَّ قاموا، وإذا بالدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس، فأخذتهم الدهشة والتزموا السكون؟".

"يا قوم: وقاكم الله من الشر، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، مُبتلون بداء التقليد والتبعية في كلِّ فكرٍ وعمل، وبداء الحرص على كلِّ عتيق كأنَّكم خُلِقتم للماضي لا للحاضر: تشكون حاضركم وتسخطون عليه، ومن لي أن تدركوا أنَّ حاضركم نتيجة ماضيكم، ومع ذلك أراكم تقلِّدون

---

(١) في (ط.ق): (مابعد وراءكم وراء).

أجدادكم في الوساوس والخرافات والأمور السافلات فقط، ولا تقلّدونهم في محامدهم! أين الدين؟ أين التربية؟ أين الإحساس؟ أين الغيرة؟ أين الجسارة؟ أين الثبات؟ أين الرابطة؟ أين المنعة؟ أين الشهامة؟ أين النخوة؟ أين الفضيلة؟ أين المواساة؟ هل تسمعون؟ أم أنتم صُمٌّ لاهون؟"

يا قومُ: عافاكم الله، إلى متى هذا النوم؟ وإلى متى هذا التقلُّب على فراش البأس ووسادة اليأس؟ أنتم مفتَّحةٌ عيونكم ولكنكم نيام، لكم أبصار ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الأبصار، ولكنْ؛ تعمى القلوب التي في الصّدور! لكم سمعٌ ولسانٌ ولكنكم صُمٌّ بُكمٌ، ولكم شبيه الحسِّ ولكنكم لا تشعرون به ما هي اللذائذ حقاً وما هي الآلام، ولكم رؤوسٌ كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الأوهام والأحلام، ولكم نفوسٌ حقُّها أن تكون عزيزة، ولكنْ؛ أنتم لا تعرفون لها قدراً ومقاماً".

"يا قومُ: قاتل الله الغباوة، فإنها تملأ القلوب رعباً من لا شيء، وخوفاً من كلِّ شيء، وتفعم الرؤوس تشويشاً وسخافة. أليست هي الغباوة جعلتكم كأنكم قد مسَّكم الشيطان، فتخافون من ظلِّكم وترهبون من قوتكم، وتجيّشون منكم عليكم جيوشاً ليقتل بعضكم بعضاً؟ تترامون على الموت خوف الموت، وتحسبون –طول العمر– فكركم في الدِّماغ ونطقكم في اللسان وإحساسكم في الوجدان خوفاً من أن يسجنكم الظالمون، وما يسجنون غير أرجلكم أياماً، فما بالكم يا أحلاس[1] النساء مع الذلّ تخافون أن تصيروا جُلاَّس الرجال في السجون؟"

"يا قوم: أُعيذكم بالله من فساد الرأي، وضياع الحزم، وفقد الثقة بالنفس، وترك الإرادة للغير، فهل ترون أثراً للرُّشد في أن يوكِّل الإنسان عنه وكيلاً ويُطلق له التصرُّف في ماله وأهله، والتحكُّم في حياته وشرفه والتأثير

---

(١) الأحلاس: الملازمون (ك).

على دينه وفكره، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كلِّ عبثٍ وخيانة وإسرافٍ وإتلاف؟ أم ترون أنَّ هذا النوع من الجنة به أن يظلم الإنسان نفسه؟ هل خلق الله لكم عقولاً لتفهموا به كلَّ شيء؟ أم لتهملوه كأنَّه لا شيء؟ ﴿إنَّ اللهَ لا يَظلم النّاس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون﴾[1].

"يا قوم: شفاكم الله، قد ينفع اليوم الإنذار واللوم، وأما غداً إذا حلَّ القضاء، فلا يبقى لكم غير النّدب والبكاء. فإلى متى هذا التخادع والتخاذل؟ وإلى متى هذا الإهمال؟ هل طاب لكم النوم على الوسادة اللينة، وسادة الخمول؟ أم طاب لكم السكون وتودُّون لو تسكنون القبور؟ أم عاهدتم أنفسكم أن تصلوا غفلة الحياة بالممات، فلا تفيقوا من السُّبات قبل صباح يوم النشور، يوم تعلو السيوف رقابكم وتصمي المدافع آذانكم فتمسون الأذلاّء حقاً، وحقَّ لكم أن تذلوا؟".

"يا قومُ: رحمكم الله، ما هذا الحرص على حياةٍ تعيسةٍ دنيئة لا تملكونها ساعة! ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلُّها تعبٌ ونصَب! هل لكم في هذا الصَّبر فخرٌ أو لكم عليه أجر؟ كلاّ؛ واللهِ ساء ما تتوهمون، ليس لكم إلا القهر في الحياة، وقبيح الذِّكر بعد الممات؛ لأنَّكم ما أفدتم الوجود شيئاً. بل أتلفتم ما ورثتم عن السّلف وصرتم بئس الواسطة للخَلَف. ألستم يا ناس مديونين للأسلاف بكلِّ ما أنتم فيه من الترقّي عن إنسان الغابات؟ فإذا لم تكونوا أهلاً للمزيد فكونوا أخلاً للحِفْظ، وهذه العجماوات تنقل رقيها لنسلها بأمانة".

"يا قومُ: حماكم الله، قد جاءكم المستمتعون من كلِّ حدبٍ ينسلون، فإن وجدوكم أيقاظاً عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتجامل الأقران، وإن وجدوكم رقوداً لا تشعرون سلبوا أموالكم، وزاحموكم على أرضكم، وتحيَّلوا تذليلكم،

---

(١) يونس: ٤٤.

وأوثقوا ربطكم، واتَّخذوكم أنعاماً، وعندئذٍ لو أردتم حراكاً لا تقوون، بل تجدون القيود مشدودةً والأبواب مسدودة لا نجاة ولا مخرج".

"يا قومُ: هوَّن الله مصابكم، تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين، تشكون من الحكَّام، وهم اليوم منكم، فلا تسعون في إصلاحهم، تشكون فقد الرابطة، ولكم روابط من وجوهٍ لا تفكِّرون في إحكامها. تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل. هل ترجون الصَّلاح وأنتم يُخادع بعضكم بعضاً ولا تخدعون إلا أنفسكم؟. ترضون بأدنى المعيشة عجزاً تُسمّونه قناعة، وتهملون شؤونكم تهاوناً تُسمّونه توكُّلاً! تموِّهون على جهلكم الأسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر، ألا والله ما هذا شأن البشر!".

"يا قومُ: سامحكم الله، لا تظلموا الأقدار، وخافوا غيرة المنعم الجبّار. ألم يخلقكم أكفاءً أحراراً طلقاء لا يثقلكم غير النّور والنسيم، فأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء؟! لو شاء كبيركم أن يُحمِّل صغيركم كرة الأرض لحنى له ظهره، ولو شاء أن يركبه لطأطأ له رأسه. ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله؟ وماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعتاب وخفض الصوت ونكس الرأس؟ أليس منشأ هذا الصّغار كلِّه هو ضعف ثقتكم بأنفسكم، كأنَّكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة، وحسب الحياة لُقيماتٍ من نباتٍ يقمن ضلع ابن آدم، وقد بذلها الخلّاق لأضعف الحيوان، وهذه الوحوش تجد فرائسها أينما حلَّت، وهذه الهوام لا تفقد قوتها؟ فما بال الرَّجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال حاجته إلا بالتذلُّل والبكاء، أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتملُّق والدُّعاء؟".

"يا قوم: رفع الله عنكم المكروه، ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم أكفاء في البنية، أكفاء في القوة، أكِّفاء في الطبيعة، أكفَّاء في الحاجات، لا يفضل بعضكم بعضاً إلا بالفضيلة، لا ربوبية بينكم ولا عبودية؟ والله؛ ليس

بين صغيركم وكبيركم غير برزخٍ من الوهم. ولو درى الصغير بوهمه، العاجز بوهمه، ما في النفس الكبير المتآله من الخوف منه لزال الإشكال وقضي الأمر الذي فيه تشقون! يا أعزاء الخلقة، جهلاء المقام، كان الناس في دور الهمجية، فكان دُهاتهم بينهم آلهة وأنبياء، ثمَّ ترقّى النّاس، فهبط هؤلاء لمقام الجبابرة والأولياء، ثمَّ زاد الرّقي فانحطَّ أولئك إلى مرتبة الحُكَّام والحكماء، حتى صار النّاس ناساً فزال العماء، وانكشف الغطاء، وبان أنَّ الكلَّ أكفاء. فأناشدكم الله في أي الأدوار أنتم؟ ألا تفكِّرون؟".

"يا قومُ: جعلكم الله من المهتدين، كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعاً لله، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعِمين ولو بلقمةٍ مغموسةٍ بدم الإخوان، وأجدادكم ينامون في قبورهم مستوين أعزاء، وأنتم أحياء معوَّجة رقابكم أذلاّء! البهائم تودُّ لو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم. النبات يطلب العلو وأنتم تطلبون الانخفاض. لفَظَتكم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا في جوفها، فإنْ كانت بطن الأرض بغيتكم، فاصبروا قليلاً لتناموا فيها طويلاً".

"يا قومُ: ألهمكم الله الرّشد، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الأرض إلى السماء أنظاركم، وتميل إلى التعالي نفوسكم، فيشعر أحدكم بوجوده في الوجود، فيعرف معنى الأنانية ليستقلّ بذاته لذاته، ويملك إرادته واختياره ويثق بنفسه وربّه، لا يتكِّل على أحد من خلق الله اتِّكال الناقص في الخلق على الكامل فيه، أو اتِّكال الغاصب على مال الغافل أو الكلِّ على سعي العامل، بل يرى أحدكم نفسه إنساناً كريماً يعتمد على المبادلة والتعاوض فيسلف، ثمَّ يستوفي، ويستوفي على أن يفي، بل ينظر في نفسه أنَّه هو الأمّة وحده، وما أجدر بأحدكم أن يعمل لدنياه بنفسه لنفسه، فلا يتَّكل على غيره، كما يعمل الإنسان ليعبد الله بشخصه لا ينيب عنه غيره؟ فإذا فعلتم ذلك أظهر الله بينكم ثمرة التضامن بلا اشتراط، والتقاضي بلا محاشرة، فتصيرون بنعمة الله إخواناً".

"يا قوم: أبعد الله عنكم المصائب وبصَّركم بالعواقب. إن كانت المظالم غلَّت أيديكم، وضيَّقت أنفسكم، حتى صغرت نفوسكم، وهانت عليكم هذه الحياة وأصبحت لا تساوي عندكم الجهد والجدّ وأمسيتم لا تبالون أتعيشون أم تموتون، فهلاّ أخبرتموني لماذا تحكِّمون فيكم الظالمين حتى في الموت؟ أليس لكم من الخيار أن تموتوا كما تشاؤون، لا كما يشاء الظالمون؟ هل سلب الاستبداد إرادتكم حتى في الموت؟ كلا والله: إن أنا أحببت الموت أموت كما أحب، لئيماً أو كريماً، حتفاً أو شهيداً[١]، فإن كان الموت ولا بدَّ، فلماذا الجبانة؟ وإن أردت الموت، فليكن اليوم قبل الغد، ولكن بيدي لا بيد عمرو. أليس:

وطعم الموت في أمرٍ صغير كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ[٢]

"يا قومُ: أناشدكم الله، ألا أقول حقاً إذا قلتُ إنَّكم لا تحبُّون الموت، بل تنفرون منه، ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت إلى الموت، ولو اهتديتم إلى السبيل لعلمتم أنَّ الهرب من الموت موتٌ، وطلب الموت حياة[٣]، ولعرفتم أنَّ الخوف من التعب تعبٌ، والإقدام على التعب راحةٌ، ولفطنتم إلى أنَّ الحرية هي شجرة الخلد، وسُقياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح، والأسارة هي شجرة الزقّوم، وسقياها أنهر من الدم الأبيض؛ أي الدموع، ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين؟!".

"يا قومُ: وأعني منكم المساكين،.. أيها المسلمون: إني نشأت وشبت وأنا أفكِّر في شأننا الاجتماعي، عسى أهتدي لتشخيص دائنا، فكنتُ أتقصّى السبب بعد السبب، حتى إذا وقعتُ على ما أظنُّه عاماً، أقول: لعلَّ هذا هو جرثومة الدّاء، فأتعمَّق فيه تمحيصاً وأحلِّله تحليلاً، فينكشف التحقيق عن أنَّ ما

---

(١) على فراش المنزل.

(٢) البيت من البحر الوافر، وهو للمتنبي.

(٣) إشارة إلى المثل العربي: (احرصْ على الموت تُوهبْ لك الحياة).

قام في الفكر هو سبب من جملة الأسباب، أو هو سبب فرعي لا أصلي، فأخيب وأعود إلى البحث والتنقيب. وطالما أمسيتُ وأصبحتُ أجهد الفكر في الاستقصاء، وكثيراً ما سعيتُ وسافرتُ لأستطلع آراء ذوي الآراء، عسى أهتدي إلى ما يشفي صدري من آلام بحث أتعبني به ربِّي. وآخر ما استقرَّت عليه سفينة فكري هو:

إنَّ جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين النظام والنشاط، دين القرآن الصريح البيان، إلى صيغة أنَّا جعلناه دين الخيال والخبال، دين الخلل والتشويش، دين البِدَع والتشديد، دين الإجهاد. وقد دبَّ فينا هذا المرض منذ ألف عام، فتمكَّن فينا وأثَّر في كلِّ شؤوننا، حتى بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل أننا لا نرى في الخالق –جلَّ شأنه– نظاماً فيما اتَّصف، نظاماً فيما قضى، نظاماً فيما أمر، ولا نطالب أنفسنا فضلاً عن آمرنا أو مأمورنا بنظامٍ وترتيبٍ واطِّراد ومثابرة.

وهكذا أصبحنا واعتقادنا مشوَّش، وفكرنا مشوَّش، وسياستنا مشوَّشة، ومعيشتنا مشوَّشة. فأين منا والحالة هذه؛ الحياة الفكرية، الحياة العملية، الحياة العائلية، الحياة الاجتماعية، الحياة السياسية؟!".

"يا قومُ: قد ضيَّع دينكم ودنياكم ساستكم الأولون وعلماؤكم المنافقون، وإنِّي أرشدكم إلى عملٍ إفرادي لا حرج فيه علماً ولا عملاً: أليس بين جنبي كلِّ فردٍ منكم وجدان يميز الخير من الشرّ، والمعروف من المنكر ولو تمييزاً إجمالياً؟ أما بلغكم قول معلِّم الخير نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: "لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليسلِّطنَّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم"[1]، وقوله: "من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، وإن لم

---

(١) لفظ الحديث: (أو ليُسَلّطَنَّ الله عليكم شراركم، ثمَّ يدعوا خياركم، فلا يستجيب لهم) رواه البزاز عن عمران والطبراني عن أبي هريرة، وسندهما ضعيف. وللترمذي من حيدث حذيفة نحوه إلا أنَّه قال: (أو ليوشكنَّ الله أنْ يبعث عليكم عقاباً منه، ثمَّ تدعونه فلا يستجيب لكم) وقال: حديث حسن.ا.هـ.

يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"؟![1]

"وأنتم تعلمون إجماع أئمة مذاهبكم كلِّها على أنَّ أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظُّلم الذي فشا فيكم، ثمَّ قتل النَّفس، ثمَّ، وثمَّ،... وقد أوضح العلماء أنَّ تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبِّس فيه بغضاً في الله. بناءً عليه؛ فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان والعياذ بالله".

"ولا أظنكم تجهلون أنَّ كلمة الشهادة، والصوم والصلاة، والحج والزكاة، كلّها لا تغني شيئاً مع فقد الإيمان، إنما يكون القيام حينئذٍ بهذه الشّعائر، قياماً بعاداتٍ وتقليدات وهوسات تضيع بها الأموال والأوقات".

"بناءً عليه؛ فالدين يكلِّفكم إن كنتم مسلمين، والحكمة تُلزِمكم إن كنتم عاقلين: أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم، ولا أقلّ في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين، وأظنّكم إذا تأمَّلتم قليلاً ترون هذا الدواء السهل المقدور لكلِّ إنسانٍ منكم، يكفي لإنقاذكم مما تشكون. والقيام بهذا الواجب متعيّن على كلِّ فرد منكم بنفسه، ولو أهمله كافّة المسلمين. ولو أنَّ أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم إلى ما أنتم عليه من الهوان. فهذا دينكم، والدّين ما يدين به الفرد لا ما يدين به الجمع، والدين يقينٌ وعمل، لا علمٌ وحِفظٌ في الأذهان. أليس من قواعد دينكم فرض الكفاية وهو أن يعمل المسلم ما عليه غير منتظرٍ غيره؟!".

"فأناشدكم الله يا مسلمين: أن لا يغرَّكم دين لا تعملون به وإن كان خير دين، ولا تغرنَّكم أنفسكم بأنَّكم أمّة خير أو خير أمّة، وأنتم المتواكلون المقتصرون على شعار: لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. ونِعْمَ الشِّعار شعار المؤمنين، ولكن؛ أين هم؟ إني لا أرى أمامي أمَّةً تعرف حقاً معنى لا إله

(١) رواه أحمد ومسلم والأربعة عن أبي سعيد.
وجاء في الأصل مرسوماً: فإنْ لم يستطع.

إلا الله، بل أرى أمَّةً خبلتها عبادة الظالمين!".

"يا قومُ: وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فُعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلُّكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتِّحاد وأنتم المهتدون السابقون. فهذه أمم أوستريا[١] وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتّى وأصول راسخة للاتِّحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي[٢] دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري. فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها. فيقول عقلاؤنا لمثيري الشَّحناء من الأعاجم[٣] والأجانب[٤]: دعونا يا هؤلاء نحن ندبِّر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضرّاء، ونتساوى في السَّراء.

دعونا ندبِّر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلماتٍ سواء، ألا وهي: فلتحي[٥] الأمة، فليحي الوطن، فلنحي طلقاء أعزّاء".

"أدعوكم وأخصُّ منكم النُّجباء للتبصُّر والتبصير فيما آل إليه المصير، أليس مطلق العربي أخفّ استحقاراً لأخيه الغربي؟ هذا الغربي قد أصبح مادّياً لا دين له غير الكسب، فما تظاهرُه مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعةً وكَذِباً. هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل الدين، ويعملون على أنَّهم يتناسونه، بناءً عليه؛ لا تكون دعواهم الدِّين في الشَّرق، إلا كما يغرِّد الصّياد وراء الأشباك!

لو كان للدين تأثير عند الغربي لما كانت البغضاء بين اللاتين والسكسون، بل بين الطليان والفرنسيس، ولما كانت بين الألمان والفرنسيين

(١) النمسا.

(٢) الوطني أو القومي.

(٣) العثمانيون.

(٤) الفرنسيون والإنكليز.

(٥) صواب الكلمة بالألف الممدودة: فلتحيا.

الغربيين.

الغربي أرقى من الشرقي علماً وثروة ومنعة، فله على الشرقيين إذا واطنهم السيادة الطبيعية. أما الشرقيون فيما بينهم، فمتقاربون لا يتغابنون.

الغربي يعرف كيف يسوس، وكيف يتمتَّع، وكيف يأسر، وكيف يستأثر. فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته أو سبقه، ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الروس مع البولونيين، واليهود والتتار، وكذلك شأن كلِّ المستعمرين. الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن أنَّه تاجر مستمتع، فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التي لا يفتأ يفتخر برياضها ويحنُّ إلى أرباضها.

قد مضى على الهولانديين في الهند وجزائرها، وعلى الروس في قاوزان، مثل ما أقمنا في الأندلس، ولكنْ؛ ما خدموا العلم والعمران بعشر ما خدمناها، ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاماً[١]، ولم يسمحوا بعد لأهلها بجريدةٍ واحدة تُقرَأ. نرى الإنكليزي في بلادنا يُفضِّل قديد بلاده، وسمك بحاره، على طريِّ لحمنا وسمكنا. فهلا والحالة هذه تبصرون يا أولي الألباب؟".

"وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله. ماذا دهاك؟ ماذا أقعدك عن مسراك؟ أليست أرضك تلك الأرض ذات الجنان والأفنان، ومنبت العلم والعرفان، وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار، ومهبط الحكمة والأديان، وهواؤك ذاك النسيم العدل، لا العواصف والضباب. وماؤك ذاك العذب الغدق[٢]، لا الكدر ولا الأجاج؟" [٣].

"رعاك الله يا شرق، ماذا أصابك فأخلَّ نظامك، والدهر ذاك الدهر ما غيَّر وضعك، وبدَّل شرعه فيك؟ ألم تزل مناطقك هي المعتدلة، وبَنوك هم

(١) أي في عام (١٨٣٠ م).

(٢) الغزير.

(٣) لا الماء العكر ولا المالح المرّ.

الفائقون فطرةً وعدداً؟ أليس نظام الله فيك على عهده الأول، ورابطة الأديان في بنيك مُحكمة قويمة، مؤسسة على عبادة الصانع الوازع؟ أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة أشرقت فيك شمسها، أيَّدت بها عزّ النفس، وأحكمت بها حبَّ الوطن وحبَّ الجنس؟".

"رعاك الله يا شرق، ماذا عراك وسكَّن منك الحراك؟ ألم تزل أرضك واسعة خصبة، ومعادنك وافية غنية، وحيوانك رابياً متناسلاً، وعمرانك قائماً متواصلاً، وبَنوك على ما ربَّيتهم أقرب للخير من الشَّر؟ أليس عندهم الحلم المسمّى عند غيرهم ضعفاً في القلب، وعندهم الحياء المسمّى بالجبانة، وعندهم الكرم المسمّى بالإتلاف، وعندهم القناعة المسمّاة بالعجز، وعندهم العفّة المسمّاة بالبلاهة، وعندهم المجاملة المسمّاة بالذلّ؟ نعم؛ ما هم بالسالمين من الظلم، ولكن؛ فيما بينهم، ولا من الخدع، ولكن؛ لا يفتخرون به، ولا من الإضرار، ولكن؛ مع الخوف من الله".

"رعاك الله يا شرق، لا نرى من غير الدّهر فيك ما يستوجب هذا الشّقاء لبنيك، ويستلزم ذلَّهم لبني أخيك. فلماذا قد أصبحت إذا انقطع عنك مدد أخيك بمصنوعاته، يبقى أبناؤك عُراة حفاة في ظلام، بل يمنّيهم فقدُ الحديد بالرجوع إلى العصر النّحاسي، بل الحجري الموصوف بعصر التعفين؟".

"رعاك الله يا شرق، بل راعى الله أخاك الغرب، العائل بنفسه والعائل فيك، وقاتل الله الاستبداد، بل لعن الله الاستبداد، المانع من التّرقّي في الحياة، المنحطّ بالأمم إلى أسفل الدركات. ألا بُعداً للظالمين".

"رعاك الله يا غرب، وحيّاك وبيّاك، قد عرفت لأخيك سابق فضله عليك، فوفيت، وكفيت، وأحسنت الوصاية وهديت، وقد اشتدَّ ساعد بعض أولاد أخيك، فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانة أنجاب أخيك على هدم ذاك السّور، سور الشؤم والشرور، ليخرجوا إلى أرض الحياة، أرض الأنبياء الهداة، فيشكرون فضلك والدهر مكافأة؟".

"يا غربُ، لا يحفظ لك الدِّين غير الشرق إنْ دامت حياته بحريته، وفقدُ الدّين يهدِّدك بالخراب القريب. فماذا أعددت للفوضيين إذا صاروا جيشاً جراراً؟ وماذا أعددت لديارك الحبلى بالثورة الاجتماعية؟ هل تُعِدُّ المواد المتفرقعة، وقد جاوزتْ أنواعها الألف؟ أن تُعِدُّ الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان؟".

"يا قوم: وأريد بكم شباب اليوم؛ رجال الغد، شباب الفكر؛ رجال الجد، أُعيذكم من الخزي والخذلان بتفرقة الأديان، وأُعيذكم من الجهل، جهل أنَّ الدينونة لله، وهو سبحانه وليُّ السرائر والضمائر ﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمّةً واحدة﴾[1].

"أناشدكم يا ناشئة الأوطان، أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم إلا في ألسنتهم، المعطَّل عملهم إلا في التثبيط، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل فجعلاهما آلة تُدار ولا تدير. وأسألكم عفوهم من العتاب والملام، لأنَّهم مرضى مبتلون، مثقلون بالقيود، ملجمون بالحديد، يقضون حياة خير ما فيها أنَّهم آباؤكم!".

"قد علمتم يا نُجَباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جُمَلاً كافية للتدبُّر، فاعتبروا بنا[2] واسألوا الله العافية:

نحن ألِفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا. ألِفنا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق، ألِفنا الانقياد ولو إلى المهالك. ألِفنا أن نعتبر التَّصاغر أدباً والتذلُّل لطفاً، والتملُّق فصاحةً، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحةً، وقبول الإهانة تواضعاً، والرِّضا بالظُّلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحث عن العموميات فضولاً، ومدَّ النَّظر إلى الغد أملاً طويلاً، والإقدام تهوُّراً، والحمية حماقة، والشّهامة شراسة، وحريَّة القول وقاحة، وحريّة الفكر كُفراً، وحبَّ الوطن جنوناً.

---

(١) هود: ١١٨.

(٢) أو بها.

أما أنتم، حماكم الله من السوء، فنرجو لكم أن تنشؤوا على غير ذلك، أن تنشؤوا على التمسُّك بأصول الدين، دون أوهام المتفننين، فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرموها، وتعرفوا قدر أرواحكم وأنَّها خالدة تُثاب وتُجزى، وتتَّبعوا سُنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم. ونرجو لكم أن تبنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيَّم، ولا على عظام نخرة. وأن تعلموا أنَّكم خُلِقتم أحراراً لتموتوا كراماً، فاجهدوا على أن تحيوا ذلكما اليومين حياةً رضيّة، يتسنّى فيها لكلٍّ منكم أن يكون سلطاناً مستقلاً في شؤونه لا يحكمه غير الحقّ، ومديناً وفيّاً لقومه لا يضنُّ عليهم بعينٍ أو عون، وولداً بارّاً لوطنه، لا يبخل عليه بجزءٍ من فكره ووقته وماله، ومحبّاً للإنسانية ويعمل[1] على أنَّ خير الناس أنفعهم للناس، يعلم أنَّ الحياة هي العمل ووباء العمل القنوط، والسعادة هي الأمل، ووباء الأمل التردد، ويفقه أنَّ القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه، وهما عند الناس السعي والعمل، ويوقن أنَّ كلَّ أثرٍ على ظهر الأرض هو من عمل إخوانه البشر، وكلَّ عملٍ عظيم قد ابتدأ به فردٌ، ثمَّ تعاوَرَهُ غيره إلى أنْ كمل، فلا يتخيل الإنسان في نفسه عجزاً، ولا يتوقَّع إلا خيراً، وخير الخير للإنسان أن يعيش حُرّاً مقداماً، أو يموت".

"وكأنّي بسائلكم يسألني تاريخ التغالب بين الشرق والغرب، فأجيب: بأنَّا كنّا أرقى من الغرب علماً، فنظاماً، فقوَّة، فكنَّا له أسياداً! ثمَّ جاء حينٌ من الدَّهر لحق بنا الغرب، فصارت مزاحمة الحياة بيننا سِجالاً: إنْ فُقْناه شجاعةً فاقنا عدداً، وإنْ فُقناه ثروةً فاقنا باجتماع كلمته. ثمَّ جاء الزّمن الأخير ترقّى فيه الغرب علماً، فنظاماً، فقوّةً. وانضمَّ إلى ذلك أولاً: قوة اجتماعه شعوباً كبيرةً. ثانياً: قوَّة البارود؛ حيث أبطل الشجاعة وجعل العبرة للعدد. ثالثاً: قوَّة كشفه أسرار الكيمياء والميكانيك. رابعاً: قوَّة الفحم الذي أهدته له الطبيعة. خامساً: قوَّة

(١) المعنى: يعلم أنَّ خير الناس أنفعهم للناس، ويعمل وفق علمه.

النشاط بكسره قيود الاستبداد. سادساً: قوَّة الأمن على عقد الشركات المالية الكبيرة. فاجتمعت هذه القوّات فيه وليس عند الشَّرق ما يقابلها غير الافتخار بالأسلاف، وذلك حجَّة عليه، والغرور بالدّين خلافاً للدّين، فالمسلمون يقابلون تلك القوات بما يُقال عند اليأس وهو: ﴿حسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل﴾، ويخالفون أمر القرآن لهم بأن يُعِدّوا ما استطاعوا من قوَّة، لا ما استطاعوا من صلاةٍ وصوم.

وكأني بسائلكم يقول: هل بعد اجتماع هذه القوات في الغرب واستيلائه على أكثر الشَّرق من سبيل لنجاة البقية؟ فأجيب قاطعاً غير متردِّد: إنَّ الأمر مقدور ولعلَّه ميسور. ورأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد. وأنْ يكتب الناشئون على جباههم عشر كلمات، وهي:

١- ديني ما أُظهر وما أُخفي.

٢- أكون؛ حيثُ يكون الحقُّ ولا أبالي.

٣- أنا حرٌّ وسأموت حرّاً.

٤- أنا مستقلٌّ لا أتّكل على غير نفسي وعقلي.

٥- أنا إنسان الجدّ والاستقبال، لا إنسان الماضي والحكايات.

٦- نفسي ومنفعتي قبل كلِّ شيء.

٧- الحياة كلُّها تعبٌ لذيذ.

٨- الوقت غالٍ عزيز.

٩- الشَّرف في العلم فقط.

١٠- أخاف الله لا سواه.

"وأنت أيها الوطن المحبوب: أنت العزيز على النفوس، المقدَّس في القلوب، إليك تحنُّ الأشباح وعليك تئنُّ الأرواح... أيها الوطن الباكي ضعافه: عليك تبكي العيون، وفيك يحلو المنون. إلى متى يعبث خلالك اللئام الطّغام؟ يظلمون بنيك ويذلُّون ذويك. يطاردون أنجالك الأحباب ويمسكون على المساكين الطُّرق والأبواب، يُخرجون العمران ويُقفرون الدّيار؟.

أيهـا الـوطن العزيـز: هـل ضـاعت رحابـك عـن أولادك؟ أم ضـاقت أحضانك عن أفلاذك؟... كلا؛ إنَّما فقدت الأُباة، فقدت الحُماة، فقدت الأحرار.
أيها الوطن الملتهب فؤاده: أما رويت من سُقيا الدموع والدِّماء؟ ولكنْ؛ دموع بناتك الثاكلات ودماء أبنائك الأبرياء، لا دموع النادمين ولا دماء الظالمين. ألا فاشرب هنيئاً ولا تأسف على البُلْهِ الخاملين، ولا تحزن، فما هم كرائماً وكراماً، لسْنَ هنَّ كرائماً باكيات محمسات، وليسوا هم كراماً أعزَّة شهداء، إنَّما هم -غفر الله لهم- من علمت، قلَّ فيهم الحرُّ الغيور، قلَّ فيهم من يقول أنا لا أخاف الظالمين.

أيها الوطن الحنون: كَوَّنَ الله عناصر أجسامنا منك، وجعل الأمهات حواضن، ورزقنا الغذاء منك، وجعل المرضعات مجهزات، نعم؛ خلقنا الله منك فحقَّ لك أن تحبَّ أجزاءك وأن تحنَّ على أفلاذك. كما يحقّ لكفي شرع الطبيعة أنْ لا تحبَّ الأجنبي الذي يأبى طبعه حبَّك، الذي يؤذيك ولا يواليك، ويزاحم بنيك عليك ويشاركهم فيك، وينقل إلى أرضه ما في جوفك من نفيس العناصر وكنوز المعادن، فيفقرك ليغني وطنه، ولا لوم عليه، بل بارك الله فيه!".

"يا قومُ: جعلكم الله خيرة اليوم وعدَّة الغد، هذا خطابي إليكم فيما هو الترقّي وما هو الانحطاط، فإن وعيتم ولو شذرات، فيا بشراي والسلام عليكم، وإلا فيما[1] ضياع الأنفس، وعلى الرَّفاه السلام".

الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالأمَّة إلى غاية أن تموت، ويموت هو معها، كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه، أما بلوغ الترقّي بالأمم إلى المرتبة القصوى السّامية التي تليق بالإنسانية، فهذا لم يسمح الزمان حتَّى الآن بأمَّةٍ تصلح مثالاً له، لأنَّه إلى الآن لم توجد أمَّة حكمت نفسها برأيها العام حُكماً لا يشوبه نوعً من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام، أو بنوعٍ من

(١) في (ط.ق): (فيا) وهي الأَوْلَى.

الإغفال ولو ببذر الشِّقاق الديني أو الجنسي بين الناس.

فكأنَّ الحكمة الإلهية لم تزل ترى البشر غير متأهِّلين لنوال سعادة الأخوة العمومية بالتحابب بين الأفراد، والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات. نعم؛ وُجد للترقّي القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة، كالجمهورية الثانية للرومان، وكعهد الخلفاء الراشدين، وكالأزمنة المتقطِّعة في عهد الملوك المنظّمين لا الفاتحين مثل أنوشروان وعبد الملك الأموي[1] ونور الدين الشَّهيد وبطرس الكبير. وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفَّقة لأحكام التقييد الموجودة في هذا الزَّمان. وإنّي أقتصر على وصف منتهى الترقّي الذي وصلت إليه تلك الأمم وصفاً إجمالياً، واترك للمطالع أن يوازنها ويقيس عليها درجات سائر الأمم.

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في أرض الاستبداد، الذي لم يدرس أحوال الأمم في الوجود، ولا عتب عليه فإنَّه كالمولود أعمى لا يُدرك للمناظر البهية معنى.

قد بلغ الترقّي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة، لأنْ يعيش الإنسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته الأديان لأهل السعادة في الجنان. حتى إنَّ كلَّ فردٍ يعيش كأنه خالدٌ بقومه ووطنه، وكأنه أمينٌ على كلِّ مطلب، فلا هو يكلِّف الحكومة شططاً ولا هي تهمله استحقاراً:

١- أمينٌ على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن محافظته بكلِّ قوتها في حضره وسفره بدون أن يشعر بثقل قيامها عليه، فهي تحيط به إحاطة الهواء، لا إحاطة السور يلطمه كيفما التفت أو سار.

---

(١) عبد الملك بن مروان (٢٦ – ٨٦ هـ، ٦٤٦ – ٧٠٥ م) خامس الخلفاء الأمويين (٦٦ – ٨٦ هـ، ٦٨٥ – ٧٠٥ م) أحسن إدارة الدّولة، وارتفع بنفسه فوق الأحزاب القبلية. بدأت في عهده حركة تعريب الدواوين، كما أُقيمت دور لِسَكّ العملة.

٢- أمينٌ على الملذَّات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة، المتعلِّقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يرى أنَّ الطرقات المسهلة، والتزيينات البلدية، والمتنزهات، والمنتديات، والمدارس، والمجامع، ونحو ذلك، قد وُجِدت كلُّها لأجل ملذّاته، ويعتبر مشاركة الناس له فيها لأجل إحسانه، فهو بهذا النظر والاعتبار لا ينقص عن أغنى الناس سعادةً.

٣- أمينٌ على الحرية، كأنَّه خُلِق وحده على سطح هذه الأرض، فلا يعارضه معارض فيما يخصُّ شخصه من دينٍ وفكرٍ وعملٍ وأمل.

٤- أمينٌ على النفوذ، كأنَّه سلطانٌ عزيز، فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الأمة التي هو منها.

٥- أمينٌ على المزيّة، كأنَّه في أمَّةٍ يساوي جميع أفرادها منزلةً وشرفاً وقوةً، فلا يفضل هو على أحد ولا يفضل أحدٌ عليه، إلا بمزيّة سلطان الفضيلة فقط.

٦- أمينٌ على العدل، كأنَّه القابض على ميزان الحقوق، فلا يخاف تطفيفاً، وهو المثمّن فلا يحذر بخساً، وهو المطمئن على أنَّه إذا استحقَّ أن يكون ملكاً صار ملكاً، وإذا جنة جنايةً نال جزاءه لا محالة.

٧- أمينٌ على المال والملك، كأنَّ ما أحرزه بوجهه المشروع قليلاً كان أو كثيراً، قد خلقه الله لأجله فلا يخاف عليه، كما أنَّه تقلع عينه إنْ نظر إلى مال غيره.

٨- أمينٌ على الشف بضمان القانون، بنصرة الأمة، ببذل الدم، فلا يرى تحقيراً إلا لدى وجدانه، ولا يعرف طمعاً لمرارة الذُلِّ والهوان.

أما الأسير -ولا أُحزن المطالع بوصف حالته- فأكتفي بالقول: إنَّه لا يملك ولا نفسه، وغير أمينٍ حتى على عظامه في رمسه، إذا وقع نظره على المستبدِّ أو أحد من جماعته على كثرتهم يتعوَّذ بالله، وإذا مرَّ من قرب إحدى دوائر حكومته أسرع وهو يكرر قوله: «حمايتك يا ربّ، إنَّ هذا الدار، بئس

الدار، هي كالمجزرة كلٌّ من فيها إما ذابح أو مذبوح. إنَّ هذه الدار كالكنيف لا يدخله إلا المضطر».

وقد يبلغ الترقّي في الاستقلال الشخصي مع التركيب بالعائلة والعشيرة، أن يعيش الإنسان معتبراً نفسه من وجه غنياً عن العالمين، ومن وجه عضواً حقيقياً من جسمٍ حيٍّ هو العائلة، ثمَّ الأمَّة، ثمَّ البشر.

ويُنظر إلى انقسام البشر إلى أمم، ثم إلى عائلات، ثم إلى أفراد، وهو من قبيل انقسام الممالك إلى مدنٍ، وهي إلى بيوت، وهي إلى مرافق، وكما أنَّه لا بدَّ لكلِّ مرفقٍ من وظيفةٍ معينة يصلح لها وإلا كان بناؤه عبثاً يستحقُّ الهدم، كذلك أفراد الإنسان لا بدَّ أن يعدَّ كلٌّ منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته أولاً، ثمَّ حياة قومه ثانياً.

ولهذا يكون العضو الذي لا يصلح لوظيفة، أو لا يقوم بما يصلح له، حقيراً مهاناً. وكلُّ من يريد أن يعيش كَلاًّ على غيره، لا عن عجزٍ طبيعيٍّ، يستحقُّ الموت لا الشفقة، لأنهَّ كالدَّرن في الجسم أو كالزائد من الظُّفر يستحقان الإخراج والقطع، ولهذا المعنى حرَّمت الشرائع السماوية الملاهي التي ليس فيها ترويض، والسُّكر المعطِّل عن العمل عقلاً وجسماً، والمقامرة والرِّبا لأنهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه. وقد فضَّل الله الكنَّاس على الحجَّام وصانع الخبز على ناظم الشِّعر؛ لأنَّ صنعتهما أنفع للجمهور.

وقد يبلغ ترقّي التركيب في الأمم درجة أنْ يصير كلُّ فردٍ من الأمَّة مالكاً لنفسه تماماً، ومملوكاً لقومه تماماً. فالأمَّة التي يكون كلُّ فردٍ منها مستعداً لافتدائها بروحه وبماله، تصير تلك الأمَّة بحجَّة هذا الاستعداد في الأفراد، غنية عن أرواحهم وأموالهم.

الترقّي في القوة بالعلم والمال يتميَّز على باقي أنواع الترقّيات السالفة البيان تميُّز الرأس على باقي أعضاء الجسم، فكما أنَّ الرأس بإحرازه مركزية العقل، ومركزية أكثر الحواس، تميّز على باقي الأعضاء واستخدمها في

حاجاته، فكذلك الحكومات المنتظم يترقّى أفرادها ومجموعها في العلم والثروة، فيكون لهم سلطانٌ طبيعي على الأفراد أو الأمم التي انحطَّ بها الاستبداد المشؤوم إلى حضيض الجهل والفقر.

بقي علينا بحث الترقّي في الكمالات بالخصال والأثرة، وبحث الترقّي الذي يتعلق بالروح؛ أي بما وراء هذه الحياة، ويرقى إليه الإنسان على سُلَّم الرَّحمة والحسنات، فهذه أبحاث طويلة الذيل، ومنابعها حكميات الكتب السماوية ومدوّنات الأخلاق، وتراجم مشاهير الأمم.

وأكتفي بالقول في هذا النوع: إنَّه يبلغ بالإنسان مرتبة أن لا يرى لحياته أهمية إلا بعد درجات، فيهُمّه أملاً: حياة أمّه، ثمَّ امتلاك حريته، ثمَّ أمنه على شرفه، ثمَّ محافظته على عائلته، ثمَّ وقايته حياته، ثمَّ ماله، ثمَّ، وثمَّ... وقد تشمل إحساساته عالم الإنسانية كلِّه، كأنَّ قومه البشر لا قبيلته، ووطنه الأرض لا بلده، ومسكنه؛ حيث يجد راحته، لا يتقيَّد بجدران بيت مخصوص يستتر فيه ويفتخر به كما هو شأن الأُسراء.

وقد يترفَّع الإنسان عن الإمارة لما فيها من معنى الكبر، وعن التِّجارة لما فيها من التمويه والتبذُّل، فيرى الشرف في المحراث، ثمَّ المطرقة، ثمَّ القلم، ويرى اللذَّة في التجديد والاختراع، لا في المحافظة على العتيق، كأنَّ له وظيفة في ترقّي مجموع البشر.

وخلاصة القول: إنَّ الأمم التي يُسعدها جدُّها لتبديد استبدادها، تنال من الشَّرف الحسّي والمعنوي ما لا يخطر على فكر أُسراء الاستبداد. فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الأميرية برمَّتها، مكتفيةً في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة[1]. وهذه سويسرا يصادفها كثيراً أن لا يوجد في سجونها محبوسٌ واحد. وهذه أمريكا أثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد إلى مقام

(١) في الواقع أنَّ بلجيكا كانت في ذلك الوقت دولة استعمارية، وما كان يقوله الكواكبي إلا بسبب نهبها ثروات بلاد الكونغو الغنية بالمعادن والمحاصيل.

المتاع. وهذه اليابان أصبحت تستنزف قناطير الذهب من أوربا وأمريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع تراجم مؤلَّفاتها.

وقد تنال تلك الأمم حظّاً من الملذَّات الحقيقية، التي لا تخطر على فكر الأُسراء، كلذَّة العلم وتعليمه، ولذَّة المجد والحماية، ولذَّة الإثراء والبذل، ولذَّة إحراز الاحترام في القلوب، ولذَّة نفوذ الرأي الصائب، ولذَّة الحبِّ الطاهر، إلى غير هذه الملذَّات الروحية. وأمَّا الأسراء والجهلاء فملذَّاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في المطاعم والمشارب واستفراغ الشهور، كأنَّ أجسامهم ظروف تُملأ وتُفرغ، أو هي دمامل تولد الصديد وتدفعه.

وأنفع ما بلغه الترقّي في البشر؛ هو إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة ببنائهم سدّاً متيناً في وجه الاستبداد، والاستبداد جرثومة كلِّ فساد، وبجعلهم ألاّ قوة ولا نفوذ فوق قوة الشَّرع، والشَّرع هو حبل الله المتين. وبجعلهم قوَّة التشريع في يد الأمَّة، والأمَّة لا تجتمع على ضلال. وبجعلهم المحاكم تحاكم السُّلطان والصُّعلوك على السَّواء، فتحاكي في عدالتها الكبرى الإلهية. وبجعلهم العمال لا سبيل لهم على تعدّي حدود وظائفهم، كأنهم ملائكة لا يعصون أمراً، وبجعلهم الأمَّة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها، لا تغفل طرفة عين، كما أنَّ الله –عزَّ وجلّ– لا يغفل عمَّا يفعل الظالمون.

هذا مبلغ الترقّي الذي وصلت إليه الأمم منذ عُرِف التاريخ، على أنَّه لم يقم دليل إلى الآن على ترقّي البشر في السعادة الحيوية عمّا كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية، حتّى منذ كانوا عراةً يسرحون أسراباً، والآثار المشهودة لا تدلُّ على أكثر من ترقّي العلم والعمران؛ وهما آلتان كما يصلحان للإسعاد، يصلحان للإشقاء، وترقِّيها هو من سُنَّة الكون التي أرادها الله تعالى لهذه الأرض وبنيها، ووصف لنا ما سيبلغ إليه ترقّي زينتها واقتدار أهلها بقوله عزَّ شأنه: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زُخرفها وازَّينت وظنَّ أهلها أنهم قادرون

عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس﴾[1]. وهذا يدلُّ على أنَّ الدنيا وبنيها لم يزالا في مقتبل الترقّي، ولا يعارض هذا أنَّ ما مضى من عمرها هو أكثر مما بقي حسبما أخبرت به الكتب السماوية، لأنَّ العمر شيء، والترقّي شيءٌ آخر.

(١) يونس: ٢٤.

الاستبداد والتخلُّص منه

ليس لنا مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعي، ولا برهان أقوى من الاستقراء، من تتبَّعهما يرى أنَّ الإنسان عاش دهراً طويلاً في حالة طبيعية تسمَّى "دور الافتراس"، فكان يتجوَّل حول المياه أسراباً تجمعه حاجة الحضانة صغيراً، وقصد الاستئناس كبيراً، ويعتمد في رزقه على النبات الطبيعي وافتراس ضعاف الحيوان في البرِّ والبحر، وتسوسه الإرادة فقط، ويقوده من بنيته أقوى إلى حيثُ يكثر الرزق.

ثم ترقَّى الكثير من الإنسان إلى الحالة البدوية التي تسمّى "دور الاقتناء": فكان عشائر وقبائل، يعتمد في رزقه على ادِّخار الفرائس إلى حين الحاجة، فصارت تجمعه حاجة التحفُّظ على المال العام والأنعام، وحماية المستودعات والمراعي والمياه من المزاحمين، ثمَّ انتقل -ولا يُقال ترقّى- قسم كبير من الإنسان إلى المعيشة الحضرية: فسكن القرى يستنبت الأرض الخصبة في معاشه، فأخصب، ولكن؛ في الشقاء، ولعلَّه استحقَّ ذلك بفعله؛ لأنَّه تعدَّى قانون الخالق، فإنَّه خلقه حرّاً جوّالاً، يسير في الأرض، ينظر آلاء الله، فسكنَ، وسكن إلى الجهل والذُّلّ، وخلق الله الأرض مباحةً، فاستأثر بها، فسلَّط الله عليه من يغصبها منه ويأسره. وهذا القسم يعيش بلا جامعة، تحكمه أهواء أهل المدن وقانونه: أن يكون ظالماً أو مظلوماً.

ثمَّ ترقّى قسم من الإنسان إلى التصرُّف إمّا في المادة وهم الصُّناع، وإمَّا في النظريات وهم أهل المعارف والعلوم. وهؤلاء المتصرِّفون هم سكان المدن الذين هم إنْ سجنوا أجسامهم بين الجدران، لكنهم أطلقوا عقولهم في الأكوان، وهم قد توسَّعوا في الرِّزق كما توسَّعوا في الحاجات، ولكنَّ أكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة الجمعيات الكبرى. وهذا هو سبب تنوُّع أشكال الحكومات وعدم استقرار أمَّةٍ على شكل مُرضٍ عام. إنَّما كلُّ الأمم

فـي تقلُّبـاتٍ سياسـية علـى سـبيل التجريـب، وبحسـب تغلُّـب أحـزاب الاجتهـاد أو رجال الاستبداد.

وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين، والميدان الذي قلَّ في البشر من لا يجول فيه على فيل من الفكر، أو على جملٍ من الجهل، أو على فرسٍ من الفراسة، أو على حمارٍ من الحُمْق، حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار الممتطي في التدقيق مراكب البخار. فقرر بعض قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب، وحصحص فيها الحقّ اليقين، فصارت تُعَدُّ من المقررات الاجتماعية عند الأمم المترقية، ولا يعارض ذلك كون الأمم لم تزل أيضاً منقسمة إلى أحزاب سياسية يختلفون شيعاً؛ لأنَّ اختلافهم هو في وجوه تطبيق تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية.

وهذه القواعد التي قد صارت قضايا بديهية في الغرب، لم تزل مجهولة أو غريبة، أو منفوراً منها في الشرق؛ لأنَّها عند الأكثرين منهم لم تطرق سمعهم، وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم، وعند آخرين لم تحز قبولاً؛ لأنَّهم ذوو غرض، أو مسروقة قلوبهم، أو في قلوبهم مرض.

وإنّي أطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلَّق بها الحياة السياسية. وقبل ذلك أذكِّرهم بأنَّه قد سبق في تعريف الاستبداد بأنَّه: "هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمَّة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم". كما أستلفت نظرهم إلى أنَّه لا يوثق بوعد من يتولى السُّلطة أياً كان، ولا بعهده ويمينه على مراعاة الدين، والتقوى، والحق، والشرف، والعدالة، ومقتضيات المصلحة العامة، وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على لسان كلِّ برٍّ وفاجر. وما هي في الحقيقة إلا كلامٌ مبهم فارغ؛ لأنَّ المجرم لا يعدم تأويلاً؛ ولأنَّ من طبيعة القوة الاعتساف؛ ولأنَّ القوة لا تُقابل إلا بالقوة.

ثمَّ فلنرجع للمباحث التي أريد طرحها لتدقيق المطالعين، وهي:

١- مبحث ما هي الأمَّة؛ أي الشَّعب:

هل هي ركامُ مخلوقاتٍ نامية، أو جمعية، عبيدٌ لمالكٍ متغلِّب، وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كُرهاً؟ أم هي جمعٌ بينهم روابط دين أو جنس أو لغة، ووطن، وحقوق مشتركة، وجامعة سياسية اختيارية، لكلِّ فردٍ حقٌّ إشهار رأيه فيها توفيقاً للقاعدة الإسلامية التي هي أسمى وأبلغ قاعدة سياسية، وهي: "كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيِّته".

٢- مبحث ما هي الحكومة:

هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع، يتصرَّف في رقابهم، ويتمتَّع بأعمالهم ويفعل بإرادته ما يشاء؟ أم هي وكالة تُقام بإرادة الأمَّة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العمومية؟.

٣- مبحث ما هي الحقوق العمومية:

هل هي آحاد الملوك، ولكنها تُضاف للأمم مجازاً؟ أم بالعكس، هي حقوق جموع الأمم، وتُضاف للملوك مجازاً، ولهم عليها ولاية الأمانة والنّظارة على مثل الأراضي والمعادن، والأنهر والسواحل، والقلاع والمعابد، والأساطيل والمعدات، وولاية الحدود، والحراسة على مثل الأمن العام، والعدل والنظام، وحفظ وصيانة الدين والآداب، والقوانين والمعاهدات والاتِّجار، إلى غير ذلك مما يحقُّ لكلِّ فردٍ من الأمَّة أن يتمتع به وأنْ يطمئن عليه؟

٤- مبحث التساوي في الحقوق:

هل للحكومة التصّرف في الحقوق العامة المادية والأدبية كما تشاء

بذلاً وحرماناً؟ أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع، وتكون المغانم والمغارم العمومية موزَّعة على الفصائل والبلدان والصنوف والأديان بنسبةٍ عادلة، ويكون الأفراد متساوين في حقِّ الاستنصاف؟

٥- مبحث الحقوق الشخصية:

هل الحكومة تملك السيطرة على الأعمال والأفكار؟ أم أفراد الأمة أحرار في الفكر مطلقاً، وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي؛ لأنَّهم أدرى بمنافعهم الشخصية، والحكومة لا تتداخل إلا في الشؤون العمومية؟

٦- مبحث نوعية الحكومة:

هل الأصلح هي الملكية المطلقة من كلِّ زمام؟ أم الملكية المقيَّدة؟ وما هي القيود؟ أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة، أو المؤقَّتة إلى أجل؟ وهل تُنال الحاكمية بالوراثة، أو العهد، أو الغلبة؟ وهل يكون ذلك كما تشاء الصُّدفة، أم مع وجود شرائط الكفاءة، وما هي تلك الشرائط؟ وكيف يصير تحقيق وجودها؟ وكيف يراقب استمرارها؟ وكيف تستمرُّ المراقبة عليها؟.

٧- مبحث ما هي وظائف الحكومة:

هل هي إدارة شؤون الأمة حسب الرأي والاجتهاد؟ أم تكون مقيَّدة بقانون موافق لرغائب الأمة وإنْ خالف الأصلح؟ وإذا اختلفت الحكومة مع الأمَّة في اعتبار الصالح والمضرّ، فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة؟

٨- مبحث حقوق الحاكمية:

هل للحكومة أن تخصِّص بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة،

ورواتب المال، وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الأمة وأموالها؟ أم يكون التَّصرف في ذلك كلِّه إعطاءً وتحديداً ومنعاً منوطاً بالأمة؟

٩- مبحث طاعة الأمة للحكومة:

هل الإرادة للأمَّة، وعلى الحكومة العمل؟ أم للإرادة للحكومة وعلى الأمَّة الطاعة؟ وهل للحكومة تكليف الأمَّة طاعةً عمياء بلا فهم ولا اقتناع؟ أم عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والإذعان لتتأتَّى الطاعة بإخلاص وأمانة؟

١٠- مبحث توزيع التكليفات:

هل يكون وضع الضرائب مفوَّضاً لرأي الحكومة؟ أم الأمَّة تقرِّر النفقات اللازمة وتعيِّن موارد المال، وتُرتِّب طرائق جبايته وحفظه؟.

١١- مبحث إعداد المَنَعة:

هل يكون إعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعداداً للدفاع مفوضاً لإرادة الحكومة إهمالاً، أو إقلالاً، أو إكثاراً، أو استعمالاً على قهر الأمَّة؟ أم يلزم أن يكون ذلك برأي الأمَّة وتحت أمرها؛ بحيث تكون القوة منفِّذة رغبة الأمة لا رغبة الحكومة؟

١٢- مبحث المراقبة على الحكومة:

هل تكون الحكومة لا تُسأل عما تفعل؟ أم يكون للأمة حقُّ السيطرة عليها؛ لأنَّ الشأن شأنها، فلها أن تُنبت عنها وكلاء لهم حقُّ الاطِّلاع على كلِّ شيء، وتوجيه المسؤولية على أيٍّ كان، ويكون أهم وظائف النواب حفظ الحقوق الأساسية المقررة للأمة على الحكومة؟

١٣- مبحث حفظ الأمن العام:

هل يكون الشخص مكلَّفاً بحراسة نفسه ومتعلَّقاته؟ أم تكون الحكومة مكلَّفة بحراسته مقيماً ومسافراً حتى من بعض طوارئ الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض؟

١٤- مبحث حفظ السُّلطة في القانون:

هل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهي على الأفراد برأيها؛ أي بدون الوسائط القانونية؟ أم تكون السُّلطة منحصرة في القانون، إلا في ظروف مخصوصة ومؤقَّتة؟

١٥- مبحث تأمين العدالة القضائية:

هل يكون العدل ما تراه الحكومة؟ أم ما يراه القضاة المصون وجدانهم من كلِّ مؤثِّر غير الشرع والحق، ومن كلِّ ضغطٍ حتى ضغط الرأي العام؟

١٦- مبحث حفظ الدين والآداب:

هل يكون للحكومة -ولو القضائية- سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر؟ أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين، والجنسية، واللغة، والعادات، والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما أغنت الزواجر، ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تُنتَهَك حرمته؟ وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية؟ أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام، كالإدارة العرفية عقب الفتح؟

١٧- مبحث تعيين الأعمال بالقوانين:

هل يكون في الحكومة -من الحاكم إلى البوليس- من يُطلَق له عنان التَّصرف برأيه وخبرته؟ أم يلزم تعيين الوظائف، كليّاتها وجزئياتها، بقوانين

صريحة واضحة، لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة، إلا في حالات الخطر الكبير؟

١٨- مبحث كيف توضع القوانين:

هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الأكبر، أو رأي جماعة ينتخبهم لذلك؟ أم يضع القوانين جمعٌ منتخبٌ من قبل الكافّة ليكونوا عارفين حتماً بحاجات قومهم وما يُلائم طبائعهم ومواقعهم وصوالحهم، ويكون حكمه عاماً أو مختلفاً على حسب تخالف العناصر والطبائع وتغير الموجبات والأزمان؟

١٩- مبحث ما هو القانون وقوَّته:

هل القانون هو أحكام يحتجُّ بها القوي على الضعيف؟ أم هو أحكام منتزعة من روابط الناس بعضهم ببعض، وملاحظٌ فيها طبائع أكثرية الأفراد، ومن نصوص خالية من الإبهام والتعقيد وحكمها شامل كلّ الطبقات، ولها سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثِّرات الأغراض، والشفاعة، والشفقة، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للأمَّة فيكون محترماً عند الكافّة، مضمون الحماية من قِبَل أفراد الأمة؟

٢٠- مبحث توزيع الأعمال والوظائف:

هل يكون الحظُّ في ذلك مخصوصاً بأقارب الحاكم وعشيرته ومقرَّبيه؟ أم توزَّع كتوزيع الحقوق العامَّة على كافَّة القبائل والفصائل، ولو مناوبة مع ملاحظات الأهمية والعدد؛ بحيث يكون رجال الحكومة أنموذجاً من الأمَّة، أو هم الأمَّة مصغَّرة، وعلى الحكومة إيجاد الكفاءة والأعداد ولو بالتعليم الإجباري؟

٢١- مبحث التفريق بين السُّلطات السياسية والدينية والتعليم:

هل يُجمع بين سلطتين أو ثلاث في شخصٍ واحد؟ أم تُخصَّص كلُّ وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بإتقان، ولا إتقان إلا بالاختصاص، وفي الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية: ﴿ما جعل اللهُ لرجلٍ قلبين في جوفه﴾[1]، ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة.

٢٢- مبحث الترقّي في العلوم والمعارف:

هل يُترَك للحكومة صلاحية الضَّغط على العقول كي يقوى نفوذ الأمَّة عليها؟ أم تُحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عمومياً بالتشويق والإجبار، وبجعل الكمالي سهلاً للمتناول، وجعل التعليم والتعلُّم حرّاً مطلقاً؟

٢٣- مبحث التوسُّع في الزراعة والصنائع والتجارة:

هل يُترك ذلك للنشاط المفقود في الأمَّة؟ أم تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الأمم السَّائرة، ولا سيما المزاحمة والمجاورة، كيلا تهلك الأمَّة بالحاجة لغيرها أو تضعف بالفقر؟

٢٤- مبحث السَّعي في العمران:

هل يُترك ذلك لإهمال الحكومة المميت لعزَّة نفس السُّكان، أو لانهماكها فيه إسرافاً وتبذيراً؟ أم تحمل على اتِّباع الاعتدال المتناسب مع الثورة العمومية؟

٢٥- مبحث السَّعي في رفع الاستبداد:

(١) الأحزاب: ٤.

هل يُنتظر ذلك من الحكومة ذاتها؟ أم نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعاً لا يترك مجالاً لعودته، من وظيفة عقَلاء الأمة وسراتها؟

هذه خمسة وعشرون مبحثاً، كلٌّ منها يحتاج إلى تدقيقٍ عميق، وتفصيلٍ طويل، وتطبيق على كلِّ الأحوال والمقتضيات الخصوصية. وقد ذكرتُ هذه المباحث تذكرةً للكُتَّاب ذوي الألباب وتنشيطاً للنُّجباء على الخوض فيها بترتيب، اتِّباعاً لحكمة إتيان البيوت من أبوابها. وإني أقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الأخير منها فقط؛ أعني مبحث السَّعي في رفع الاستبداد، فأقول:

١- الأمَّة التي لا يشعر كلُّها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقُّ الحريّة.

٢- الاستبداد لا يقاوَم بالشِّدة إنما يُقاوم باللين والتدرُّج.

٣- يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ما يُستَبدَل به الاستبداد.

هذه قواعد رفع الاستبداد، وهي قواعد تُبعد آمال الأسراء، وتسرُّ المستبدّين؛ لأنَّ ظاهرها يؤمنِّهم على استبدادهم. ولهذا أذكِّر المستبدّين بما أنذرهم الفياري[(١)] المشهور؛ حيثُ قال: "لا يفرحنَّ المستبدُّ بعظيم قوَّته ومزيد احتياطه، فكم جبّارٍ عنيدٍ جُنِّد له مظلومٌ صغير"، وإني أقول: كم من جبّار قهّار أخذه الله أخذ عزيزٍ منتقم.

مبنى قاعدة كون الأمَّة التي لا يشعر أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقُّ الحريّة هو:

إنَّ الأمَّة إذا ضُرِبَت عليها الذِّلَّة والمسكنة، وتوالت على ذلك القرون والبطون، تصير تلك الأمَّة سافلة الطِّباع حسبما سبق تفصيله في الأبحاث

(١)فيتوريو الفياري (١٧٤٩ – ١٨٠٣ م) شاعر إيطالي، ولد في استي من أعماله: ماهو الاستبداد؟ (١٧٧٧)، مسرحية ساول (١٧٨٢) بروتوس الثاني (١٧٨٩).

السَّالفة، حتى إنَّها تصير كالبهائم، أو دون البهائم، لا تسأل عن الحرية، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة، أو للنظام مزية، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها، أحسنَ أو أساء على حدٍّ سواء، وقد تنقم على المستبدِّ نادراً، ولكنْ، طلباً للانتقام من شخصه لا طلباً للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئاً، إنما تستبدل مرضاً بمرض؛ كمغصٍ بصداع.

وقد تقاوم المستبدَّ بسَوق مستبدٍّ آخر تتوسَّم فيه أنَّه أقوى شوكةً من المستبدِّ الأول، فإذا نجحت لا يغسل هذا السائق يديه إلا بماء الاستبداد، فلا تستفيد أيضاً شيئاً، إنما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض حديث[1]، وربما تُنال الحرية عفواً، فكذلك لا تستفيد منها شيئاً؛ لأنَّها لا تعرف طعمها، فلا تهتمُّ بحفظها، فلا تلبث الحرية أن تنقلب إلى فوضى، وهي إلى استبدادٍ مشوَّش أشدُّ وطأةً كالمريض إذا انتكس[2]. ولهذا؛ قرَّر الحكماء أنَّ الحرية التي تنفع الأمَّة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، وأمَّا التي تحصل على أثر ثورةٍ حمقاء فقلّما تفيد شيئاً؛ لأنَّ الثورة –غالباً– تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن تنبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت أولاً.

فإذا وُجِد في الأمَّة الميتة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولاً: أن يبثَّ فيها الحياة وهي العلم؛ أي علمها بأنَّ حالتها سيئة، وإنَّما بالإمكان تبديلها بخيرٍ منها، فإذا هي علمت بطبعه من الآحاد إلى العشرات، إلى إلى...، حتى يشمل أكثر الأمَّة، وينتهي بالتحمُّس ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المعرّي:

إذا لم تقُم بالعدل فينا حكومةٌ ... فنحن على تغييرها قُدَراء[3]

(١) في (ط.ق): جديد.

(٢) حتَّى هنا تنتي هذه القاعدة في (ط.ق)، وكُلُّ ما يرد بعد ذلك هو إضافة جديدة خلال الصفحتين الآتيتين.

(٣) بيت المعري من البحر الطويل.

وهكذا ينقذف فِكرُ الأمَّة في وادٍ ظاهر الحكمة يسير كالسيل، لا يرجع حتى يبلغ منتهاه.

ثمَّ إنَّ الأمم الميتة لا يندر فيها ذو الشَّهامة، إنما الأسف أنْ يندر فيها من يهتدي في أوَّل نشأته إلى الطريق الذي به يحصل على المكانة التي تمكِّنه في مستقبله من نفوذ رأيه في قومه. وإنِّي أنبِّه فكر الناشئة العزيزة أنَّ من يرى منهم في نفسه استعداداً للمجد الحقيقي فليحرص على الوصايا الآتية البيان:

١- أن يجهد في ترقية معارفه مطلقاً لا سيما في العلوم النّافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية، وتاريخ قومه الجغرافي والطبيعي والسياسي، والإدارة الحربية، فيكتسب من أصول وفروع هذه الفنون ما يمكنه إحرازه بالتلقِّي، وإن تعذَّر فبالمطالعة مع التدقيق.

٢- أن يتقن أحد العلوم التي تكسبه في قومه موقعاً محترماً وعلمياً مخصوصاً؛ كعلم الدين والحقوق أو الإنشاء أو الطبّ.

٣- أن يحافظ على آداب وعادات قومه غاية المحافظة ولو أنَّ فيها بعض أشياء سخيفة.

٤- أن يقلل اختلاطه مع الناس حتى رفقائه في المدرسة، وذلك حفظاً للوقار وتحفُّظاً من الارتباط القوي مع أحد كيلا يسقط تبعاً لسقوط صاحبٍ له.

٥- أن يتجنَّب كليّاً مصاحبة الممقوت عند الناس لا سيما الحكّام ولو كان ذلك المقت بغير حقّ.

٦- أن يجتهد ما أمكنه في كتم مزيّته العلمية على الذين هم دونه في ذلك العلم لأجل أن يأمن غوائل حسدهم، إنما عليه أن يظهر مزيّته لبعض من هم فوقه بدرجاتٍ كثيرة.

٧- أن يتخيَّر له بعض من ينتمي إليه من الطبقة العليا، بشرط: أنْ لا يُكثر التردد عليه، ولا يشاركه شؤونه، ولا يظهر له الحاجة، ويتكتَّم في نسبته إليه.

٨- أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه وإلا يؤخذ عليه تبعة رأي يراه أو خبرٍ يرويه.

٩- أن يحرص على أن يُعرف بحسن الأخلاق، لا سيما الصّدق والأمانة والثبات على المبادئ.

١٠- أن يُظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن.

١١- أن يتباعد ما أمكنه من مقاربة المستبدّ وأعوانه إلا بمقدار ما يأمن به فظائع شرِّهم إذا كان معرَّضاً لذلك.

فمن يبلغ سنَّ الثلاثين فما فوق حائزاً على الصفات المذكورة، يكون قد أعدَّ نفسه على أكمل وجه لإحراز ثقة قومه عندما يريد في برهة قليلة، وبهذه الثِّقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز. وما ينقصه من هذه الصِّفات يُنقص من مكانته، ولكنْ؛ قد يستغني بمزيد كمال بعضها عن فقدان بعضها الآخر أو نقصه. كما أنَّ الصِّفات الأخلاقية قد تكفي في بعض الظروف عن الصفات العلمية كلّها ولا عكس، وإذا كان المتصدّي للإرشاد السياسي فاقد الثِّقة فقداناً أصلياً أو طارئاً، يمكنه أن يستعمل غيره ممن تنقصه الجسارة والهمّة والصفات العلمية.

والخلاصة: أنَّ الراغب في نهضة قومه، عليه أن يهيئ نفسه ويزن استعداده، ثمَّ يعزم متوكِّلاً على الله في خلق النَّجاح.

ومبنى قاعدة أنَّ الاستبداد لا يُقاوم بالشدة، إنما يُقاوم بالحكمة والتدريج هو: أنَّ الوسيلة الوحيدة الفعّالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقّي الأمَّة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس. ثمَّ إنَّ اقتناع الفكر العام وإذعانه إلى غير مألوفه، لا يتأتّى إلا في زمنٍ طويل، لأنَّ العوام مهما ترقّوا في الإدراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية إلا بعد التّروي المديد، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمسارعة؛ لأنَّهم ألِفوا أن لا يتوقعوا من

الرؤوساء والدُّعاة إلا الغشّ والخداع غالباً. ولهذا كثيراً ما يحبُّ الأُسراء المستبدَّ الأعظم إذا كان يقهر معهم بالسوية الرؤساء والأشراف، وكثيراً ما ينتقم الأُسراء من الأعوان فقط ولا يمسّون المستبدَّ بسوء؛ لأنَّهم يرون ظالمهم مباشرةً هم الأعوان دون المستبدِّ، وكم أحرقوا من عاصمة لأجل محضّ التشفّي بإضرار أولئك الأعوان.

ثمَّ إنَّ الاستبداد محفوفٌ بأنواعٍ القوات التي فيها قوّة الإرهاب بالعظمة وقوّة الجُند، لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس، وقوة المال، وقوة الإلفة على القسوة، وقوّة رجال الدين، وقوّة أهل الثروات، وقوّة الأنصار من الأجانب، فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يُقابَل بعصا الفكر العام الذي هو في أوَّل نشأته يكون أشبه بغوغاء، ومن طبع الفكر العام أنَّه إذا فار في سنة يغور في سنة، وإذا فار في يوم يغور في يوم. بناءً عليه؛ يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد المصحوبان بالحزم والإقدام.

الاستبداد لا ينبغي أن يُقاوَم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً. نعم؛ الاستبداد قد يبلغ من الشدَّة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً، فإذا كان في الأمَّة عقلاء يتباعدون عنها ابتداءً، حتى إذا سكنت ثورتها نوعاً وقضت وظيفتها في حصد المنافقين، حينئذٍ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسَّس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد، ولا علاقة لهم بالفتنة.

العوام لا يثور غضبهم على المستبدِّ غالباً إلا عقب أحوال مخصوصة مهيِّجة فورية، منها:

١- عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبدُّ على المظلوم يريد الانتقام لناموسه.

٢- عقب حرب يخرج منها المستبدُّ مغلوباً، ولا يتمكَّن من إلصاق عار التغلُّب بخيانة القوّاد.

٣- عقب تظاهر المستبدّ بإهانة الدّين إهانةً مصحوبةً باستهزاء يستلزم حدَّة العوام.

٤- عقب تضييق شديد عام مقاضاةً لمالٍ كثير لا يتيسَّر إعطاؤه حتّى على أواسط الناس.

٥- في حالة مجاعة أو مصيبة عامّة لا يرى الناس فيها مواساةً ظاهرة من المستبدّ.

٦- عقب عمل للمستبدِّ يستفزُّ الغضب الفوري، كتعرُّضه لناموس العرض، أو حرمة الجنائز في الشرق، وتحقيره القانون أو الشرف الموروث في الغرب.

٧- عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستجارة والاستنصار.

٨- عقب ظهور موالاة شديدة من المستبدِّ لمن تعتبره الأمَّة عدوّاً لشرفها.

إلى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذه الأحوال التي عندها يموج الناس في الشوارع والساحات، وتملأ أصواتهم الفضاء، وترتفع فتبلغ عنان السماء، ينادون: الحقّ الحقّ، الانتصار للحقّ، الموت أو بلوغ الحقّ.

المستبدُّ مهما كان غبياً لا تخفى عليه تلك المزالق، ومهما كان عتياً لا يغفل عن اتِّقائها، كما أنَّ هذه الأمور يعرفها أعوانه ووزراؤه.

فإذا وُجِد منهم بعض يريدون له التهلكة يهوّرونه على الوقوع في إحداها، ويُلصقونها به خلافاً لعادتهم في إبعادها عنه بالتمويه على الناس. إنَّ رئيس وزراء المستبدِّ أو رئيس قُوَّاده، أو رئيس الدِّين عنده، هم أقدر الناس على الإيقاع به، وهو يداريهم تحذُّراً من ذلك، وإذا أراد إسقاط أحدهم فلا يوقعه إلا بغتة.

لمثيري الخواطر على الاستبداد طرائق شتّى يسلكونها بالسّرّ، والبطء،

يستقرّون تحت ستار الدين، فيستنبتون غابة الثورة من بذرة أو بذورات يسقونها بدموعهم في الخلوات. وكم يلهون المستبدَّ بسوقه إلى الاشتغال بالفسوق والشَّهوات، وكم يغرونه برضاء الأمَّة عنه، ويجسِّرونه على مزيد التشديد، وكم يحملونه على إساءة التدبير، ويكتمونه الرُّشد، وكم يشوِّشون فكره بإرباكه مع جيرانه وأقرانه. يفعلون ذلك وأمثاله لأجل غاية واحدة، هي إبعاده عن الانتباه إلى سدِّ الطريق التي فيها يسلكون، أمَّا أعوانه، فلا وسيلة لإغفالهم عن إيقاظه غير تحريك أطماعهم المالية مع تركهم ينهبون ما شاؤوا أن ينهبوا.

ومبنى قاعدة أنَّه يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يُستبدل به الاستبداد هو: إنَّ معرفة الغاية شرطٌ طبيعي للإقدام على كلِّ عمل، كما أنَّ معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليها، والمعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً، بل لا بدَّ من تعيين المطلب والخطة تعييناً واضحاً موافقاً لرأيِّ الكلِّ، أو الأكثرية التي هي فوق الثلاثة أرباع عدداً أو قوة بأس وإلا فلا يتمّ الأمر، حيث إذا كانت الغاية مبهمة نوعاً، يكون الإقدام ناقصاً نوعاً، وإذا كانت مجهولة بالكليّة عند قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم، فهؤلاء ينضمّون إلى المستبدِّ، فتكون فتنةً شعواء، وإذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط، تكون حينئذٍ الغلبة في جانب المستبدِّ.

ثمَّ إذا كانت الغاية مبهمة ولم يكن السير في سبيلٍ معروف، ويوشك أن يقع الخلاف في أثناء الطريق، فيفسد العمل أيضاً وينقلب إلى انتقام وفتن. ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص وإشهارها بين الكافّة، والسعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها ما أمكن ذلك، بل الأَولى حمل العوام على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم. وهذا سبب عدم نجاح الإمام علي ومن وليه من أئمة آل البيت رضي الله عنهم، ولعلَّ ذلك كان منهم لا عن غفلة، بل

مقتضى ذلك الزمان من صعوبة المواصلات وفقدان البوستات[1] المنتظمة والنشريات المطبوعة إذ ذاك.

والمراد أنَّ من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أنْ يُستبدل بها الاستبداد، وليس هذا بالأمر الهيّن الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة آحاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة. وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يجوز أنْ يكون مقصوراً على الخواص، بل لا بدَّ من تعميمه وعلى حساب الإمكان ليكون بعيداً عن الغايات ومعضوداً بقبول الرأي العام.

وخلاصة البحث أنَّه يلزم أولاً تنبيه حسّ الأمَّة بآلام الاستبداد، ثمَّ يلزم حملها على البحث في القواعد الأساسية للسياسة المناسبة لها؛ بحيث يشغل ذلك أفكار كلِّ طبقاتها، والأولى أن يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين، بل عشرات السنين حتى ينضج تماماً، وحتى يحصل ظهور التلهّف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا، والتمنّي في الطبقات السفلى، والحذر كل الحذر من أن يشعر المستبد بالخطر، فيأخذ بالتحذُّر الشديد، والتنكيل بالمجاهدين، فيكثر الضجيج، فيزيغ المستبدُّ ويتكالب، فحينئذٍ إما أن تغتنم الفرصة دولة أخرى فتستولي على البلاد، وتجدِّد الأسر على العباد بقليلٍ من التعب، فتدخل الأمَّة في دورٍ آخر من الرقِّ المنحوس، وهذا نصيب أكثر الأمم الشرقية في القرون الأخيرة، وإمَّا أن يساعد الحظّ على عدم وجود طامع أجنبي، وتكون الأمَّة قد تأهَّلت للقيام بأن تحكم نفسها بنفسها، وفي هذه الحال يمكن لعقلاء الأمَّة أن يكلِّفوا المستبدَّ ذاته لترك أصول الاستبداد، واتِّباع القانون الأساسي الذي تطلبه الأمة. والمستبدُّ الخائر القوى لا يسعه عند ذلك إلا الإجابة طوعاً، وهذا أفضل ما يصادَف. وإن أصرَّ المستبدُّ على القوّة، قضوا بالزوال على

(١) جمع كلمة (بوستة): بريد، من الإيطالية عن اللاتينية بمعنى المركبة المسقوفة، استُعملت – بعد اختراع السيارات – للسيارة الكبيرة. واستُعملت قديماً للبريد لأنها آلة حمله. ويُسمّون مَنْ يشتغل بالبوسطة البوسطجي. والبوسطة: حاملة البريد ذات الأربعة من الأحصنة.

دولته، وأصبح كلٌّ منهم راعياً، وكلٌّ منهم مسؤولاً عن رعيته، وأضحوا آمنين، لا يطمع فيهم طامع، ولا يُغلبون عن قلّة، كما هو شأن كلِّ الأمم التي تحيا حياةً كاملة حقيقية، بناءً عليه؛ فليبصَّر العقلاء، وليتَّقِ الله المغرون، وليعلم أنَّ الأمر صعب، ولكن تصوُّر الصعوبة لا يستلزم القنوط، بل يثير همم الرجل الأشمّ.

ونتيجة البحث، أنَّ الله –جلَّت حكمته– قد جعل الأمم مسؤولة[١] عن أعمال من تُحكِّمه عليها. وهذا حقٌّ. فإذا لم تحسن أمّة سياسة نفسها أذلَّها الله لأمَّة أخرى تحكمها، كما تفعل الشرائع بإقامة القيّم على القاصر أو السفيه، وهذه حكمة. ومتى بلغت أمَّةٌ رشدها، وعرفت للحرية قدرها، استرجعت عزَّها، وهذا عدلٌ.

وهكذا لا يظلم ربُّك أحداً، إنما هو الإنسان يظلم نفسه، كما لا يذلُّ الله قط أمة عن قلّة، إنما هو الجهل يسبِّب كلَّ علَّة.

وإني أختم كتابي هذا بخاتمة بشرى، وذلك أنَّ بواسق العلم وما بلغ إليه، تدلُّ علىأنَّ يوم الله قريب. ذلك اليوم الذي يقلُّ فيه التفاوت في العلم وما يفيده من القوّة، وعندئذٍ تتكافأ القوات بين البشر، فتنحلُّ السلطة، ويرتفع التغالب، فيسود بين الناس العدل والتوادد، فيعيشون بشراً لا شعوباً، وشركات لا دولاً، وحينئذٍ يعلمون ما معنى الحياة الطيبة: هل هي حياة الجسم وحصر الهمّة في خدمته؟ أم حياة الروح وغذاؤها الفضيلة؟ ويومئذٍ يتسنّى للإنسان أن يعيش كأنَّه عالم مستقلٌّ خالد، كأنَّه نجمٌ مختصٌّ في شأنه، مشتركٌ في النظام، كأنَّه ملكٌ، وظيفته تنفيذ أوامر الرحمن الملهمة للوجدان.

تمَّ الكتاب بعونه تعالى[٢]

---

(١) في الأصل: مسئولة، على طريقة الرسم المستعمل في مصر.

(٢) في (ط.ق): بحمد الله وتوفيقه.

المصادر والمراجع

ـ الأفغاني، جمال الدين : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني مع دراسة عن الأفغاني الحقيقية الكاملة . تحقيق ودراسة محمد عمارة . القاهرة: المؤسسة المصرية العامة ؛ دار الكاتب العربي، ١٩٦٨ .

_ أنطونيوس، جورج . يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية . تقديم نبيه أمين فارس ؛ ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس . بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢ . ط٥ . بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٧٨ .

_ تابييرو، نوربير . الكواكبي المفكر الثائر . ترجمة علي سلامة . ط٢. بيروت : دار الآداب،١٩٨١. ط١ .١٩٥٤.

ـ جدعان، فهمي . أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩ .

ـ الحصري، ساطع . البلاد العربية والدولة العثمانية. ط١ . القاهرة: جامعة الدول العربية ؛ معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٧ . ط٣ . بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٦٥ .

. حمزة، محمد شاهين . عبد الرحمن الكواكبي : العبقرية الثائرة . القاهرة : المطبعة النموذجية ؛ منشورات المكتبة العالمية ومطبعتها، ١٩٥٨. (سلسلة أعلام الحرية)

ـ داية، جان . صحافة الكواكبي . بيروت : مؤسسة فكر، ١٩٨٤ . (سلسلة فجر النهضة ؛ ٢)

. الدهان، سامي . عبد الرحمن الكواكبي، ١٨٥٤-١٩٠٢ . القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤ .(نوابع الفكر العربي ؛ ٢٣)

في (مخ): تمَّ الكتاب.

ـ السحمراني، أسعد . الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتها عند الكواكبي والإبراهيمي . ط٢.بيروت : دار النفائس، ١٩٨٧ . ط . ١٩٨٤.

. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر . تاريخ الخلفاء تحقيق الرفاعي والعثماني . بيروت : دار القلم، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م .

ـ الشنقيطي، أحمد بن الأمين . الدرر اللوامع . ط٢. بيروت : دار المعرفة، ١٩٧٣ . ٢ ج .

. الطباخ، محمد راغب . إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . حلب : { د.ن.}، ١٩٢٦ . ٧ مج .

ـ طحّان، محمد جمال . الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي . دمشق : اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٢ .

ـ طحّان، محمد جمال . الأعمال الكاملة للكواكبي. دراسة وتحقيق. بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥.

ـ طرازي، فيليب دي . تاريخ الصحافة العربية . بيروت : المطبعة الأدبية، ١٩١٣-١٩٣٣ . ٤ مج . ج٢ .

. عبده، محمد . الأعمال الكاملة جمعها وحققها وقدم لها محمد عمارة. بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٧٢- ١٩٧٤. ٦ج.

ـ العجلوني إسماعيل بن محمد . كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس . أشرف على الطبع أحمد القلاش . ط٤ . بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م ٢.ج .

. العقاد، عباس محمود . الرحالة (كاف) عبد الرحمن الكواكبي . القاهرة : مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٥٩ .

. عمارة، محمد . العرب والتحدي الحضاري . الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠ .(سلسلة عالم المعرفة ؛ ٣٠)

ـ قلعجي، قدري . عبد الرحمن الكواكبي . بيروت : دار الشرق الجديد، ١٩٦٣ .(سلسلة أعلام الفكر العربي ؛ ٢٤)

ـ كتورة، جورج . طبائع الكواكبي في طبائع الاستبداد . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧.

ـ كرد علي، محمد . المذكرات . دمشق : مطبعة الترقي، ١٩٤٨- ١٩٤٩ . ٣ج .

ـ الكواكبي، عبد الرحمن . الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي . تحقيق ودراسة محمد عمارة . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ ؛ بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥ .

ـ أم القرى، وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ . طبعات مختلفة . وط حلب : المطبعة العصرية، ١٩٥٩ .

ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . طبعات مختلفة + مخطوطة. ط٢ . بيروت : نشر رياض كيالي ؛ دار القرآن الكريم، ١٩٧٣ . ط١ . ١٩٥٧ .

للمؤلّف

عشرة زمن يا آه	شعر	دار الثقافة (دمشق) نفد	١٩٨٥
الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي	دراسة	اتحاد الكتاب العرب (دمشق) نفد	١٩٩٢
مشاغبات فكرية	مقالات	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٤
الأعمال الكاملة للكواكبي	دراسة وتحقيق	مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) نفد	١٩٩٥
على هامش التجديد (من الكلامولوجيا إلى التكنولوجيا)	دراسة	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٦
هكذا تكلمت حورية	مقالات	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٧
شرفات للجمر (بالاشتراك)	شعر	دار المرساة (اللاذقية) نفد	١٩٩٨
صرخة الأسيان (إضاءة كواكبيّة)	دراسة	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٩
الحاضر غائباً (تأملات في الزمان)	مقولة	دار بترا (دمشق)	٢٠٠٠
أفكار غيّرت العالم	دراسة	دار الأوائل (دمشق)	٢٠٠١
أبو الضعفاء(عبدالرحمن الكواكبي)	سيرة قصصية	أبو ظبي نفد	٢٠٠١
اليهود والأوهام الصهيونية	دراسة	مكتبة الحياة (بيروت)	٢٠٠٢
المثقّف وديمقراطية العبيد	أبحاث	دار الأوائل – (دمشق)	٢٠٠٢
أم القرى	دراسة وتحقيق	دار الأوائل / جمعيةالعاديات	٢٠٠٢
الخديعة الكبرى	دراسة	دار الأوائل(دمشق)	٢٠٠٣
امنحوني فرصة للكلام	مقالات	دار الأوائل(دمشق)	٢٠٠٣
الرحالة كاف طبائع الاستبداد	دراسة وتحقيق	دار الأوائل(دمشق)	٢٠٠٣
الإصلاحات الدينية في عصرالنهضة	دراسة (بالاشتراك)	المعهد الفرنسي	٢٠٠٣
قراءات في الفكر العربي دراسات	بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)	٢٠٠٣
الشجرة المثمرة العالية	تحرير	دار اليازجي(دمشق)	٢٠٠٤
الاستبداد في نظم الحكم العربية	بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية	٢٠٠٥
رؤى المفكر النهضوي الكواكبي	تحرير	اتحدا الكتاب العرب– دمشق	٢٠٠٧
الكتاب الذهبي توثيق فعاليات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية	تحرير/بالاشتراك	الأمانة العامة لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية	٢٠٠٩
صنـّاع الحضارة	دراسة	دار صفحات – دمشق	٢٠١٠
دعاة معاصرون	دراسة	قيد النشر	٢٠١٤
المكتبات والتوثيق في الثقافة الاسلامية	تحرير	قيد النشر – كتاب الشهر – المجلة العربية	٢٠١٤



المؤلف في سطور

د.محمد جمال طحان
مواليد مدينة حلب ١٩٥٧
* دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس
*عضو اتحاد الكتاب العرب- عضو اتحاد الصحفيين.
* عضو رابطة الكتاب السوريين الأحرار.
*عضو رابطة الصحفيين السوريين الأحرار.
* أستاذ تاريخ الحضارة والفكر العربي الحديث في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (**info**).
* مستشار التحرير في مركز آفاق العرّاب الإعلامي في الرياض(٢٠١٢ ومايزال....)
*محرر في صحيفة تشرين (مكتب حلب) – مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر(٢٠٠٧- فصل عام ٢٠١١ إثر اعتقاله في المخابرات الجوية من ٢٠١١/٧/١٨حتى ٢٠١١/١٢/٢٣ .
*محرر في موقع ذاكرة وطن **Esyria (2007-2011**)
*مدير تحرير مجلة(العاديات) منذ صدورها ، رئيس لجان الثقافة والمعلوماتية والإعلام في جمعية العاديات(٢٠٠٣- ٢٠٠٨)
*مدير المركز الإعلامي لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية (٢٠٠٦ -٢٠٠٧)
* يسعى لإنجاز مجموعة من الأبحاث حول الثقافة والفكر العربي المعاصر.
* ألقى العديد من المحاضرات وشارك في بعض الندوات الفكرية حول مسائل معاصرة في عدد من الدول العربية والإسلامية .(الأردن- لبنان – المغرب- إيران- تركيا – الإمارات-مصر- اسبانيا – الجزائر- السعودية – ألمانيا – سورية ..
*له ثلاثة وثلاثون كتاباً مطبوعاً في الفكر والنقد والشعر والقصة. (في سورية ولبنان والمغرب والإمارات ...)
* نشر له ما ينيف عن ألف مادة بين الدراسة والنقد والقصة والشعر في الدوريات العربية المختلفة.

*مشرف على منتديات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية في مواقع كثيرة.
* أعدّ بعض البرامج الثقافية في إذاعة صوت الشعب من دمشق.
*أشرف على ملف اسبوعي في جريدة الجماهير بحلب تحت عنوان " قضايا فكرية وأعلام" (٢٠٠٠-٢٠٠٢م)
* المنسق العام لملتقيات القصة القصيرة جداً منذ عام (٢٠٠٢- ومايزال .
* نال بعض الجوائز المحلية والعربية، منها:
– جائزة الباسل التي تمنحها رئاسة مجلس مدينة حلب عن مجمل الأعمال (عام ٢٠٠٠).
– الجائزة الأولى في الشعر في مسابقة محافظة حلب (عام ٢٠٠٠).
– الجائزة الثانية عن السيرة القصصية في مسابقة ثقافة الطفل العربي (أبو ظبي) (عام٢٠٠٠).
*عضو في لجان تحكيم عدد من المسابقات) في الفكر والأدب .
* أمين عام جائزة الشيخ كامل الغزّي.للأبحاث التراثية .
*أمين عام جائزة الدكتور نعيم اليافي للأبحاث النقدية

E: jamaltahhan@gmail.com

الرياض ٠٥٥٣٣٦٨٤٦٨

كلمة الغلاف

عندما تتاح لشخص فرصة معاشرة الكواكبي من خلال كتاباته، يستطيع أن يشعر بآلامه وطموحاته وهو يكابد ويكافح لإنشاء صحيفته ثم يتفانى في العمل من أجل إخراج كل عدد من أعدادها، من خلال عمله محرراً ومشرفاً على الطباعة والإخراج والتوزيع، ثم يواجه زبانية السلطة الذين يحرمون التفكير لأنهم محرومون من العقول.

قد تختلف مع الكواكبي وقد تثني عليه ولكنك، في الأحوال كلها، لن تتمكن إلا أن تحبه.

رجل يخلص لذاته، أوّلاً، فيقوده ذلك إلى الإخلاص لأمّته.. يختار العمل الصعب ويتمتع به، لأنه اختار أن يدافع عن المقهورين، وأراد أن يرفع الوعي لدى أناس هدهم الاستبداد من خلال تعزيزه الجهل والتخلف والفقر..

قدّم الكواكبي لأمّته أقصى ما يستطيع ونجح في تحريك العقول، وما يزال معاصراً بدليل أننا نعيد إحياء أفكاره من جديد.

المؤلف